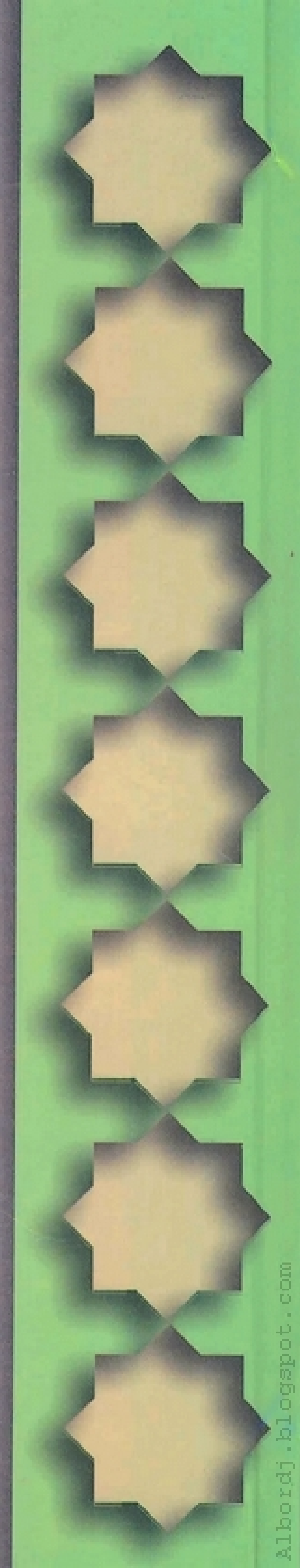


مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الأمير
عبد القادر الجزائري
وأدبه



الأستاذ عبد الرزاق بن السبع



تصديـر

الكتابة عن الأمير عبدالقادر الجزائري أشبه بمغامرة ولكنها مغامرة محببة ومرغوب فيها، فالاقتراب من الأمير ليس اقتراباً من شخص عادي يمكن رسم حدوده بسهولة، بل هو اقتراب من شخص غير محدود الأبعاد يجعل النظر والتفكير فيه متعباً، إنه رجل ولكنه يختصر في كيانه أمة بكاملها، ويوجز في حياته عصراً بأكمله، إن عبدالقادر يمتد في المكان ليسع الجزائر والمغرب وفرنسا والدولة العثمانية وبلاد الشام، ويمتد في الزمان ليعانق القرن التاسع عشر بأكمله، وهو يقف على مفصل العلاقة بين شرق يبدأ في اليقظة، وغرب قوي عدواني متوثب للهيمنة والاستغلال، إنه في مركز صراع الشرق والغرب الذي لا نزال نعاني منه حتى اليوم.

ومثل أي عظيم من العظماء لا تشكل حياة الأمير رافداً من روافد النشاط الإنساني تسهل الإحاطة به بل هي أشبه بمحيط يكلّ أمامه البصر: فهو سليل نسب رفيع، وفارس بارع، ومجاهد مظفّر، ورجل دولة حصيف، وشاعر ملتزم، وصوفي متبحر، وفقيه ملمّ، واجتماعي نشيط.

وعندما عزمت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري الإقدام على هذه المغامرة، وجدت في الدكتور عبدالرزاق بن السبع خير من يتحمل هذا العبء، ونحن على يقين أن الدكتور عبدالرزاق قد أعطى لهذا الموضوع المتشابك كل جهده وإمكاناته، فشكراً له على هذا التعب الخلاق. وأملنا أن يجد القارئ في هذا الكتاب صورة صادقة لرجل شغل عصره وما يزال يشغلنا حتى الآن.

والله من وراء القصد.

عبدالعزيز سعود البابطين

أغسطس ٢٠٠٠

مقدمـــــة

هذه صفحات يجمع بينها إعجاب بهذه الشخصية البطولية المجاهدة العالمة التي لم تنل حقها كاملا من البحث والدراسة والتقديم لقراء العربية إلا حـــــظ المضيم المظلوم وما كتب عنه بأقلام أجنبية كان أشد ظلما وافتراء ولا عجب في ذلك فعبدالقادر استطاع أن يدوخ فرنسا ويفقدها رشدها عقداً ونيفاً من الزمن ويجعلها تقر مكرهة – ولأول مرة – بوجود كيان وطني اسمه الجزائر.

والشعوب التي ابتليت بالاستعمار أحوج ما تكون الى التواصل حفظا لانتمائها وصونا لمقدساتها وأصالتها . والشعب الجزائري أولى بهذا فقد تحمل الكثير من الظلم والحيف ولعل أنكى صور هذا الظلم ما استهدف جانبه الروحي والحضاري وانتمائه العربي الإسلامي .

وبقدر المحنة كانت التضحية والبذل والعطاء . . وكان النصر، والوفاء الأكمل له أن تستكمل الجزائر ملامحها العربية الأصيلة فتمد يدها وفية أمينة لتاريخها وأمجادها .

والأمير عبدالقادر – ولا شك – رمز لهذا الانتماء وهده الأصالة وهذا المجد فحق له أن ينال من البحث والدراسة ما هو أجدر بشخصه كمجاهد وعالم وفقيه وأديب وصوفي خاصة في هذه الفترة التي تسعى فيها الجزائر لإعادة كتابة تاريخها بأقلام وطنية ربطا لحاضرها الواعد بماضيها الماجد وتعلقا وتشبثا بجذور قوميتها العربية الإسلامية .

ولقد أتيحت لي الفرصة للكتابة عن عبدالقادر حين شرفت من لدن مؤسسة (جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري) بإعداد هذه الصفحات المتواضعة

احتفاء بالأمير الشاعر والمجاهد الكبير عبدالقادر الجزائري وتحية تقدير للجزائر أرضا وشعبا وقيادة وذلك على هامش الدورة السابعة دورة " أبو فراس الحمداني " بالجزائر عام ٢٠٠٠ م .

وبقدر ما كان هذا التكليف تشريفا فقد كان من الصعوبة بمكان لأن تناول شخصية الأمير ليس بالأمر السهل الذي يتأتى بالسهولة المرجوة فعبد القادر كان أمة في رجل ، وبالتالي فالتصدي لإيفائه حقه كاملا يبقى صعب المنال . ومع ذلك حاولت أن أرتد زمنا الى الوراء فأنعم بصحبة الأمير علِّي أسبر أغوار هذه الشخصية التي لا يعرف عنها أغلب قراء العربية - حتى في الجزائر - إلا تلك الجوانب التاريخية والسياسية والعسكرية مما ألحق الضيم ببقية الجوانب الأخرى

فكان الهدف إذن هو التصدي للكشف عن بعض ما خفي منها ولو باستحياء ولن يتحقق ذلك - ولا ريب - إلا بتوفر المادة التي عثرت على أغلبها في مؤلفات الأمير نفسه كديوانه الشعري الذي تفضل بتحقيقه د . ممدوح حقي إلى جانب كتبه الأخرى (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالكفر والإلحاد) وكتابه (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) ومؤلفه الضخم (كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد) إضافة الى (مذكرات الأمير عبدالقادر) تحقيق وحدة البحث " الأمير عبدالقادر " التابعة لجامعة الجزائر .

كما استرشد الباحث وهو يشق طريقه بمجموعة قيمة من المصادر والمراجع التي أنارت السبيل ككتاب (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر) وهو في جزأين لنجل الأمير محمد بن عبدالقادر ومؤلف شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبدالقادر) بإملاء الأمير نفسه والذي ترجمه وقدم له د . أبو القاسم سعد الله وكتاب جواد المرابط (التصوف والأمير عبدالقادر الجزائري الحسيني) و(الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته

وأثرها في أدبه) للدكتور محمد السيد الوزير وكتاب (الأمير عبدالقادر الجزائري متصوفا وشاعرا) ناهيك عن بعض الأسانيد التاريخية كمؤلفي (الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري) و(ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين) للدكتور يحيى بو عزيز وغيرها .

كما اتكأ الباحث على مجموعة هامة من الكتب في مختلف التخصصات الأدبية والتاريخية والاستعانة ببعض المراجع الأجنبية التي وإن اهتمت أساسا بالجانب التاريخي فإنها لم تسلم من المغالطة وتزييف الحقائق وتشويهها .

وقد كانت المقالات والأبحاث والدراسات المنشورة في المجلات والدوريات خير عون وموجه لي بما تضمنته من معلومات قيمة ذللت الكثير من الصعوبات وبخاصة تلك المنشورة في مجلتي التاريخ والثقافة الجزائريتين .

وتسهيلا لدراسة جوانب الموضوع اعتمد الباحث منهجا في : مقدمة وخمسة فصول وخاتمة .

-تناول الفصل الأول (الأمير عبدالقادر حياته وثقافته) حياة عبدالقادر مولده ونشأته وثقافته ومبايعته بالإمارة وبناء دولته الوطنية وجهاده الذي خاضه ضد فرنسا ثم استسلامه وأسره وهجرته الى الشرق وموقفه من بعض الأحداث ورحلاته وأخيرا وفاته .

-وكان الفصل الثاني (الأمير عبدالقادر وشعره) مخصصا للحديث عن شعر الأمير والفنون التي نظم فيها مع تحليلها تحليلا موضوعيا

-أما الفصل الثالث (الأمير عبدالقادر ونثره) فقد تناول نثر الأمير واختص مؤلفاته ورسائله ومراسلاته بالدرس والتحليل .

-واختص الفصل الرابع (الأبعاد الفنية في شعر الأمير) بدراسة شعر الأمير من جانبه الفني وإبراز سيماته اللغوية والموسيقية وصوره الشعرية .

-وانفرد الفصل الخامس والأخير (الأبعاد الفنية في نثر الأمير) بإبراز أهم الخصائص الفنية في كتابات الأمير النثرية سواء ما تعلق بكتبه أو رسائله أومراسلاته من جانبها اللغوي والأسلوبي .

وكانت الخاتمة بمثابة حوصلة لأهم النتائج المتوصل إليها من هذا الجهد مشفوعة بقائمة المصادر والمراجع التي استعان بها الباحث في إنجاز هذا العمل وأخيرا وإن كان لابد من كلمة تقال فهي الاعتراف بالفضل لأهله وأخص بالذكر مؤسسة البابطين كما أرفع أسمى آيات التقدير والامتنان إلى أستاذي الدكتور العربي دحو على تشجيعاته الدائمة لي وتوجيهاته والشكر لأخي د . محمد زغينة على ما قدمه لي من مساعدات دون أن أنسى الفاضلة أم رحاب التي تحملت الكثير من أجل أن يرى هذا الجهد النور . فحق للجميع مني الوفاء والتقدير والامتنان ما هو أجدر بهم .

عبد الرزاق بن السبع

باتنة في ١٠ مايو ٢٠٠٠ م

****

الفصـل الأول

الأمير عبدالقادر الجزائري:

حياته وثقافته

الأمير عبدالقادر الجزائري:
حياتــه وثـقافتـه

١ - أصلــه:

يعود أصل الأمير وأسرته للأدارسة الذين كانوا ملوكا في المغرب الأقصى والأوسط والأندلس(١)، ويعتبر السيد عبدالقوي الأول، أول أجداد الأمير الذين نزحوا عن المغرب الأقصى، واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف من أعمال الجزائر، وذلك بعد أن اشتدت الفتن واضطربت الأحوال في مراكش.

وقد اشتهرت سلالة الأمير وعائلته بالعلم والتقوى والجهاد، فكانوا بذلك موضع تقدير واحترام من طرف الجميع، يُرجع اليهم في كل صغيرة وكبيرة، وبالتالي استطاعت أسرة الأمير أن تبسط نفوذها على القبائل النازلة في نواحي الغرب الجزائري المتاخمة للمغرب، وخاصة في عهد السيد محيي الدين والد الأمير عبدالقادر(٢) الذي اشتهر بالعلم والتقوى" وشدت اليه الرحال من الضواحي والأمصار لتلقي العلوم والأذكار، وقد جبل الله النفوس على محبته والقلوب على مودته"(٣). وكان يلقب بالشريف لانتسابه إلى سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم(٤)، كما كان يمثل شيخ الطريقة القادرية بالجزائر(٥) التي انتسبت اليها أسرة الأمير في عهد جده السيد محمد المعروف بالمجاهد، ولذلك كانت قبيلة بنى هاشم تنظر اليه نظرة ولي من أولياء الله(٦).

وقد تزوج الشيخ محيي الدين والد الأمير، من أربع نسوة رزق منهن بستة أولاد، كان الأمير ثانيهم من زوجته الثالثة السيدة زهرة ابنة سيدي محمد بن دوحة الحسنية والتي توفيت عن عمر يناهز الثمانين سنة.

مما سبق يتبين لنا أن الأمير قد حاز كل أسباب الشرف والعزة، فنسبه الحسيني ينتهى إلى نبي الرحمة ﷺ، وأجداده علماء أفاضل، بلغوا أسمى مراتب المجد والعز بين أهلهم وفي أوطانهم، فلا غرو إذن أن ينهج الأمير مسلكهم ليزيد عزهم عزا وشرفهم شرفا، وبه اكتملت حلقات العقد، وباسمه اشتهرت أسرته ولا تزال.

هو الأمير عبدالقادر بن محيي الدين، بن مصطفى، بن محمد، بن مختار، بن عبدالقادر، بن أحمد المختار، بن عبدالقادر، بن أحمد المشهور بابن خده، بن محمد، ابن عبدالقوي، بن علي، بن أحمد، بن عبدالقوي، بن خالد، بن يوسف، ابن أحمد، بن بشار، بن محمد، بن مسعود، بن طاووس، بن يعقوب، ابن عبدالقوي، بن أحمد بن محمد بن ادريس الأصغر، بن إدريس الأكبر، بن عبدالله المحض، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب، وأم الحسن فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود، محمد رسول الله ﷺ وشرف وكرم وعظم(٧) . "

وتوجد بتحفة الزائر للأمير محمد قصيدة طويلة تحدث فيها ناظمها عن هذا النسب الشريف وهو السيد محمود الحمزاوي يقول في مطلعها : (٨)

ياحبذا الوعد والإنجاز يصحبه
حاشا علاكم بأن الخلف يعقبهُ
حيًا، فأحيا ظنونا غير نائية
لولاه كانت قضتْ مما تراقبه

وقد كان عبدالقادر يكنى بأبي محمد، أما ألقابه فهي متعددة أطلقت عليه في المناسبات المختلفة منها: أمير المؤمنين –ناصر الدين(٩) –الأمير(١٠) –الجزائري(١١) –ابن الراشدي–ابن خلاد(١٢) .

٢ - مولده ونشأته:

ولد أدبينا يوم الجمعة الموافق للثالث والعشرين من شهر رجب سنة اثنين وعشرين ومائتين والف للهجرة(١٢٢٢هـ)، الموافق لشهر مايو(أيار) سنة سبعة وثمانمائة والف

للميلاد(١٨٠٧م)[١٣] بقرية اختطها جده لأمه غربي مدينة معسكر، من إيالة وهران، وتسمى القيطنة بالقطر الجزائري.

نشأ الأمير وتربى في محيط ديني علمي ثقافي، وكان موضع اهتمام وعناية كبيرة من طرف والده الذي مال إليه ميلاً خاصاً، فأحاطه برأفته وحنانه المميزين لكأنه كان يتوسم فيه المجد، ويحس أنه سيكون لهذا الفتى شأنا عظيما، فحاول أن ينشئه نشأة تؤهله لتحمل مسؤولية قيادة الأسرة بعد وفاته، "فكان لا يسمح لأحد غيره أن يقوم بالعناية به، فقد كان هناك على ما يبدو سر غامض وعاطفة غير محددة، يدفعان الأب إلى أن يخصص اهتماما غير عادي للطفل الذي سيكون مستقبله محفوفا بهالة مجيدة ومرتبطا بمستقبل بلاده[١٤].

التحق عبدالقادر بمدرسة والده بالقيطنة وهو في الرابعة من عمره، فكانت ملكاته العقلية على نبوغ غير عادي" فقد كان يقرأ ويكتب عندما كان في الخامسة من عمره"[١٥]، لما آنس الشيخ هذا الاستعداد الكبير وما تحلى به عبدالقادر من إمارات الذكاء والفطنة بذل والده خالص جهده في تثقيف ولده وإتاحة الفرص أمامه ليرتع من مناهل الثقافة والأدب.

وما أن بلغ عبدالقادر الثانية عشرة من عمره، حتى أصبح في عداد حفظة القرآن الكريم، متمكنا من الحديث وأصول الشريعة، وبعدها بسنتين أصبح في مقدور الشاب عبدالقادر أن يلقي دروسا في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية[١٦].

وإدراكا من محيي الدين بأن العقل السليم في الجسم السليم، راح يشجع ابنه على الفروسية، وركوب الخيل، ومقارعة أنداده، والمشاركة في المسابقات التي تقام آنذاك، فأظهر تفوقا مدهشا" فقد كان يلمس كتف فرسه بصدره، ويضع أحد يديه على ظهر الفرس ثم يقفز إلى الجانب الآخر، أو أنه كان يدفع الفرس إلى أكبر سرعة ممكنة، ثم ينزع قدميه من المهماز، ويقف على السرج ويطلق النار على هدفه بدقة عجيبة[١٧].

وبعد أن اكتملت للشاب المؤهلات الجسمية والعقلية في مسقط رأسه بالقيطنة، قرر أبوه إيفاده إلى وهران للأخذ عن علمائها وتوسيع معارفه، فانضم إلى طلاب مدرسة المدينة التي كانت بإشراف أحمد بن الخوجة، ومكث بها سنتين طالبا للعلم والمعارف، شغوفا بالدراسة والتحصيل، فازداد تعمقا في الفقه، وطالع كتب الفلاسفة وتعلم الحساب والجغرافيا، على يد الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي قاضي أرزيو الذي كان مشهورا في ذلك الوقت بغزارة العلم وسعة الإطلاع"[١٨]

وقد دامت رحلة عبدالقادر العلمية هذه ما يقرب السنتين(١٢٣٧-١٢٣٩هـ) (١٨٢١-١٨٢٣م) ليعود بعدها إلى بلدته القيطنة، التي لم يمكث بها طويلا، حتى بادر والده الشيخ محيي الدين-وقد رأى علامات الرجولة جسميا وعقليا قد اكتملت في ولده - إلى تزويجه وانتقى له فتاة جمعت محاسن الخلق والخلق والنسب الشريف وهي ابنة عم عبدالقادر [١٩]، التي كانت مثله تتمتع بجمال وأخلاق عالية، وقد تم حفل زفافه على الطريقة الإسلامية، وكان عمره آنذاك الخامسة عشر[٢٠].

وتزامنت شهرته العلمية مع فروسية خاصة، وكان عبدالقادر يعيش مرحلة الشباب الحقة بما فيها من قوة وشجاعة وتحمل، ولذلك فلا عجب أن نراه وهو صاحب السبعة عشر ربيعا، يشار إليه بالبنان لشدة البأس وقوة البدن والفروسية، وبذلك عود نفسه وروحه على تحمل الشدائد والصعاب، وكأن الأقدار تهيؤه لمستقبل يتطلب تربية خاصة، فلا غرابة أن يرى وهو أمير بعد ذلك يقوم" بتلك الأدوار المدهشة التي أثارت استغراب وحيرة أعدائه (عدم النوم خلال أسابيع والتعرض للصدام وندرة إغماد سيفه)، فقد كان صحيحا ما قيل عنه من أن سرجه كان عرشه"[٢١]

وعلى الرغم من الثراء الذي كانت تتمتع به أسرة عبدالقادر، إلا أن ذلك لم يدفعه إلى اللهو والترف، بل كان متواضعا ووسطا في كل الأمور، ومع هذا التواضع

كان «ذا جاذبية ساحرة مع بساطة وأناقة في لباسه، متواضعا، إلا أنه كان شغوفا بتزيين سلاحه فقد كانت بندقيته التونسية الطويلة مرصعة بالفضة، أما مسدسه فقد كان مرصعا بالجواهر". [٢٢]

وكانت هواية الأمير المحببة إلى نفسه كثيرا، رياضة الصيد، التي كان يمارسها برغبة وحب شديدين، بحيث كان كلما انتهى من واجباته العلمية والدينية يأخذ معه خادمين أو ثلاثة، ثم يقصد الغابات والبراري، عكس أنداده من الشباب الآخرين الذين كانوا يعطون رحلات الصيد مظهرا استعراضيا، حيث يتقدمون مع حاشية كبيرة من الخدم والصقور والكلاب.

وإثر عودته من رحلته كان يؤوب إلى دروسه وقد تجدد نشاطه، وأصبحت نفسه مستعدة أكثر من ذي قبل للتحصيل والإستيعاب، ذلك أن مثل هذه الأمور لم تكن تشغله عن القيام بواجباته الأساسية العلمية أو الدينية.

وفي هذا السن، بدأت ملكة الشعر تظهر لدى عبدالقادر للعيان، حيث بدأ يقرض الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره بعد، على الرغم من أنه" لم يسبق له تعلم موازين الشعر ومقايسه، ولا سبق له أن تلقى أصوله ومبادئه على أستاذ خبير في فن الشعر وأصوله"[٢٣]، فجمع بذلك بين رتبتي السيف والقلم مما زاد أباه إعجابا وفخرا به، فكان لا يقدم على عمل دون استشارته ولا يحضر مناسبة اجتماعية أو سياسية إلا برفقته[٢٤].

تاقت نفس محيي الدين إلى البقاع المقدسة وزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فعزم على الحج إلا أن حاكم وهران آنذاك "حسن داي" الذي أوغر صدره بالدسائس والوشايات التي حكيت ضد محيي الدين ونجله، فرض عليهما الإقامة الجبرية في وهران وهما في طريقهما إلى الحجاز، " واستمر هذا دون وهن سنتين"[٢٥]، ولم يقم محيي الدين بأي احتجاج، وقد استفاد وعبد القادر من هذه العزلة المفروضة

وكرسا أوقاتهما لدراستهما المفضلة.[٢٦]

ومع انقضاء المدة، أذن لهما الداي التركي باستئناف رحلتهما، بعد تدخل "بعض الأشراف كمصطفى بن اسماعيل، وموسرالى"[٢٧] ليواصلا طريقهما عبر المدية إلى تونس وانضما لوفد من الحجاج.

وبعد خمسة عشر يوما وصلا إلى الإسكندرية، حيث توقفا بها بضعة أيام ثم سارا منها إلى القاهرة، حيث حظيا بمقابلة حاكمها محمد علي باشا[٢٨] "، ولم يخطر ببال عبدالقادر الفتى وهو يتأمل هذا الحاكم أنه سيتبع يوما خطاه، وينسج على منواله ويضاهيه في مهاراته العسكرية والإدارية.

وفي قاهرة المعز قابلا أعيان المدينة وكبراءها وجالسا علماءها من أمثال الشيخ علي بن محمد الميلي الجمالي والشيخ محمد المعروف بابن الأمير أحد اصحاب الحواشي المشهورة لشرح عبدالسلام على جوهرة التوحيد[٢٩] .

وغادرا مصر وهما يحملان في نفسيهما ذكريات طيبة عن بلد الكنانة، وإعجاباً شديداً بما وصلت إليه الحياة فيها من تقدم وازدهار على يد حاكمها، فاتضحت لهم الحقيقة المرة للحكام الاتراك في الجزائر الذين" أخضعوا كل الأمور للسلطة العسكرية وقضوا بذلك على العبقرية الإسلامية في هذا الوطن[٣٠] "

ووصل الركب إلى البلد الحرام مهبط الوحي ومهد الرسالة المحمدية الخالدة فأدى الشيخ وفتاه ما فرض عليهما وتشرفا بالوقوف أمام ضريح الرسول(ص) لييمما وجهيهما صوب البلاد الشامية " حيث أقاما بدمشق عدة شهور تمكن عبدالقادر أثناءها من حضور حلقات الدروس العلمية التي كان يدرس فيها كبار العلماء بالجامع الأموي" وبذلك أضاف عبدالقادر إلى قائمة شيوخه" علماء جدد أمثال الشيخ المحدث عبدالرحمان الكزيزي، فقد سمع عليه هو ووالده، بعض البخاري بمسجد بني أمية،

كما أضيف اسم الشيخ خالد النقشبندي البغدادي الشهرزوري الصوفي الأديب[٣١] .

ومن دمشق الفيحاء، اتجه محيي الدين وولده إلى دار السلام- بغداد- عاصمة بني العباس وحاضرة العالم الإسلامي أيام عزه، فزارا ضريح القطب الرباني سيدي عبدالقادر الجيلاني(قدس سره)[٣٢]، واجتمعا هناك بعلماء بغداد فتزودوا خير الزاد منهم ما استطاعا إلى ذلك سبيلا، وهناك لبس الشيخ محيى الدين (الخرقة) القادرية من يد الأستاذ نقيب الاشراف وخليفة سيدنا الشيخ(قدس سره) سليله السيد محمود وأجازه مشافهة وكتابة. [٣٣]

آن موعد العودة فقفل عبدالقادر ووالده آيبين إلى الوطن فحجا ثانية وزارا قاهرة المعز فشهدا فيها احتفال المسلمين بمولد الرسول الحبيب محمد – ولعل ذلك ما جعله يستن سنة الاحتفال بالمولد النبوي في امارته بعد، ويعطيه ما يستحقه من تقدير وإجلال[٣٤]، وغادرا مصر بعد انتهاء إقامتهما مودعين بما استقبلا به من حفاوة وإكرام حيث اتجه الموكب سالكا طريقه نحو برقة لزيارة ضريح الجد مصطفى في عين غزالة ناحية درنة، ومنها إلى طرابلس التي غادراها إلى تونس، فالجزائر العاصمة- حيث قابلا الوالي التركي هناك.

وفي يوم مشهود أطل ركب الحجيج على مشارف القيطنة أوائل عام ١٢٤٣هـ – ١٨٢٨م بعد غياب دام قرابة السنتين لتعم الأفراح هذه البلدة بعودة شيخها وفتاها فكان يوما مشهودا عمته البهجة والمسرة، وبدأ الناس يتوافدون مهنئين بسلامة العودة والدعوة للشيخ ونجله بطول العمر فأكرم محيي الدين ضيوفه وتقبل تهانيهم داعيا لهم بالخير والرشاد.

وكانت هذه الرحلة المباركة ذات أثر كبير في حياة عبدالقادر الذي أخذ مباشرة بعد عودته في الاعتزال عن الناس والانصراف إلى العبادة والدراسة، منشغلا بكتب

الفلاسفة- فقرأ أفلاطون وفيثاغورث وأرسطو ودرس كتابات مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة العربية عن التاريخ القديم والحديث وعن الفلسفة واللغة والفلك، والجغرافيا، بل وحتى الطب، وتشرَّب التصوف من خلال كتب محيى الدين بن عربي وكتب ابن سينا وغيرهما. (٣٥)

وهكذا تحقق للشيخ في فتاه ماكان يتمناه ويطمح اليه، وخاصة بعد هذه الرحلة التي كانت أحد أهداف محيى الدين المقصودة، بعد أن حصل عبدالقادر على السياسة الأدبية بالوطن، وحاز الرياسة العلمية في كل سكن وقطن، فلم يبق إذن من تقاليد التعليم الشائعة في بيئته وعصره غير أن يرحل به إلى الضواحي الحقيقية والمجازية، ليمرن من كل بلد يمر به بمناقب أهله. (٣٦) .

وحسنا فعل محيي الدين، فقد آتت هذه المرحلة أكلها الطيب، فأتاحت للأمير الاطلاع على أحوال العالم الإسلامي في المشرق، ونظم الحكم والإدارة في مختلف الميادين، ورأى بأم عينيه ما وصل اليه المشرق، فرجع مملوء الوطاب موفور الزاد، كما عاش الأمير بعد هذه الرحلة بأحاسيسه وعواطفه" يؤلف علماء الشرق في بغداد ودمشق والقاهرة وخاصة أفذاذ الأزهر وثواره وأحرار الرأي منهم في عصره، يراسلهم ويستفتيهم وهو أمير – كما سنرى فيما بعد، ويحن اليهم وهو أسير، ويساقيهم الشعر وهو حر طليق" .

لم يظفر الأمير وأبوه بالأمان والاستقرار في بلدتهما طويلا، فلم يلبثا إلا قليلا حتى بدأت نذر الغزو الفرنسي تلوح في الآفاق تهدد البلاد والعباد بدعوى الاقتصاص من حادث المروحة المفتعلة ورد الاعتبار إلى الشرف الفرنسي العظيم المهان، فأقامت فرنسا الدنيا وأقعدتها، وأرادت أن تفرض شروطا قاسية على الداي حتى(٣٧) تتراجع عن حصارها لشواطئ البلاد، ولكن الداي حسين رفضها بشدة لما تضمنت من شروط مهينة تمس كرامة البلاد وحكومتها(٣٨) .

ونتيجة لهذا الرفض التركي بشروط فرنسا أفصحت هذه الأخيرة عن نواياها الخبيثة وحقدها الدفين، وبدأت فرض حصار شامل حول الموانئ الجزائرية، فلم تجد أي مقاومة أو رد فعل خاصة وأن الأسطول الجزائري كان غائبا عن البلاد للاشتراك مع الاسطول العثماني في معركة نافرين البحرية الشهيرة وبذلك أمست الجزائر في عزلة بحرية تامة . فحصل تقهقر اقتصادي فاجع في البلاد فاشتد البأس على الناس وضعفت خزينة الدولة ,لتجد بعدها فرنسا اللقمة سائغة والفرصة سانحة. فلتضرب ضربتها الكبرى وتحقق حلم آلاف السنين

وفى التاسع عشر من يونيو – جوان – من سنة ١٨٣٠ نزلت القوات الغازية ميناء سيدي فرج قادمة من ميناء طولون الحربي[٣٩] بقوة تعدادها٢٠٠٠٠ – ٨٧٠٠٠– مشاة – ٢٠٠٠– من الخيالة . وما كاد اليوم الخامس من يوليو يطل حتى كانت عاصمة البلاد تستسلم للعداة . ليغادرها الداي – لا مأسوفاً عليه – بعد أن ضمن حياته وأمواله الخاصة . واعتقدت فرنسا ان الاحتلال للبلاد قد تحقق . او انه قاب قوسين او ادنى ولكن خاب ظنها . فبمغادرة الداي الجزائراشتعل فتيل المعركة وتسارع الناس للجهاد . فبدات المقاومة الشعبية تأخذ مكانها بامكانات بسيطة تفتقر للتنظيم والاعداد ومع ذلك لقنت فرنسا دروسا خالدة في الشجاعة والفداء، فكان أحمد باي في الشرق الذي التف حوله المجاهدون ليقود مقاومة باسلة سجلها له التاريخ بأحرف من نار ونور وكان عبدالقادر في الغرب الذي دخل الأحداث من بابها الأوسع بتحمله مسؤولية الجهاد وأثقال الإمارة.

٣- مبايعته بالإمارة:

وبعد أن غادر الداي المخلوع البلاد بشروط مهينة، كان الخامس من يوليو اليوم الموعود والفيصل بين عهدين، فترك الشعب الأعزل وحده في أتون معركة غير متكافئة على الإطلاق، يواجه بصدور عارية أسلحة الفرنسيين ومدافعهم التي هزت قلاع المدن

وبناياتها ودكتها د كا ، يجاهد بكل ما أوتي من إمكانات ، فكانت المصادمات في كل شبر تطؤه أرجل المحتل ، وضرب الاهالي أروع الأمثلة في الدفاع والاستبسال عن وطنهم ، وحرماتهم وشرفهم ، وكلما ازداد الشعب إصرارا على الجهاد والقتال ، ازداد العدو بطشا وتنكيلا وتشريدا بما سخره من أسلحة وآلات الدمار ، فكانت النتيجة أن انهزمت القوات الوطنية لا عن جبن وخوف ، ولكن ما ذا يفعل المنجل والفأس ، أمام البندقية والمدفع ؟ .

وارتكب العدو أبشع الجرائم في حق الشعب الأعزل ، وشهد شاهد من أهلها حين يورد الكاتبان كوليت وفرانسيس جونسون هذا المثال بقولهما " كانت قبيلة أولاد الرياح قد تلقت من القائد الفرنسي أمرا بالتسليم ، ولكنها بدل أن تسلّم ، لاذت بالفرار إلى المغاور والكهوف لتستأنف منها الجهاد ، وتواصل المقاومة ، فلما ضيق القائد «بلسبيه» الخناق على أفراد هذه القبيلة وهم في بطن أحد الكهوف ، اشترطوا عليه سحب القوات الفرنسية ليخرجوا إليه ، ولكنه رفض هذه الشروط ، وقرر أن يصب عليهم نار جهنم ليصلوها سعيرا ، وأنى للقلم أن يوصف هذا المشهد الجبار العاتي ، فهذه هي القوات الفرنسية تتقدم تحت جنح من الليل البهيم ، تتخلله أضواء القمر الباهتة من خلف من سحب متكاثفة مدلهمة ويتجه الجنود الفرنسيون صوب فجوة الكهف يوصدونها بالمتاريس ويشعلون بداخلها ومن حولها النيران ، فتصم الآذان وتولول النساء ، ويصرخ الأطفال وينعق الحيوان ، وهذه هي الصخور تحترق وتنهار ، فتنتشر منها الأتربة فتخنق الجموع ، وتتناثر منها الجنادل فتصيب الرؤوس ، وهذه هي الذخائرتنفجر فيعم الدمار ، وينتشر الموت ويجاهد الرجال والحيوان للخلاص من بطن الأرض فتنطبق عليهم الأرض ويقبرهم الجماد ، ويقبل الصبح وتتولى فرقة الجنود الفرنسيين معاينة الأتون الذي صبوا فيه النيران أثناء الليل ، فيرتد منهم البصر من هول مايرون ، ففي مدخل الغار انتشرت هياكل ثيران وحمير وخراف حدت بها صوب مخرج الكهف لاستنشاق الهواء الذي عدم بالداخل

وتكدست بين هذه الحيوانات ومن تحتها ، جثث رجال ونساء وأطفال ، وشوهد رجل ميت وهو جاث على ركبتيه ، وقد أمسكت يداه ثور نافق ، وبجواره امرأته ميتة تحتضن بين ذراعيها طفلها الميت مما يدل على أن الرجل اختنق وهو يدافع عن امرأته وطفله الذين اختنقا أيضا من هجوم الثور عليهما في أثناء الحريق . وفي سراديب هذه المغاور الفسيحة ، وجد الفرنسيون سبعمائة وستين جثة أخرجوا منها ستين أعرابيا يعانون سكرة الموت ، مالبث أربعة منهم أن قضوا نحبهم ، وعشرة منهم حملتهم الإسعاف والباقون أطلق سراحهم ليعودوا إلى مساكنهم عبرة لمن لايعتبر ، ولم يبق من حطام الدنيا سوى الدمع القاني يذرفونه على الدمار الحميم . "[٤٠]

هكذا وبهذه الوسائل والطرق الخسيسة بدأ الاستعمار في تثبيت أقدامه بالبلاد ، واشرأبت أعناقه تستطلع الأمور لتوسيع أطماعه الاستيطانية خاصة وأن السبيل ممهد ، فالمقاومة شبه منعدمة وإن وجدت فهي تفتقر للتنظيم والإعداد والاستمرار مما جعلها لا تثبت في الميدان إلا أياما ، أو ساعات معدودات ، يتفرق بعدها الجمع وهو يجر قتلاه الشهداء ، فانعدم الأمن واضطربت الأحوال ، وعمت البلوى جميع أنحاء البلاد بانهيار الحكم التركي فلم يعد الإنسان يأمن في هذا الوطن على نفسه وماله ، فكثر النهب والسلب وتعددت الجرائم ، واصبح الناس يعيشون عرضة لكل الشرور والبلايا ، فأمست غارات النهب والسلب تعترض الآمنين فتكدرت الأمور وآل امر البلاد والعباد إلى مصير أسود قاتم " ومع فقدان الشخصية الرسمية التي تضبط مصير الأمة وتسوس مصالح الشعب ، وجد كل زعيم الفرصة مواتية ليستقل بناحية[٤١] " فيصبح الخصم اللدود لجاره .

وأمام هذا الدرك الأسفل الذي انحدرت اليه أحوال البلاد ، تسابق أولو الرأي من العلماء والفقهاء والمرابطين في محاولة لإيجاد مخرج لهذه الأزمة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فأجمعوا رأيهم بينهم وقد اتفقوا على شيء واحد وهو اللجوء إلى محيي الدين لمعرفة رأيه ، لما كان يتمتع به من احترام وتقدير ، وراودوه على الإمارة فاعتذر اليهم

بكبر سنه[٤٢] "، ولكنه أشار عليهم أن يبعثوا بوفد إلى سلطان المغرب ليعرضوا عليه انضمام البلاد لسلطانه، فعملوا بمشورته، وبعثوا وفدا إلى المغرب لمقابلة السلطان، فأحسن هذا الأخير- مولاي عبدالرحمان- وفادتهم وتقبل عرضهم بكل امتنان، وعقد لابن عمته - علي بن سليمان- على الجزائر، واتخذت تلمسان عاصمة للمقاطعة الجديدة، وامتد نفوذها حتى مليانه شرقا، وخطب للسلطان عبدالرحمان في المساجد، وظن الجميع أن الأمر قد انتهى إلى هذه النهاية السعيدة، لكن فرنسا لم يرضها هذا الوضع المستجد لتضاربه مع مصالحها، فأوعزت إلى سفيرها بطنجة أن يقدم تهديدات مباشرة للسلطان، وإبراز العواقب الوخيمة التي ستنجم عن هذا التصرف، فبلغ الهلع مبلغه لدى عبدالرحمان فرضخ لتهديدات فرنسا، وسارع إلى سحب جنوده بعد ستة أشهر فقط من دخولها البلاد مما جعل الأمور تؤول إلى حالتها الأولى من الفوضى والاضطراب.

وهنا لم يجد كبار القوم ورؤساء القبائل بداً من العودة ثانية إلى الشيخ محيي الدين وطلبوا منه أن يتولى بنفسه، ولكنه اعتذر بلباقة، وأمام إصرارهم اقترح عليهم مبايعة ابنه عبدالقادر بالإمارة" فاستقبل الحاضرون هذا الحل الفجائي وغير المنتظر للمشكل بأصوات الموافقة العالية، فاسم عبدالقادر قد ردد بحماس، وكانت شخصية وملامح ورجولة وشجاعة ابن محيى الدين المفضل هو موضوع الحديث الرئيسي، ونتيجة لذلك أرسل اليه فارس لإحضاره من القيطنة. "[٤٣]

وكان عبدالقادر في ذلك الحين يقود معركة ضد الجيش الفرنسي في مكان يدعى حصن" فيليب" ولما بلغه الخبر آب إلى معسكره وبعد أن اخبر بكل مادار أثناء غيبته قال في هدوء وانضباط وبدون زهو" إن من واجبي طاعة أوامر والدي[٤٤] "فأكبر الجميع منه هذه المقولة التي تعبر عن البنوة الطائعة والإخلاص الوطني.

وبعدها مباشرة بدأت مراسم البيعة الاولى التي تمت"بوادي فربوحه"[٤٥] من

غريس عند شجرة الدردارة وهي شجرة عظيمة كان القوم يجتمعون تحتها للشورى ، وكان ذلك بتاريخ ١٣ رجب ١٢٤٨ هـ الموافق لـ ٢٨ نوفبر ١٨٣٢ م[٤٦] حيث بايعه القوم وفي مقدمتهم والده ، الذي لقبه بعد مبايعته " بناصر الدين" وتلاه أقاربه ثم أشراف القوم ورؤساء القبائل والأعيان وبقية أفراد الشعب . ولعل الصورة التي تمت بها مبايعة عبدالقادر تحت شجرة الدردارة كان الدافع اليها اقتفاء أثر السلف الصالح ، وتقليد الصورة الرائعة التي تمت فيها مبايعة الرسول- صلى الله عليه وسلم - في بيعة الرضوان تحت شجرة الحديبية والتي ذكرها المولى تعالى بقوله (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة - سورة الفتح ، آية ١٧) .

وبعد أن تمت البيعة توجه الأمير إلى مسجد معسكر ، فاستقبله الجموع استقبال الملوك والسلاطين ، ودخل المدينة ، ومنها بيته حيث أخبر زوجته بالمسؤولية الكبرى التي أنيطت به ، وما تتطلبه هذه المسؤولية من تفرغ لها وخيرها بقوله : " إن أردت أن تبقي معي من غير التفات إلى طلب حق ، فلك ذلك ، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك فأمرك بيدك لأني قد تحملت ما يشغلني عنك"[٤٧] . ثم توجه الأمير إلى المسجد فصلى بالناس إماما ، ووقف خطيبا في الجموع الكبيرة - التي احتشدت لترى أميرها الجديد - خطبة جامعة وعد فيها وتوعد ، وأمر ونهى ، حاثاً فيها الناس على الانضباط والالتزام ، داعيا إلى الجهاد والعمل . وبعد انصراف الأمير ، انفرد العلماء لكتابة صك البيعة ، فكتبه في مجلسهم العالم محمد بن عبدالقادر الشهير بابن آمنة خال الأمير[٤٨] ، واكتفى عبدالقادر بلقب الأمير ولم يلقب بالسلطان حتى لا يغضب مولاي عبدالرحمان سلطان المغرب الذي كان يكن له كل الاحترام والتقدير . أرسل الأمير الوفود والرسائل إلى بقية القبائل والأعيان الذين لم يحضروا البيعة لإبلاغهم بذلك ، ودعوتهم إلى مبايعته أسوة بمن أدى واجب الطاعة فلبى الجميع النداء وهرع الناس جموعا وفرادى ، وبدأت الوفود تتوالى لأداء واجب البيعة للأمير الشاب ، وانعقد بذلك مجلس عام حضرته جماهير عريضة من أفراد الشعب يتقدمهم الأعيان والأشراف ، وزعماء القبائل والعشائر وجرى فيه أداء البيعة الثانية العامة في ١٣ رمضان سنة ١٢٤٨ هـ الموافق لـ ٤

فبراير ١٨٣٣(٤٩) والتي يمكننا القول بشأنها أنها استفتاء شعبي حر اختار فيه القوم بكل حرية ومسؤولية الشخص المناسب الذي سيتولى شؤون هذه الدولة والإمارة الفتية لتدخل الجزائر بعهده مرحلة جديدة من" الكفاح والجهاد المنظم المتشبع بروح القومية التي طالما أخمدها التعالي العنصري والنزاع القبلي."(٥٠)

٤ - إمـارتــه:

وبعد هذه المبايعة المباركة التي أداها جميع أفراد القبائل كبيرها وصغيرها، شريفها ووضيعها، والتي اعتبرها الأمير عبدالقادر أمانة كبرى حمّله الشعب إياها وطوقاً شريفاً أحاط الأهالي عنقه بها عن قناعة واختيار، فبادر أميرنا الشاب تدعمه إرادة شعبية هائلة، وتحدوه عزيمة جبارة إلى النهوض بهذه المسؤولية الجبارة" مقتفيا آثار أسلافه وأجداده الأدارسة الذين كانوا ملوكا في المغرب الأقصى والأوسط والأندلس فتمكن حبه في قلوبهم وبذلوا أنفسهم في طاعة وامتثال أمره(٥١).

أدرك عبدالقادر للوهلة الأولى أن النظام والاستقرار والامانة هي الدعائم الأولى لبناء صرح الدولة الفتية، ولمواصلة الجهاد ولن يتحقق له ذلك إلا بإنشاء كيان قوي عصري يجمع فلول هذه الجماهير، ويوحد تلك القبائل المتفرقة، ففي وحدتها قوة الإمارة ومناعتها، لتتمكن من مقارعة فرنسا الغازية ومواجهتها الند للند، ولتكتسب مقاومته صفة شرعية تجلب إليها الدعم والتأييد.

فكان أول ما سعى إليه الأمير في بناء دولته" أنه تجنب أخطاء الحكم التركي الذي جعل ممثليه في الجزائر عرضة للخطر وكراهية الناس، فعمد إلى بناء إمارة أساسها إخلاص الحكم وثقة المحكومين"(٥٢)، لأن الأمير يدرك أن بقاء الدولة والحكم لن يتأتى بحال من الأحوال إلا إذا كانت الثقة متبادلة بين الحاكم والرعية. وعبد القادر وعى الدرس من سياسة الأتراك التي كانت منعزلة عن الشعب، منغلقة على نفسها، منعدمة الصلات والروابط بينها وبين الجماهير، مما عرضها للزوال والانحلال" وفي هذا المنعرج

التاريخي الخطير برزت (الشخصية) البطولية للأمير عبدالقادر معززة بسند شعبي قوي ومرفوعة على أكتاف بيعة تكاد تكون جماعية وفي هذه الإمارة، وفي طريقة ظهورها، بعث الشعب من جديد، وتقلد أمره بدافع من أعماقه، وألقى بكل ثقله في ميدان الاستشهاد، لا تعرقل انطلاقته أموال مخزونة، ولا يجذب نظره إلا بريق السيف". [٥٣]

واستغل الأمير ما في جعبته من تجارب سابقة اكتسبها من رحلاته، وخاصة مروره بمصر واعجابه بما حققه واليها محمد علي فالتفت إلى أحوال الإمارة بغية تعميرها وتحديثها من جميع الجوانب، فبدأ في تشييد الحصون والقلاع وبناء المصانع، والاهتمام بالعلم وإكرام أهله، وكيف لا وهو العالم الفقيه الذي يدرك ما للعلم من مكانة في عصر كعصره لإقامة دولة حديثة قوية لا تزول بزوال الحكام.

وقد أتاحت له مرحلة الهدوء والاستقرار التي نعمت بها البلاد في الفترة الممتدة من ٣٠ أيار ١٨٣٧ إلى ١٩ تشرين الثاني ١٨٣٩م الفرصة السانحة للعمل بدون هوادة، لترسيخ وفرض الاستقرار والنظام وتوفير الموارد المالية والبشرية لدولته الفتية، لأن عبدالقادر كان يعي جيدا أنه في صراع قاس مع الزمن ومع العدو وأن فرنسا لن تفتأ إلا قليلا ثم تهاجم الدولة الناشئة، وقد صدق حدس الأمير ذلك أن فرنسا كانت تتحين الفرص لنقض معاهداتها كلما وجدت إلى ذلك سبيلا، لأن الاستعمار لا يعرف للعهود والمواثيق قيمة ولا يوليها اعتبارا، همه الأكبر يكمن في مصلحته وماعدا ذلك فهو مباح، فالغاية تبرر الوسيلة، فكانت معاهدات ومواثيق الدول الاستعمارية كما يصفها الأمير شكيب أرسلان" هي في الغالب محطات استراحة بين الحملة والحملة، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير، بحيث لايعدم عذرا لدى توفر القوة في نقض المعاهدات التي لم يبررها منذ البداية إلا على نية النقض" . [٥٤] .

ولإعطاء العهد الجديد القوة اللازمة، سعى الأمير إلى استخدام رجال تتوفر فيهم القدرة والكفاءة والالتزام، ليحملوا معه عبء المسؤولية الثقيل أمام الله وأمام الشعب،

فحرص عبدالقادر أيما حرص على اختبار معاونيه، يساعده في ذلك رأيه الثاقب المصيب وبعد نظره، وباعه الطويل في تقدير معادن الرجال لوضع الرجل المناسب في المكان المناسب" فاستوزر محمد بن العربي، واستكتب ابن عمه السيد أحمد بن أبي طالب، والسيد الحاج مصطفى بن التهامي، والسيد الحاج محمد الخروبي، وعين لحجابته محمد بن علي الرحاوي، وولى الحاج الجيلاني بن فريحة ناظر خزينة المملكة، ومحمد بن خاخة ناظر الخزينة الخاصة، والحاج الطاهر أبو زيد ناظرا على الاوقاف والسيد الحاج الجيلاني العلوي مأمورا على الأعشار والزكاة بأنواعها، وعين لنظارة الأمور الخارجية الحاج الميلود بن عراش". [٥٥]

وكعادة كل دولة في اختيار شعار لها، وراية تتميز عن غيرها جعل الأمير رايته من الكتان الحريري " أعلاها وأسفلها خضراوان، أما لون القسم الأوسط فأبيض، رسمت فيه يد مبسوطة، وكتب حولها بشكل دائري عبارة " نصر من الله وفتح قريب، ناصر الدين عبدالقادر بن محيي الدين " والرسم والكتابة كلاهما مطرزان باللون الذهبي[٥٦]، كما عين الأمير شخصا معلوما لحمل هذه الراية التي تتقدم موكب الأمير في رحلاته وجهاده.

وبعد ما أرسى الأمير قواعد إمارته الفتية قسمها إلى مقاطعات إدارية تسهيلا في إدارتها وتخفيف الاعباء عن حكومته المركزية، فقسمت دولته إلى ثلاث مقاطعات هي: معسكر، مليانة، تلمسان، متخذا مدينة معسكر عاصمة لدولته الناشئة ومقرا لإقامته" تأسيسا لأهل غريس وتطييباً لنفوسهم لأنهم كانوا دعاة هذه الإمارة وكانت منها حركته ونهضته، وفيها أولا قراره، وبأنجاده كمل أمره وأينع آسه وعراره". [٥٧]

ولما دانت للأمير مناطق اخرى واتسعت رقعة إمارته، أصبح تقسيمه الإداري كالتالي:

- **مقاطعة معسكر: عاصمتها مدينة معسكر وخليفتها الحاج مصطفى بن أحمد التهامي الذي كان مسؤولا عن كتابة ديوان الأمير.**
- **مقاطعة تلمسان: عاصمتها مدينة تلمسان، خليفتها السيد محمد البوحميدي الولهاصي.**

- مقاطعة مليانة: عاصمتها مدينة مليانة، خليفتها السيد محيي الدين بن علال القليعي، ثم خلفه السيد محمد بن علال .
- مقاطعة التيطري: عاصمتها مدينة المدية، خليفتها السيد محمد البركاني .
- مقاطعة مجانة: عاصمتها مدينة سطيف، وقد تداول عليها كل من السادة محمد بن عبدالسلام المقداني، ومحمد الخروبي، ومحمد بن عمر العيسوي.
- مقاطعة الزيبان: عاصمتها مدينة بسكرة، وتعاقب على رئاستها كل من السادة فرحات بن سعيد، وحسن بن عزوز، ومحمد الصغير بن عبدالرحمان بن احمد بن الحاج .
- مقاطعة الجبال: عاصمتها مدينة برج حمزة (البويرة) وخليفتها السيد أحمد بن سالم الدبيسي.
- مقاطعة الصحراء الغربية: وخليفتها السيد قدور بن عبدالباقي.

وهكذا أصبحت مقاطعات الدولة في أوج قوتها ثماني ، كما هو مبين أعلاه ، وقسمت كل مقاطعة إلى دوائر على رأس كل منها حاكم يدعى" آغا" وقسمت الدائرة إلى عدد من القبائل ، يرأسها ضابط إداري يسمى القائد ، وتحت القائد مسؤول آخر هو الشيخ ، والذي يشرف على عشيرة من عشائر القبائل .

وهذا التنظيم الدقيق الذي أخذ فيه الأمير بعين الاعتبار العلاقات البشرية والأوضاع الاجتماعية العامة السائدة في ذلك العصر" يكشف عن تفهمه لحاجة قومه لنظام يكفل لهم الارتقاء من عهد الإقطاع والقبيلة ، إلى عهد التعايش الاجتماعي والالتزام نحو بعضهم ونحو الدولة "[٥٨] حتى أن الاستعمار نفسه لم يتمكن " من اختراع ماهو أفضل وأربط منه عندما آل إليهم حكم البلاد فيما بعد ، فاكتفى باعتماده كما هو دون أن يدخلوا عليه تعديلا يذكر .[٥٩]

٥ - دولة الأمير الوطنية:

أدرك الأمير منذ الوهلة الأولى التي تصدى فيها لتحمل المسؤولية قيمة ودور العلم والثقافة في بناء الإنسان ، ورقي الدولة وقوتها وقيمتها ، فأولاهما الحاكم الشاب

أهمية كبرى وقسطا وافرا من العناية والاهتمام وبذل كل ما في وسعه لنشر العلم والمعرفة بكل فروعها في أوساط رعيته وخاصة الشباب منها الذي يمثل الأمل المنشود لدولة المستقبل . ولم يكن ليتهيأ له تحقيق هذا الأمل السامي إلا بالعمل والاستعداد الجيد لتهيئة الظروف المناسبة حتى تسير حركة التعليم والثقافة في إمارته على الوجه الحسن الذي ارتآه لهما الأمير.

وكان حجر الأساس في هذا المجال هو الاهتمام بالكتب والمراجع مهما كانت قيمتها العلمية والأدبية ولذلك"كان الأمير -رحمه الله - يبذل كل غال ونفيس في استحضار الكتب وجلبها من الآفاق، وسواء كان ذلك عنده بالشراء أو النسخ أو النقل، وأصدر في ذلك أمره للجند بالمحافظة التامة على ما يقع بأيديهم من الكتب متوعدا في أمره هذا كل ما يبلغه عنه أنه أهان كتابا أو استنقله أو احتقر شأنه، فإنه كان يعاقب على ذلك عقابا شديدا، وكان يقدم جوائز ومكافآت مشجعة لكل من يأتيه بكتاب أو مؤلف مهما كان نوعه"[٦٠] إدراكا من عبدالقادر لقيمة الكتاب وخاصة في ذلك العهد حيث" الكتب حينئذ قليلة في البلاد"[٦١]، فمخطوط واحد يلزم لكتابة نسخة واحدة منها عدة أشهر، وهو بالزمن الطويل بالنسبة لدولة الامير التي تعيش صراعا رهيبا مع الزمن والأحداث.

ونجحت سياسة الامير في هذا الميدان نجاحا عظيما، فجمعت لإمارته الكتب المتنوعة لشتى العلوم، أسس لها مكتبة ضخمة " يسرها لطلاب العلوم والزوايا والمدارس والمساجد، وفرق الجيش تيسيره " الميرة والذخيرة" للنظاميين المتطوعين، أليسوا جميعا يحاربون؟، وأودع بقية الكتب المخطوطة في حصن " تاقدامت" مع اعز نفائس الدولة ووثائقها واسرارها ."[٦٢]

وحرصا من الامير على هذه الكتب والمؤلفات فقد حملها معه لما سقطت تاقدامت بيد العدو - مع عاصمته الجديدة " الزمالة " التي يطير بها ويتنقل بساكنيها من مكان لآخر، وحين فقد الامير عاصمته الزمالة واستولى الفرنسيون عليها، أتلفوا كل ما بها

من الكتب والنفائس من شتى العلوم، فكان وقع هذا الامر على الأمير شديدا وعظيما وفي ذلك يذكر الجنرال بول آزان " PAUL AZAN " أن الأمير كان يومئذ يعتريه الالم والاشمئزاز، وهو يتبع خطوات الفرنسيين - نحو المدية - يجمع الاوراق الممزقة المتناثرة من كتبه الثمينة على طول الطريق، تلك الكتب التي كانت قد كلفته كثيرا من الوقت والجهد في جمعها، وبفقد هذه المكتبة، فقدت ثمرة تعب أجيال في التمحيص والجمع والنسخ". [٦٣]

واختار الأمير لمن يتولى مهمة التربية والتعليم رجالا أكفاء مشهورين بتبحرهم في مختلف العلوم لينشروا رايته، واهتم بأوضاعهم ماديا ومعنويا فعين لهم مرتبات وأجورا حسب مراتبهم، وشجعهم على التأليف والإبداع وعينهم في سائر مدن وقرى الإمارة الفتية، يعلمون الناس ويحببون إليهم العلم والثقافة" وتشجيعيا في طلب العلم واحتراما له، فإن الأمير عبدالقادر أعطى أوامر باحترام المثقفين أينما وجدوا، وأنى كانوا كما أمر بإعفائهم حتى من الضرائب والمطالب على اختلاف أنواعها وأصنافها"[٦٤]

بل بلغ من احترام الأمير للعلم وأهله " أن أعفى طلبة العلم من الانخراط في سلك الجندية ليتفرغوا لطلب العلم "[٦٥] وكثيرا ما روت كتب التاريخ التي تناولت سيرته من أنه كان يباشر بنفسه إلقاء الدروس المختلفة في شتى العلوم وهو في حالة حرب ونزال، وبقيت هذه الصفة ملازمة له حتى آخر أيامه.

وكان حب الأمير لطلاب العلم وتقديره لهم حافزا قويا لهم في الاجتهاد والجد فانتشر العلم وأقبل عليه الناس أفواجا وازدهرت الحياة العلمية على الرغم من ان طرق هذه التعليم ومراحلها بقيت كما عهدناها في العهد التركي من مرحلة ابتدائية وثانوية وعالية، يتدرج الطالب من مرحلة لأخرى حسب استيعابه وقدرته على التحصيل، متمتعا بكل المزايا المادية والعلمية التي وفرتها الإمارة الفتية لطلاب العلم.

كما تطلع الأمير إلى إدخال العلوم الحديثة في مناهج الدراسة ليواكب العصر،

كالطب للعناية بالحالة الصحية الشعبية ، ففكر في بناء مدرسة عليا للطب تدرس فيها مختلف العلوم التي تتصل بهذه المهنة ، ولكن الظروف لم تسمح له بذلك ورغم هذا فإن الأمير قد ابتنى فعلا كما يذكر صاحب تحفة الزائر" مستشفى بكل مقاطعة وزوده بأربعة أطباء مهرة في ذلك العهد ، كما أنشأ مستشفيات خاصة لمرضى العساكر وهي من الأمور التي أحدثها الأمير وحاز بها الفضل على من تقدمه من حكام المغرب وأمرائها"[٦٦]

وهكذا تجلت مجهودات القائد الشاب في هذا المجال ، فعمل فيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا لأن الأمير كان يعلم أن نشر العلم والثقافة في إمارته " لم يكن إجراء إداريا فحسب وإنما هو أداء فعال لليقين في صحة ما يعتقد ويعلم ، وتعلق " بالسلاح الذي لا يذبل عطاؤه حينا ليزدهر حينا آخر ، فحروب رجل مثل عبدالقادر في بلد كالجزائر ضد أكثر دول العصر تقدما ووراثة لمخلفات حرب استمرت ثلاثة قرون بالمغرب ، وقرنين بالمشرق ، لا بد أن يكون في بعض دوافعها ونتائجها فضلا عن وسائلها ومظاهرها حربا ثقافية ."[٦٧]

٦ - القضاء في دولة الأمير:

بعد ان تم للأمير تقسيم البلاد إداريا أقبل عبدالقادر على الوظائف الشرعية ينظمها ، فعين في كل منطقة أو دائرة واسعة قاضيا عالما يفصل في الأحكام على مذهب الإمام مالك ، علما من الأمير بأن العدل أساس الملك وأن الحق والقانون فوق الجميع ، وقد وضع الأمير شروطا لمن يولى هذا المنصب أهمها أن يكون فقيها نزيها ، مشهودا له بالعفاف ، والقيام بأمور الدين .

وحتى يضمن الحاكم الشاب السير الحسن لسلك القضاء ، اهتم بالجانب المادي لهؤلاء القضاة وعيا منه بمدى تأثير المادة على الناس" فجعل لكل قاضي مرتبا شهريا محترما قدره ١٠٠ دورو (٥٠ فرنكاً)مضافا إليها رسوما يتقاضاها على بعض العمليات التي يقوم بها ."[٦٨]

وقد فصل الأمير بين القضاء المدني والعسكري، فجعل لكل قسم قاضيا خاصا يتولى البت في القضايا المطروحة أمامه ينتخب لمدة سنة، قابلة للتجديد.

ولشدة حرصه على السير الحسن للعدل في دولته " ألحق بكل مجلس إقليمي كاتبين يقوم الأكبر منهما بدراسة الفتاوى التي تصدر عن القاضي فيبت بالثانوية منها، ويحمل الأساسية إلى معسكر للحكم فيها " وربط إدارة هؤلاء القضاة بمراجعة العلامة قاضي القضاة السيد أحمد بن الهاشمي المراحي رئيس مجلسه الخاص.[٦٩]

كما حرص على أن تكون أحكام القضاء المدني والعسكري وفقا للشريعة الإسلامية التي جعلها الامير المصدر الأساسي والوحيد لحكم دولته فجاءت الأحكام مستمدة من الكتاب والسنة والاجتهاد، سعيا من الأمير في بعث دولة تذكر الشعب بعهود الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ولتمسح الصورة السيئة لحكم الاتراك باعتبار أن نجاح الدولة الفتية في رأي عبدالقادر -لا سبيل إليه إلا بإزالة الفساد الموروث " والعمل على تغيير العلاقات القديمة، أوعلى الأقل تعديلها بقدر ما تتيح بذلك الظروف والإمكانات، فيحقق الشعب الجزائري وحدته"[٧٠] .

وقد آتت هذه السياسة أكلها فالتف الشعب حول أميره الفتي واجتمع شمل الأمة حول منهاج واحد ضاربين صفحا عن خصوماتهم ونزاعاتهم، هدفهم الوحيد بناء دولة قوية لمجابهة العدو المتربص بهم تربص الذئب بقطيع الغنم .

وكانت الأحكام القضائية تنفذ في الحال وخاصة إذا كانت تتسم بالخطورة كالذنب في حق الوطن، والإدانة في قضايا التعامل مع العدو، والجوسسة له وخرق الحصار الاقتصادي المضروب عليه، وتميزت هذه الاحكام بالشدة والصرامة لتكون ردعا للغير، وهي غير قابلة للاستئناف" فقد كان المبدأ الذي يسير عليه الامير في أحكامه " أن من أعان العدو بماله أخذ ماله، ومن ساعده بذراعه قطع رأسه، ومن فضل

الامير وعد له أنه متى أشكل عليه الأمر في قضية توقف في إصدار الحكم بشأنها وكاتب علماء مصر والمغرب ليستفتيهم فيها . "[٧١]

وهكذا بفضل رعايته للقضاء واهتمامه به وعدم التراخي في تنفيذ الأحكام، ساد العدل والأمن سائر أنحاء الإمارة وتذوق الشعب حلاوة العيش تحت راية حكومة شعبية وطنية، فاختفت الجرائم وهدأت الأحوال بعد الفوضى التي شهدتها البلاد عقب انهيار الحكم التركي بل وفي أيامه .

وإلى جانب ذلك اهتم الأمير بمحاربة الفساد الاخلاقي، والآفات الاجتماعية فألغى البغاء ومنع شرب الخمر وتعاطيها في جميع أنحاء إمارته، كما حرم على جنده لعب الورق" ومنع على الرجال استعمال الذهب والفضة، إلا في الاسلحة وعلى الخيول، وأمر بالصلوات الخمس أن تكون في الجوامع، وأحدث أمورا محسنات للإمارة والمملكة لم تكن موجودة . "[٧٢]

فلا عجب إذن بعد هذا أن يرى الشعب مظاهر الامن والاستقرار حتى أن الطفل الوحيد" يستطيع أن يطوف ملكه وعلى رأسه تاج من ذهب دون أن يصيبه أذى "[٧٣]، وهل بعد هذه الصورة من تعليق سوى أن نورد قولة للأمير الحاكم نفسه، توضح قولا وعملا جهوده في هذا الميدان حين يقول" اعلموا أن الغاية الوحيدة لقبولي هذا المنصب أن تكونوا آمنين على أنفسكم وأعراضكم وأموالكم، مطمئنين على بلادكم متمتعين بوظائفكم الدينية ولا يمكن أن ابلغ مرادي من ذلك إلا بمساعدتكم مالا، ورجالا "[٧٤] .

٧ - بناء وتنظيم الجيش:

تقلد الأمير زمام السلطة في إمارته وهو يعلم أنه ينطلق من العدم، وأن عليه أن يكون عند حسن ظن مبايعيه، ولن يأتي له ذلك إلا بإنشاء دولة قوية، فأين تكمن ياترى هذه القوة ؟ إنها ولا شك تتجلى في القوة العسكرية من جيوش وعتاد، فإلى جانب كونها

تعطي صورة مهيبة للإمارة فإنها أيضا أداة لفرض النظام والأمن في ربوع الدولة الفتية التي انتشرت بها الفوضى والاضطراب بعد رحيل الاتراك، ضف إلى ذلك أن التنظيم الاجتماعي في الجزائر حين تولى الأمير السلطة، كان يعتمد أساسا على القبيلة، والحمية العصبية فلا يدين الفرد إلا لقبيلته أو عشيرته، أما ما يعرف بالوطنية والقومية فقد كان مفهومها غير متقبل أو غير متعارف عليه، وحتى في حالة الحرب أو المنازعات كانت القبائل تجمع أفرادها وفرسانها لتغزو بهم أو تنال بهم عدوا مهاجما، وفور انتهاء المعركة يعود كل فرد إلى عمله المعتاد، فلم يكن نظام الجندية مطبقا في القبائل .

ولهذا اتجهت نظرة الأمير إلى إعطاء هذا الجانب الهام الأولوية المستحقة وإلا فإن سلطانه سيظل دوما عرضة للخطر والزوال، فسينهار مع أول مواجهة حقيقية مع العدو وأي عدو ؟ إنها فرنسا صاحبة الجيوش المدربة المنظمة والعتاد الحربي الحديث والضباط الكبار الأكفاء والجنود النظاميين ذوي الكفاءة العالية تدريبا وقتالا، فكانت هذه الحقائق الثابتة غير خافية على الأمير الفارس لأنه يعلم مدى البون الواسع بين الجيش النظامي المدرب وبين الحشود المتطوعة اللا نظامية، كما أنه أيقن أن الحماسة وحدها لا تكفي وأن الشجاعة بلا تنظيم وإعداد تهور ومجازفة، وأن مقاومة المحتل ينبغي أن يعد لها العدة الكاملة، ويهيىء لها كل الظروف المادية والبشرية، فالقضية أصبحت صراعا على البقاء والدوام، واستفاد الأمير من تجارب غيره في هذا المقام "حيث كانت ثورات القبائل المتفرقة تضع نصب أعينها النضال قبل التنظيم والإعداد، ولم يستطع زعماؤها أن يتجاوزوا حدود القبيلة أو الإقليم"[٧٥] فوعى الأمير الامور جيدا وبعد رجوعه من واقعة الدوائر عقد مجلسا عموميا من رجال الدولة وأعيان الرعية وزعمائها، وخطب فيهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه" وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد منه كاف، فأجابه الجميع إلى ذلك ووافقوه عليه، وطفق المنادي ينادي بأعلى صوته في الأسواق: ليبلغ الشاهد الغائب أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد،

وتنظيم العساكر من كافة البلاد فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام، فليسارع إلى دار الإمارة" معسكر" ليقيد اسمه في الدفاتر الأميرية "(٧٦)

وهكذا بدأ عهد جديد في تنظيم جيش وطني فتوافدت الجموع التي رأت في نفسها القدرة على حمل السلاح، تتطوع بنفس راضية لتنال شرف الجهاد والقتال تحت لواء الأمير عبدالقادر . وبذلك اعتبر الأمير المجاهد " أول من كون جيشا وطنيا منظما وموحدا بناه من العدم وهيأ له الوسائل وأنشأ مصانع تنتج الأسلحة الملائمة مستعينا بخبرة الإسبانيين والفرنسيين وغيرهم "(٧٧) .

ولم يول الامير مهمة الجيش أحدا بل تصدى بنفسه لتدريبه وتنظيمه والإشراف عليه لما يمثله هذا القطاع من أهمية بالغة فعليه تتوقف قوة الدولة وعزتها ومناعتها، فلا بد إذن أن يكون الإشراف مباشرة من الامير نفسه وهو يعلم الصغيرة والكبيرة فيه فقسم جيشه إلى ثلاث فرق: فرقة المشاة- فرقة الخيالة- الفرقة الثالثة مدفعيون"(٧٨) ووضع دستورا أو قانونا عسكريا" يحتوي على آخر التفاصيل المتعلقة بالانضباط والرواتب وملابس جنده، وكانت هذه التنظيمات تقرأ مرتين في الشهر لمختلف الوحدات وكانت تتخللها الوصايا والعهود للسلوك الطيب. (٧٩) "

وقد تصدى أحد كتاب الجند - بتكليف من الأمير لوضع رسالة جامعة لكل القوانين والضوابط والنواهي والاوامر، وكل ما يتعلق بأمور الجند سماها (وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب ويليه ديوان العسكر المحمدي الملياني) استهلها كاتبها بإيراد التكليف الوارد من الأمير بقوله: " وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغائب مما أمر بتنفيذه سيدنا ومولانا أمير المؤمنين مولانا الحاج عبدالقادر نصره الله آمين"(٨٠) . وقد أوضح مؤلف وكاتب الرسالة كل ما يتعلق بالجند من نظام ولباس وعدة وعتاد وأسماء الضباط والقواد والجنود، وهي وثيقة هامة لا يستغنى عنها في دراسة

الجوانب العسكرية لدولة الامير عبدالقادر الجزائري .

وعن طريق هذه السياسة الحكيمة المنتهجة بدأت النواة الاولى لجيش نظامي يتشكل من أفراد شعب" لم يعرف التجنيد الإجباري حتى أيام الحكم التركي ، شعب تثور طبيعته حتى من مجرد فكرة التجنيد الإجباري" . [٨١]

وبطبيعة الحال فلا بد لهذا الجيش الفتي من عتاد وأسلحة حتى يقوم بالدور المنوط به على أحسن وجه ، فلا جيش بلا سلاح ومتى كان التسليح والتدريب جيدان فإن الجيش يصل إلى درجة يمكن الاعتماد عليه داخليا وخارجيا ، فانظر إلى قوله تعالى داعيا إلى الأخذ بالأسباب (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) سورة الانفال آية٦٠ – ولذلك جعل الأمير من تسليح الجيش مهمة أساسية قام بأعبائها أحسن قيام ، وطرق كل السبل لتحقيق هذه الغاية النبيلة ، فمن بين الإجراءات الأولى التي اتخذت لحماية عاصمة الدولة الجديدة هي تزويدها بالمدافع ، كما وجه بعثات كثيرة إلى مختلف الدول لشراء الاسلحة ، اتفاقا مع سياسته التي ترتكز على الحصول على السلاح من أي جهة وتنويع المصادر ولنستمع إلى تشرشل وهو يسجل على لسان الأمير قوله : " بالإضافة إلى القوات التي ترسلها إلي القبائل الخاضعة لي ، وقوات حلفاء . . . . كان لدي مؤخر جيش نظامي مكون من ثمانية آلاف جندي (٨٠٠٠) ، وألفي فارس أو صبائحي و(٢٢٤٠) مدفعاً وكان عندي عشرون مدفع ميدان ، دون ذكر مخزن كبير من المدافع الحديدية والنحاسية التي خلفها الأتراك ، والتي كان كثير منها في الواقع غير صالح للاستعمال" .

كما سعى جهده لاستيراد السلاح من الدولة الوحيدة التي عارضت الغزو الفرنسي– حفاظا على التوارن الدولي ثم تغاضت عنه – وهي انجلترا ، ولكنه فشل . ونظرا لخطورة تجارة السلاح " فإن عبدالقادر لم يسمح لقواته بشراء الأسلحة والذخيرة ، وإنما حصر هذا العمل به وبمن ينتدبه . [٨٢]

وليس معنى ماتقدم أن الأمير قد أهمل الصناعات الحربية الوطنية واعتمد على الاستيراد فقط، بل إنه سعى جاهدا لبناء معامل الذخيرة والسلاح، في كل من" معسكر" و"تاقدامت" مستعيناً بالخبرة الاجنبية " فجاء برجال الصناعة الاختصاصيين في عمل السلاح من الخارج فكان منهم الإسبان والطليان والفرنسيون أيضا[٨٣] وكان الامير يختار المواقع الاستراتيجية الحصينة، كاختياره " لمليانة" التي بنى بإحدى ضواحيها مصنعا هاما لصنع الأسلحة والذخيرة الحريبة، نظرا لما تتمتع به هذه المدينة من موقع حصين، ومن توفر المادة الأولية بها، بالإضافة إلى صلابة سكانها وبلائهم في الجهاد، والدفاع عن الوطن وهكذا أوجد الأمير صناعة حربية محلية، تعتمد على الموارد الذاتية، وعيا منه بأن السلاح أداة ضغط، فوجب الاعتماد على النفس، وبدأت مصانع الأمير في انتاج سلاح جزائري خالص، فهذه سيوف مصقولة، وتلك مدافع وبنادق تتوعد العدو بوخيم العاقبة، وبالإضافة إلى ماتنتجه المصانع من أسلحة، فقد كان جيشه يتسلح بما يغنمه من معاركه مع الفرنسيين.

ولانعدام وسائل النقل المتطورة، في دولة الأمير، اعتمد الوسائل التقليدية من بغال وحمير وخيول التي حاول عبدالقادر توفيرها لفرسانه فجعل لها نظارة خاصة، وفي هذا يورد تشرشل على لسان الأمير قوله " فقد أعطيت الأمر لخلفائي أن يقبل بدل الضرائب والغرامات، المواد الاستهلاكية والبغال والإبل وبالأخص الخيول، وكنت أستفيد من هذا كله فأركب فرساني على الخيول وأجعل البغال والإبل وسائل النقل"[٨٤] وكان يطبع على كتف خيل الأمير حرف (S) وإذا قتل الفرس في المعركة فعلى الفارس أن يقطع الحرف من الحصان" ويأخذه إثباتا لذلك وفي حال فقدان عدد من الخيول إثر معركة ما، يصار إلى استبدالها بأخرى من المنطقة التي تحصل فيها المعركة. "[٨٥]

ولحكمة القائد المدرب الواعي راح الأمير يرتب الجيش ويدربه وينظمه ويسلحه فيحسن تسليحه بقدر ما أتيح له ذلك، فأنزل بالعدو ضربات موجعة، رغم البون والفرق الشاسع بين الخصمين، كما كان الأمير المجاهد يتحمل ضربات عدوه بصبر وجلد عظيمين

أدهشت الأعداء قبل الأصدقاء، وكان دائم الحضور في ساح الوغى باسمه تارة وبنفسه أخرى، فلا عجب إذن أن " لقبه الفرنسيون بأبي ليل وبأبي نهار "[٨٦] .

ثم إن انتهاج عبدالقادر في تدريبه لجيشه لمبادئ قتالية خاصة رأى أنها صالحة لجنده، كانت نابعة من معرفته بطبيعة البلاد بجبالها ومسالكها فاستفاد من هذا، في أن يكون دوما صاحب المبادرة في النزال، ومفاجأة العدو ومهاجمته من حيث لا ينتظر.

وقد شابهت معاركه آنذاك حرب العصابات الحالية، فنأت عن الحرب النظامية واعتمدت أسلوب المباغتة والكر والفر بما يلائم قواته، وليس هذا جهلا من الأمير بخطط المعارك " ولكنه فضل المباغتة والكمائن ورفض التقيد بقانون قتال أو تنظيم معين ."[٨٧]

فها هو ناظر خارجية الأمير – المولود بن عراش – يوضح في هذه المقولة المفحمة التي رد بها على الجنرالات أساليب جيش الامير في القتال بقوله: " إننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب، ولكن محاربة هجوم وإقدام، ولو فعلت ما قلت وخرجتم بهذه القوة، كنا نتقهقر أمامكم متوغلين في الصحراء بأهلنا وأطفالنا، وفي هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لا ترجعوا عنا، ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم، ومتى سنحت الفرصة وتورطتم في فيافي الصحراء، قلبنا الكر عليكم وأحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية، وتكون ذخائركم نفذت، وقوتكم ذهبت، وعساكركم لحقها التعب وأضر بها السغب، فحينئذ ماذا كنت تصنع أيها الجنرال"[٨٨] ؟فبهت الذي سأل

٨ - التنظيم الاقتصادي:

وإلى جانب اهتماماته بالتعليم وتنظيم الجيش فإنه، لم يهمل الجوانب الأخرى التي تساعد على تقوية دولته ودفعها خطوات إلى الأمام" وإشعار الأهالي برحمة الحكم الوطني الذي حرموا منه قرونا حتى يتحمسوا له ويدافعوا عن كرامتهم التي حققها لهم

ذلك الحكم الشعبي النبيل ."[89] من جهة ومن جهة أخرى سعى الأمير إلى إرضاء ضميره الديني والوطني ، لأنه كان ينظر إلى الإمارة على أنها مسؤولية جسيمة تحملها مكرها لافتقار الشخص الكفء القادر على الاضطلاع بها .

اهتم الأمير بالجانب الإقتصادي اهتماما كبيرا لتحسين حياة الشعب ، وإيجاد الموارد الكافية لدولته ، ونصب جهده على تطويره وتذليل العقبات التي تواجهه ففي ميدان التجارة احتكر عبدالقادر التجارة الخارجية لإمارته وخاصة منها الحبوب والأصواف بموجب المعاهدات التي وقعها الأمير مع فرنسا ، واستعان في هذا المجال بخبرة اليهود الذين يشهد لهم الجميع بالباع الطويل في هذا المجال .

ولتسهيل الإجراءات المالية أنشأ الأمير دارا لصك النقود وأطلق على عملته اسم المحمدية والنصفية ، وكتب على وجه المحمدية الآية الكريمة (إن الدين عند الله الإسلام) وكتب على النصفية(حسبنا الله ونعم الوكيل)[90]

وإدراكا منه بأن العلاقات الخارجية مع الدول الأخرى تعتبر جانبا هاما لإضفاء الشرعية القانونية على دولته من خلال الاعتراف الدولي بها فيضع بذلك فرنسا أمام الأمر الواقع خاصة وأن الظروف آنذاك كانت مهيئة نسبيا أمام الأمير نتيجة للصراع بين مختلف الدول الاستعمارية حول مناطق النفوذ ، فسعى جهده تؤازره في ذلك حنكته السياسية وسلامة تفكيره ، وقدرته الدبلوماسية على مسايرة الأحداث والتفاعل معها ، فأتيح له أن يوثق صلات دولية واسعة مكثفة ومتعددة ومتنوعة مع كثير من ساسة العالم وقادته العسكريين والسياسيين والمفكرين ، وحظي بالتقدير والإكبار من طرف الجميع فتعددت مراسلاته واتصالاته مع الإنجليز عن طريق قناصلها في طنجة ومدريد طالبا التأييد والمساعدة ، عارضا بعض الامتيازات عليهم ، لما عرف عن الإنجليز من شدة المنافسة لفرنسا ، واتبع ذلك مع الحكومة الأمريكية طالبا الدعم موضحا لها مواقفه من الاستعمار الفرنسي ، مقابل امتيازات للأسطول الأمريكي ، ونفس السبيل سلكه أيضا

مع اسبانيا التي كانت ترغب أيضا في منافسة الدول الاستعمارية الأخرى، ولكن اسبانيا في هذه الفترة لم تكن قادرة على دخول باب المنافسة لأوضاعها المتردية، فكان ردها على الأمير يشوبه التردد والتلكؤ والمماطلة رغم عروضه المغرية .

كما راسل الأمير السلطان العثماني عبدالمجيد طالبا يد العون في إطار الأخوة الإسلامية وما تفرضه على المسلمين من التكاتف والتعاون، كما توسط بعض خلفائه من شرق البلاد بينه وبين دايات تونس، فراسلهم وتبادل معهم الهدايا، ونفس الأمر مع سلطان المغرب إذ كانت اتصالاته به قوية نتيجة للجوار وقوة الوشائج التي تربط الشعبين الشقيقين، وسارت العلاقات مع المغرب طبيعية إلى أن اضطر السلطان المغربي إلى محاربة الأمير تحت تهديد فرنسا .

وإلى جانب هذا يذكر فيليب دستايور شنتران PHILIPPE D' ESTAILLEUR CHANTERAINE " أنه كانت للأمير اتصالات ومراسلات مع الساسة والمسؤولين في كل من روما، وبرلين، وفينا، وسان بطرسبورغ حيث كانت اتصالاته تتركز اساسا حول استقلال الجزائر وطلب التأييد، والتدخل لدى فرنسا لوقف الاحتلال"[٩١] .

ولم يقطع الأمير الأمل يوما حتى مع عدوه فرنسا، فحاول بناء علاقات طيبة معها خاصة أثناء الفترات التي تلي توقيع المعاهدات، فأصبح لدى الأمير وفرنسا ممثل لكل طرف يرعى مصالحه ومعترف به رسميا حتى ان الاتصالات لم تنقطع في فترات الحرب .

و هكذا ساس عبدالقادر هذه الإمارة الفنية وقادها وسط ظروف عصيبة لم تكن إطلاقا في صالحه على حد قوله : " وإذا أخذنا في الاعتبار الوقت القصير الذي كان علي أن أحقق فيه ذلك، فإن إصلاحاتي لم تكن قليلة الأهمية وعلى أية حال فقد برهنت إلى مدى ما كنت أريد تحقيقه[٩٢] " ضف إلى هذا أن الأمير لم يكن وريث زعامة سياسية وإدارية او عسكرية حتى نقول عنه أنه كان مهيئا مسبقا لإدارة دفة الحكم، ولكنه " كان رجل زاوية يحيا حياة بسيطة[٩٣] " وفد إلى التاريخ من باب التخيير

والاختيار، فقد " اختير للإمارة وفق شروط معلومة نهض بها نحو سبعة عشر عاما هو ونظراؤه من أهل الذكر وأولي العلم والمشورة والرأي، وكذلك القادرون على الحرب"[٩٤].

وإن المؤرخ المنصف ليقف موقف إجلال وحيرة أمام هذه القدرة العجيبة والعبقرية الفذة التي جعلت الشاب عبدالقادر " ينظم دولة فيحسن تنظيمها ويدون دواوينها ويضبط أمورها ويصك النقود ويربط لها علاقات متينة مع الخارج وينشر دعايتها ويكتسب لها الأنصار[٩٥] ".

ولعل افضل ما نسوقه في هذا المضمار شهادة أحد المؤرخين الفرنسيين – والحق ما شهدت به الاعداء –لا حباً في الأمير، ولكنها الحقائق تفرض نفسها يقول أوغستان برنار – AUGUSTIN BERNARD : "وقد أظهر الأمير بعد أن وسد إليه الأمر على الرغم من أنه ابن الزوايا والطرق حنكة سياسية وبراعة عسكرية فائقة، وكان يتمتع بصفات تدل على أنه خلق ليحكم، فكان بسيطا في لباسه، متواضعا في معشره، أنيقا جميلا شجاعا فارسا، وكان متدينا عن إخلاص ومن صميم فؤاده ولم يطلب الإمارة لإشباع أطماع نفسه بل ليقود أمته في طريق الفلاح كان قاسيا عند اللزوم، رحيما عند الاقتضاء وكانت شدته ولينه بحساب وتقدير، وقليل مثله في المسلمين وكان يدرك معنى الدولة إدراكا تاما، كما كان يدركه هو بكل تفصيلاته وجزئياته من النظام، والإدارة وجباية الضرائب وتنظيم الجيش، وكان أجل وأبرز أعدائنا في الجزائر[٩٦] " .

٩ - جهاده وحروبه:

بهذا التنظيم المحكم الذي أبداه الأمير في تكوين دولته استطاع أن ينظم أمور البلاد وأن يدخل مع فرنسا في معارك ومواقع كثيرة غير متكافئة البتة لا في العدد ولا في العدة، ومع ذلك استطاع انزال الضربات القاصمة والموجعة بتجمعات وجيوش فرنسا في أي مكان وزمان شاء، فقد كان زمام المبادرة بيده، ولم يستطع العدو أن ينال منه

حتى في الأوقات التي كان يظن أن الحلقة قد استحكمت من حوله كان الأمير يفلت منها بأعجوبة وقدرة رائعتين.

تجلت شجاعته وعبقريته في كثير من المعارك ولعل معركة مستغانم بالخصوص ستظل شاهدا على خبرة ومهارة كبيرة في الإلمام بفنون الحرب، فبعد أن حاصر الأمير المدينة تقدم في مجموعة من أبطاله نحو السور قصد هدمه، وأعملوا فيه معاولهم تحت وابل قنابل المدفعية الفرنسية التي لم يعبأ بها الامير وجنده ولاستحالة هدم السور، أمر عبدالقادر بحفر خندق تحت الارض يصل المعسكر بأسوار المدينة وملأه بالبارود وأوقد فيه النار ليحدث بعدها انفجار كبير ولكن الضغط لم يكن كافيا، فلم تأت العملية بأية نتيجة إلا أنها بقيت - بشهادة أعدائه - دليلا على خبرة الأمير في فنون الحرب آنذاك[٩٧] .

ولما توالت انتصارات الامير على الجيوش الغازية خاصة بين سنتي ١٨٣٢ - ١٨٣٤ اضطرت فرنسا إلى الاعتراف بدولته وعقدت معه معاهدة عرفت باسم معاهدة دي ميشال[٩٨] نسبة إلى الحاكم الفرنسي على وهران واعتبر المؤرخون مجرد التوقيع عليها انتصارا سياسيا ودبلوماسيا له، حيث اعترفت فيها فرنسا " بسلطة الأمير على كامل الإمارة في مقابل إقراره لفرنسا بالسلطة على مدن الجزائر، مستغانم ووهران وأرزيو"[٩٩] .

وبذلك انصرف إلى تدعيم وتقوية دولته الفتية والبحث عن أسباب القوة والمناعة لها، وهو أمر لا يروق فرنسا - طبعا - فاختلفت الأسباب ونقضت المعاهدة ولم يمر عليها أكثر من عام واحد، بسبب قبائل الدوائر والزمالة[١٠٠] التي أعلنت انضمامها ورضاها بالعيش تحت راية فرنسا، مما أغضب الامير واعتبر هذا التصرف إخلالا بنص المعاهدة، وكتب إلى تريزيل بقوله " إن كنت ولا بد معتمدا على انفاذ ما صورته أفكارك من إدخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلكم من عندي

واختر لنفسك ما يحلو وميادين المعامع تقضي بيننا، ومسؤولية إهراق الدماء واتلاف الأموال راجعة إليك وعليك". [١٠١]

ونادى الامير أن حي على الجهاد فلبى الناس النداء المقدس وجاؤوه على كل ضامر ومن كل فج عميق يدفعهم الحماس بنصرة الدين والوطن طاعة لأميرهم المفدى الذي بايعوه على أن يكونوا معه ورهن إشارته في السراء والضراء.

وماهي إلا جولات وصولات حتى استبان لفرنسا خطأها بنقضها المعاهدة وأنها لا قبل لهابمحاربة الأمير على الأقل في هذه الفترة وعلى الرغم من أن الصراع لم يكن متكافئا إلا أن قوات الأمير كانت مشبعة إيمانا وشجاعة وهو ما افتقدته جيوش الغزاة التي بلغ تعدادها بعد نقض المعاهدة دي ميشال – DE MICHEL الخمسة آلاف جندي من المشاة، وفرقة من الخيالة، وأربع مدافع من القطع الكبيرة، وعشرين عربة تحمل زادا عدا العربات الاحتياطية وجيش الدوائر والزمالة[١٠٢] " واستطاع الأمير البطل بجيشه الذي لا يزيد عن ٢٠٠٠ فارس و١٠٠٠ من المشاة أن يلحق الهزائم المتوالية بجيش العدو فكانت معركة "سيق" وعاودها الأمير صولة ثانية وسيوف قومه لم ترد إلى أغمادها لتكون معركة "المقطع"[١٠٣] الشهيرة التي أحدثت هزة عنيفة في فرنسا ذاتها أدت إلى تغييرات كبيرة في الجيش، فاستدعي الجنرال " ديرلون" وحل الجنرال "دارلنج" محل الجينرال "تريزيل " المهزوم وعين المارشال "كلوزيل" مرة أخرى ليفتح عهدا جديدا[١٠٤].

وقد أسفرت هذه المعركة عن نتائج يمكن اجمالها فيمايلي .

إن هذه المعركة لقنت الجنرال تريزيل درسا قاسيا لن ينساه، شهد به في رسالته إلى الوالي العام بقوله: "قد أضعت هذه المعركة المهلكة واضعت آمالا كانت تبدو لي معقولة ولكنه كان لي من الضروري الحصول على النصر، وليس من شك في أني قد بالغت في تقدير قوتي، كما بالغت في عدم تقدير قوة العرب، ومهما يكن من شيء فإني

أرزح تحت ثقل المسؤولية التي أقدمت على تحملها وأنا على استعداد لتقبل اللوم دون أن أنبس ببنت شفة وكذلك كل إجراء صارم ترى حكومة الملك من الضروري إتخاذه في حقي" . (١٠٥)

إن هذه المعركة قد أفسدت أيضا على الوالي العام خطته التي كان يستعد لها ، والتي بموجبها سيوقع اتفاقية مع الأمير من موقف قوة فأفسد الجنرال تريزيل عليه ذلك .

أما النتيجة الأهم فهي انهيار معنويات الجيش الفرنسي وإدراكه لحقيقة ثابتة وهي أنه لن ينال من الأمير مهما قويت شوكته لأنه يحارب بلا مبدأ ولا هدف ، يحارب من أجل قضية خاسرة ، وإليك صورة من صور هذا الجيش المنهزم بعد إحدى معاركه كما وصفها بعض الكتاب الفرنسيين . " . . . . كذلك صار الجنود الفرنسيون من هول الحرب كما هلاميا لا نظام له يريدون الفرار ولا يستطيعون ، يدورون حول أنفسهم كالدوامة مشدوهين لاهثين كانما قد مسهم مس من الشيطان ، فمنهم رجال عراة عزل من السلاح يندفعون ضاحكين ملء أفواههم أمام العرب ، وآخرون أصابهم العمى يهومون في جداول لا يرونها ويسبحون في شبر من الماء ، وهناك غيرهم يبحثون على ركبهم ينشدون الأناشيد للشمس وقد سلطت عليهم لهيبها المحرق فأفقدهم صوابهم ، لقد فقد الجميع شعورهم بمواقعهم وبواجباتهم بل فقدوا حتى غريزة حب البقاء . . . رجال ينتحرون ، ورجال تأكلهم الحمى ، والقيادة صامتة . . . يصارعون الموت وليس معهم قوت يومهم ، ويتناحرون فيما بينهم للظفر بأحشاء الحيوانات النافقة" (١٠٦)

ومن أشهر المعارك أيضا التي أدارها الأمير القائد بقوة واقتدار كبيرين معركة "سيدي ابراهيم "التي سنعرض لها فيما بعد ، وهكذا لم يجد العدو أمام هذه الضربات الموجعة إلا أولئك الأهالي العزل من السلاح ليصب عليهم جام غضبه ولينتقم من الشيوخ والنساء والأطفال ، بعد أن أعيته الحيلة قي مواقع النزال فراح يتفنن في ابتكار وسائل القتل والتعذيب والتشريد ، وسياسة الأرض المحروقة ، لكن وعلى الرغم من ذلك لم يتخل

الشعب عن قائده، ولم يتوان مرة واحدة عن تلبية نداء الجهاد، فكان بعد كل مجزرة يتعرض لها يجدد العهد بدمائه على مواصلة المشوار والذود عن الشرف المداس.

و ما فتئ الأمير يسجل انتصاراته المتوالية ويلحق بفرنسا أفدح الخسائر، فهو معهم أينما ولوا، يأتيهم من حيث لا يحتسبون، يعكر عليهم صفو راحتهم، ويبعد ذكرى النوم عن أجفانهم، فحسبهم أن يذكر اسمه لتستنفر قوات فرنسا إلى أقصى حد، وبذلك تحطمت آمال العدو أمام صلابة صخرة المقاومة الشعبية الوطنية فلم تجد فرنسا بدا من مصالحة الأمير لتسترجع أنفاسها، وأوعزت إلى سفاحها الجنرال " بيجو " BUGEAUD أن يسعى لعقد معاهدة مع الأمير تبقي لفرنسا بعض ماء الوجه وتحافظ على شرفها إن بقي لها شرف يذكر.

و استمرت الاتصالات والمفاوضات بين الأمير والجنرال إلى أن كللت بتوقيع معاهدة تافنا TAFNA الشهيرة في السادس من ربيع الأول سنة ١٢٥٤هـ الموافق لأول حزيران ١٨٣٨ م والتي اشتملت على خمسة عشر بندا[١٠٧].

وقد أتاحت هذه المعاهدة للأمير أن يحقق مكاسب هامة تمثلت أساسا في الانصراف للاهتمام بشؤون دولته وتدعيم سلطانه على القبائل الخارجة عليه. كما اضفت هذه المعاهدة على إمارته صفة الدولة الرسمية باعتراف فرنسا الصريح بدولة الأمير وتبادل التمثيل الديبلوماسي معها.

وبعد التوقيع على هذه المعاهدة جرى لقاء بين الأمير وبيجو[١٠٨] بطلب هذا الأخير وتركت هذه المقابلة أثرا في نفس الجنرال الفرنسي عبر عنها بقوله: " . . . وقبل أن أدخل معه في الحديث أخذت أتأمل وجهه وكسوته لحظة، إنه شاحب اللون وصورته قوية الشبه بالصورة التقليدية المعروفة للمسيح وعيناه مثل لحيته كستنائية اللون، مظهره العام يدل على التقوى والخشوع[١٠٩] ".

وبعد أن أمنت فرنسا جانب الأمير، هاجمت قواتها قسنطينة فاحتلتها وتوسعت

لتستولي على جيجل وسطيف وغيرها من المناطق الشرقية" ولم يحرك الأمير ساكنا ولم يحاول أن ينجد قسنطينة ولو فعل ذلك لتطورت الأحداث تطورا آخر وكان سكوته وإحجامه عن نجدة قسنطينة سببا قويا لتفرغ الفرنسيين بعد ذلك لمحاربته بشكل أعنف وأخطر[١١٠] . "

وكعادة المستعمر – في عدم الوفاء بعهوده – سارعت فرنسا لنقض معاهدة تافنا بعد أن رأت الأمور تسير في غير صالحها، فهاهي دولة الأمير تقوى وتتعاظم، والسكوت عنها يعني زوال الحكم الفرنسي من البلاد، لذلك سارعت فرنسا لاختلاق الأسباب لتدفع الأمير إلى نقض المعاهدة، ولما خابت مساعيها لجأت إلى الاستفزاز عن طريق الاخلال ببعض شروط المعاهدة كتجاوزها الحدود المتفق عليها .

وعلى الرغم من أن الأمير كان واسع الصدر صبورا، ألا أن تصرفات فرنسا الاستفزازية أفقدته صبره ليبدأمعها فصلا جديدا من الجهاد المتواصل ونودي بالجهاد في ٢٠ نوفمبر ١٨٣٩[١١١]، واستمرت المعارك بدون هوادة ولا انقطاع ضرب فيها الأمير وأبطاله أروع الأمثلة في التضحية والشجاعة مما ألجأ فرنسا إلى انتهاج سياسة (فرق تسد) بين القبائل، كما اتبع الجنرال بيجو سياسة الأرض المحروقة مما نتج عنها استسلام بعض خلفاء الأمير بعد أن أخذت مظاهر الضعف والوهن تبدو عليهم، وهكذا توالت الهزات في جيش الأمير، وكانت المصيبة الكبرى بسقوط (الزمالة) عاصمته المتنقلة في ١٨٤٣ " حيث انسحب سلطان العرب متأثرا بجراحه أمام العدو الذي كان يلاحقه[١١٢] .

لكن الأمير لم يستسلم، ولم ييأس قط حتى وهو في أشد حالات الإحباط والضعف ولم يفوت على نفسه اية فرصة لمناوشة عدوه، فكان يكر ويفر، يهاجم ويتراجع بما تبقى له من الفرسان، واستطاع رغم هذه الظروف القاسية أن يلحق بفرنسا هزيمة نكراء في معركة سيدي ابراهيم بتاريخ ٣٢ سبتمبر ١٨٤٥ التي انتصر فيها الامير انتصارا عظيما فكانت على الفرنسيين كارثة حيث أصيب فيها قائد القوات الفرنسية

مونتنياك MONTINIAC برصاصة في أسفل بطنه[١١٣] . ولنستمع إلى أحد الجنود الفرنسيين الذي نجا من الموت بأعجوبة في هذه الموقعة ، فقد صرح في سبتمبر ١٨٩٢ أي بعد مضي ٤٧ سنة على المعركة بقوله : " كنت خلال خمسة عشر عاما بعد المعركة تتردد في أحلامي في كل ليلة بعض تفاصيل المعركة الرهيبة ، وحتى اليوم لا تزال تفاصيل المعركة حية في ذهني كما لو شاهدتها أمس[١١٤] " وذلك لهول مارآه في هذا اليوم المشهود .

ولما سدت في وجه الامير السبل ، ولم تبق امامه إلا الناحية الغربية المتاخمة للحدود المغربية اضطر إلى الالتجاء اليها ، ليجمع قواته ويطلب العون ، فاتصل بسلطان المغرب الذي لم يستجب لنداء الأخوة تحت تهديد فرنسا له باحتلال المغرب ، وفعلا فقد ضربت فرنسا مدينتي (طنجة ومغادور) ببوارجها الحربية مما اضطر مولاي عبدالرحمان بن هاشم إلى عقد صلح مع فرنسا في ١٠ سبتمبر ١٨٤٤ بشروط مخزية[١١٥] أملاها عليه الجنرال بيجو " من بينها طرد الأمير من الأراضي المراكشية ، والقبض عليه في أي فرصة تتاح من أجل سجنه أو قتله أو تسليمه[١١٦] . "

و هكذا عاد الأمير بما تبقى معه من جند إلى أرض الوطن سنة ١٨٤٥ بعد أن يئس من مساعدة سلطان المغرب ولسان حاله ينشد بتحسر ومرارة قول الشاعر طرفة بن العبد[١١٧] :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

و في هذا الظرف العصيب الذي تمر به المقاومة الشعبية ، ازدادت امدادات العدو ونجداته ، وبدأت في محاصرة الأمير وملاحقته أينما ولى ، مما اضطره إلى العودة ثانية إلى المغرب ، وهنا لم يجد السلطان المغربي– وتحت التهديد الفرنسي – مفرا لتجهيز الجيوش المغربية لمحاربة اخوته في الدين ، الفارين اليه فوجه جيشا ضخما تعداده

٥٠,٠٠٠ جندي أسند قيادته لابنيه الأمير أحمد ومحمد، وحصلت بين الجيشين الشقيقين – وبكل أسى وحسرة –" معركة طاحنة يوم ١٥ ديسمبر ١٨٤٧ على ضفاف نهر ملوية تكبد فيها المغاربة خسائر فادحة، وقتل للأمير أربعة أفراس كدليل على شدة وهول الموقعة، التي دخلها عبدالقادر مضطرا بعد أن كاتب علماء مصر بشأن موقف السلطان منه، فأفتوا بقتاله[١١٨] . "

وبعد انتهاء هذه المعركة انصرف " الأمير وقد أيقن بانتشار سلكه وذهاب ملكه[١١٩]، خاصة وأن الجنرال لامورسيال L AMORSIERE كان يتربص به غير بعيد من مكان المعركة وسد عليه جميع السبل، فعلم الأمير أن ساعة النهاية قد آنت، وأنه هالك لا محالة ومن برفقته من الجرحى والأرامل والأطفال " فجمع خاصته وذويه واستشارهم في الامر فكان ردهم جميعا: الرد لمولانا وسيدنا فالذي يراه نحن معه فيه"[١٢٠]، وتدارس القوم الموقف بمنتهى الحرية والشورى وأجمعوا رأيهم على أن يكون التسليم للفرنسيين . فبعث الأمير رسولا منه إلى الجنرال لامورسيال الذي لم يصدق الخبر واهتز لذلك فرحا وسرورا، فسارع بإرسال سيفه مع ورقة مختومة على بياض ليشترط الأمير ماشاء، وأرسل لتوه إلى الدوق دومان DAUMAN ابن ملك فرنسا حاكم الجزائر الذي سارع إلى الحضور ليشهد هذا الفصل التاريخي وأعطى للأمير ميثاقا غليظا ووعدا أكيدا بقبول كل شروطه، وتم الاتفاق على مايلي:

- أن يحملوه مع جميع عائلته إلى عكا أو الإسكندرية .
- أن لا يعترضوا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر.
- أن الذي يبقى منهم في الوطن يكون آمنا على نفسه.

وهكذا، استسلم الأمير في ١٥ محرم ١٢٦٤هـ / ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧م[١٢١]، بعد أن صلى ركعتين بزاوية سيدي ابراهيم التي شهدت تلك المعركة الرهيبة بينه وبين فرنسا.

وبذلك طويت صفحة مجيدة من صفحات الجهاد المقدس الذي حمل لواءه الأمير

مدة سبعة عشر عاما وستة اشهر وثمانية أيام[١٢٢]، والذي بقي نبراسا اقتدت به الأجيال بعده، وغادر الأمير الجريح أرض الوطن ولسان حاله يردد بحسرة:

إن يســـلب القـــوم العــدا
مــلكي . وتُسْلمني الجموعُ
فالقلب بين ضلوعه
لم تُسْلِم القلب الضلوع
أجلي تأخر.لم يكن
يهواه ذلي والخضوع
ما سرت - قط - إلى القتا
ل .وكان من أملي الرجوع
شيم الأولى، أنا منهم
والأصل تتَّبع الفروع

وقد حيرت هذه النهاية الحزينة لهذا البطل كثيرا من المؤرخين والدارسين وقد سماها بعضهم حيرة التاريخ، ذلك أنه إذا كان الأمير على هذا الحال من السيطرة والعظمة الإنسانية والفروسية الحقة، فلماذا كانت النتيجة عكس المأمول . . . وأي داع جعل الأمير يختم مصيره بالاستسلام ؟.

بينما ذهب البعض إلى حد اتهام الأمير بالخيانة دون مراعاة الظروف القاسية التي كان يعيشها عبدالقادر ومن معه بين فكي كماشة أحد طرفيها عدوه فرنسا، والآخر قريب تربطه بالأمير صلة الدم واللسان، وقد أحسن بول أزان -PAU AZANوصف هذا الموقف بدقة في قوله: " كان الأمير محاصرا بسياج محكم، فهل يستطيع المرور عبر الثغرات في هذه المرة؟. [١٢٣]

وكلا المتربصين ينتظر لحظة وقوع الفريسة للانقضاض عليها، فالأمير فقد أبطاله

ورجاله وهو يقارع الأعداء، وتخلى عنه قواده وخلفاؤه، وخانه ذوو القربى وأصبحت " زمالة" الأمير تعج بأرامل الشهداء وأطفالهم وهي أمانة في عنق القائد عبدالقادر، أيستسلم ليوفر لهم عيش كريما وشرفا مصانا أم يغامر وهو يدرك جيدا أن مثل هذا التصرف ماهو إلا تهور سيؤدي حتما إلى كارثة ونهاية أشد قتامة وسوادا . وهو ما وعاه الأمير وتدبره مؤمنا بأنه أمام اختيارين لا ثالث لهما أحلاهما مر، فإما أن يستسلم وبشروط مشرفة، أو ينتحر ومن معه فاختار الأول.

فإذا لم يكن في الاستسلام بطولة فبدون شك فإن الإنتحار ليس موقفا بطوليا أيضا، ولنعد إلى التاريخ نتصفحه فسنجد أن هناك رجالا عظماء لهم منزلتهم التاريخية الكبرى في الحرب مثل" حنبعل " الذي استسلم لروما "ونابليون الأول" الذي استسلم لبريطانيا، «ولم نجد من المؤرخين من اتهم حنبعل أو نابليون بالخيانة وعلى هذا الأساس يظل الأمير الذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه بطلا عظيما رغم هذا الاستسلام»[١٢٤] .

١٠ - الأمير الأسير:

غادر الأمير أرض الوطن التي أفنى في سبيلها زهرة شبابه، ووهبها روحه ونفسه وقلبه ينفطر حسرة وألما، راضيا بقضاء الله وقدره، ساخرا من هذا الزمن الذي لا يبقي على حدثانه، هو وأتباعه الثمانون في ١٧ من محرم ١٢٦٤ هـ الموافق لـ ٢٥ من ديسمبر ١٨٤٧ على متن السفينة أسمودس ASMODEUS حيث توجهت بهم تمخر عباب البحر المتوسط إلى ميناء طولون TAULON الحربي في ٢٤ محرم ١٢٦٤هـ -١ يناير ١٨٤٨ م، وسيق الأمير ورفاقه إلى قلعة لامالق LA MALAGUEوهناك أحس أميرنا أنه خدع، وأن فرنسا قد أخلت بوعدها، وأن الأيام القادمة ستتمخض أحداثا لا يعلم أمرها إلا الله، وأيقن القائد الأسير أن لا ملاذ له إلا الصبر والتجلد، فستبدأ فصول مسرحية جديدة طبختها فرنسا لإثنائه عما قرره في نفسه من الانتقال إلى المشرق. وصدق حدس الأمير بحيث لم يكد يمر اليوم التالي حتى تقدمت الحكومة الفرنسية

بعرض سخي تمثل في – مكانة مرموقة في فرنسا : قصر ملكي وحرس شرفي وكل الأبهة والحاشية الجديرة بأمير" مقابل أن يتنازل عن شرط ترحيله إلى " عكا" أو «الاسكندرية» فكان جواب الأمير فاصلا وحاسما : " إني لا أقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج ، وها أنا بين أيديكم فافعلوا ما بدا لكم ، ولا يمكن أن أترك طلب الوفاء بالعهد مادمت حيا[١٢٥] " ولما خابت فرنسا في مسعاها المغري ، عرضت على الأمير التوجه إلى باريس أسوة بابراهيم باشا خديوي مصر ، عسى أن يغير من رأيه وهو يرى عاصمة النور والحرية ، ولكن عبدالقادر أفحم أعداءه بقولة تنم عن إباء وكرامة إذ قال لمحدثه وهو يحاوره : " إن ابراهيم باشا يرى باريس وغيرها من أمصار فرنسا منتزها له يمرح فيه كيفما شاء ، واما أنا فلا أرى فرنسا الآن إلا سجنا لي ولمن معي ، فلا فرق عندي بين طولون وباريس"[١٢٦] .

وهكذا وجدت فرنسا نفسها أمام رجل عظيم لا يبيع أقواله ومبادئه بزخرف الدنيا ومتاعها ، فالرجل بطل حرب وبطل كلمة ، وأيقنت أن لا سبيل مع الأمير المصمم على أمره ، فتركته أسيرا لعل الأيام والأسر يتكفلان باحباط عزيمته ، ويثنيه عن اصراره وصموده . ولكن هيهات فالذي صبر على المكاره لعشر وأردفها بسبع ولم ييأس وهو في أشد حالات الإحباط والضعف ، لم يكن أن يخضع لمثل هذه الإغراءات المادية التي لا تخدع أميرا فارسا مثل الأمير عبدالقادر .

وتمر الأيام وهو يصبر ويصابر ، ويشجع أهله ورفاقه يمنيهم بقرب الفرج بإيمان قوى وعزيمة جبارة لا تعرفان اليأس ، حتى كانت الثورة الفرنسية التي أطاحت بالملكية وأعلنت الجمهورية سنة ١٨٤٨ " والتي طلب زعماؤها من أسيرهم أن يكتب لهم تعهدا بالأصالة عن نفسه وأتباعه ، بعدم العودة إلى الجزائر فكان لهم ماأردوا[١٢٧] ، وبعد انتظار طويل وصله الرد مخيبا للآمال ، هذا نصه : " إن الجمهورية لا ترى نفسها مقيدة بأي التزام لعبد القادر وإنها تعتبره كما تركته الحكومة الفرنسية أسيرا "[١٢٨] .

وكان الرد صدمة قوية للأمير تحملها بجلد، وعلم أنه أمام عدو لا يعرف للكلمة قدرا، ولا للشرف وزنا، ولا للعهود والمواثيق اعتبارا، لذلك فقد شعر أنه سيكون أسيرا مدى الحياة وأسلم أمره للقدر يفعل به مايشاء، ووضع رقابة ذاتية تضبط عواطفه التي كانت حتى الآن ثائرة، وعادت عظمة نفسه إلى سموها المعتاد(١٢٩) ."

ولم يلبث الامير طويلا في أسره " بطولون" حتى نقل ومرافقوه إلى سراية بو "PAU عند الحدود الفرنسية الإسبانية وظل الأمير الأسير متنقلا بين السجون الفرنسية فمن طولون إلى بو إلى بوردو- BAURDAU ومنها إلى نانت- NANTEليستقر به المقام الأخير في قلعة أمبواز - AMBOISE والحكومة الفرنسية لم تفتأ تراوده وتغريه بالوعود ليتنازل عن حقه في الذهاب إلى المشرق، لكن القائد الأمير ظل كما عهدناه رافضا كل المغريات، فإما أن يطلق سراحه، أو يقضى نحبه ويكون في ذلك العار لفرنسا للأبد، ولنستمع إليه وهو يؤكد هذه الحقيقة الثابتة " لو جمعت فرنسا سائر أموالها، ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا، وبين أن أكون حرا فقيرا، لاخترت أن أكون حرا فقيرا، فلا تراجعوني بمثل ذلك الخطاب فإنه ليس عندي بعد هذا الخطاب جواب، وإلى الله ترجع الأمور"(١٣٠) .

تألم الأمير عبدالقادر وسلم أمره لقضاء الله فالأسر سيطول، ولذلك فعليه أن يفكر في أمر يشغل به هذا الفراغ الرهيب، فانطلق بنفس مؤمنة قوية " يتفرغ لمااختار من الموضوعات العلمية من قبل في قلعة أمبواز فحولها إلى خلية نحل للدراسة وداوم مدة خمس سنوات على التدريس والإفاضة والبيان والتثبت لإفادة خاصته البالغين نحو ثمانين فردا وهكذا وجد الأمير عزاءه بين الكتب والعلوم والعبادة، ووضع لنفسه وأتباعه نظاما زمنيا صارما، فأوقاته مضبوطة بدقة وموزعة على هذه الأمور، وبذلك لم يشعر بثقل أيام الأسر اللعينة،" واستطاع عبدالقادر أن يقرأ السنوسية في التوحيد مثلما كان قد قرأها أثناء الاشتغال بالمعارك الحربية . . . . وقرأ على أصحابه أكثر مدونات الفقه المالكي شهرة بالمغرب عامة وتلمسان خاصة، وهي رسالة الإمام ابن أبي

زيـد القيرواني وغيرهما[١٣١]، كما قرأ الأمير على رفاقه صحيح البخاري وكتاب الشفـاء للإمام عياض[١٣٢] ".

وإلى جانب التدريس وحلقات العلم، والقيام بأمر العبادة استطاع الأمير أن يؤلف في هذه الفترة العصيبة في سجنه كتابه " المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في ديـن الإسلام من أهل الباطل والإلحاد"وقد اعتبر هذا المؤلف أشبه ما يكون "بالمنشور السري الثوري ضد ديكتاتورية فليب الثاني هذا الذى حظر على الناس البوح بآرائهم ولم يعطي حق التصويت إلا لأقل من واحد بالمائة[١٣٣] ".

وأيقنت فرنسا أنها أمام رجل عظيم حقا لا يلين له عضد، ولا تجدي معـه الدسائس والمؤامرات فانقلب كيدها إلى نحرها، فعبد القادر كما عهدته من قبل، بـل أقوى وأشد بأسا، لقد عرفته رجل حرب جرعها مرارة الهزيمة مرارا في الجزائـر لتفاجأ به رجل قلم وفكر في فرنسا ذاتها، فيالسخرية القدر.

وعن طريق هذه النافذة الثقافية دلف إليه العلماء في منفاه في فرنسا وطـلاب المعرفة وكثرت محاوراته ومراسلاته واستطاع الأمير بذلك أن يسبق غيره بفتح عصر المناظرات والمجادلات العلمية بين المسلمين وأهل الديانات الأخرى، بعد أن أغلقت أو كادت أن تنتهي مع نهاية الحروب الصليبية " وقبل أن تنشب بعشرات السنين، فـي عنفوان عصور الاستعمار بين " الأفغاني ورينان " وبين " محمد عبدو ولوبـون ودي هانوتو وبريليتو" ثم بين قاسم أمين وداركور[١٣٤] "

وإلى جانب هذه المحاورات نظم الأمير كثيرا من قصائده الشعرية التي جادت بها نفسه الأسيرة في معتقله بأمبواز، وخاصة قصائده في الشكوى والحنين للأهالي إلى جانب بعض المقطوعات أو المساجلات الشعرية في سبيل التفكه والشكر وأشهرها تلك التي كانت بينه وبين الشيخ الصوفي محمد الشاذلي القسنطيني[١٣٥].

وعلى هذا النمط سارت حياة الأمير الأسير بأيامها ولياليها، وعبد القادر لم يزل

المقاتل العنيد" وكلما حدث من أمره هو أنه استبدل سلاحا بسلاح ولاقى كل موقف بما يناسبه من السلوك، وانتقل من سطوة الإمارة بالجزائر إلى ظلم السجن ووحشته وهو على حاله من طلب العلم وإيتائه بكل وسيلة، وأصبح العالم المتفرغ للعلم بعد أن كان العالم المشتغل بالحكم"(١٣٦) .

وتوالت الأيام والليالي حتى كان الـ ٢ من محرم ١٢٦٩ هـ/ ١٧ اكتوبر ١٨٥٢ حين زار البرينس لويس نابليون- LOUIS NAPOLION الأمير في سجنه وعلى الرغم من العراقيل والصعوبات التي وضعت أمام هذه الخطوة بغرض عدم اتمام الزيارة، ولكن نابليون كان مصمما" فضرورة انقاذ الشرف القومي، الذي طال تلطيخه بإخلاف الوعد سيطرت على عقله فوق جميع الاعتبارات الأخرى(١٣٧) " .

وخلال هذه الزيارة أثنى نابليون على الأمير ومدح فيه خصائل الصبر والتجلد التي أبداها خلال فترة أسره بإطلاق سراحه مشترطا عليه إلا يفكر مطلقا في العودة إلى الجزائر فكان لنابليون ما أراد، ودعي الأمير إلى باريس فدخلها في ١٤ محرم ١٢٦٩ هـ/ ٢٨ اكتوبر ١٨٥٢ م، وقد أقيم له استقبال رسمي حار وفيه قدم الأمير تعهده بالكتابة بعدم العودة أبدا إلى الجزائر ومما جاء فيه مايلي :

" . . . إنني جئت لأقسم لك بالله العظيم وبكل الأنبياء والرسل أن لا أفعل شيئا يتنافى مع الثقة التي وضعتها في، وعلي أن التزم بهذا القسم التزاما دينيا بأني لا أعود أبدا للجزائر، فعندما أمرني الاله بالنهوض نهضت، وقد استعملت البارود إلى أقصى حد مكنتني منه وسائلي وطاقتي، ولكن عندما أمرني بالتوقف توقفت، وعند ذلك، تخليت عن السلطة واستسلمت"(١٣٨) .

وبعد أن قام الأمير بجولات مختلفة في فرنسا غادرها مكرما معززا في الفاتح من ربيع الأول ١٢٦٩هـ/ ١٣ ديسمبر ١٨٥٢ على ظهر السفينة لابرادو قاصدا الشرق(١٣٩) .

١١ - الأمير في الشرق:

وصل الأمير الأستانة عن طريق صقلية فدخلها يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول ١٢٦٩ هـ / ٨ يناير ١٨٥٣م [١٤٠] وفور وصوله توجه لزيارة ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري (رضي الله عنه) عند سور القسطنطينية، ولما فرغ منها توجه إلى جامع صوفيا، فزاره وقابل الصدر الأعظم المرحوم مصطفى رشيد باشا الذي أكرمه وأحسن استقباله .

وفي يومه الثالث دعي لمقابلة السلطان عبدالمجيد الأول الذي رحب بالأمير شاكرا أفعاله وخصاله في الذود عن حياض الدين والوطن، وامتدحه الأمير بقصيدة طويلة عدد فيها مناقب ومفاخر آل عثمان وحرصهم على الدفاع على الإسلام وسعيهم للحفاظ على عزته وقوته داعيا له بالنصر [١٤١] .

انقضت عشرة أيام في الآستانة، كانت حافلة بالزيارات تبادل فيها التحيات والأشعار ليغادرها عبدالقادر إلى بروسة حيث استقبله خليل باشا صهر السلطان بغاية التبجيل وأنزله منزلا كريما، ولما نظر الأمير إلى موقع المدينة ألفاها شبيهة بمدينة تلمسان، فجاشت كوامن الشعر وأنشد[١٤٢] :

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى نساء الحي غير نسائها

واستقر عبدالقادر بهذه المدينة ينعم بالهدوء والدعة، يحظى بكل تقدير وتبجيل واحترام من العام والخاص معتكفا على القراءة والتدريس، وكانت صلواته الخمس في الجامع القريب من سكناه المعروف بجامع العرب، حيث كان يلقى فيه الدروس فدرس فيه " ألفية ابن مالك بشرح المكودي والسنوسية بشرح المصنف والإبريز في مناقب سيدي عبدالعزيز"[١٤٣] كما ألف في هذه الفترة من إقامته ببروسة " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" .

ومع أن الأمير كان في أرض إسلامية وبين إخوانه في الدين، إلا أنه كان دائم الإحساس بالغربة والحنين إلى وطنه الجزائر، ولعل مرد ذلك كما يذكر تشرشل: " إلى أنه لم يكن بينه وبين الأتراك عاطفة ممكنة ولا يمكن أن تكون أبدا، فعلماؤهم كانوا يحسدونه ويكرهونه لعلمه الغزير، وكانت طبقة الأفندية منهم في فخرها المتشامخ قلما تتنازل لتلاحظه(١٤٤) ".

غادر الأمير بروسة وولى وجهته شطر دمشق الفيحاء عاصمة بني أمية . ينشد الراحة والاستقرار اللذين افتقدهما في بروسة خاصة بعد الزلزال العنيف الذي هز هذه الأخيرة ١٨٥٥م .

وصدرت الأوامر إلى والي دمشق بأن يعد أحسن استقبال لعبد القادر وأن يهيىء له كل الشروط الملائمة لاستقراره في دمشق، وفور وصول الأمير إليها توجه " إلى ضريح العارف بالله الشيخ الأكبر والكبير الأحمر سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله عنه، وبعد أن زاره وتبرك به توجه إلى المحل المعد لنزوله بدار عزت باشا الرئيسي.

وكما كان الامير محور اهتمام العلماء والفقهاء، وكبار القوم، أنى حل، فقد وجد نفسه أيضا في دمشق محط الانظار، فشهرته قد سبقته إلى هناك وتهافت القوم زرافات ووحدانا لرؤيته والتشرف بملاقاته، ملاقاة رجل حاز من المجد مالم ينله إلا القليل النادر، أليست تشفع له ألقابه الثلاث لترفعه مكانا عاليا في عيون الناس، فكونه شريفا من نسب خاتم الأنبياء والمرسلين، وعالما وأديبا فقيها، ومجاهدا بطلا قاتل في سبيل الله بماله وروحه ابتغاء مرضاته، أفنى زهرة عمره في مواقع النزال بين قعقعة السلاح وسنابك الخيل، طلب الموت فوهبت له الحياة، فإذا ما قال رجل عظيم كفولتير: " ماعلي إذا لم يكن لي صولجان أليس لي قلم؟ فإن ميزة الأمير أنه كان له صولجان وكان له قلم(١٤٥) ".

وهكذا عرف الأمير في دمشق، مما دفع القوم إلى مطالبته بالعودة إلى التدريس

فلبى رغبتهم بكل امتنان " وتكونت حلقة درس ديني مؤلفة من نيف وستين طالبا وكانت تجتمع يوميا في الجامع الكبير ، وكان الأمير يرأسها ولا يتخلف عن حضورها[١٤٦] " وقد كان القرآن الكريم والحديث الشريف أساسا الدروس والمناقشات ولكن خلافا للمعلمين العاديين الذين لاتمتد قواهم العقلية إلى أكثر من ملاحظات وتعاليق عتيقة بالية عن الكتب المقدسة ، فإن عبدالقادر قد أثار استغراب أتباعه وأثلج صدورهم باختياره للنصوص من أعمال أفلاطون وارسطو وأحيانا حتى من مؤلفين في درجة أدنى من هذين سمعة[١٤٧] " كما قرأ على طلابه في دمشق "كتاب الإبريز لابن مبارك والشفا للقاضي عياض ، ويبدو أن الحاجة مازالت ملحة على صحة الاعتقاد في التوحيد لمواجهة صعاب متشابهة فأعاد أيضا إقراء الجلوس حوله " العقائد النفيسة" ونحوها وكذلك صحيح مسلم وجلس مجالس عامة ، وأخرى خاصة للتدريس[١٤٨] " .

ولحرص الأمير على العلم ونشره" فإنه اشترى في دمشق داراً خصصها له وسماها دار الحديث[١٤٩] . "

وأصبح الأمير العالم ، كالنحلة يتنقل من روضة إلى أخرى ومن جامع إلى آخر يشرح ويبين ويعلق ، " فتارة في مدرسة الجمقمقية ، وأخرى في المشهد الحسيني والمشهد السفرجلاني ، وثالثة بالجامع الأموي ، وبعد رجوعه من رحلة الحجاز جعل التدريس في منزل الضيوف من داره[١٥٠] . "

ومع إطلالة شهر رمضان المبارك كان الأمير يعتكف بالجامع الأموي يشمر عن ساعد العمل ، فتراه الناسك المتعبد الزاهد ، والعالم الفقيه الحجة يبحث وينقب ليفيد ويستفيد ، ومن شدة حرصه على الأمانة العلمية كان يتحراها من مصادرها وأصولها الأولى ، وكثير ما شغلته التحقيقات العلمية للكتب فنراه مثلا يرسل " من دمشق إلى قونية عالمين من جلساء مجلسه هما الشيخ طنطاوي وتلميذه الشيخ محمد الطيب لمقابلة مخطوطه الخاص للفتوحات المكية لابن عربي على النسخة التي توجد بخط المؤلف

هناك، وكان ذلك عام ١٢٨٨هـ أي قبل وفاته باثنتي عشرة سنة فقط"[١٥١] .

وفي هذه الفترة من إقامته بدمشق استطاع عبدالقادر أن يؤلف موسوعته الجامعة " كتاب المواقف " " أقدم فيها على تناول القضايا العويصة في تاريخ الفكر الإسلامي وبث فيها أراءه الإصلاحية بثا ثبتا دقيقا آملا متفائلا بتحقيق رجائه الودود المنشود في الإصلاح"[١٥٢] وكان تأليف هذا المؤلف الضخم حصيلة لثقافة الأمير الصوفية كما جاء استجابة لطلب بعض العلماء الذين التمسوا في الأمير أن يدون لهم ما يلقيه في دروسه وما يتكلم به في مجالسه .

١٢ - موقفه من أحداث الشام الطائفية:

عاش الأمير حياته الهادئة المشبعة علما وتدريسا وعبادة في دمشق الفيحاء بكل أمن وراحة يرعى أبناءه، ويمد يد العون والمساعدة لكل محتاج، ولم يكدر صفو هذه الحياة الهانئة سوى أحداث الفتنة الطائفية الكبرى التي وقعت بين الدروز والموارنة بعد أربع سنوات من استقرار الأمير بدمشق .

وللحقيقة، فإن مثل هذه الاضطرابات كانت تحدث بين الحين والآخر بين شتى الطوائف في الشام، ولكن هذه الفتنة كانت عامة وخطيرة حتى بلغت درجة تكاد توصف بالحرب .

ويكاد يتفق كتاب ومؤرخو هذه الأحداث على أن الأقدار لعبت دورا هاما في حماية مسيحيي الشام عن طريق الموقف الإسلامي النبيل الذي وقفه الأمير بكل بطولة وشهامة لحماية هؤلاء النصارى .

انطلقت شرارة هذه الفتنة بدمشق " يوم الإثنين ١٢ ذي الحجة عام ١٢٧٦ هـ الموافق لـ ١٠ يوليو ١٨٦٠م أشعل فتيلها طفل صغير، فامتد لهيبها لتصبح مذبحة كبرى، أودت بحياة الكثير من الناس وعلى الرغم مما أجراه الأمير من اتصالات مع الوالي التركي "أحمد باشا" وما بذله من مجهودات جبارة لاحتواء الفتنة مع اندلاعها الا

أن مساعيه لم تجد آذانا ذاك صاغية ذلك " أن الوالي تصامم ولم يحرك ساكنا لأنه كان يجهل ما كان يجري في الأحياء بين الجماعات من أحاديث تنم عن العداء للنصارى الذين اضطهدوا المسلمين في جبل لبنان"[١٥٣] .

ولم يترك الأمير باباً إلا ولجه، فاجتمع بأعيان ووجهاء دمشق مخاطبا إياهم: " إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن يكون خنجر جهالة، أو معول طيش أو صرخات نذالة، تدوي بها أفواه الحثالة من القوم . . . أحذركم من أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، وأن يكون له على نفوسكم سبيل[١٥٤] "، لكن جهوده لإيقاف نزيف هذه المذبحة لم يكتب لها النجاة فتظافرت عوامل كثيرة على إذكاء نار العداوة حتى وقعت الكارثة فعلق الأمير عليها بكل حسرة، قائلا: " هذا ما كنا نحاذره ونحذر الناس منه قد وقع، إنا لله وإنا إليه راجعون[١٥٥] . " وهب الأمير مع أول نذير لهذه المذبحة يجمع الرجال المغاربة ويرسلهم إلى الأحياء المسيحية لرد المهاجمين ودعوتهم إلى التعقل والتريث وفتح بيته للفارين من النصارى، بل إنه أمر جيرانه الأقربين" أن يخلوا منازلهم لتوفير المأوى لهؤلاء الفارين المنكوبين[١٥٦] " واستمرت هذه الفتنة قائمة ونارها مشتعلة أربعة عشر يوما، كل ذلك والأمير مشتغل بأخذ الوسائل ليتوصل إلى إخمادها باذلا جهده ومساعيه، ولم يدخل بيته في أيامها، بل كان يجلس على سجادة في دهليزه ولا يهجع من الليل إلا قليلا .

وتوجت هذه المجهودات الإنسانية بنتائج باهرة دعت الجميع من المسلمين والنصارى إلى إكباره والإعجاب بنبل أخلاقه وعلو نفسه وبقدر ماكانت النتائج كانت التضحيات حيث دفع عدد من الجزائريين أرواحهم، وكان من بينهم رفقاء الأمير في جهاده.

ومع انتهاء فصول هذه المأساة استطاع الأمير ومعاونوه أن ينقذ " خمسة عشر ألف نسمة ينتمون إلى الكنيسة الشرقية من الموت، بل مما هو أسوأ من الموت، بشجاعته النادرة ونشاطه الذي لا يكل وحماسه المتحرر[١٥٧] " .

وهكذا أتيح للأمير أن يثبت لأولئك الذين شكوا يوما في شهامته أنه انسان وعظيم يقدر المواقف ولا يحمل في صدره غلا ولا حقدا ويكفيه شرفا " أن كل ممثلي الدول المسيحية الذين كانوا يقيمون عندئذ في دمشق مدينون بدون استثناء لعبد القادر بحياتهم . إنه لقدر فريد وغريب من نوعه أن عربيا قد وضع درعه الواقي فوق كرامة أوربا الجريحة ، وأن حفيد النبي قد وقى وحمى قريبه اوربا المسيح"[١٥٨] . وبذلك أضاف الأمير وساما آخر على صدره بموقفه الإنساني الذي أملاه عليه دينه وإيمانه وأخلاقه ، حيث يؤكد ذلك بقوله في إحدى ردوده على رسائل الشكر التي وردت إليه : " والذي بلغكم عنا ورضيتم به منا من حماية أهل الذمة والعهد والذب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد هو - كما في كريم علمكم- مقتضى أوامر الشريعة السنية والمروءة الإنسانية ، فإن شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة لاتلاف اشتمال الأتواق على الأعناق والبغي في كل الملل مذموم ومرتعه وخيم مرتكبه ، ولكن :

يُقضَى على المرء في أيام محنته
حتى يرى حَسَناً ما ليس بالحسن[١٥٩]

وتقديرا من الجميع لهذا الموقف النبيل ، انهالت على الأمير رسائل الشكر والامتنان من كافة الأنحاء مصحوبة " بالنياشين وشارات الفخر والتقدير من جميع ملوك ورؤساء الدول ونوهت به كبريات الصحف العالمية وأشادت بخصاله الكريمة ومواقفه الإنسانية[١٦٠] ومما جاء في إحدى الصحف مقولة أوردها محمد بن عبدالقادر في مؤلفه حيث ذكرت هذه الصحيفة " أنه يوجد في ذات عبدالقادر أمران : أحدهما أمير الجزائر والعدو المخيف للفرنسيين من ١٨٣٠ ١٨٤٧ ، والثانى الأمير الآن في سوريا ، المخلص لألوف من النفوس في حادثة دمشق المهولة سنة ١٨٦٠م فالأمير هو الرجل الوحيد الذي ظهر في مكانين بعيدين بصورتين مختلفتين ، وأمسى الفرنسيون مدينين له بدين هم مجبرون على أدائه له . الأمير عبدالقادر هو ذلك الرجل الباسل

الذي أبدى أموراً وأعمالاً لم يكن أحد يتصورها، ولذلك كانت جديرة بأن تدون في أجمل تواريخ العالم وآخر مانقول: إن عدونا القديم في الجزائر قد جعله الله الآن سببا لإنقاذ المسيحيين في الشام"(١٦١) .

وبعد أن هدأت الأحوال وخمدت العاصفة وعاد الأمن والاستقرار إلى الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم بعد تلك الحوادث المؤسفة، قرر الأمير أن يزور حماه وحمص، تدفعه في ذلك رغبة ملحة" فقد كان متعطشا لزيارة السيدين الجليلين سيف الله خالد بن الوليد وخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهما(١٦٢).

بعدها تاقت نفس عبدالقادروتحركت كوامن الشوق والحنين في نفسه لزيارة البلد الحرام ومهبط الوحي والرسالة، والتشرف بالوقوف بين يدي الرسول الأعظم(ص) فركب إلى الإسكندرية، ومنها إلى قاهرة المعز التي أقام بها فترة واغتنم الفرصة لزيارة بعض معالمها وعلمائها، وكان محل ترحيب وإكرام من قناصل الدول ووجهاء الشعب المصري وأعيانه، ومنها إلى السويس حيث أبحر إلى جدة .

وفور وصوله إلى مكة استقبله العلماء والفقهاء والأدباء الذين جعلوا من هذا المكان الأمين – محل إقامتهم الدائم – بما يليق برجل كعبد القادر من الاحترام والحفاوة والمودة، فكثر زواره، فأفرد العشر الأوائل من وصوله إلى مكة لاستقبال زواره، ثم طلب أن يترك على انفراد وانعزل عن الناس منغلقا على نفسه معتكفا في حجرته لا يبارحها إلا للذهاب إلى المسجد، وكرس كل وقته للدراسات الدينية والعبادة" واختار الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة أستاذاً له يأخذ عليه الطريقة "وحصل له في مكة فضل عظيم، وفتح نوراني أشار إليهما في قصيدته الصوفية التي امتدح بها شيخه الفاسي والتي يقول في مطلعها: (١٦٣)

أمسعود جاء السعد والخير واليسر

وولت جيوش النحس ليس لها ذكر

وبعد أن أتم الحج تاقت نفسه للراحة فتوجه إلى مدينة الطائف ذات الموقع الجميل ومكث بها ثلاثة اشهر ومنها إلى جدة، حيث أبحر إلى ميناء" الرانس " فاستقبله حاكم المدينة وشيخ الحرم النبوي وارتحلوا جميعا إلى يثرب ومكث الأمير بجوار الرسول يتعبد ويصوم" مدمنا على أداء وظيفة أوراده في الخلوة والجلوة، لم يلحقه من ذلك فتور[١٦٤] . وداوم على زيارة قبور الصحابة وشهداء العقيدة في أحد والصلاة في مسجد قباء.

وقد دامت هذه الرحلة الدينية المباركة سنة ونصف، ليعود بعدها الأمير إلى دمشق مارا بمصر، حيث حظي بمقابلة الخديوي اسماعيل باشا، ومنها إلى الإسكندرية، فبيروت ثم دمشق.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى قضية هامة وحساسة في حياة الأمير عبدالقادر لاختلاف الآراء وتباين الاقوال فيها والمتعلقة بانضمامه إلى الجمعية الماسونية فنشير بادئ ذي بدء أن ابنه في تحفة الزائر لم يتطرق إطلاقا لهذا الجانب على الرغم من أن المؤلف لم يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة والده إلا أحصاها وذكرها بتفاصيلها، ولا ندري هل كان هذا اهمالا متعمدا منه، " وماهي مصلحته في اخفاء أمر قد يكون والده قام به – كما يدعي بعض المؤرخين – جهارا أو يستحيل أن يخفى عليه[١٦٥].

أما تشرشل مؤلف" حياة الأمير عبدالقادر " فيذكر بصريح العبارة ما نصه" . . . . ومن جهة أخرى أصبح يحمل شعار جمعية تقوم على مبدأ الأخوة العالمية إن الجمعية الماسونية في الإسكندرية قد سارعت بالترحيب بالعضو الجديد الشهير فقد دعي المحفل الماسوني المعروف" بمحفل الأهرام" للاجتماع خصيصا لهذه المناسبة عشية ١٨ من يوليو، وأدخل عبدالقادر في هذا النظام الصوفي الغامض، وقد أضيفت لميزة " مجاور النبي " ميزة " ماسوني حر ومقبول" وهي العبارة العرفية المستعملة في هذا المقام" وقد كان اسمه الرمزي بعد انضمامه هنري الرابع. [١٦٦] .

وبقيت هذه النقطة محل أخذ ورد بين المؤرخين إلى أن نشر محمد بن سعيد حفيد

الأمير عبدالقادر مقالا بعنوان " الأمير عبدالقادر والجمعية الماسونية" وفيه رد حاسم وأدلة تنفي انضمام الأمير إلى هذه الجمعية ويطلب من يدعي ذلك أن يأتي ببراهينه يقول : " وعلى كل من يدعي انضمام الأمير بها ، أن يبرز هذه الوثائق الراهنة مطبوعة نسخها على الحجر ، ومامن أحد يجهل خط الامير وإمضائه[١٦٧] .

وسواء انضم الأمير عبدالقادر إلى هذه الجمعية أم لا ، فمن المحتمل أن" حركة الماسونية في بدايتها كانت حركة أممية للنخبة ، ذات أبعاد إنسانية وتدعو إلى التفاهم بين الشعوب ، والتسامح ، ونشر الثقافة والعلم ، ومقاومة النزاعات العدوانية للحرب ، بحيث أدت هذه الأفكار إلى انخراط كثير من المفكرين والزعماء العالميين ، ومن بينهم محمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني "[١٦٨] .

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الأمير لو انضم حقيقة إلى هذه الجمعية فلمبادئها السالفة الذكر ، وتبقى هذه النقطة محل شك قابلة للتصديق كما أنها قابلة للنفي حتى يفصل في هذا الأمر .

استقر الأمير بدمشق ما شاء له بعد عودته من رحلته الحجازية ، وفي ٢٧ ذي القعدة ١٢٨٢ هـ/ ١٠ أبريل ١٨٦٥ م قام بزيارة بيروت فالآستانة " حيث أكرمت الدولة العلية نزله ، وأظهرت من الاحتفال به أكمله ، ومن الإكرام أجزله[١٦٩] " ، وقابل السلطان العثماني عبدالعزيز ، وانتهز الفرصة فعرض على الخليفة العثماني " شفاعته في أعيان دمشق الذين حكم عليهم الديوان العرفي بالنفي إثر فتنة دمشق ونفوا إلى قبرص ورودوس فلبى السلطان رجاءه وأصدر" إرادة سنية" بإطلاق هؤلاء الأعيان واعادتهم إلى بلادهم "[١٧٠] .

ومكث عبدالقادر في الآستانة شهرين ، ثم بارحها إلى فرنسا فزار مرسيليا وليون وباريس ، واستقبل استقبالا عظيما فسبحان مغير الأحوال ومن فرنسا توجه إلى لندن" حيث استقبله وزير الخارجية في جماعة من الأعيان بالإعزار والإعظام نيابة عن الملكة

وولي العهد، وبعدما أقام بها أياما رجع إلى باريس ثانية حيث أمر الإمبراطور نابليون بزيادة المنحة المخصصة له، ومنها إلى دمشق.

وكان مهرجان افتتاح قناة السويس فرصة للأمير ليزور ثانية أرض الكنانة حيث لبى الدعوة التي وجهت إليه ليحضر هذا الحدث التاريخي الهام بجانب الملوك والوزراء والاعيان، وهي شهادة على ماكان يتمتع به عبدالقادر آنذاك من تقدير واحترام " وقد أجمعت الروايات والصور والرسوم على أن عبدالقادر لم يشارك الحاضرين صخبهم وتبذلهم، فقد حبسه الوقار والاستنكار عن مجاراتهم وانصرف إلى التنزه في تلك المناطق التي كانت قد أعجبته من قبل[١٧١].

وفور انتهاء مراسيم الاحتفال عاد الأمير إلى دمشق وحدث أمر طريف، حيث أشيع نبأ وفاته، فانتشر الخبر في سائر الأماكن وانهالت رسائل التعازي على أسرته، ولما علم بذلك قال: " إن الموت لابد منه عند نهاية الأجل، والحمد لله الذي أراني وأسمعني مايقال في جانبي من الخير بعدي، وهذا نادر الوقوع وغريب الاتفاق[١٧٢] ".

١٣ - وفـاتـه:

كان الأمير يتمتع بصحة جيدة في شبابه وشيخوخته على الرغم مما تحمله من نوائب الدهر ومصائب الزمن من جهاد وكفاح وأسر في سبيل الله والوطن، حيث تحمل ذلك بجلد وصبر ونفس قوية إلى أن أصيب في آخر أيامه " بورم في خصيته يمنعه من الإسراع في المشي إلى جانب إصابته بمرض الكلى والمثانة، ومع ذلك لم " يظهر ضجرا ولا تأوها قط ولا ترك الصلاة في وقت من الأوقات"[١٧٣] وفي الساعة السابعة من ليلة يوم السبت ١٩ رجب ١٣٠٠ هـ/ ٢٤ مايو ١٨٨٣ م " لبى نداء ربه بنفس راضية مرضية وذلك في قصره في قرية دمر بضاحية دمشق عن عمر يناهز ٧٦ حولا، واهتزت دمشق وما جاورها لهذا المصاب الجلل، وسرعان ما ذاع الخبر في جميع الأنحاء فعم الحزن والأسى كل من يعرف عبدالقادر.

الفصـل الثاني

الأمير عبدالقادر الجزائري

وشِعره

الأمير عبدالقادر الجزائري
وشـــعــــــره

أ - الفخر:

تعامل عبدالقادر بالشعرمع غيره مثلما تعامل به مع نفسه فقد كان الامير فارسا حقا لم يقنع بالجانب الحسي من بطولته فطلب لهاجمالها في الشعر وحلاها بالقصيد ليربط عروبته بأجداده الاوائل بأعز رباط وأقدس تراث سلاحا وأدبا .

ولذلك فكثير ما كان يردد موقف :

إذا جــهـلت مــكــان الــشــعــر من شــرف

فــأي مـــفـــخـــرة أبـــقـــيت لـــلــعـــرب

فحاول أن يُكسب الشعر المكانة اللائقة المحببة إلى قلبه ، وعلى الرغم من اهتزاز جانبه الفني في أكثر من موقف ، الا أن الشيء الذي يشفع للأمير فى أن يجعل من نفسه شاعرا – وإن قصر به التعبير الفني –هو قدرته على تصوير الواقع الحقيقي الذي عاشه ويعيد إلى الأذهان في الجزائر صورة عنتره وعمرو بن كلثوم وخالد بن الوليد وأضرابهم فى فترة كانت البطولة فيها في الجزائر تعاني من التزييف ويخلع عليها الحكم العثماني في أواخر أيامه حلَّة من الأبهة الجوفاء حتى إذاطالعها الغزو الاستعماري الفرنسي لم تصمد فى وجهه أكثر من أيام معدودات[١٧٦] .

وعبدالقادر بأشعاره لم يكن عنوانا على جودة الشعر في ميزان النقد الدقيق ولكن " جاء شعره كمعاركه بسيط التخطيط ، تلقائي النزعة صادق الدلالة ، رائع المفاجأة فيما عسى أن يحققه من انتظار واقتدار على كشف الحجاب وإثارة النقد والإعجاب[١٧٧] .

وقد ارتكز شعره على نقطتين أساسيتين هما : طبيعته الفروسية وثقافته الاسلامية ، ولعل هذه الدوافع أوالدافعين مما جعل لشعر عبدالقادر مذاقا عاما واحدا كالشعر الصوفي او العذري او الرمانسي فهو يتغزل ويفتخز ويمدح ويصف فى اثناء قصده الحديث عن فتوحاته الميدانية او تلك التي يسميها العرفانية او عن آماله المنشودة فى هذه او تلك .(١٧٨)

والحديث عن الأمير عبدالقادر الأديب الشاعر ، ليس في الحقيقة بالأمر السهل ، لأن صعوبته تأتي من حيث يظن أنه سهل ، كما أن تصنيف الأمير بين أعيان البيان ليس بالأمر اليسير خاصة إذا احتكمنا في هذا إلى المقاييس الفنية المجردة للشعر العربي واستبعدنا كل ما من شأنه التأثير علينا ومن هنا يصعب على النظرة النقدية إلى الأمير أن تتجرد للفن وحده ، فلا تعانق المثل والمضامين البطولية التي عبر عنها عبدالقادر في فترة مجدية عزلاء من أي مضمون بطولي ، راسفة في أغلال التخلف الفكري مترنحة في الرهبانية الكسيحة(١٧٩)

على الرغم من هذا فإن الأمير استطاع أن يكون شاعرا بقدر ما أتاح له تكوينه الثقافي ومحيطه الفكري ، وان يكون شاعرا بطلا فوق ماتهيئه له الظروف ويحتمله العصر " فاجتهد في أن يكون يطعم هذا بذلك ويوفر التطابق بين الوجهين والتجاوب بين الموقفين موقف البطل المجسم والشاعر المعبر(١٨٠)

ولاريب أن السبب الأكبر الذي ساهم في تفجرشاعرية الأمير واستثار الجانب الأدبي عنده هو ذلك الحدث الأكبر الذي تعرضت له البلاد بغزو الاستعمار لها واختياره عن طواعية أميرا للجهاد والبلاد-إلى جانب جمال طبيعة الجزائر التي استلهم منها عبدالقادر أشعاره الخاصة بالوصف ، فكان بدويا بطبعه عاشقا للطبيعة ، اتخذ من الشعر أداة للتعبير عن أحاسيسه والصور الماثلة في نفسه ، ووسيلة للافتخار بتفوقه

وامتيازه عن عدوه بعلمه ونسبه، وعلى الرغم من تعثر شعره بين المعاني والعبارات التي يؤديها والأوزان التي لا بد من التزامها، إلا أن ذلك مرده كما يشير، د . طه الحاجري إلى: " أن عبدالقادر لم يتح له -في سني دراسته- أن يوثق صلته بروائع الشعرالعربي في عصوره الذهبية، ولم يبلغ من هذا المبلغ الذي يثقل شاعريته ويطوع أداته الفنية[١٨١]

متى أتيح لشاعرنا الوقت الكافي ليجود شعره وينقحه، وأن يتخلص من اساليب العصور المتأخرة وركاكتها وتهالكها " وهو بعيد عن مركز النهضة الحديثة، هو في أقصى المغرب تقريبا، وحركة النهضة تتحرك في مصر وسوريا، وقضى أكثر أيامه في المعارك بين قعقعة السيوف، وتفجر البارود، ورعد المدافع، ورهج السنابك، أو في الأسر حزينا كاسف البال مضيعا ملكه وحريته وماله وأهله وأقرانه ومجده بعد عز عزيز وجاه عريض[١٨٢]

وبعد هذا فإن عبدالقادر - وعلى الرغم مما أخذ عليه- استطاع أن يجسد آمال شعبه في شعره من بطولة وإقدام، وسخر شعره للدعوة لقضية بلاده وهو بعيد عنها، كما استطاع أن يلج كل الفنون الشعرية المعروفة في عهده، فافتخر ومدح ووصف وتغزل، وأولى مذهبه الصوفي جانبا هاما من أشعاره.

الفخر عند الأمير:

للعظمة نواحٍ كثيرة ومظاهر متعددة تخلب الناظر وتستولي على ذهن الفكر، والناحية البارزة هي التي تستأثر بالاهتمام وتمتلك الانتباه، وهكذا فأنت اذا رأيت رجلا عظيما في البطولة نسيت أن هذا الرجل يجيد الأدب والخطابة، وإذا أنت قرأت لشاعر عظيم غاب عنك أن هذا الرجل شجاع ومحارب لأن ناحية العظمة بارزة كائنة في شعره كما كان المتنبي الذي اشتهر بفنه ونسي الناس شجاعته، ولو أنها أدت به إلى فراق الحياة.

وكادت هذه القاعدة أن تطبق على شاعرنا فقد افتتن الناس بشجاعته وبطولته في الجهاد حتى كادوا ينسون أن هذا البطل صاحب قلم وصولجان وأنه رب سيف وكلمة،

وأعطى لكل جانب حقه .

ولعل أفضل ما جادت به شاعرية عبدالقادر هو ذاك الذي تناول فيه موضوعات الفخر والحماسة لأنهما أشبه به ، وأجدر بشخصه ، فشعره في الفخر " يذكرك بعنترة بن شداد ، ولعل أميرنا أولى من ابن زبيبة في ذكر البطولة والفداء لأن عنترة كانت بطولته الغزو والكسب ، وأميرنا قد وقف عزمه كله على نضال المستعمر الغاصب فشتان بين المقصدين ، ويابعد ما بين الهدفين ، فالأمير عبدالقادر حين يفتخر يتحدث عن هواجس وأفكار لاتصنع فيها ولا تكلف ، فالفخر منه واليه وهو أولى به ، فالبطولة جزء من شخصيته ، لذلك كان شعره صادقاً كل الصدق صحيحا كل الصحة"(١٨٣) ومن هذا المنطلق أراد عبدالقادر أن يعيد إلى الأذهان في الجزائر تلك الصور للفروسية العربية الأصيلة في وقت كانت البطولة فيه عاجزة عجز المرحلة التي تمر بها البلاد .

وهكذا تصاعدت أنفاس الأمير شعرا بطوليا " وارتسمت مواقفه قصائد معبرة نستشف من خلالها القوة والضعف في ثورة الأمير ، والاقدام لايعترف بالإحجام ، والبسمة لاتترك مجالا للعبرة ، والتكبرة لاتوهنها الآهة أو الزفرة ، ومن هنا لانلمس في شعر الامير جانب المأساة بقتلاها وجرحاها ، بالمشردين تطاردهم الجيوش الفرنسية في كل شبر من أرض الجزائر ، الجانب القاتل لانلمسه في شعر الامير ، فقد كانت بالنسبة له معركة قوة وإقدام وانتصار تلو انتصار وفي غمرة القوة تتلاشي مظاهر الألم(١٨٤)

والدارس لفن الفخر عند الأمير عبدالقادر يلاحظ أنه انصب في نقطتين أساسيتين هما : الفخر الفطري الطبيعي ، ثم فخر مكتسب إرادي حازه الأمير وناله بمواقفه البطولية واخلاقه الحميدة .

وسنحاول أن نتبع كل نقطة على حدة مستخرجين الأبيات التي تخدم كل جانب لنوفيها حقها من الشرح والتحليل .

الفخر الفطري الطبيعي: ينبع هذا الفخر أساسا من نسبه الشريف الذي يرجع للدوحة الطاهرة آل البيت عليهم رضوان الله ، وإلى جده الأمجد الأكرم سيدنا محمد

- عليه الصلاة والسلام- فدماء الإسلام والعروبة تسريان في عروقه سريان الدم فيه، فهو عربي بن عربي، من عائلة شريفة عظيمة الشأن كريمة المنبت، أصلها ثابت في المجد وفرعها يطاول عنان السماء جودا وفضلا وشرفا . ومن هنا حق له أن يفتخر ملء فيه بهذا المجد العالي والنسب المصون، فأبوه رسول الله (ص) أفضل من سعت به قدم على أديم هذه البسيطة وأفضل خلق الله دينا وسيرة، فأمسى لهذا النسب الهاشمي ضرورة حتمية يفرضها المقام:

أبــونــا رســول الــلـه خــيــر الــورى طــرّا

فـمَن في الــورى يــبــغي يــطــاولــنــا قــدْرا

ولانــا غــداً ديــنــاً وفــرضــاً مــحــتــمــاً

عــلـى كل ذي لب بـه يــأمن الــغــدرا(١٨٥)

فحسب الأمير هذا العز الدائم والذكر المتواصل، غني من متاع الدنيا الزائل من مال وجاه وسلطان، فلو خيِّر بين النسب الشريف وكنوز الدنيا وزخرفها لاختار الأول مقتنعا، إذ كيف يسمو أناس هم أبعد عن هذا النسب وينالون عن طريقه المجد والفخار، وعبدالقادر سليل هذه الشجرة المباركة تنازل عليه مقابل دنيا فانية ومتاع لايدوم؟(١٨٦)

وحــســبي بــهـذا الـفـخـر من كل مـنـصب

ومن رتــبــة تــســمــو وبــيــضــاء أو صــفــرا

بـعـلـيـائـنـا يـعــلـو الـفـخــار وإن يـكن

بـه قـد سـمـا قـوم ونـالـوا بـه نـصـرا(١٨٧)

ويكفي عبدالقادر هذا النسب والانتماء الشريف حفظا وصونا أمام كل من تسول له نفسه المساس بالأمير والحط من مكانته، فمن كان الله مولاه ورسوله فليهنأ وينم قرير العين هانيها لأن كيد العدو سيرد إلى نحره لامحالة: (١٨٨)

ومن رام إذلالا لــنــا قــلـت حــســبــنــا

إلـه الــورى والجــد . .أنــعـم بـه ذخــرا

فهذا الإرث النفيس الذي ورثه الشاعر سيبقى شامخا دائما لايزول بزوال الرجال فيه مجد العرب وفخر الإسلام الذي أتى به محمد (ص) فرفع من قريش مكانا عاليا فارتبط ذكر هذا النسب مع حياة المسلم ارتباطا وثيقا " إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما" الأحزاب آية ٥٦ ومن من المسلمين لايذكر هذا النسب وأهل البيت وهو ساجد لرب العالمين بقوله "اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما" :

ورثـــنـــا ســؤددا لــلــعــرب يــبــقــى

ومــا تــبــقى الــســمــاء، ولا الجــبــالُ

فــبــالجــد الــقــديم عــلت قــريــش

ومــنـــا فــوق ذا طــابت فــعـــــال

وكـــان لـــنـــا- دوام الـــدهـــر-ذكـــر

بــذا نــطق الــكــتــاب ولا يــــــزال(١٨٩)

وهذا النسب النبوي الأمجد هو في حالة ديمومة مستمرة، يتوارثه الأبناء عن الأجداد، فهو سلسلة ذات حلقات كل حلقة تمثل عهدا حافلا بالأعمال الجليلة والأخلاق الفاضلة والمواقف النبيلة، فأتباع هذه الدرجة الطاهرة هم القدوة والنبراس يهتدي الناس بنوره في حياتهم أخلاقا ومعاملة وسلوكا :

ومـــنـــا لم يـــزل في كل عــــصـــــر

رجـــال لـــلـــرجـــال هم الـــرجـــــالُ

لـــقـــد شـــادوا المـــؤسس من قـــديم

بـــهم تـــرقى المـــكـــارم والخـــصـــال(١٩٠)

ولم يكتف ذلك السلف الصالح بهذا النسب بل زادوه فضائل ومناقب، فهم أهل الهمم والمروءة والأخلاق، يسمون بها فوق النجوم، دأبهم العمل والنضال حماية للدين وصونا لشرف الإسلام ودفاعا عن الحق والعدل :

لــــهم هـــمـم ســـمَتْ فـــوق الـــثـــريـــا
حـــمـــاة الـــدين، دأبـــهم الـــنـــضـــال[١٩١]

وهم يقولون ما يفعلون، وتلك خصلة من النادر أن تجدها إلا في القليل لكن هؤلاء سلالة طه، فإن لم يكونوا هم المثل والنموذج حلما وصبرا وجهادا فمن يكون؟:

لـــهم لـــسن الـــعـــلـــوم، لـــهـــا احـــتـــجـــاج
وبـــيض، مـــا يـــثـــلّـــمـــهـــا الـــنـــزال[١٩٢]

فهذا السلف والخلف الصالح هو مشعل الهداية ونبراس الحق بما أغدقه الله عليهم من فضله العميم فجمعوا خير الدنيا وحازوا ذكراً دائما طول الزمن تساموا بأخلاق نبوية قادرية عباسية فبلغوا من المجد ذراه:

فـــإنـــا أكـــالـــيل الـــهـــدايـــةوالـــعـــلـــى
ومن نـــشـــر عـــلـــيـــاهـــا ذوي المجـــد قـــد طـــوى
فـــنـــحـن لـــنـــا ديـن ودنـــيـــا تجـــمـــعـــا
ولا فـــخـــر إلا مـــالـــنـــا يـــرفـع الـــلـــــــــوا[١٩٣]

وإلى جانب فخره بهذا النسب النبوي الشريف، لم يغفل أصله العربي فراح يتغنى به وبأمجاد أجداده لارتباط النسب النبوي بالعرب، أليس الرسول الأمين عربي ابن عربي ؟ فلا مناص إذن أن كل من انتسب إلى هذه السلالة تجري حتما دماء العروبة فيه، وعلى الرغم من أن هذا الفخر بالعرب لايرد كثيراً في شعر عبدالقادر، إلا أننالا نلاحظ أن فكرة " القومية العربية" قد وضحت عنده قبل كثيرين غيره من زعماء العرب وسبق بها زمنه بنحو قرن تقريبا"[١٩٤] فنراه" يعبر عن أحاسيسه العربية في الشعر ويشيد بالخصائل العربية، بل إن الضباط الفرنسيين الذين عاشوا تلك الفترة وساهموا في الحرب ضد الجزائريين اعترفوا بأن الأمير في بداية كفاحه الوطني كانت تحركه تلك الفكرة وكان يسعى إلى تكوين مملكة عربية بل سعى إلى خلق قومية عربية ARAB NATIONALISM ولكنه عدل عن هذه الفكرة بعد ذلك بحيث اتخذت الحرب صبغة دينية .[١٩٥]

وما دام الأمير سليل هذا النسب فقد رأى نفسه أحق بإرث هذه الأرومة إسلاميا وعربيا بكل ما اشتملت عليه من خصال ومناقب جليلة : (١٩٦)

ورثـنـا سـؤددا لـلـعـرب يـبـقى

ومـا تـبـقى الـسـمـاء، ولا الجـبـال

الفخر الإرادي المكتسب: لم يقنع الشاعر بفخره الطبيعي الذي ورثه فطريا من نسبه الشريف وعروبته ، بل راح يضيف إلى هذا المجد أمجادا أخرى بأفعاله الجليلة ، وخلاله الكريمة ومواقفه البطولية الشجاعة سلماً وحربا حتى يكون حلقة وصل بين آبائه وأبنائه ، ليضيف إلى رصيد هذه السلالة الكريمة فضائل أخرى متأسيا ، يقول الشاعر ،

كن ابن من شـئت واكـتـسب أدبـا

يـغـنـيك عن مـضـمـونه الـنـسـب

إن الـفـتى من قـال هـا أنـا ذا

لـيس الـفـتى من قـال كـان أبي(١٩٧)

وفخر الأمير المكتسب هو اعتداد بنفسه " وضرب من ضروب القوى المعنوية التي تستفز المرء على أن يتقدم إلى الأمام بشرط أن يصاحب ذلك نوع من الحكمة التي تكيف الإنسان لتجعل منه عظيما بحق يستحق الزعامة بنوعيها الحسي والمعنوي .

ومن غير شك أن هذا قد توفر بالعمل الصالح ، والصبر عند البلاء والعفو عند المقدرة ، والجهاد في سبيل الله سيفا وقلما . (١٩٨)

ركب الأمير الأخطار وتحمل الأهوال والمشقات ليرتقي سلم المكارم والمجد ، لاطمعا في الدنيا ونعيمها ، بل كان هدفه غاية إنسانية نبيلة رأى نفسه كفؤا لتحقيقها فلم يتوان أبدا عن مساعدة المظلوم وإغاثة المحتاج ، وذلك أن الفروسية العربية لم تعرف لا التخصص ولا تعرف الذاتية المحدودة الضيقة فهي للجميع " رهن اشارة المستجير ، فإذا

الفتى العربي يضع مدلولا للفظة (فتى) متى انطلقت فكرة غير مقصودة"[١٩٩]، وعبدالقادر لايختلف عن اجداده العرب، فلم يشذ عن هذه القاعدة لما كان يرى في نفسه من ضروب القوى البطولية والأخلاقية :[٢٠٠]

لـــنـــا في كل مـــكـــرمـــة مـــجـــال

ومن فـــوق الـــســـمـــاك لـــنـــا رجـــالُ

ركـــبـــنـــا لـــلـــمـــكـــارم كل هـــــول

وخـــضـــنـــا أبـــحـــرا ولـــهـــا زجـــال

إذا عـــنـــهـــا تـــوانى الـــغـــيـــر عـــجـــزا

فـــنـــحـن الـــراحـــلـــون لـــهـــا الـــعـــجـــال

ســـوانـــا لـــيس بـــالمـــقـــصـــود لمـــا

يـــنـــادي المـــســـتـــغـــيث:ألا تـــعـــالـــوا

ولـــفظ الـــنـــاس لـــيس له مـــســـمـى

ســـوانـــا، والمـــنى، مـــنـــا يـــنـــال

وعبدالقادر في فخره ينقلك إلى واقع حقيقي فهو لم يتخيل معاركه وحروبه تخيلا كما يصورها بعض الشعراء، وإنما يصف كل ما رآه وما عاناه وصف خبير، فقد قضى أيامه، وأفنى زهرة شبابه بين قعقعة السلاح وصهيل الخيل وغبار المعارك مع أهله وجنده الأشاوس، تلمس في فخره أثر عنترة والمتنبي، تغنى مثلهما بالشجاعة والبأس والبطش بالعدو ولا غرو فى ذلك، فقد عرف المعارك ومارسها ممارسة الجندي والقائد :

تـــســـائـــلـــني أم الـــبـــنـــين وإنـــهـــا

لأعـــلم من تحت الـــســـمـــاء بـــأحـــوالـــي

ألـم تـــعـــلـــمي يـــاربـــة الخـــدر أنـــني

أجـلّي هـمـوم الـقـوم في يـوم تجـوالي[٢٠١]

وينطلق في وصف آيات البطولة والشجاعة، فهو لايخشى الموت، بل كلما سعى اليه وهبت له الحياة، إيمانا من شاعرنا بأن موتا كريما فى ساحة الشرف الذي تمثل المرأة فيه الركن الأساسي أختا كانت أم أما أم حبيبة " فالمرأة نصف الرجل وتمام عيشه وحياته وهنائه، فهي مبعث الرضا والغضب والأمل والألم والشفاء والرخاء، وهي المعين والإلهام والجمال والجلال، فلا غرابة أن يسعى الرجل إلى نيل رضاها في كل حين وفي سبيل هذه الغاية سعى متفننا في الوسائل الموصلة إلى ذلك ببراعته وخياله وعبقريته، فتارة يغني لها وتارة يتحدث عنها، ولها حديث القلب وخواطر الفؤاد ونجوى الخفايا، وطورا يتوسل إليها بوسائل أخرى مراعيا في ذلك ظروف الأرض والاقليم والزمان والثقافة ومتطلبات الأحوال، ولئن تعددت الوسائل فقد اتفقت كلها فى هوى القلب وبث الصبابة والوجد. (٢٠٢)

وهكذا يعطينا عبدالقادر – وكذلك أهل الفروسية– " مثالا للانعطاف التلقائي نحو خصيصة صدق العطاء في المرأة وتلازمها – أي المرأة – في العطاء الصادق في موقف يرجى أن يقفه صاحبه. (٢٠٣)

وأغـشَى مـضـيق المـوت، لا مـتـهـيـبـا

وأحـمـي نـسـاء الحي، في يـوم تـهـوال

يـثـقن الـنـسـا بي حـيـثـمـا كـنت حـاضـرا

ولا تَـثِـقَنْ في زوجـهـا ذات خـلـخـال(٢٠٤)

وكعادة الأبطال، أمثال الشعر –تراهم يتقدمون الصفوف معرضين أنفسهم لخطر الردى ليعطوا المثال والقدوة للجند في التضحية والفداء، فهو موقد نار الحرب وملهب أتونها، تراه يتقدم جيشه مع بداية النزال، وآخرهم عند نهايتها، همه ضرب الرقاب وجز الرؤوس، لاتلهيه عن ذلك مغانم العدو وأسلابه، هدفه الوحيد إذكاء روح جنده حماسة ونخوة، يدافع عنهم دفاع الوالد عن فلذات أكباده، يحميهم ويدفع الأذى

عنهم ويضحي من أجلهم فتراهم عند نهاية المعركة يعودون إلى قائدهم وبطلهم بآيات الشكر والامتنان لما بذله من شجاعة وبطولةحماية لهم :

أمــيــرٌ إذا مــا كــان جــيــشيَ مــقــبــلا

ومـوقـد نـار الحـرب،إذ لم يـكن صـالي (٢٠٥)

إذا مـــالـــقـــيت الخـــيل إنـــي لأول

وإن جـال أصـحـابي فـإني لـهـا تـــال

أدافع عــنــهم مـــا يـــخـــافـــون من ردى

فـيـشـكـر كل الخـلـق من حـسن أفـعـالي

ولشدة هول معارك الأمير فانه يورد راياته سليمة عند بداية النزال لتؤوب آخر المعركة وهي اشبه ماتكون بالغربال لكثرة مالحقها من إصابات محاولة من العدو لإسقاطها : (٢٠٦)

وأورد رايــات الــطــعــان صــحــيــحــة

وأصـدرهـا بـالـرمـي تـمـثـال غـربـال

ويعرض في سخرية بالأبطال والقادة الذين لايحملون من البطولة والشجاعة الا لقبها وقشورها، حتى إذا ماجد الجد وحمي وطيس المعركة يدفعون جندهم إلى لهيبها، فيراقبون الحرب وهم في المؤخرة بين الحراس، فإن كانت المعركة لهم، نسبوا النصر والفوز لأنفسهم، فكالوا لهم المدح والفخر، وإن كانت عليهم سهل عليهم الفرار لأنهم في المؤخرة تاركين جندهم يواجهون المصير المحتوم، أما الأمير فنقيض هؤلاء تماما : (٢٠٧)

ومن عـادة الـسـادات بـالجـيش تحـتـمي

وبي يـحـتـمي جـيـشي وتحـرس أبـطـالي

وليس ذلك انتقاصا من شجاعة جنده ولكنها البطولة في أسمى معانيها والتضحية

في اجل صورها ، الأمير أب لجيشه قبل أن يكون قائدا لهم يحميهم ويدفع عنهم الأذى رحمة بهم وحبا لهم ، ومن كان قائده كعبدالقادر فلا نخاله الاصورة منه شجاعة وبطولة ، فهم أشبال أسد هصور يتقدمون دوما ليريهم آيات الشجاعة ليعلم الجند كيف تكون القيادة بحق : (٢٠٨)

وبي تـتـقى يـوم الـطـعـان فـوارس

تـخـالـيـنـهم فى الحـرب أمـثـال أشـبـال

وينقلك شاعرنا إلى صورة قديمة فى الفروسية ، صورة عنترة وهو يحاور فرسه الذي اشتكى الجراح والطعنات يدعوها فيها إلى الصبر والتجمل كفارسه ، يقول الأمير : (٢٠٩)

إذا مـا اشـتـكت خـيـلي الجـراح تحـمـحـمـا

أقـول لـهـا: صـبـرا كـصـبـري واجـمـلـي

أجل إلى هذا الحد يعتد الأمير بنفسه الكريمة التي يضعها على كفه ، وهو يعلم أنها غالية ، ولكنها ترخص في سبيل أسمى وهو الدفاع عن حياض الدين والشرف ، ويلتفت إلى حبيبه – أم البنين– لتأكيد هذه الحقيقة والإفاضة فى رسم صور هذه البطولة التي شهد بها الأعداء أنفسهم ، فأرواحهم دوما مرهونة بضربات سيفه التي لا تفتأ تحز الرؤوس الظالمة : (٢١٠)

وأبـذل يـوم الـروع نـفـسـا كـريـمـة

عـلى أنـهـا في الـسلم أغـلى من الـغـالي

وعـني سـلي جـيش الـفرنـسـيـين تـعـلـمي

بـأن مـنـايـاهم بـسـيـفي وعـسـالـي

ولاينفك شاعرنا وليله صديقين متلازمين ، يقطع ظلماته ممتطيا جواده الأصيل

يسابق الريح ، يرتل هذه البطولة ويتغنى بها أوزانا تذكي أريحيته واقدامه معيدا إلى أذهان الشعب تاريخ الفروسية العربية بمفهومها الحسي والمعنوي ومظهريها المادي والادبي ، يباغت العدو وينزل به الضربات القاتلة يلاحقه أينما حل وارتحل ، يبعث فيه الخوف وينشر الرعب ، ليطوي أعنف أسطورة استعمارية بأروع صفحة بطولية : [٢١١]

سلي الليل عني كم شققت أديمه

على ضامر الجنبين معتدلٍ عالِ

سلي البيد عني والمفاوز والربى

وسهلا وحزنا كم طويت بترحالي

فما همتي إلا مقارعة العدا

وهزْميَ أبطالا شِداداً بأبطالي

ثم أية شجاعة هذه وأية بطولة تلك التي يصبح صاحبها مهاب الجانب حيا أو تحت الثرى عظاما نخرة ، إنها ولاشك العظمة فى أبهى صورتها والثقة فى النفس فى أسمى معانيها ، فالأمير الفارس حيا وميتا هو دوما مصدر خوف وهلع لأعدائه ، فلا هو أراحهم في حياته بمعاركه ، ولا هو أراحهم بموته بصورته المجسدة فى كل مجاهد جزائري يرفع السلاح عاليا في وجه الظلم والاستعباد ، فروحه تذكر العدو- لعل الذكرى تنفعه اذا نسي – يوما بأن شعبا أنجب عبدالقادر مادام فيه نبض واحد يخفق بالحياة لن يموت ابدا : [٢١٢]

فلا تهزئي بي واعلمي أنني الذي

أهاب ولو أصبحت تحت الثرى بالي

لقد التزم الأمير أمام أبناء وطنه بأن يتحمل مسؤولية العباد والجهاد وبذلك الزمه عهده الوفاء بذلك ، فقضى معظم أيامه ولياليه ممتطيا صهوات الخيل تقطع به البراري والقفار يتبع خطى عدوه يهاجمه تاره ويناوشه أخرى ، وخيله صابرة تعاني التعب

ومشقة الطريق حتى لتشرف من جراء ذلك على الهلاك ولكنها تقاوم وتصابر، وكأنها أحست أنها تحمل إلى جانب فرسانها مسؤولية عظمى فلن تنعم بالراحة الا اذا بلغت الهدف فوصلت هؤلاء الفرسان بأعدائهم فهي تعدو مطيعة آناء الليل وأطراف النهار، كأنها تخوض بحار السراب من شدة ما أصابها من التعب والعذاب: (٢١٣)

تـوسَّـدْ بمـهـد الأمن قـد مـرَّتِ الـنـوى

وزال لـغـوب الـسـيـر من مـشـهـد الـثـوى

وعـرّ جـيـادا حـاد بـالـنـفس كَـرُّهـا

وقـد أشـرقت- ومـا عـراهـا - عـلى الـتـوى

ألا كم جـرت طـلـقـاً بـنـا تحت غـيـهـبٍ

وخـاضـت بـحـار الآل من شـدة الجـوى

ويحلو لشاعرنا أن يتمثل صور الفرسان العرب القدماء وهم يقطعون الصحاري المقفرة الا من السباع المتوحشة بكل شجاعة وإقدام فتراه على جواده يشق أديم المفازات لايبدي خوفا ولا جزعا على الرغم مما يكتنفها من أخطار محدقة تظل القطا فيها السبيل ويعوي الذئب من هول مايرى فيها من الوحشة، إلى أن يصل الأمير إلى مرابع قومه بخيله الضامرة الهزيلة التي أوشكت على الهلاك، فيرى ألسنة نيران خيامهم تهدي الضال وتدعو السابلة إلى القرى والأمان وتلك أسمى آيات المروءة والخصال العربية التي يعتز بها عبدالقادر أيما اعتزاز: (٢١٤)

وكم من مـفـازات يـضل بـهـا الـقـطـا

قـطـعت بـهـا والـذئب من هـولـهـا عـوى

وقـد أصـبـحت مـثل الـقـسي ضـوامـرا

وتـلك سـهـام لـلـعـدى وقـعـهـا شـوى

إلى أن بـدت نـيـران أعلامـنـا لـهـا

وفي ضـوء نـيـران الـكـرام لـهـا صـوى

ولم يعد فارسنا إلى مضارب قومه من فسحة صيد أو نزهة تريض، بل آب اليهم بعدما خاض معركة دامية يشيب لهولها الولدان لكثرة مازهقت فيها من أنفس، وما لقي فيها الأبطال من مشاق وأهوال، ترك أعداءه فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويةهوت رؤوسهم وتطايرت أمام سيوف عطشى تسعى لتشفى ظمأها، فتروى من دماء الغزاة تؤازرها ضربات رماح لاتعرف الكلل والفتور، تركت العدا مذهولين أمام هذه الصور البطولية النادرة، فى يوم عانى فيه شاعرنا أشد العناء وكاد يدفع روحه ثمنا لهذه البطولة، لولا أن تداركه فرسانه بعد ما سقط به جواده بضربة قاتلة: (٢١٥)

ونحن سقينا البيض كل معرك

دماء العدا والسمر أسعرت الجوى

ألم تر في (خنق النطاح) نطاحنا

غداة التقيناكم شجاع لهم لوى؟

وكم هامة ذاك النهار قددتها

بحد حسامي والقنا طعنه شوى

ويوم قضى تحتي جواد برمية

وبي أحدقوا لولا أولو البأس والقوى

وأعيدت السيوف إلى أغمادها وهي شاكرة أفعال المجاهدين بعد أن ارتوت فأطفأت بذلك جمرة عطشها الطويل: (٢١٦)

وأسيافنا قد جردت من جفونها

وردت إليها بعد ورد وقد روى

ولم يكن هم الأمير وهو يصول ويجول في ميدان المعركة، هذا الجندي الضعيف بل كان يتحسس قواد الجيش وأبطاله، فتقع عيناه على زعيم القوم الذي يحاول مفاجأة عبدالقادر ولكنه كان أسرع، فلم يدع الفرصة لعدوه ليصيبه، بل لم يدعه حتى يفلت

بجلده، فشد عليه وعاجله بحسامه وهو مولّي الدبر ليخر الزعيم صريعا، فخلا الجو بذلك لبطلنا لينزل على أعدائه كالضيغم فيزيدهم قتلا وأسى، يختال على جواده الأصيل يشق به الجموع، ويقتحم الصفوف، لايعرف الخوف والإحجام، دأبه الجهاد وقتال الكفار إيمانا من الشاعر بأن عمله هذا من صلب الدين ومن لاغيرة له عل دينه فلا خير يرجى منه: (٢١٧)

ولـمـا بـدا قـرني بـيـمـنـاه حـربـة
وكـفي بـهـا نـار بـهـا الـكـبش قـد شـوى
فـأيـقن أني قـابض الـروح، فـانـكـفـا
يـولي فـوافـاه حـسـاميَ مـذ هـوى
شـددت عـلـيـه شـدة هـاشـمـيـة
وقـد وردوا ورد المـنـايـا عـلى الـغـوى
نـزلت (بـبـرج الـعـين) نـزلـة ضـيـغـم
فـزادوا بـهـا حـزنـا وعـمـهم الجـوى
ومـازلت أرمـيـهم بـكـل مـهـنـد
وكل جـواد هـمّه الـكـر لا الـشـوى
وذا دأبـنـا فـيـه حـيـاة لـديـنـنـا
وروح جـهـاد بـعـدمـا غـصـنه ذوى

ونظير هذه البطولة الخارقة وذلك النسب الشريف، كان عبدالقادر أحق الناس بتحمل مسؤولية الإمارة، فقد فوجئ بها كفجأة موسى بالنبوة وهو بالوادي المقدس طوى، وتلك الأمارة أو العروس لم تذعن ولم ترض- على الرغم من كثرة طالبيها - الا لشاعرنا الذي توافرت فيه كل الخصال، فانقادت له حبيبة وعروسا يحميها ويصونها وكان الأمير عند حسن الظن فقام بالأمر على أكمل وجه. ولعل استحضار صور "

العروس الحسناء " عند الشعراء وأولي الفن بصفة عامة هو شعور بالعطاء المادي والمعنوي" كما دلت على ذلك ملابسات حرب العاشر من رمضان على سبيل التمثيل القريب الشاخص، حيث اندلع الشعور بالمرأة صورة وعطاء، وعروسا، وأما وأختا وحبيبة، وخطيبة، وعروساوأما وزوجة في معارض عديدة للفنون لاسيما التشكيلية، وللخطوط العربية، وفي الأناشيد والأغاني والقصائد والقصص والخطب الرسمية والأحاديث الصحفية . . . ودارت موضوعات كثيرة من أنواع الفنون حول" الأنثى" مدينة أوصحراء أو منطقة حتى ليحار المرء، ماذا كان سيغني الناس لو لم يجدوا لمصر سيناء والسويس والقناة فضلا عن الجولان والقدس أسماء مؤنثة تجري عليها أحكام العروس مجازا[٢١٨]

لـذاك عـروس المـلك كـانت خـطـيـبـتي

كـفجأة موسى بالنـبـوة في طـــــوى[٢١٩]

وقـد عـلـمـتـني خـيـر كفء لـوصـلـهـا

وكم رد عـنـهـا خـاطب بـالـهـوى هـــوى

فـواصـلْـتـهـا بـكـرا لـديَّ تـبـرجت

ولي أذعـنت والمـعـتـدي بـالـنـوى ثـوى

وليست الفروسية والبطولة عند العرب وعند شاعرنا عبارة عن وثبة على ظهر جواد، ولا ضربة سيف قوية أو ,شجاعة متهورة، لكن الفروسية الحقة هي اخلاق كريمة وشمائل فاضلة عليا، لذلك حرص عبدالقادر على أن لايصدر منه أي فعل مشين أو تصرف يمس أخلاقه، بل سعى جهده إلى المروءة يبتغيها، فقد أجمع كل من تعرض لحياة عبدالقادر على أنه كان على خلق عظيم جعله موضع تقدير وإجلال من طرف الجميع، العدو قبل الصديق، سواء أكان ذلك في فترة جهاده فقد كانت معاملته للأسرى آية في الشهامة والحلم وعزة النفس[٢٢٠]، أو اثناء أسره حيث كان مثالا للصبر

والتجلد، فقد كان يترفع عن الصغائر ويسمو بنفسه لجلائل الأعمال وهذا مانلمسه عنده في أول مقطوعة له بالديوان، فحين يهديك صورته يحذرك من أن تغتر أو تقنع منها بالمظهر فيعجبك الشكل وتنسى الأصل والباطن، بل يطلب منك أن تمعن النظر وتتجاوز الملامح لتنفذ إلى الأعماق فتلمس حقيقة الذات الأصيلة التي تختفي وراء هذا الرسم: (٢٢١)

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري
فليس يريك الرسم صورتنا العظمى
فثم وراء الرسم شخص محجب
له همة تعلو بأخمصها النجما

ويقرر الأمير بحكمة سامية أنه لايجب أن نحكم على المرء بمظهره الخارجي: من مال وجاه، بل إن قيمة الإنسان تبدو في الخلق الحسن والأعمال الجليلة النافعة، لأن الله لاينظر إلى الصور والأجساد وإنما ينظر إلى القلوب والأفعال ومتى تجمع للإنسان حسن الخلق وجمال المظهر، فتلك هي النعمة الكبرى: (٢٢٢)

وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره
ولكنه بالعقل والخلق الأسمى
وإن جمعت للمرء هذي وهذه
فذاك الذي لايبتغي بعده نعمى

وبهذا التكامل والتوافق بين المظهر والباطن وبين الناحية المادية الشكلية، والناحية المعنوية الخلقية، تتجلى الصور المثلى للبطولة التي يسعى عبدالقادر إلى بلوغها بمكارم أخلاقه وشجاعته قولا وفعلا، علما وعملا، فهو مغرم بالتوافق بين النظرية والتطبيق: (٢٢٣)

رفـــعــــنـــــا ثـــــوبــــنـــــا عـن كـل لــــوم

وأقــــوالـي تــــصـــــدقــــهـــــا الـــــفــــعـــــال

وشاعرنا في مواقفه البطولية والأخلاقية جاد غير هازل ليس كغيره من كثير من الشعراء الذين يغرقون في الفخر إلى درجة التدجيل ويلبسون أنفسهم شمائل هم أبعد الناس عنها ، فميزة الصدق في الأقوال قليلة عند الإنسان في مثل هذه المواطن لكن الشاعر يجسد أقواله على أرض الواقع فتحتمل نفسه الظمأ الشديد وتأبى أخلاقه ومروءته أن ينهل من نبع ذل حتى ولو هلك تعففا وترفعا ، فالموت في هذا الموقف أشرف عند عبدالقادر الذي تطاولت أمجاده وتسامت فإذا هي جبال راسيات شامخات لايشوبها خوف ولا جبن وينعدم معها الغدر والخيانة ، زانها حلم واسع وكرم بلا من ، وكف عن السؤال لغنى النفس ، فهو يمنح قبل أن يسأل ويبذل قبل أن يطلب منه ذلك : (٢٢٤)

ولـــــو نـــــدري بمــــاء المــــزن يــــــزري

لـــكـــان لـــنـــا عـــلـى الـــظـــمـــأ احـــتـــمـــال

ذرا ذا المجـــد – حـــقـــا – قــــد تــــعــــالــــت

وصــــدقــــا، قــــد تـــــطــــاول، لايـــــطـــــال

فـلا جـــــزع ولا هــــــلــــع مـــــشـــــيـــــن

ومـــــنـــــا، الــــغـــــدر أو كــــذب، مــــحـــــال

ونـــحـــلـــم، إن جـــنـى الـــســـفـــهـــاء يـــومـــا

ومـن قــــبـــل الـــســــؤال لــــــنــــا نـــــوال

و شاعرنا بأخلاقه الكريمة سمح حليم ، لايحمل حقدا ولا غدرا يجد راحته وعزته في السفر ، يجول في أرض الله الواسعة ، يحسن لجيرانه ، ينأى عنهم دون ضرر أو أذى ، ناره تطاول عنان السماء تهدي السابلة والمحتاجين إلى كرم حاتمي وأمن وأمان : (٢٢٥)

لا نحمل الضيم ممن جار .نتركه

وأرضه .وجميع العز في السفر

وإن أساء علينا الجار عشرته

نبين عنه بلا ضرٍّ ولا ضرر

نبيت، نار القرى تبدو لطارقنا

فيها المداواة، من جوع ومن خصر[٢٢٦]

وكأي من امرئ تجمعت فيه هذه المناقب والخصال، لكنه يفسدها بالظلم والجور، فتذهب مساعيه أدراج الرياح، فلا يقام له وزنا لأنه يفتقد أساس الخلق وهو العدل، وهذا ما أدركه عبدالقادر جيداً ووعاه، فنراه يؤسس إمارة العدل، فيضع الحق والقانون فوق الجميع بلا استثناء، متأسيا بالسلف الصالح، ممثلا في عمر الفاروق آملا أن تكون سيرته العادلة هذه مشعل ونبراس حق يضيء الدرب أمام الناس:[٢٢٧]

وقد سرْتُ فيهم سيرة عمرية

وأسقيت ظاميها الهداية، فارتوى

وإني لارجو أن أكون، أنا الذي

ينير الدياجي بالسنا بعد ما لوى[٢٢٨]

وإلى جانب هذا، أفرد الأمير في فخره حيزا لعلمه وثقافته اللذين اشتهر بهما، فقد طلب العلم منذ أن شب على الطوق وشد اليه الرحال، وتحمل في سبيل تحصيله المشاق والأهوال، فجمع بذلك بين رتبتي السيف والقلم، إذ نشأ شاعرا وفارسا، وصار حاكما عالما، عاش حياته يطلب العلم ويؤتيهما في السعة والسجن والمهجر، فقد كان معلما دائما ومقاوما للعدوان " وعبدالقادر أمير شرقي من أمراء هذا القرن الجسر بين عصر وعصر، واذا لم تكن ثقافته – من الناحية النظرية المتبعة في نقده – مثل

طبيعته ووظيفته ثائرة مقابلة ومجندة لغاية يتصبب شوقا إليها ويستدعي كل طاقاته وجنوده للرباط فيها، فهي - على أقل احتمال -مواكبة لعصره وبيئته في تلك الحقبة التي بدت فيها المدينة وكأنها طفلة طلعت إلى الفناء في الغرب وكهلة تنحدر نحو العقم في الشرق: (٢٢٩)

وبـــالـــلـه أضـحـى عـزنـا وجـمـالـنـا

بـتـقـوى وعـلـم والـتـزود للأخـرى (٢٣٠)

وعبدالقادر عرفناه فارسا مغوارا وشاعرا مجيدا، ولكنه يلفت انتباهنا إلى أننا قد علمنا شيئا وغابت عنا أشياء، فراح يباهي ويفتخر على أعدائه بامتيازه عليهم " لروايته الحديث وعلمه بالفقه والنحو، فالعلم والعمل به توأم الاعتقاد والسلوك ومواجهة حاجة المجتمع بالتلبية، فلا فرق بين أن تعمل العلم للسلم أو تعمله للحرب، وخير العلماء عنده العالم المتبحر في رواية وفهم الحديث النبوي وإيتائه طيب المورد سهل المنى، واتخاذ (الفقه المالكي) حاكما قائما في التربية الفردية والشعبية، والتزام النظام بأصوله وأحكامه وأدلته وأقيسته: (٢٣١)

أجل إلى هذا الحد يعتد بنفسه ويجعلها منتهى بلوغ الأمل بشجاعة وأخلاق وعلم وعمل ونسب وجمع فخر الدين والدنيا: (٢٣٢)

فـإن شـئـت عـلـمـا تـلـقـني خـيـر عـالـم

وفـي الـروع أخـبـاري-غـدت- تـوهـن الـقـوى

لـنـا سـفـن بـحـر الـحـديث بـهـا جـرى

وخـاضت فـطـاب الـورد مـمن بـهـا ارتـوى

وإن رمت فـقـه الأصـبـحيِّ فـعج عـلـى

مـجـالـسـنـا تـشـهـدْ لـواء الـعِـنـا دوا

وإن شئت نحواً فانْحُنا تلق ماله

غدا يذعن البصري[٢٣٣] زهدا بما روى

ثم إن هذه الفروسية والبطولية العربيتين قد ولدتا عند الأمير روحا جماعية ورسخت في نفسه شعورا عميقا بالجماعة" فعندما يقول عبدالقادر" نحن" فإنما يعني في ميزان النقد الأدبي تألق الشعور الجماعي عند الفرد الواحد الذي اختير بطريقة ما، ليعبر عن شعور الجماعة ورضاها بشعوره وتعبيره"[٢٣٤] بل ان الضمير " أنا" عند شاعرنا أصبح يعني الشعور الجماعي، ولذلك لم يكن الأمير أنانيا في فخره إن صح القول ولم يول نفسه الحظ الأكبر من فخرياته، بل جعل ذلك مشتركا بينه وبين صحبه الذين نصروه، وآزروه، وعزروه، فلا جرم إذن أن يصيبهم جانب من هذا الفخر والمديح، ولم يحتكر الأمير هذا الشرف لنفسه فحسب، بل قسمه بالتساوي بينه وبين رفاقه، وهذا دليل " على سمو أفكاره وتفكيره وعلو مقاصده الشريفة، لأنه بهذا الاعتراف الجميل لأولئك الأبطال المغاور، وضعهم في مأمن من التزعزع.[٢٣٥]

ومن هذا المنطلق فإن التقوى بالجماعة " طغى على الشعور بالفردية وسحق كل أثر للعزلة والانفراد عن المجموعة الهائلة، وقلب الفخر بالذات إلى المباهاة بالجماعة، ومبدأ التمدح بالبطولة الفردية إلى الإعجاب بالقوة العامة المتكاثفة.[٢٣٦]

وعبدالقادر حين يفتخر بأصحابه ويعتز بهم، فإن هذا ليس من باب التملق لأنه يراهم في نفس منزلته وقيمته، ويخوضون معه لهيب المعارك، ويفدونه بأرواحهم وأموالهم، فقد كانوا أنصاره وجنوده في حربه الضروس، ومؤنسي غربته وأسره، وجلسائه في حلقات العلم والثقافة، لم يبتعدوا عنه أبدا، ففخره بهم ومدحه لهم" هو في الحقيقة قادم من ميزة رفاق السلاح، فليس يتقدمهم لأنه أشجعهم وأقواهم ولكن

من جهة أنه يحبهم فيحمي صفوفهم وهم يحبونه ويحترمونه فيتبعونه، فذلك- إن لم يكن يقتضيه الإنصاف- من فروض الفروسية وخصائصها لأنهم شعراء وفرسان في آن واحد[٢٣٧]، فهؤلاء الفرسان قد رضعوا لبن الشجاعة والفروسية مع حليب أمهاتهم فغدوا يطلبون الجهاد ويفرحون للنزال تراهم يصولون ويجولون يلقون الرعب في قلوب عدوهم الذي أمسى حزينا مهموما لأنه يعلم أن حياته معلقة بسيوفهم: [٢٣٨]

جــزى الــله عـــنـــا كـل شـــهـم غـــدت بـه
غـريس[٢٣٩] لـهـا فـضـل أتـانـا ومـا انـزوى
فـكم أضـمـروا نـار الـوغى بـالـظـبـا مـعي
وصـالـوا وجـالـوا والـقـلـوب لـهـا اشـتـوا
وإنـا بـنـو الــحــرب الــعـوان لــنـا بــهـــا
ســرور إذا قـــامت وشـــانـــئـــنـــا عـــــوى

ومن أشهر ما قاله الأمير مدحاً لهؤلاء وفخراً بهم هذه الأبيات (من الشعر القادري. . . قادري لأنه أرق مايعثر عليه فيما يرسله القادة العسكريون إلى أحبتهم الجنود المجاهدين[٢٤٠] يتشوق اليهم ويمدحهم بقصيدة إخوانية تنهض فيها "كم" الخبرية ثلاثاً وثلاثين مرة.

يستهل عبدالقادر لاميته بدعوة الريح-ريح الجنوب- لتنوب عنه في حمل تحياته وأشواقه إلى هؤلاء الفرسان، الذين اكتوى الشاعر بنار البعد عنهم فقد جفاه النوم، يبيت ليله سهرانا عسى أن يظفر بطيف منهم، فكل عذاب في الدنيا يهون، إلا هجر الأحباب والإخوة، وأية إخوة هؤلاء؟ إنهم أرباب عهده وصفوة جنده، وسنده القوي، وزاده عند الحاجة، مازالوا أوفياء لما عاهدوا الله ثم الأمير عليه، لم تؤثر فيهم نوازل الدهر، بل زادهم ذلك إصرارا على الوفاء، فهم سلالة تلكم الدوحة المباركة النبوية وحاملو راية الدين والشرف، اختارهم المولى واصطفاهم على بقية عباده

لإيمانهم وصبرهم وحسن بلائهم، فحق للشاعر أن يمدحهم لأنه خادم أوخويدم المجاهدين والعلماء العاملين - كما يقول دائما -معللا ذلك تعليلا ينتصف فيه لنفسه ولهم على السواء، يقول: (٢٤١)

يـأيـهـا الـريح الجـنـوب تـحـمَّـلـي

مـنـي تحـيـة مـغـرم وتـجـمَّـلـي

واقـري الـسلام أُهَـيْل ودي وانـثـري

من طـيـب مـا حُـمّـلتِ، ريح قـرنـفل

خـلـي خـيـام بـنـي الـكـرام وخـبّـري

أني أبـيـت بـحـرقـة وتـبـلـبل

جـفـنيَّ قـد ألـفـا الـسـهـاد لـبـيـنـكم

فـلـذا غـدا طـيـب المـنـام، بمـعـزل

كم لـيـلـة قـد بـتُّـهـا مـتـحـسـرا

كـمـبـيـت أرمـد في شـقـا وتـمـلـمل

سـهـران، ذو حـزن تـطـاول لـيـله

فـمـتى أرى لـيـلي بـوصـلي، يـنـجـلي؟

مـاذا يـضـر أحـبـتي لـو أرسـلـوا

طـيـف المـنـام يـزورني بـتـمـثل

كل الـذي ألـقـاه في جـنب الـهـوى

سـهل، سـوى بـين الحـبـيب الأفـضل

أدي الأمـانـة يـاجـنـوب وغـايـتي

في جـمع شـمـلي، يـانـسـيم الـشـمـأل

حـاولت نـفـسي الـصـبـر عـنـهمُ قـيل لي

مه ذا مـحـال .ويك عـنـه تَـحـولًّ

كـيف الـتـصـبـر عـنـهم ؟ وهمُ همُ

أربــاب عـــهـــدي بـــالـــعـــقـــود الـــكـــمّل

أفـــدي أنـــاســـاً لـــيس يُـــدعَى غـــيـــرهم

حـــاشى الـــعـــصـــابـــة والـــطـــراز الأول[٢٤٢]

ثم يمضي واصفا هؤلاء الأحبة من غير أن يختص أحدا دون آخر بمناقب جامعة لخصائص الفروسية المثالية من كرم وجود وشهامة وإيثار، فإن كان غيرهم بالمال يضن فهم بالأرواح يجودون، يسترخصونها في سبيل أهدافهم ويضعونها على أكفهم يبتغون بذلك فضلا من الله ورضوانا، فيرضى عنهم الرحمن ويسر من أفعالهم وهم يجابهون عدوهم صابرين مرابطين غير مولّي الأدبار: [٢٤٣]

إن غـــيـــرهـم بـــالمـــال شح ومـــا ســـخـــا

جـــادوا بـــبـــذل الـــنـــفس، دون تـــعـــلـل

الـــبـــاذلـون نـــفـــوســـهـم ونـــفـــيـــســـهـم

فـي حب مـــالـــكـــنـــا الـــعـــظـــيم الأجـــلل

كم يـــضـــحـك الـــرحـــمن من فـــعلاتـــهم

يـــوم الـــكـــريـــهـــة نـــعـم فـــعل الـــكـــمّل

فهؤلاء الصادقون الصابرون في يوم الكريهة، يتحملون نوائب الدهر وشدائد الجهاد، بأنفس شجاعة كريمة، تنزهت وزهدت في الدنيا وزخرفها، همها الأكبر قراع الجحافل، وخوض المعارك فهم فرسان يومهم، زهاد ليلهم، تاركين ما دون ذلك لسواهم، يرون حلو الحياة ولذتها في نيل وسام الشهادة فهو عندهم منتهى الأمل: [٢٤٤]

الـــصـــادقـــون الـــصـــابـــرون لـــدى الـــوغى

الـــحـــامـــلـــون، لـــكل مـــا لم يـــحـــمل

إن غـــيـــرهـم نـــال الـــلـــذائـــذ مـــســـرفـــا

هم يبتغون قراع كتب الجحفل

وهكذا نرى صحب الأمير عاكفين دوما على الجهاد، يروون سيوفهم العطشى من دماء اعداء الله والوطن، ينزلون على عدوهم وينقضون عليه انقضاض الصقر الجارح على فريسته، فلا يجد العدو من دونهم عاصما فلا الجبال والكهوف تمنع عنهم الضربات القاتلة، حتى صغار الجند- هؤلاء الأشبال- لاتعرف الشكوى إلى نفوسهم سبيلا يخوضون غمار الحرب ويصطلون بنارها كآبائهم . أوليست هذه الأشبال من تلك الاسود؟ توارثوا الشجاعة والإقدام والصبر أبا عن جد فحافظوا على الإرث وهم على الدرب سائرون:

وألذ شيء عندهم لحم العدا

ودماؤهم كزلال عذب المنهل

النازلون بكل ضنك ضيق

رغما على الأعدا بغير تهول

لا يعرف الشكوى صغير منهم

أبدا ولا البلوى إذا ما يصطلي(٢٤٥)

ما منهم إلا شجاع قارع

أو بارع في كل فعل مجمل(٢٤٦)

وتأتي (كم) الخبرية لتنهض بحشد صور هؤلاء الفرسان فتربط بين الماضي التليد والحاضر المأمول، فهم المجتمعون على المنافسة والمسارعة والمحاربة والمضاربة، والمغالبة والمصابرة، والمكابرة والمغادرة والمجاهدة والمطاردة والتجلد، والإدلاج والإزعاج، وإسراج الجياد، وتشريد العدو وتبديد شمله، وجمع كلمة المجاهدين على الحق والجهاد، في وطن واحد وملة واحدة، يصدر منها عمل موحد مفروضا فرضا مقدسا من لدن إله واحد، يجد فيه المؤمن الحقيقي الأمان والسكينة ويهب لافتدائه متى نادى

منادي الجهاد إلى ذلك[٢٤٧] :

كم نـافـسـوا،كم سـارعـوا، كم سـابـقـوا

من سـابـق لـفـضـائـل وتـفـضُّل

كم حـاربـوا، كم صـابـروا،كم غـالـبـوا

أقـوى الـعـداة بـكـثـرة وتـمـوّل

كم صـابـروا،كم كـابـروا،كم غـادروا

أعـتـى أعـاديـهـم كـعـصـفٍ مـؤكـل

كم جـاهـدوا،كم طـاردوا وتجـلـدوا

لـلـنـائـبـات،بـصـارم، وبـمـقـول[٢٤٨]

كم قـاتـلـوا،كم طـاولـوا،كم مـاحـلـوا

من جـيش كـفـرٍ بـاقـتـحـام الجـحـفل

كم أدلجـوا[٢٤٩] كم أزعـجـوا،كم أسـرجـوا

بـتـسـارع لـلـمـوت، لابـتـمـهـل

كم شـردوا،كم بـددوا، وتـوعـدوا

تـشـتـيت كل كـتـيـبـةٍ بـالـصـيـقـل

ومن كانت هذه خصاله فمن غير شك أن نفسه تهفو دوما للقتال وتحن إلى سماع صليل السيوف وصهيل الخيل ، وتستبشر باليوم الذي تدق فيه طبول المعركة – أن حي على الجهاد– فتعم الفرحة ، ويتسابق الأبطال لجندلة الأعداء ومسح سيوفهم الملطخة دما في ثياب الصرعى من القوم ، لترد إلى اغمادها بيضاء تلمع تسر الناظرين[٢٥٠] :

يـوم الـوغـى يـوم المـسـرة عـنـدهم

عـنـد الـصـيـاح له مـشـوا بـتـهـلل

فـدمـاؤهم وسـيـوفـهم مـسـفـوحـة

ممسوحة بثياب كل مجندل

فالشهادة لديهم مبتغى الأمل، يحرصون عليها لينالوا شرف الدنيا والآخرة، وينعمون بفضل من الله ورضوانا، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، يتسابقون إليها تسابق غيرهم لنيل عرض الدنيا وحطامها الزائل، يستبشرون لأخيهم الذي قضى نحبه تحت ظلال السيوف شهيدا، يود كل بطل منهم لوكان مكانه، فيحوز شرفا عاليا، وذكرا دائما، فالعار العار عندهم أن يلقى الإنسان ربه بعيدا عن ساحة الوغى فيموت حتف أنفه ميتة البعير، وإن كان حقه، بل حق الفروسية والبطولة أن يموت بين السيوف: [٢٥١]

لا يحزنون لهالك بل عندهم

موت الشهادة غبطة المتحول

ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة

والنقص عندهم بموت الهمَّل

ويكون مسك ختام هذه القصيدة دعوات ضارعة من الشاعر تذكرنا بدعوات جده المصطفى (ص) لأصحابه وجنده لحظة لقاء العدو، لتثبيتهم وزرع الطمأنينة في قلوبهم، ودعوة المولى لنصرهم وبث الرعب والهلع في صفوف اعدائهم، فتذهب ريحهم، ويلين عودهم، فلا يلبثون في ساح الوغى الا عشية أو ضحاها، والملاحظ على دعوات الأمير أنها لا علاقة لها بهذه الدنيا، فهو يرجو ربه لجنده الصبر الجميل والنصر المبين، والفتح العظيم، والعفو الدائم، والرحمة الشاملة، وعداً من الله لعباده ومن وأوفى من الله عهدا؟[٢٥٢]

يارب إنك في الجهاد أقمتهم

فبكل خير عنهم فتفضل

يارب يارب البرايا زدهم

صــبــرا ونــصــرا دائــمــا بــتــكــمّل

وافــتح لــهم مــولاي فــتــحــا بــيــنــا

واغـــفـــر وســـامح بـــالإلـــهي عـــجِّل

يـــارب مـــولاي وابـــقـــهم قـــذى[٢٥٣]

في عـــين من هـــو كـــافـــر،بـــالمـــرسل

وتجـــاوزن مـــولاي عن هـــفـــواتـــهم

والـــطف بـــهم في كل أمـــر مـــنـــزل

يـــارب واشـــمـــلـــهم بـــعـــفـــو دائم

كن راضـيـا عـنـهم رضـا المـتـفـضل

يـــارب لا تـــتـــرك وضـــيـــعـــا فـــيـــهم

يـــارب واشـــمـــلـــهم بـــخـــيـــر تـــشـــمُّل

ب - الــغـــزل:

"انفرد عبدالقادر دون كثير من شعراء عصره ولاسيما الجزائريين منهم بالإقدام الشجاع على الغزل[٢٥٤] " ذلك أن معاصريه من الشعراء - كما يرى المؤرخون- لم يكونوا إلا قضاة شريعة، أو أئمة صلاة، أو دعاة إصلاح لاهمَّ لهم في الغزل، فقدكانوا يتخوفون منه اتقاء نظرة المجتمع اليهم، فتنزهوا عنه، ولم يكن هذا الأمر يمس الجزائر وحدها آنذاك كما يذكر د. محمد السيد الوزير،" بل إن الغزل لم يكن له في البيئات العربية اتصال سند بأفضل منه فى الجزائر، فقد اصطنع الرافعي من بعد في مصر لونا جديدا في فلسفة الحب والجمال ليسوغ لنفسه الغزل[٢٥٥] ".

وقبل أن ندخل في دراسة شعر الغزل عند عبدالقادر يجدر بنا أن نقف على أهم الدوافع التي دعت الشاعر إلى التطرق إلى هذا الفن والخوض فيه.

ولعل أهم هذه الأسباب والدوافع هي علاقة الأمير بالمرأة بشكل عام ودور

الأمومة في حياته بشكل خاص .

يحدثنا محقق الديوان عن هذه العلاقة بقوله" ولعل السر في هذا الخضوع للمرأة كان من وراء اعجابه بأمه وحبه لها وشدة تعلقه بها ، فقد لازمها في حله وترحاله ، وسلمه وحربه ، ورافقها معه إلى الأسر وأعادها إلى استنبول وبروسة ودمشق وامتنع عن الحج خشية أن يفقدها في تغيبه[٢٥٦] . ولما اختارها الله لجواره سنة ١٢٧٣ هـ حزن عليها حزنا شديدا وافتقد في شخصها إنسانا عزيزا وحبيبا غاليا "كما كان شديدا الاحترام لها يأخذ برأيها ويستشيرها حتى أنه اتهم بأنه يخضع لما تصدره من مكاتبات وتحارير ومراسلات موقعة باسمه" . [٢٥٧]

وبالتأكيد فإن هذه الأم كانت تتمتع بشخصية طاغية فرضت احترامها على كل من رآها وقابلها ، حتى أن " الإمبراطور لويس نابليون لما زار الأمير فى أسره بأمبواز ، وعندما قدم الامير والدته قبل البرنس يدها وسألها الدعاء"[٢٥٨] .

وهكذا كانت لهذه المحبة القوية والاحترام الشديد من الأمير لوالدته الأثر الفعال في تحويل محبته وخضوعه وإعجابه إلى المرأة بشكل عام وأساسي .

أما الدافع الثاني فهو سلطان الجمال ، فعلى الرغم من أن شاعرنا كان " عصبي المزاج ، عنيفا في الدفاع عما يعتقده أنه الحق ، لايلين للقوة مهما قست وطغت ، فيه شيء من عنجهية البادية وعنادها ، على ليونة في القلب أمام الجمال وتراخ لعزة المرأة . [٢٥٩] "

وشاعرنا لم يكن سباقا في الإقرار بسلطان الجمال على نفس الفارس وخضوعه له ، فقد سبقه إلى ذلك فرسان وأبطال وشعراء" وبخاصة منهم في الجاهلية والإسلام أو أي عصر ومجتمع كان لهم بالمرأة هذا الهيام التلقائي وارتباط فروسيتهم بمحبتها ارتباط وجهي العملة بعضها ببعض[٢٦٠] " ، وفي ذلك يقول أحدهم[٢٦١] :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ

ل عـــلـى أنـــنـــا نـــذيـب الـــحـــديـــدا

وتـــرانـــا لـــدى الـــكـــريـــهـــة أحـــــرا

را وفـي الـــســـلـم لـــلـــغـــواني عـــبـــيـــدا

وشاعرنا يعترف بهذا اعترافا صريحا في أحد أبياته :

وســــلــــطــــان الــــجــــمــــال لـه اعــــتــــزاز

عــــلـى ذي الخـــيـل والـــرجـل الجـــواد

وعبدالقادر ينطلق في غزله من تراثه الإسلامي وتربيته الدينية فلا يرى في الغزل عيبا مادام بعيداً عن الإباحة، وينحو فيه منحى روحيا ينتمي إلى التيار العذري في صدقه، فلم يكن غزله مادياً ماجناً، ولذلك برىء شعر الغزل عنده مما يعاب به" أليس عبدالقادر من حراس الأخلاق ويشترط بذلك مكارمها حسب التعبير النبوي، ومن رعاة المجتمعات وحماة الضغينة، والمعتقدات الموروثة، فكل ذلك أدى إلى ظهور الجوانب الروحية والخلقية لا في حياته اليومية فحسب، بل انعكس ذلك على شعره وأدبه بصفة عامة، إضافة إلى هذا فإن النزعة الصوفية عند عبدالقادر كان لها أثر هام في توجيه فن الغزل عنده، وذلك أنه عرف التصوف ومارسه في الجزائر وفرنسا وبروسية، وأخيرا في دمشق ومن المعروف أن التصوف ينمي الجوانب الروحية والخلقية في الإنسان ويبعده عن الجوانب المادية الضيقة المغلقة، ولايخفى أن الحب والغزل الإلهيان عنصران أساسيان من عناصر الشعر الصوفي في الإسلام.[٢٦٢] "

وقد آثرت وأنا أتناول فن الغزل عند شاعرنا أن أرجعه إلى نقاط تبدو واضحة من خلال الاستقرار المتأني لهذا الشعر وأولى هذه النقاط :

الجمع بين الغزل والفخر:

جعل الأمير من شخصه نقطة ارتكاز غزله فقد كان يتغزل ويفرد لنفسه مكانا في قصائده، فهو ومحبوبه يشتركان في القصيدة لاعتزازه بنفسه ونسبه وشجاعته، فهو

البطل الشجاع الذي تفر أمامه الفوارس وتتساقط الأبطال كلمى تحت ضربات سيفه البتار، ولكنه يقف موقفا مناقضا تماما لهذا أمام المحبوب فتخونه الشجاعة، ويفتقد الإقدام، فيغدو عاجزا لاحول ولاقوة له لايجد إلا الشكوى والأنين[٢٦٣]:

ومن عــجب تــهــاب الأســد بــطــشي

ويمــنــعــني غــزال عن مــرادي

وحينما يقرن شاعرنا فخره بغزله، فإنه يسعى لتأكيد هذه الحقائق ويجليها أمام حبيبه، فأقواله تصدقها الفعال، يدخل معامع المعارك لايهاب السيوف الوامضة، ولا الرماح الضاربة، في يوم تشيب لهوله الولدان، تصير هامات أعدائه غمدا لسيفه، يشق الصفوف المتلاطمة بنفس لاتعرف الخوف والتراجع وسط طلقات المدافع، ومع هذا كله يُرى صبورا متجلدا متحملا المكاره بنفس قوية، هذه النفس التي تقف أمام الحبيب خاضعة ذليلة يتملكها الخوف والرهبة، تذرف الدمع مدرارا حين دنو لحظة الفراق فلم تجد من تلك الشجاعة إلا هذه الزفرات التي تتصاعد مع أبيات الشاعر[٢٦٤]:

ومـن عــجب صــبــري لــكل كــريــهــة

وحــمــلــيَ أثــقــالاً تــجـلّ عن الــعــدِّ

ولــست أهــاب الــبــيض كلا ولا الــقــنــا

بـيـوم تـصـيـر الـهـام لـلـبـيـض كـالـغـمـد

ولا هــالــني زحف الــصـفـوف وصـوتــهـا

بــيــوم يــشــيب الــطــفل فــيه، مع المــرد

وأرجــاؤه أضــحــت ظـلامــا وبــرقــه

ســيــوفــا وأصــوات الــمــدافع كـالــرعــد

وقــد هــالــني بل قــد أفــاض مــدامــعــي

وأضـــنى فـــؤادي بـل تـــعـــدى عن الحـــد

فـــراق الـــذي أهـــواه كـــهلا ويـــافـعـــــا

وقـــلـــبـي خـــلـيٌّ من ســـعـــادٍ، ومن هـــنـــد

سلطان الجمال والخضوع له:

وللجمال عند شاعرنا سلطان عظيم ومنزلة كبرى، يدافع عنه الشاعر بكل ما أوتي من قوة الكلمة، ويعتبر أن الخضوع له ليس عيبا أو منقصة، بل إن كمال الرجل الفارس في هذا الخضوع والتذلل لا عن خوف وجبن وعجز، ولكن دلالاً وإكباراً وتقديراً لهذا الجمال، ومن هنا نرى شاعرنا يتحامل ويهاجم بشدة أولئك الذين يسيؤون بأفعالهم لجمال المرأة ويشوهون خدودها عن طريق الوشم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولكنهم في حقيقة الأمر يجنون على تلك الخدود الندية الطرية، فيهتكون أستار الجمال فيها، فيبدو مرآها قبيحا بعد أن كانت ملهم الشعر والابداع وينكر الشاعر عليهم أن تكون لهم نفوسا حساسة تعرف للجمال حقه وللحسن منزلته[٢٦٥]:

أقـــول لـــقـــوم لا تـــفـــيـــد نـــصـــيـــحـــتي

لـــــديـــــهم، ولـــــو أبـــــديت كل الأدلـــــة

ألا فـــاتـــركـــوا ورد الخـــدود وشـــأنه

فـــتـــخـــديـــدكم في الخـــد أقـــبح فـــعـــلـــة

أيـــعـــمـــد ذو لـب، لـــخـــد مـــورد

ويـــقـــســـمه عـــمـــدا إلى شـــر قـــســـمـــة

ويتمنى الأمير على هؤلاء أن يدعوا العين واللحظ تقومان بهذه المهمة فهما أقدر وأكفأ، أفرأيتم فعل العين في الوجه الصبوح حين تلحظه، حيث تحمر الخدود، وتتورد حياء وخجلا، فتصير آية للناظرين، تزيد نار الحب اشتعالا، فينطلق العشاق يسبحون

في سماء الجمال ببديع الخالق المصور، فجمال الشيء في نضرته، وأحب الخدود إلى المرء هي تلك التي تسلم من هذا الفعل الشنيع(٢٦٦):

فبـالـلـحظ لا المـوسى تـخـدش وجـنـة
فـيـا ويـلـتـا مـنـه ويـاطـول حـسـرتي
وإنـي لأهـــوى كـل خـــد مـــورد
زهـا، قطُّ لم يمـسَـسْه مـوسى بـخـدشـة

وهيمنة الجمال على الإنسان وخضوعه له ليس من العار في شيء لأن طريق الحب ذل وتودد وتواضع لكسب رضا الحبيب وفؤاده، فالجمال ملك وطيد في جوانح أهل الهوى الأسخياء، فالعطاء حتى الفداء صدق المحبة(٢٦٧):

فـمـا فـي الـذل لـلـمـحـبـوب عـار
سـبـيـل الـحب، ذل لـلـمـرادِ
رضـا المحـبـوب لـيس لـه عـديل
بـغـيـر الـذل، لـيس بمـسـتـفـاد

ويتساءل الشاعر عن هذا الخضوع والانقياد ثم لا يفتأ إلا قليلا حتى يجد الجواب الشافي في قوله(٢٦٨):

ومـاذا غـيـر أن له جـمـالا
تـمـلـك مـهـجـتي مـلـك الـسـواد
وسـلـطـان الجـمـال له اعـتـزاز
عـلـى ذي الخـيـل والـرجـل الجـواد

فالكريم الجواد، والفارس الحق عند عبدالقادر، هو من يتواضع ويتكيف مع المقام، فتراه في ذل بعد عز، وبكاء ودموع بعد صبر وتجلد، وخضوع بعد رفعة لا لشيء

سوى إرضاء الحبيب وإظهار آيات الحب والإخلاص فلا جناح عليه في كل ذلك، بل إن الفعل كريم وحسن، مقابل غاية عظيمة هي الفوز بالوصال ولقاء الحبيب الذي يهون في سبيله كل عز ومجد(٢٦٩):

وهــــذا الـــفـــعل مـــغـــتـــفـــر وزين

إذا-يـــومـــاً - أبـــيت عـــلى مـــعـــاد

فـــإن رضـــيتْ عـــليَّ أرَتْ مـــحـــيَّـــا

بـــشـــوشـــاً بـــالـــملاحـــة، ظلَّ بـــاد(٢٧٠)

عذاب الحبيب وتدلل المحبوب:

والأمير مغرم في شعره الغزلي برسم الصور المتناقضة التي يوردها في أبياته، مصورا حالته الكئيبة الحزينة شاكيا عذابه وآلامه، مبينا في المقابل صورة الحبيب وهو يتيه عزاً ودلالا، يمعن في تعذيب الشاعر مصراً على إنزال أشد الألم به، فكلما ازداد ذاك دلالاً وغنجاً سعى الآخر طمعاً في الوصال، فيصده الحبيب مبتعدا، يزيد في لوعة الشوق والحنين وكأن الحبيب قد أصدر حكما بالإعدام مع وقف التنفيذ، يوعد فيخلف وعده يطيل أمد الوصال لتزداد جمرة الحب والشوق التهابا فيكتوي بها الفؤاد، حتى لكأن الشاعر يقر ويذعن اعترافا بأنه آن الأوان لهذا الهجر والفراق أن ينتهي فقد ثاب إلى رشده وتاب عن أفعاله، ولأشد مايخشاه شاعرنا أن يمتد هذا العذاب إلى مالا نهاية، فتكون معه خاتمة الأمير، ويتأصل الداء فلن يجد معه الدواء الشافي، لذلك يتودد الأمير ويستعطف المحبوب ليرفع عنه هذا العقاب والعذاب فيعيد إليه الحياة من جديد(٢٧١):

فـــإن كـــان هـــذا الـــبـــعـــد تـــأديب مـــذنب

فـإنـــا بـــهـــذا الـــقـــدر صـرنـــا عـــلى شـــفـــا

وإن لـــنـــخـــشى إن تـــطـــاول بـــعـــدكم

يـــصـــيـــر لـــكم ســـلـــوى فلا يـــرتجى شـــفـــا

فـمـنـوا بـلـقـيـاكم وإلا فلا بـقـا

وريح الـفـنـا تـسـفي عـلـيـنـا إذا سـفـا

وهذا المحبوب في تيهه ودلاله يقابل دوما الإحسان بالإساءة ويعتمد البعد حتى يدنو أجل الوصال، فهو لايرعى ذمة ولا يعطي جاره حقه من المؤانسة والمحادثة، نراه يختال مبديا جماله البارع إمعانا في تعذيب الشاعر(٢٧٢)

وأطـلـب قـربـه فـيـزيـد بـعـدا

قـديـمـاً مـن وصـالٍ في نِـفـارِ

وهـذا الـظـبي لا يـرعي ذمـامـاً

ولا يـرضى مـوانـسـةً لـجـار

يـتـيه بـدلّه ويـصـول عـمـداً

غـني بـالجـمـال، فلا يـداري

وحتى المزاح لايجد عند هذا القاسي قبولا، فتراه يصد عنه رافضا وقاطعا كل أسباب الوصال واللقاء حتى ولو من باب الأمل فقط، وأمام هذا يأخذنا العجب حين نرى شاعرنا ينتابه شعور من الانبساط والفرحة متى عاتبه حبيبه ولامه ولأن مجرد سماع حديثه ولو من باب الملامة والعتاب يطفئ النار المتأججة في فؤاده، فحياة عبدالقادر وأمله معلقان برضا الحبيب وعفوه، وتفضله بالوصال معناه ديمومة السعادة والهناء، فإن الأقدار قد حكمت بالموت والفناء على نفس الأمير البائسة(٢٧٣):

أمـازحـه فلا يـرضى مـزاحـا

وأسـألـه المـراء فلا يـمـاري

ويـعـتـبـني فـيـكـسـو الـقـلـب بـسـطـا

لأن الـعـتـب يـطـفي حـر نـاري

فـإن هـو لـم يـجـدْ بـالـوصل أصلا

ويـــدني الـــطـــيف من ســكـــنـي وداري

أقل لـــــلـــــنـــــفس ويك ألا فــــذوبــــي

ومــوتـي فــالــقــضــاء عــلــيك جــار

ويظل الأمير يطالعنا بهذه الصور المتناقضة بينه وبين حبيب الفؤاد شاكيا ما يلاقيه من هذا الحب، فحبيبه قاس أحال حياته إلى عذاب، وهناءه إلى حيرة وعلى الرغم من ذلك فالشاعر يقابل الإساءة بالإحسان فهو في سعيه، دوما لراحة حبيبه يبذل نفسه ومهجته في سبيل ارضائه فيكون الجزاء جفاء وعذابا نكرانا للجميل، يريد حياتها وهي تسعى لحتفه وهلاكه، لا قتلا ولكن هجرا وصدا وبعادا، وهي اشد فتكا من الموت، فتراه يبكي وينوح، يراقب النجوم ساهرا، وهي تنعم بجميل الرقاد، وكأن الأمر لايعنيها بتاتا، تصر دوما على الصد، وتتعمد ذلك فتزيد في عذابه، لاذنب جناه سوى أنه أحب، وهل الحب جريمة ليعاقب عليها بكل هذه القسوة، فقد رأت فيه إنسانا ظلوما يستحق العقاب فناله بدون رأفة[٢٧٤]:

أقـــاسي الحب من قـــاسي الـــفـــؤاد

وأرعـــــاه ولا يـــــــرعـــــى ودادي

(أريــد حــيــاتـــهــا وتــريــد قــتــلـــي)

بـــهــجــر أو بـــصـــد أو بـــعـــــاد

وأبـكـيـهـا فـتـضـحك مـلء فـيـهـا

وأســهــر وهـي فـي طـــيب الــرقـــاد

وتــعــمَـى مــقــلــتـي إمــا تــنـــاءت

وعــيــنــاهـــا تــعــمـي عن مــــرادي

وتـــهـــجـــرني بـلا ذنـب تـــــراه

فـــظـــلـــمي قـــد رأت دون الـــعـــبـــاد

وأمام هذا الجفاء والصدود، يرفع الشاعر صوته شاكيا باكيا طالبا العفو والرحمة من هذا القاضي الظالم ولكن هيهات فالحبيب قد صم أذنيه وتحجر قلبه فلن يرحم ولن يعدل عن حكمه، بل كلما ازداد الشاعر شكوى ازاد الحبيب تماديا في هجره، فلم تقبل له شفاعة ولا وساطة، رافضا كل وصال وتقارب متهما عبدالقادر بالخطأ في حقه، فلن يدع كبيرة ولا صغيرة إلا احصاها كدليل اتهام، بينما نرى الشاعر في المقابل يتسامح ويغفر لها كل ما جنته في حقه إن لم نقل يبحث لها عن الأعذار والمبررات ليقنع نفسه ببراءة حبيبه[٢٧٥]:

وأشكوها البعاد وليس تصغي
إلى الشكوى وتمكث في ازدياد
وأبذل مهجتي في لثم فيها
فتمنعني وأرجع منه صاد[٢٧٦]
واغتفر العظيم لها وتحصي
عليَّ الذنب في وقت العداد
وأخضع ذلة، فتزيد تيها
وفي هجري أراها في اشتداد
فما تنفك عني ذات عز
وما انفك في ذلي أنادي

وعلى الرغم من هذا كله، فإن قلب الشاعر لايعرف اليأس ولا يعترف بالفشل والهزيمة، فأهل الهوى دوما يمنون النفس ويحاولون خداعها، تراهم يتعلقون بأوهن خيوط الأمل ينتظرون البشير حاملا إليهم الخبر السار عن رضا الحبيب وقرب موعد الوصال، وهو ما ينتظره الشاعر فعلا حين يعد حامل البشرى إن جاءه يوما بها، أن يهبه روحه ونفسه وهما أغلى ما يملك الإنسان، يتنازل عنهما الشاعر جزاء هذا المعروف بنفس راضية إدراكا منه بأن كل ما يملك لا يساوي شيئا مقابل نظرة رضا وعفو من

الحبيب :[٢٧٧]

خـــلـــيـــلـــي إن أتـــيـت إلـي يـــومـــا
بـــشـــيـــرا بـــالـــوصـــال وبـــالـــوداد
فـــنـــفـــسي، بـــالـــبـــشـــارة إن تـــرمـــهـــا
فـــخـــذهـــا بـــالـــطـــريـف وبـــالـــتلاد

ويطالعنا عبدالقادر في إحدى تعبيراته الشعرية بطبيعة هذا الحب الصافي الطاهر المفعم بالإيثار ونزعة النضحية ، فلا مال الدنيا وزخرفها يصرفه عن حبه هذا ، فهو كنزه ومراده وغناه ولايبغي عنه بديلا قمة الإخلاص والوفاء[٢٧٨] :

إذا مـــا الـــنـــاس تـــرغب في كـــنـــوز
فـــبـــنت الـــعم مـــكـــتـــنـــزي وزادي

وفي قصيدته " فراقك نار" يسير فيها على نفس النهج السابق فتراه يعزف على أوتار الأنين والشكوى والفراق ، وعتاب الحبيب ، مصورا حالته البائسة من ضعف وألم وحنين يجسدها في أبيات تفوح ألما وحسرة[٢٧٩] :

أقــول لمحـــبـــوب تـــخـــلـف من بـــعـــدي
عـــلـــيلا بـــأوجـــاع الـــفـــراق، وبـــالـــبـــعـــد
أمَـــا أنت حـــقـــا، لـــو رأيت صـــبـــابـــتـــي
لـــهـــان عـــلـــيك الأمـــر، من شـــدة الـــوجـــد
وقـــلـت: أرى المـــســـكـــين عـــذَّبه الـــنـــوى
وأنـــحـــله - حـــقـــا -إلى مـــنـــتـــهى الحـــد

ويمعن في تصوير حالته المأساوية ، معددا صورا حزينة توحي بالشفقة والرحمة فهو العاشق الولهان الغريق الأسير الذي يحترق بنار الهجر والوجد والصد ، دموعه تنساب مدرارة ، يحاول إخفاء الأمر ومداراة حاله ، ولكنه يعجز فزفراته ودموعه وآلامه

تكشفه وتفضح سره الدفين وتجليه أمام الناس في هذه الصورة[٢٨٠] :

وإني -وحق- الـــــلـه دائم لـــــوعـــــة

ونـــار الجــوى بـــين الجـــوانح في وقْـــــد

غــريق أســيــر الــسـقم مــكـلــوم الحـشـا

حـريق بـنـار الـهـجـر والـوجـد والـصــــد

غــريق، حـــريق،هل ســمـــعـــتم بمـــثل ذا

فـفي الـقـلب نـار والميـاه عـلى الخــــد

حـــنـــيـــني أنـــيـــني زفــرتي، ومـــضـــرَّتـي

دمـوعي، خـضـوعي قـد أبـان الـذي عـنـدي

وعلى الرغم من هذه المعاملة القاسية التي يلاقيها الشاعر إلا أن حبيبه قد ملك عليه روحه وفؤاده ، واحتل من نفسه مكانا غاليا لم يحل فيه أي كان ، فاستحوذ عليه ولم يترك لغيره مكانا ، يرتع فيه ماشاء ويزرع بين جنباته جذور الهوى والشوق فأمست العين تفيض معا تستجدي الرحمة والرأفة من هذا العذاب[٢٨١] :

فــحــلَّتْ مــحلاً لم يــكن حل قــبــلــهـــا

وهــيــهــات أن يـحـل به الـغـيـر أو يـجـدي

وقـد عـرَّفَـتْـني الـشـوق من قـبل والـهـوى

كـذا والـبـكـا - يـاصـاح - بـالـقـصـر والمد

ويحاول عبدالقادر أن يصور لنا قوة نفسه وصبرها على تحمل العذاب فهو أشد صلابة ومتانة من الصخر ، وإن لمن الصخر لما يشقق ويذوب لو تحمل وقاسى بعض الذي عاناه الشاعر[٢٨٢] :

فـلـو حـمـلتْ رضـوى من الـشـوق بـعض مـا

حـمـلتُ لـذاب الـصـخـر من شـدة الـوجـد

ومع هذا الصبر والتجلد اللذين يبديهما الشاعر، إلا انه يعلم أن للصبر حدودا مهما طال، فيسارع إلى البحث عن هذه النهاية الحتمية لعذابه، فهل لما هو فيه من نهاية؟، لقد استطال الأمر عليه وما يخاله منتهيا إلا ونفسه مسجاة في لحده، فهل يجود الدهر ويرحم هذه النفس المعذبة فيجمعها بحبيبها ؟ أم سيكون هو أيضا شريكا في هذه المأساة؟(٢٨٣)

ألا هل لــهــذا الــبــين من آخــرٍ فــقــد

تــطــاول حــتى خــلت هــذا إلى الــلــحــد

ألا هل يــجــود الــدهــر بــعــد فــراقــنــا

فــيــجــمــعــنــا والــدهــر يــجــري إلى الــضــد

وكأن مراد شاعرنا من هذا البكاء والشكوى نقل رسالة صادقة أمينة تصور حالة هذا الحبيب عسى أن يعفو ويصفح ويرحم فينال الشاعر مبتغاه ويفوز باللقـــاء المأمول(٢٨٤):

وأشــكــوك مــا قــد نــلت من ألم، ومــا

تحــمّــله ضــعــفي وعــالجه جــهــدي

لــكي تــعــلــمي-أم الــبــنــين- بــأنــه

فــراقك نــارٌ واقــتــرابك من خُــلْــد

الشاعر والليل:

وكبقية شعراء الغزل نجد الأمير قد أفرد أبياتا كثيرة في قصائده للحديث عن الليل وشجونه، فتارة يشكوه ويتمنى زواله، وتارة أخرى تربط بينهما علاقة ود وحب وصداقة، لأنه سبيل الشاعر الوحيد للفوز بطيف الحبيب وخيال أم البنين " فما ينفك الليل والأمير شريكين متكافئين يتعاونان على استنباط الأعماق والجولان في

الآفاق(٢٨٥) "ومادام الليل فنانا ، فإن ارتباط الأمير به كان قويا ، فهو يشكو طوله ، وتوالي ساعاته ببطء ، حتى ليخال وكأن عجلة الزمن قد توقفت عن الدوران ، فالنوم جفاه والسهر اضناه(٢٨٦) :

ومـــاليَ في الـــلـــذائـــذ من نـــصـــيب

تـــودع مـــنـــه مـــســـلـــوب الـــرقـــاد

ويشكو عبدالقادر لياليه فيحسن الشكوى من جفاء الحبيب وصدوده ويرسم لنا صورة تعيسة فأحزانه تتجدد مع إطلالة كل يوم جديد ، يكون الشاعر قد قضى ليله يرعى نجومه ، ويعد ساعاته قد جفا النوم مقلتيه اللتين لم تجدا غير الدموع ترسلها حزنا وبكاء ، يبيت ليله وكأنه صب تقطعه آلام الفرقة والبعد ، فيولي وجهه شطر السماك والجدي يلاحقها بعينيه فكأنه موكل بمراقبتها ، متحملا طول الليل ووحشته ، يرسم الآمال الكاذبة لنفسه ويمنيها بغد سعيد : (٢٨٧)

إلام فـؤادي بـالحـبـيـب هـتـــــور(٢٨٨)

ونـــار الجـــوى بـــين الـضـلـــوع تـــثـــورُ

وحـــزني مع الـــســـاعـــات يـــربـــو مـــجـــددا

ولـــيـــلـــي طـــويل والمـــنـــام نـــفـــــور

وحـــتى مـــتى أرعى الـــنـــجـــوم مـــســـامـــرا

لـــهـــا ودمـــوع الـــعـــين ثم تـــفـــــور

أبـــيت كـــأني بـــالـــســـمـــاك مـــوكـــــل

وعـــيـــنـــيَّ حـــيث الجـــدي دار تـــدور(٢٨٩)

وعلى الرغم من هذا العذاب الذي يشكوه الشاعر من رفيقه الليل إلا أنه يهواه لا حبا في عذابه وقهره وسهره ، ولكنه لحاجة في نفسه ، فهو ينتظر لياليه ويرقب قدومها مراقبة العاشق المستهام ، يكلف جفنيه النوم فيه ، عسى أن يطرق طيف الحبيب أبواب قلبه في غفوته فينال المراد ، فنراه يبث شعره شعوره بالوحدة والشوق والبكاء حاثا هذا

الطيف الكريم في دعوته لزيارته عله يرى خيال الأحبة فتخبو نار الشوق والحنين ولو إلى حين، وأي تضحية تلك التي يستعذب صاحبها العذاب والألم لقاء نظرة خيال والتمتع بجمال طيف الحبيب ولو في الأحلام: (٢٩٠)

جفانيَ من أم البنين خيالُ

فقلبي جريح والدموع سجالُ(٢٩١)

أحب الليالي كي أفوز بطيفها

وأرجو المنى بل قد أقول أنال

أكلف جفني النوم عليَّ أن أرى

مثالا لها يسري وليس مثال

والشاعر يعلم مدى قسوة حبيبه وأن هذه الأبيات لن تكون شفيعا لديه فيسارع إلى وساطة غيره ليرسم لهذا الحبيب الصورة البائسة لهذا العاشق الوفي ويشرح لهاحاله وأحواله عسى أن يلين قلبها فترفع عنه غضبها وعقابها، والأمير يقنع بالقليل، فإذا استحال الوصال يرضى بالطيف والخيال، وهو ليس بالمطلب العزيز المحال(٢٩٢):

فقولوا لها إن كنت ترضين عيشتي

فجودي بطيف إن يعز وصال

ثم أليست هذه الحبيبة هي سبب كل هذه المعاناة، جعلت الأمير رفيق الليل وحارس النجوم، وغيره ينعم بالنوم الهانئ، فليلهم لباس ونهارهم معاش يرثون لحال صاحبنا ويتمنون زوال نائبته(٢٩٣):

وقد كلفتني الليل أرعى نجومه

إذا نامه المرتاع، بالبعد والصد

وأخيرا، حين يتنازل حبيب الشاعر من برجه العالي ويقدر هذا الحب والإخلاص، يبادر إلى إرسال الطيف الموعود متفضلا بزيارة عبدالقادر، فيقطع إليه دونه الصحارى

والقفار، ويتخطى العوائق، لينزل عليه وهو في غفلة منه إيذانا بانفراج الأزمة، ليهب الشاعر من هول المفاجأة فرحا لقرى ضيفه الغالي الذي طال انتظاره، فيرحب به، ويبذل مسعاه لتوفير كل أسباب الكرم والضيافة، فتراه-من فرحته- يفرش لها خديه ليطأهما الحبيب وهما على غلاوتهما، لايضن الشاعر بشيء عن هذا الزائر الكريم، ويبدأ الأمير وحبيبه يتطارحان أطراف الحديث من حب وعتاب وشكوى وأنين، فقد ذابا في مناجاتهما وأصبحا مركز العالم لايشعران بما يحيط بهما، والأمير لاينفك يصف عذابه وحرقة جمرات الهوى التي أغرقته في دموع الشوق، وهو صابر ينتظر الفرج وساعة الخلاص كالتي يحياها الآن نشوان سكران بكؤوس الهوى والغرام(٢٩٤):

تعسفت الفيفاء في غسق الدجى

فكم قطعت نهرا من الخيل والخال(٢٩٥)

أتتني- فدتها النفس-في حين غفلة

فقلت لها: أهلاً فذا وقتنا خال(٢٩٦)

وأفرشتها خدي وقلت لها طئي

فلا تحسبي خدي عليك بذي خال(٢٩٧)

ولما تطارحنا الأحاديث بيننا

وأحلى تلاقي الخل بالمنزل الخال(٢٩٨)

وأبثثتُها وجدي وما بين أضلعي

من البعد والأشواق والدمع كالخال(٢٩٩)

وحدثتها عن لوعتي وتحرقي

وقطع الليالي بالتأمل كالخال(٣٠٠)

ولولا الأماني كنت ذبت من الأسى

أقول، كئيبٌ نال ذلك من خال(٣٠١)

أروّح نفسي بالأمانيَ، راجياً

سـمـاحـة دهـر، ضنّ، يـرجع كـالخـال[302]

ولاشك أن هذه الأبيات تخلو من جيشان العاطفة وصدق الشعور وانما هي أقرب إلى إظهار البراعة اللغوية، لكنها -على كل حال -نموذج لكتابات كثيرة غزلية شاعت في المشرق والمغرب في عصر الأمير عبدالقادر.

ج - الـوصـــف:

الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه، وهو مناسب للتشبيه مشتمل عليه وليس به لأنه كثيرا ما يأتي في أضعافه، فالفرق بين الوصف والتشبيه أن هذا اخبار عن حقيقة الشيئ وأن ذلك مجاز وتمثيل، وأحسن الوصف مانعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسمع. [303]

وإذا ماعدنا إلى فن الوصف عند الأمير فإننا نجده على نمطين، فتارة يفرد قصائد مستقلة تتحدث عن هذا الجانب، وتارة أخرى نجد أبياتا يصف فيها عبدالقادر ماشاء، ولكنها بين ثنايا قصائد تتناول موضوعات شتى.

والمتصفح لفن الوصف عند شاعرنا يلاحظ أنه ينصب حول نقطتين رئيسيتين هما: الوصف البدوي، والوصف الحضري، وسنحاول أن نتعرض لكل جانب على حده لنعطيه حقه من الدراسة والتحليل.

١ - الوصف البدوي:

تمثل هذه المرحلة الأولى من حياة شاعرنا التي عاشها في الجزائر، ولعل أهم قصائده في هذا الجانب قصيدته الشهيرة "ما في البداوة من عيب"[304] وتأتي مناسبتها في أن الأمير كان أسيرا في "أمبواز" وكان موضع التكريم من علماء فرنسا ومفكريها يراسلونه ويراسلهم، فبعث إليه بعض أمرائهم يسألونه رأيه فيما اختلفوا فيه: هل البدو

أفضل أم الحضر؟ فرد عليهم بقصيدة انتقم فيها لنفسه وللبداوة" وامتهن-بكياسة بليغة- دعاوى الامتياز العنصري للرجل الأبيض وما في المدينة من نقائص وحرمان، وكأنه يرى رؤيا أبى العلاء أن فقدان العز في الحضر(٣٠٥) "

استهل عبدالقادر رائيته بتوجيهه لوم وعتاب رقيق لأولئك الذين ينتصرون لأهل الحضر ويقفون إلى جانبهم، ويلومون سكان البوادي لبساطة عيشهم ولامناص أن هذا الحكم مرده جهل بحياة البداوة وفضائلها، حقا إن الجهل في مثل هذا الأمر ضرر عظيم، ولكن عذر هؤلاء -دعاة المدينة-أنهم لايعرفون ما في البادية من مزايا ومناقب، ويوم تتاح لهم فرصة العيش فيها ويرون بأم أعينهم هذه الحياة الهانئة البسيطة، ويعايشون أحداثها التي سيتلوها الأمير شعرا ويجسدها صورا نابضة بالصدق وحرارة الشعور، فلا شك حينذاك أنهم سينتصفون لأنفسهم ولأهل البادية، و يكون بذلك حكمهم أساسه العدل والقسط "(٣٠٦) .

ياعاذراً لامرئ قد هام في الحضر

وعاذلاً لمحب البدو والقَفَرِ

لا تذمُمَنَّ بيوتاً خف محملها

وتمدحن بيوت الطين والحجر

لو كنت تعلم مافي البدو، تعذرني

لكنْ جهلتَ وكم في الجهل من ضرر

فياعاذل البدو في معيشتهم، لو اطلعت على جمال الصحراء فستأسرك هذه المناظر الجميلة البديعة، فحيثما جلت ببصرك تواجهك لوحة فنية من إبداع الخالق المصور، فبساط رملها كأنه الدر في صفائه ونقائه، يضم بين جنباته رياضا غناء تشابكت ألوانها، وتداخلت لتعطيك أروع منظر تقع عليه العين، أما هواؤها فحسب المرء أن يهب عليه لتسري في رئتيه دماء صافية نقية، يستنشق منه ما طاب له لم يمسه تلوث فهو صاف سليم

ينعش الروح ويبعث الجد والنشاط ، ولا تسل أيها اللائم في حب البادية عن جمال صبح انبلج بعد ليلة ممطرة عاصفة ، يقف المرء على ربوة من ربى هذه الصحراء ، فتتجسد أمامه اللوحات الفنية التي لاتجد لها مثيلا ، فهذه أسراب الظباء والغزلان والمها خرجت لترعى أطيب الشجر وهي تقفز هنا وهناك فرحة منتشية بهذا المزن الذي أحيا الأرض بعد موتها فأنبتت من كل زوج بهيج ، لتبعث الحياة من جديد في هذه الصحراء ، وما من شك أن هذا الجمال البدوي قادر على مسح كل صور الحزن والغم التي تنتاب الإنسان ، ويحل محلها إحساس بالفرح والسرور والانبساط والراحة :

أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيا
بساط رمل به الحصباء كالدررِ[٣٠٧]
أو جلْتَ في روضة قد راق منظرها
بكل لون جميل شيّقٍ عطر
تستنشقنَّ نسيما طاب منتشقا
يزيد في الروح لم يمرر على قَذَر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنه[٣٠٨]
علوت في مرقب أو جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها
سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيالها وقفة لم تبق من حَزَنٍ
في قلب مُضنىً ولا كداً لذي ضجر

وهذه الحيوانات التي وجدت في الصحراء مرتعا لها تغدو وتجيء بكل حرية وطلاقة ، ليست بمأمن من مخاطر المنون ، فالشاعر وصحبه يتربصون بها ويباغتونها في أوكارها وآجامها ، فهي دوما في خوف وهلع تعدو هاربة من سهام الموت التي

يرسلها عبدالقادر والذين معه، فكم من ظليم وقع في المصيدة تاركا وراءه نعامته ثكلى وفراخه صغاراً زغب الحواصل، بل إن الأمر لا يقتصر على هذه الحيوانات فقط فحتى الصقور والحمام وكل من في الجو معرض أيضا للقنص فلاشيء يقف أمام هؤلاء البدو، فكل ما في هذه الصحراء بأرضها وسمائها رهن سهامهم وأقواسهم التي لا تحيد عن هدفها أبدا[٣٠٩] .

نباكر الصيد أحيانا فنبغته

فالصيد منا مدى الأوقات في ذعر

فكم ظلمنا ظليماً في نعامته

وإن يكن طائرا في الجو كالصقر

ثم ينقلنا الأمير في هذا الوصف إلى لوحة فنية جميلة من حياة البادية، وهي صورة الحل والترحال أساس حياة العرب في صحرائهم، فهم دوما في تنقل لايستقرون في مكان واحد يسعون وراء الماء والمرعى لايهدأ لهم بال ولايستقر لهم مقام وقرار، يتخذون الإبل مطية وقد أمست كشقائق النعمان في احمرارها، ومن المعروف أن البدو تعشق اللون الأحمر وقد ورد في أشعارهم مايدل على ذلك[٣١٠]

ويعرج الأمير بعد هذا الوصف إلى تصوير عيون الصبايا والعذارى وهن يسترقن النظر من ثقوب الستائر فيشبه هذه العيون بالرقاع التي تخاط للستار، ومنه قول الشاعر المثقب العبدي: [٣١١]

ظهرن بكلّةٍ وسدلْنَ رقماً

وثقّبن الوصاوص للعيونِ

أرين محاسنا وكنَنَّ أخرى

من الأجياد والبشر المصون

ويمضي الركب يتهادى في سيره على أنغام الحداة، وهم ينشدون أحلى الألحان بأصوات جميلة فاقت في أدائها ونغمها كل أنواع الآلات الموسيقية من ناي وعود، لأنها أصوات طبيعية صافية تشدو ألحانها على الفطرة والسليقة، فتمزج تلك الأصوات لتخلق جوا فنيا شاعريا، يخفف من مشاق السفر، فلا يشعر بالعناء أحد، ويحيط بهذه القوافل رجال أبطال أشداء يحرسونها ويدفعون عنها الأذى على صهوات خيل سال عرقها كرا وفرا، فالجميع في حذر يراقبون الطريق حماية للعرض والمال والشرف، وقد يتسلى هؤلاء الفرسان بين الحين والآخر بالصيد فتراهم يطاردون الظبا وحمر الوحش يسابقون الريح للحاق بها، فلا ينجو منها إلا من رحم ربك، أما الباقي فيخر صريعا تحت سهام هؤلاء الفرسان ليعودوا بما غنموا إلى الركب فتزداد الفرحة ويعم السرور: (٣١٢)

يوم الرحيل إذا شدّتْ هوادجنا
شقائق عمَّها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى
مرقعات بأحداق من الحور
تمشي الحداة لها من خلفها زجل
أشهى من الناي والسنطير(٣١٣) والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها
شليلها زينة الأكفال والخصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها
على البعاد وماتنجو من الضمر

ويظل الأمير ينعطف للجمال البدوي الفطري الأخاذ البعيد عن الزيف والتكلف، فيرسم لنا لوحة أخرى لهذا الركب وهو يحط عصا الترحال فيعم النشاط ويتسابق الجميع لتنظيم الحي ودك أوتاد الخيام، خيام نظيفة نقية من الأوساخ والقذارة

تنصب على بساط كالمسك، وقد انتظمت هذه البيوت في شكل فني بديع تشع بأنوارها كأنها الأنجم الزهر التي تزين السماء الصافية في ليلة هادئة مقمرة: (٣١٤)

نــروح لــلـحـي لــيلا بــعـدمــا نـــزلـــــوا

مـنــازلاً مــابــهــا لــطْخ من الـــوضــر(٣١٥)

تــرابــهـــا الــمــسك بل أنــقى وجــاد بـــهــا

صـــوب الــغـــمــائم بــالآصــال والـــبــكــر

نــلـقى الخــيــام وقــد صــفَّتْ بـــهــا فــغـدت

مــثل الـــســمــاء وهَتْ بــالأنجم الــزهـــر

ولتعليل حكم الأمير بتفضيل البادية على الحاضرة يستدل بآثار الأولين البعيدة عن الكذب والزيف ومؤداها أن الجمال والحسن في هذه الحياة لايبدو إلا في مظهرين هما: بيت من الشعر تطرب لسماعه الآذان وتنشي بموسيقاه النفوس، أو بيت من الشَّعر ينصب في مكان هادئ يسمو فيه ساكنه عن هذا العالم المادي ليعيش لحظات مريحة بعيدا عن الضوضاء والفوضى والتعب: (٣١٦)

قـــال الألى قـــد مـــضـــوا قـــولا يـــصـــدّقه

نـــقلٌ وعـــقل، ومـــا لـــلـــحق من غــِـيَــــر

الحـــسن يـــظـــهـــر في بـــيـــتـــين رونـــقـــه

بـيت من الـشِّـعـر أوبـيت من الـشَّـعـر(٣١٧)

ويستكمل عبدالقادر صوره بلوحة بدوية أخرى وهى صورة العشي أوان عودة قطعان الماشية أوبتها إلى مضارب القوم وهي ترفع أصواتها بالثغاء والخوار فيختلط هذا مع وقع حوافرها فكأنها أصوات الرعد بعد ليل كاد أن ينجلي فتدر ألبانها شرابا طهورا فيه صحة وشفاء لشاربيه، وكما أن لكل بيئة وسيلتها المثلى للانتقال والسفر، فإن الإبل هي سفن الصحراء، ولكنها أوفر أمنا، وأريح ركوبا، وأضمن سلامة إلى جانب

صبرها الطويل وتحملها لمشاق الصحراء[٣١٨] ، فلا مجال للمفاضلة بينها وبين الفلك التي تمخر عباب البحر ، لما يكتنف راكبيها من الأخطار والكوارث ، فالموت دوما متربص بهم ، وهو ملاقيهم أينما كانوا في عرض اليم ، فقد وضحت البينة وبانت الحجة بأدلة الأمير التي استقاها من محيطه وبيئته وهي ملازمة للصدق دون ريب . [٣١٩]

أنـعـامـنـا إن أتت عـنـد الـعـشيِّ تَـخَلْ

أصـواتـهـا كـدويّ الـرعـد بـالـسـحـر

سـفـائن الـبـر بل أنجى لـراكـبـهـا

سـفـائن الـبـحـر، كم فـيـهـا من الخـطـر

وينتبه الأمير وهو الخصم والحكم ، إلى أدق الأمور ، فثمة نوع من الصدق والإخلاص وحسن المعاملة والابتعاد عن الغش والاحتيال حتى في أبسط الأشياء وهو الحليب ، الغذاء الأساسي لأهل البادية ، فهو صاف خالص لم يخالطه ماء ، بينما يغش عند أهل الحضر ابتغاء الكسب الحرام ، بالإضافة إلى امتياز حليب النوق عن البقر : [٣٢٠]

شـرابـهـا من حـلـيب، مـا يـخـالـطـه

مـاء، ولـيس حـلـيب الـنـوق كـالـبـقـر

ويرد الأمير ردا قويا على أولئك الذين استباحوا أرضه ونهبوا أمواله وشردوا شعبه ثم جاؤوا يسألونه ويحكموه فيما نشب بينهم ، فيوضح لهم أن أموالهم ليست في مأمن ولا بمنأى عن الفرسان العرب الأبطال الذين يغيرون عليها فيغنموها ثم تقسم بينهم بالعدل والقدر[٣٢١] :

أمـوال أعـدائـنـا في كل آونـة

نـقـضي بـقـسـمـتـهـا بـالـعـدل والـقـدر

وبعد هذا ماذا بقي من عيب تذم به البادية وأهلها ، أتعاب على مروءة عالية

وأخلاق سامية، وشجاعة عنترية، وكرم حاتمي، وصحة أجسام، وصفاء عقول وعافية دائمة، وحرية وكبرياء شامخين؟ فإذا كانت هذه عيوبا ومساوئا فما قولك إذن في الحضر وأهله، فهات نقيض ماذكره الشاعر مع البادية وأهلها، ثم قارن ووازن ستجدن أن حكمك سيكون عادلا إذا انتصرت للبدو وانتصفت لهم، أما إذا نأيت عن الصدق والحق معاندا فما لك غير قول الأمير وهو يردد: (٣٢٢)

لـوكـنـت تـعـلـم مـا في الـبـدو تـعـذرنـــــي
لـــكنْ جـــهــلتَ، وكم في الجـــهل من ضـــرر
مـــا في الـــبـــداوة من عـــيب تـــذم بـــــه
إلا الـــمـــروءة والإحـــســـان بـــالـــبِـدَر(٣٢٣)
وصـحـة الجـسم فـيـهـا غـيـر خـافـيـــــة
والـعـيب والـداء مـقـصـور عـلـى الحـضـــر
من لم يمت عـنــدنــا بـالـطـعن عـاش مـدى
فـنـحن أطـول خـلـق الـلـه في الـعـمـــــر

٢ - الوصف الحضري:

وكان نتيجة للاستقرار الذي عاشه الأمير في دمشق وبقية الحواضر الأخرى بعد أن أطلق سراحه وابتعد عن حياة البادية بما فيها من حل وترحال، ويمتاز وصفه في هذه الفترة بميزتين هما، الوصف النسخي الحسي التقريري والتشخيصي الوجداني. (٣٢٤) .

الوصف النسخي الحسي التقريري: وللشاعر في هذا النوع بعض القصائد والمقطوعات التي يصف فيها المظاهر والأشياء المادية الحسية فينقلها لك نقلاً صادقاً واقعيا، بل قل يصورها تصويرا فوتوغرافيا دون أن يضفي عليها من أحاسيسه ومشاعره، فهي تفتقر إلى ذلك الشعور المتدفق بالحرارة التي نجدها في الوصف الوجداني التشخيصي .

ومن أجمل قصائده في هذا الجانب قصيدته " جنات دمر[٣٢٥] " التي يصف فيها قصرا بناه هناك للاصطياف والاستجمام.

يستهل عبدالقادر قصيدته بدعوة مفتوحة لزيارة هذه المنطقة وأباطيحها حيث تنتشر الرياض الزاهرة الزاهية، والمياه الجارية النقية الشبيهة بمياه نهر الكوثر بالجنة، تنساب في جداول تتلوى كأنها ثعابين في زحفها: "[٣٢٦]

عج بي-فـــديـــتك-في أبـــاطـح دمــــر

ذات الــريـــاض الــزهــرات الــنــضَّــرِ

ذات المـيــاه الجــاريـات عـلى الـصـفـا[٣٢٧]

فـكـأنـــهـــا مـن مــاء نـــهــر الــكــوثـــر

ذات الجـــداول كــــالأراقم جـــريـــهـــا

ســـبـــحــــانه من خــــالـق ومـــصــــور

ويتابع الشاعر وصفه لبقية المظاهر الحسية لهذا الجمال الطبيعي، ناقلاً المشاهد نقلاً حسياً دقيقا، ساعده في ذلك كثرة التشابيه، وهذا النسيم العليل الطيب يفوق في عطره رائحة المسك والعنبر، وتلك الطيور ترسل أنغاما لتشكل بأحلى الألحان والترانيم، تسبح بحمد الخالق المبدع، فتتداخل زقزقاتها لتشكل سيمفونية رائعة تفوق في موسيقاها ألحان الناي والمزمار، ولذلك فلا غرو أن تكون"دمر" محطة التقاء المتناقضات، ففيها الزهاد والعباد مابين أذكار وتذكر يسبّحون ويهللون وهم يرون عظمة الخالق تتجلى في بديع صنعه، وإلى جانبهم تجد حلقات اللهو والمجون والعبث يمرح أصحابها ويتسامرون ناسين هموم الحياة ومشاكلها يعيشون لحظاتهم الحلوة ضحكا ولعبا، وبذلك أمست هذه المنطقة -بجمالها- ملتقى هذه الشرائح ففيها العبادات والطهارة ومافيها من لذة روحية معنوية، وفيها الزهو والعبث وما يتبعها من لذائذ مادية جسدية حسية[٣٢٨]:

ذات الــنــســيـم الــطــيب الــعــطــر الــذي

يـغـنـيك عن زُبـد[٣٢٩] ومـسكٍ أذفـر[٣٣٠]

والـطـيـر في أدواحـهـا مـتـرنـم

بـرخـيم صـوت فـاق نـغـمـة مـزهـر

مـغـنى بـه الـنـسّاك يـزهـو حـالـهـا

مـابـين أذكـار وبـين تـفـكّـر

مـاشـئت أنْ تـلـقى بـهـا من نـاسك

أو فـاتكٍ في فـتـكـه مـتـطـور

ولتأكيد هذه الحقائق الجمالية يعمد الشاعر إلى ضرب مقارنة بين جنات دمر وبين جمال "الرصافة والسدير وشعب بوان" وهي من أهم المعالم الرائعة التي كثيرا ما تغنى بها الشعراء لجمالها، ولكن أنى لهذه من تلك، فجمال دمر وحسنها قد فاق كل شيء فلا مجال للمفاضلة بينها وبين أي مكان آخر فهي جنة الله في أرضه: [٣٣١]

أين الـرصـافـة[٣٣٢] والـسـديـر وشـعب بـوّ

ان[٣٣٣] ...إذا أنـصـفـتـهـا من دمـر؟

وفي قصيدته التالية" غلاء الدار بالجار[٣٣٤] " يتحدث فيها الأمير عن ذكرياته الحلوة الجميلة التي قضاها في مدينة "برسا" حتى فارقها مكرها، بعد أن كثرت فيها الزلازل، فاستحالت الحياة معها فبارحها، ولكنه ظل يحن إليها، وإلى معالمها من مساجد وقصور ورياض وأنهار قضى بها أحلى أيام حياته برفقة صحبه الكرام الذين غمروه بودهم وإحسانهم، فلم يستطع لفراقهم سبيلا.

فحبها قد تمكن منه وانغرس في فؤاده فكيف ينسى ذكريات وأحباب كان عهده بها قريبا، يكلف نفسه النسيان، ولكنها تأبى ولا تحتمل: [٣٣٥]

أبى الـقـلب أن يـنـسى المـعـاهـد من بـرسـا

وحـبي لـهـا بـين الجـوانح قـد أرسـى

أكلّفه سلوانها وهو مغـرم

فهيهات أن نسلو وهيهات أن ينسى

وكيف لا يحزن شاعرنا ولا يتألم لفراق "برسا" هذه المدينة التي يؤمها الناس من بدو ومن حضر، يقصدها القريب والبعيد، تشد اليها الرحال من كل فج ليشهد الناس جمال طبيعتها وكرم أهلها الأفاضل الأطهار: (٣٣٦)

بلاد لها فضل على كل بلدة

سوى من يشدُّ الزائرون لها الحِلْسا

عليَّ مُحال بلدة غيرها أرى

بها الدين والدنيا طهورا ولا نجسا

ويتخلص الشاعر بعد وصف حاله ومايقاسيه من ألم الفراق وعذاب البين من هذه البلدة، إلى رسم مظاهر ومعالم هذه المدينة، فجامعها المشهور لا يدانيه جامع آخر في هندسة عمرانية وحسن بنائه، ترى فيه القوم حلقات منكبين حول علماء ومشايخ أفاضل ينهلون من ينابيع العلم والثقافة، غذاء لعقولهم وزادا لألبابهم، أما أمير هذه البلدة الطيبة فقد أكرمه الله بجميع الصفات المحببة فأمسى ملجأ لكل شريد وملاذا لكل محتاج، لايريد من ذلك جزاء ولا شكورا: (٣٣٧)

وجامعها المشهور لم يك مثله

به العلم مغروس به كم ترى درسا

وسلطانها أعني الأمير رئيسها

به افتخرتْ برسا فأعظِمْ به رأسا

ويبلغ الشوق مداه بالشاعر، فيتساءل هل سيكتب له العمر ثانية ليؤوب إلى هذه البلدة الجميلة، فيحل برياضها وحدائقها الغناء، فتطيب نفسه ويهدأ باله وهوينتقل بين أحيائها يسترجع ذكرياته الماضية وأيامه الخوالي، فكل من حل "ببورسة" حزينا مهموما

يمسي بلا شك فرحا مسرورا، ينزاح البأس والهم عن نفسه، خاصة أيام الأعياد التي تشهد فيها المدينة من مظاهر الزينة والبهجة مالا عين رأت ولاأذن سمعت، فترى الناس فيها في هرج ومرج فرحين، قد ابتعدوا عن التكلف والوقار فاندمجوا في هذا الجو، فهم في فرحتهم سواء: [٣٣٨]

ألا ليت شعري.هل أحل رياضها؟

"وبنار باش[٣٣٩] " هل أطيب به نفسا؟

فيصبو بها في العيد، من ليس صابيا

ويفرح محزون الفؤاد، ولا يأسى

ويختتم الشاعر أبياته بالحديث عن سكان هذه البلدة وما يتمتعون به من أخلاق عالية وشمائل سامية وفضل عميم عليه، فقد أمن بينهم بعد خوف، وأنس بعد وحشة، داعيا لهم ولبلدهم باليمن والخير والبركة: [٣٤٠]

أناس بهم أهلي سلوت وبلدتي

وفي كل آن قد رأى ناظري، أنسا

مكارم أخلاق وحسن شمائل

ولين طباع واللطافة لا تنسى

سقى الله غيثا رحمة وكرامة

أراض به حل الأحبة من برسا

وفي قصيدته "بمن أعتاض عنك[٣٤١] " ينحو الشاعر نفس المنهج في وصفه، فتارة يصف مدينة "برسا" بعد أن غادرها واليها وما آل إليه حالها بعده، فقد أمست البلدة وكأنها عجوز شمطاء، فقدت كل معالم الحسن والجمال، بعد أن كانت عروسا حسناء، ذات غنج ودلال تفاخر بقية الحواضر ازدهارا وعمرانا وحسنا[٣٤٢]:

ألا فاقْرِ الخليل، خليل باشا

سلاماً طيباً عبقاً نفيسا

له قل: ياشقيق الروح عني

علام هجرت بلدتنا بروسا

لقد كانت تفاخر كل مصر

وتطلع من شمائلكم شموسا

فعادت بعدكم شمطا عجوزا

وكانت تجتلي بكمُ، عروسا

فهذه سوحها وأسواقها أمست آثارا دارسة لاحياة فيها بعد أن كانت تعج حركة ونشاطا، يؤمها التجار والزوار ليشهدوا منافع لهم، فمع فراق هذا الوالي لبلدته تغير كل شيء فأصبح المكان قفرا موحشا وتغيرت الأنسة وحشة والحركة والحياة هدوءا وصمتا فأمست المدينة أشبه بأطلال دارسة. تثير الأسى فمع فراق هذا الوالي لبلدته تغير كل شيء، حتى الزمان تبدل وتجهم، فلا تراه إلا عبوسا كئيبا، فالخسارة كبرى والمصيبة جليلة: [٣٤٣]

وعهدي سوحها بالوفد ملأى

فأضحت بعدكم خُلْواً دروسا[٣٤٤]

وكنت لنا بها غيثا مريعا

وكهفاً مانعاً ضرا وبوسا

وكان لنا الزمان بكم ضحوكاً

فصار لنا بفقدكم عبوسا

بمن أعتاض عنك فدتك نفسي

وكنت بقربكم فرِحَاً أنيسا

الوصف التشخيصي الوجداني:

وفيه يجسد الشاعر أو يعرض في وصفه لصوره في إطار من الحيوية والحركة والحياة، ويبدو ذلك في بعض المقطوعات الشعرية التي برزت فيها مقدرة عبدالقادر الفنية في المزج بين المادة والروح بعث الحياة في الشيء المراد وصفه، فتراه متحركا تسري فيه الحياة يعيش مع الشاعر ويشاركه الحالة النفسية التي يمر بها:

دعي الشاعر ذات مرة إلى بستان في " قبا" بالحجاز فأثاره منظر الماء المتدفق من ناعورة البئر على حوضه، وانبجاسه بعد ذلك ساقية لطيفة تتلوى بين الأشجار، فذكره ببلاده، فنقل لنا الأمير هذا المنظر في صورة مغايرة لما ألفناه عنده سابقا، فهو يغوص في أعماق الصورة ويربطها بحالته الشعورية التي كان يعيشها وهو بعيد عن بلدته" دمشق " هاجه المنظر وأثار في نفسه كوامن الشوق والحنين، فأسقط حالته هذه على تلك الصورة وكأنها حي يناجيه الشاعر ويبثه آلامه وأحزانه، فما بغية الأمير العود والورد، لكن أمله هو ما يرمز إليه هذا الشيء: [٣٤٥]

تـبـخَّـرْ بـعـود الـطـيب لازلت طـيِّـبـا
ورشَّ بمـاء الـزهـر - يـاخِلُّ - والـورد
ومـا بـغـيـتـي هـذا ولـكنْ تـفـاؤلا
بـعَـودٍ إلى عُـودٍ ووِرْد إلـى ورد

وفي أبياته التي يصف فيها الشاعر ناعورة استطاع الأمير أن يقوم بعملية إسقاط لذاته على هذه الناعورة، فإذا هي حية تدب فيها الحركة والحياة، فلم تعد ذاك الشيء الحسي المادي الجامد، بل استحال أمام خيال الشاعر إلى كائن بطريقة تشخيصية يبثه شكواه ويناجيه، فما تلك الناعورة الآن إلا صورة لذلك العاشق الولهان والحبيب الذي أضناه الشوق فسالت مقلتاه دمعا فتراه يطاطئ الرأس تارة حزنا وأسى، ويرفعها أخرى

بالبكاء، وكأنه وليد يلقم الثدي مرة ويصد ثانية فيعلو بكاه: (٣٤٦)

ونــاعــورة نــاشـدتــهــا عن حــنــيــنــهـــا

حــنـــين الحـــوار والـــدمـــوع تـــســـيـــلُ

فـقـــالت وأبـــدت عـــذرهـــا بمــقـــالــهـــا

ولـــلـــصـــدق آيـــات، عـــلـــيه دلـــيـــل

ألـــست تـــراني ألـــقم الـــثـــدي لحـــظـــة

وأدفع عــــنـــه، والــــبلاء طــــويــــل

وحـــالي كـحـــال الــعـشق بـات مـحـــالــفـا

يـــدور بـــدار الحب، وهـــو ذلـــيـــل(٣٤٧)

يـــطـــاطئ حـــزنـــا رأسه بـــتـــذلـــل

ويـــرفع أخـــرى، والـــعـــويل عـــويـل

وفي قصيدته "أعرني قلبا(٣٤٨)" التي أنشدها الأمير مصورا حالته بعد أن نأى عنه إخوته وتركوه أسيرا وحيدا بفرنسا ولجأوا إلى العيش في مراكش، تبدو نفسية الشاعر التعيسة الحزينة التي أنهكتها سنين الأسر والسجن وآلام البعاد والفراق، فهو دائم الحنين والشوق لإخوانه الذين تركوه معذبا، يلاقي صنوف الألم والحرمان لاعزاء له إلا تلك الزفرات والأنات التي لن تستطيع التحليق لوصل إخوته الذين لم يرحموا حاله: (٣٤٩)

ألا إن قـــلـــبي يـــوم بـــنـــتم(٣٥٠) وســـرتـــم

غـدا حـــائـــمـــا خـــلف الـــظـــعـــون يـــطـــيــرُ

يـــقـــاسي مـــرار المـــوت من ألم الجـــوى(٣٥١)

فـــمـــالـــيَ إلا أنَّـــة وزفـــيـــر

رحـلــتم وســرتم لـو رحـمـتم فـبـيـنـكـم

لحَـــظِّيَ يـــومٌ لـــلـــبلاء عـــســـيـــر

وشاعرنا كان ينتظر هذا الفراق الصعب ويتهيأ له، وكان يظن أن صبره سيكفيه

د - المـــدح:

لا يمدح الكاتب بالشجاعة ولا الفقيه بالكتابة ولا الأمير بغير حسن السياسة ولا تخاطب النساء بغير مخاطبتهن ولكن يمدح كل أحد بصناعته وبما فيه من فضيلة ويهجوه برذيلته ومذموم خليقته . . . فإذا وضعت الأشياء في غير مواضعها قصرت عن بلوغ أقصى مواضعها[٣٥٣] .

ومادام الهجاء محظورا في أدب عبدالقادر لعلو همته وسمو أخلاقه ، فقد حرم على نفسه السخرية والشتم والقذف ، فلا بد أن يكون مدحه كثيرا .

وإذا كانت هذه القواعد والضوابط التي أشار إليها قدامة هي أساس المدح فما هو موقف الأمير منها؟ وهل أن شعوره قد طابق هذه المواصفات أم لا ؟

إن أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ وهو يتبع فن المدح عند الأمير عبدالقادر هو ابتعاده عن التزلف في عصره" فإنه يذهب فيه وجهة للنقد مختلفة فيرى ضرورة اعتماده على الصدق الفني ، وفق مذهبه الأخلاقي ، ليس بالنسبة لقائل الشعر فحسب ، وإنما لابد من الصدق بالنسبة لفاعل البر ومحسن المثوبة ، وإذا جاء أحد يمزح فيجب أن لا يقول إلا حقا ، فكيف إذا جاء يمدح ، فعبدالقادر إذن أحد المداحين القلائل في تاريخ الأدب العربي الذين لا يعرفون بالهجاء من باب معرفتهم بالمديح ، وقيامهم بهما معا ، حيث ارتبط نوع من المديح الكاذب بنوع من الهجاء الظالم في تاريخنا هذا . "[٣٥٤]

وسواء لقيت مدائح عبدالقادر استحسان النقاد أم لم تلق فإن له فكرة أو مبدأ أن مدائحه لابد أن تخضع لما اتفقت عليه أحكام الشريعة وآدابها وتقاليد الفروسية ، ونوازع النفس الشريفة ، وأعراف المجتمع ، ودواعي الصدق ، ولهذا يكثر أن يكون موضوع المدح جماعات لا أفراد ، ويجيء نصيبه من الفخر بنفسه بين أنصبة هؤلاء في قصيدة مشتركة ومن خلال القراءة المتأنية لشعر المدح عند عبدالقادر ، نلاحظ أن مدحه

يـنصب في ثلالـة مـحـاوروهي : المدح الـصـوفي- المـدح الـسيـاسي- المدح الادبي ، وسنحاول أن ندرس كل نقطة على حدة لنوفي فن المدح عند الأمير حقه من الدراسة والتحليل .

١ - المدح الصوفي:

لقد مر بنا من خلال ما سبق أن الأمير نشأ في أسرة دينية محافظة غرست في نفسه حب العبادة والتقوى ، والزهد في الدنيا ، لذلك فلا عجب أن نجده ينحو منحى صوفياً خلال حياته ، ويتخذ أقطاب الصوفية أساتذة ومشايخ له يمدحهم ويعظمهم محبة لهم وإرضاء لهوى في نفسه . ومن هنا انبثق مدحه الصوفي من خلال خضوعه وتذلله لشيوخه المتصوفة على أن الأمير لم يتعرض في مدحه الصوفي إلا لشيخين فقط من شيوخه[٣٥٥] وهما الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني ، والشيخ محمد الفاسي . وعبدالقادر لم يتعرض في مدحه لشيخيه إلى النواحي الشكلية المادية فلم يعدد مناقب ممدوحيه من قوة وجاه وغنى ، بل نراه يلح على الجانب المعنوي الخلقي الديني ، وهذا ما جعل قصائده هنا " تعبر عن المدح حقا حتى الغزل ، فليس ثمة استنفار لقتال ولا حاجة لغير العلم والعمل به ، والدعوة إليهما كليهما . "[٣٥٦]

ففي قصيدته الميمية الأولى التي افتتح بها شاعرنا عهده بالمدح الصوفي والتي نظمها عبدالقادر عندما اختار له الفرنسيون الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني الذي يعتبر من أقطاب الصوفية المشهورين[٣٥٧] ليؤنسه في وحدته في منفاه عندما كان الأمير أسيرا بأمبواز .

فقد عاجل الأمير شيخه بقصيدة تنم عن إستقبال متفائل ، وترحيب عظيم برزت فيه رحابة الصوفية ورومانسيتهم ، فلطالما عمد الشاعر إلى مساءلة الرِّكَاب تشوقا إلى الشيخ ، ولم يلبث إلا قليلا حتى أتته البشرى تبث الأمان وترجوه ، فهذا اليوم الموعود ، هو بمثابة عيد عند الشاعر بل أفضل ، لأنه سيفوز فيه بلقاء هذا العارف بالله ، فأيام

النكد والهم والوحدة قد ولت بلارجعة، فالحلم أمسى حقيقة، فلتهنأ نفس الأمير بهذا اللقاء حتى أنه يقدم نفسه الغالية فداء لهذا الحبيب وثمنا لهذا اللقاء، دون مامنٍّ ولا ندم، وتلك لعمري أسمى آيات الإيثار والمحبة: [٣٥٨]

أهلاً وسهلاً بالحبيب القادم
هذا النهار لديَّ خير مواسمِ
جاء السرور مصاحبا لقدومه
وانزاح ماقد كان قبل ملازمي
أفديك بالنفس النفيسة زائرا
من غير مامنٍّ ولست بنادم
طالت مساءلتي الركاب تشوقاً
لجمال رؤية وجهك المتعاظم

لقد بدأ هذا الحب بين الأمير وشيخه الصوفي قبل لقائها هذا، فأولى خيوط هذه المودة الآصرة بين الإثنين "كانت معرفة سمعية، أي في علم اليقين حسب المصطلح الصوفي، ثم ارتقت إلى عين اليقين حين اللقاء الأول، لتصبح محبة ملازمة، وهي حق اليقين، أتاحت للأمير وشيخه أن يفتحا بابا في الشعر يمكن تسميته" شعر الموائد[٣٥٩] " ساعدت عليه أريحية الفروسية وجود الصوفية والقيام بحق التسلية وقطع الفراغ الرهيب الذي كان يعيشه الأمير بمنفاه: [٣٦٠]

لا غرو إن أحببتكم من قبل ما
شاهدتكم أنتم جمال العالم[٣٦١]
كانت على سمعي تغار نواظري
حتى رأيتك أنت، أنت مكلمي
عندي الأيادي البيض حيث أريتني
ماكان قبلا في يقين العالم

والآن صــرت من الـــيــقـــين بــحـــقــــه

وبـــعـــيـــنـه إن الـــســـرور مـــنـــادمـي

ويسارع الشاعر للانتصاف لنفسه من نفسه في محبة هذا الأنيس والجليس الصالح وكيف لا يحبه وهو يرى صورته مجسدة في هذا الشيخ من علم وزهد وتقوى، فضلا عن أن ممدوحه قريب الشبه من منزله قطب العارفين " محيي الدين بن عربي شيخ الأمير نال العلا وتبوأ منه المكان الأسمى فهو الأوحد في الفضل والكرم والجود لا يدانيه في ذلك أحد ثم يدعو شاعرنا لشيخه الدعاء المنبئ عن رجاء عبدالقادر فيه : (٣٦٢)

أسَـــميّ قــطب الـــعـــارفـــين لك الـــعـــلا

مـــتـــبـــوّئـــاً مـــنـه أجلّ مـــعـــالــــمِ

أنت الـــذي في الـــفــضل أصــبح مــفــردا

لــــعلاه، مـــا مـن مـــدَّعٍ ومـــزاحـــم

لازلتَ مــيــمــون الــنــقــيــبـة طــالــعــــا

بـــالـــســعــد ذا فــضل وخــدْنِ مــكـــارم

وسنرى الأمير في قصيدته الموالية يقول" أجمل وأطول مدائحه وربما قصائده كلها"(٣٦٣) وهو يمدح شيخه محمد بن سليمان الفارسي وهو بجوار البيت الحرام بمكة المكرمة .

يستهل الأمير رائيته بتصوير حالته النفسية بدقة بما فيها من صراع وقلق واضطراب وخوف، فهو لم يعرف للاطمئنان والراحة سببا، ولم ير من حلاوة الدنيا إلا الجفو الهجران والصدود، فأيامه شقاء وحزن، ولياليه حالكة سوداء، فهل لهذا الليل من إدبار وهل للنور والضياء من إسفار، هجره النوم والسبات فلم يطب له مضجعا، اعتاد الأسى والسهاد وانقطعت به سبل الصبر ينتظر الفرج القريب والأمل المفقود اللذان لاحا له بلقاء هذا الصوفي الزاهد : (٣٦٤)

أمسعود(٣٦٥) جاء السعد والخير واليسر

وولَّتْ جـيـوش الـنـحس لـيس لـهـا ذِكْـرُ

ليالي صدود وانقطاع وجفوة

وهجران سادات فلا ذكر الهجر

فأيامها أضحت قتاماً ودجنة

ليالي لا نجم يضيء ولا بدر

فراشيَ فيها حشوه الهمّ والضنى

فلا التذّ لي جنبٌ ولا التذّ لي ظهر

ليالي أنادي والفؤاد متيَّم

ونار الجوى تشوي لما قد حوى الصدر

وبعد أن يستطرد شاعرنا في وصف نفسيته البائسة وحالته الضنك، قبل الفوز بلقاء هذا الشيخ، يصل إلى الغرض الأساسي وهومدح محمد الفاسي وتعداد خصاله وشمائله الإنسانية، فهو عالم العلماء، وشيخ الأنام كلهم بلا منازع، له الصدارة والسبق في العلم والعمل الصالح والجهاد، فاستحق أن يتميز بمنزلة لا ينازعه فيها أحد من عامة الناس، ولا من خاصتهم فاتخذه الأمير المثل والملاذ الأمين يحتمي به من صروف الدهر، وتقلبات الزمن الذي لا يؤمن جانبه، فالأمان والراحة والاطمئنان في ظل هذا الشيخ لا يكدر صفوه أي طارئ، بل إن عبدالقادر كان يعتبر نفسه في عداد الموتى فأحيا الشيخ العظام وهي رميم وبعثت الحياة في الأمير بعثا جديدا فكتب له عمر آخر، وأي عمر؟ إنها حياة جديدة في كنف هذا الصالح الذي اصطفاه المولى وأورثه مجدا لايزول، فهو سليل هذه الشجرة النبوية المباركة الطاهرة، فلا عجب أن يكون هذا الشيخ شمسا وغيره الكواكب، ومن يسوي الشمس بالأنجم الزهر؟ :[٣٦٦]

وأعني به شيخ الأنام وشيخ من

له عمة[٣٦٧] في عذبة[٣٦٨] وله الصدر

عياذي ملاذي عمدتي ثم عدتي

وكهفي إذا أبدى نواجذه الدهر

غـيـاثيَ من أيـدي الـعـداة ومـنـقـذي

منـيري مـجيري عـندما غـمَّني الـغمـر

ومـحـيي رفـاتي بـعـد أن كـنت رمَّـة

وأكسبني عمراً لـعَمْري هـو الـعـمـر

مـحـمـدٌ الـفـاسي له من مـحـمـد

صـفيّ الإله الحـال والـشـيم الـغـر

بـفـرض وتـعـصـيب غـدا إرثه لـه

هـو الـبـدر بـين الأولـيـا وهُمُ الـزهـر

فهذه المناقب التي اختص الله بها هذا الصوفي، تغنيك عن الاستشهاد بغيرها فقد بلغت الكمال والتمام هي أشبه بروضة تساقطت عليها قطرات ماء فتفتحت أزهارها وتضوع عبيرها عن رائحة المسك والكافور والعطر: (٣٦٩)

شـمـائـله تـغـنـيك إن رمت شـاهـدا

هي الـروض لـكنْ، شقّ أكـمـامه الـقَـطـر

تـضـوّع طـيـبـاً كل زهـرٍ بـنـشـره

فما المسك؟ماالكافور؟ ما الند؟ ماالعطر؟

ويمضى عبدالقادر في تعداد فضائل أستاذه من كرم وحلم، وزهد وصبر وذكر فكان من أعلام المناقب ومن يضرب بهم المثل في بلوغ قمة المجد والعطاء فيها كحاتم في كرمه والأحنف في حلمه وابن أدهم في زهده، فإن شيخ الأمير قد فاقهم في ذلك فكأني به يريد أن يضع ممدوحه في درجة الكمال نهاية كل شيء:

ومـا حـاتم ؟ قل لي ومـا حـلم أحـنف

ومـازهـد إبـراهـيم أدهم؟ مـا الـصـبـر

ومن كانت هذه أخلاقه فلا بد أن يكون رحيما صفوحا عند المقدرة يقابل الإساءة

بالإحسان، يغض الطرف عن ظالمه لا خوفا وجبنا، لكن تعففا وترفعا، مما جعله مهابا، حتى الأسود الكاسرة والنمور الشرسة لو رأت هذا الشيخ لسرت الرهبة والهيبة في أوصالها:(٣٧٠)

صفوح يغض الطرف عن كل زلة

لهيبته ذل الغضنفر(٣٧١) والنمر

ولا يزال شاعرنا في مدحه لشيخه يعدد هذه المناقب المحببة للنفس، فبجانب كونه عفوا شجاعا رحيما، فهو كريم بشوش الوجه، طلق المحيا، بادي البسمة تفتر شفتاه عن أسنان بيضاء ناصعة تشبه حبات المزن تسر الناظرين وتبعث في نفوسهم الراحة والاطمئنان والتفاؤل، لا يعرف الغضب والتهور، رحب الصدر حليم ذوأخلاق نبيلة ملازمة، وتلك غاية المقصد ومنتهى الأمل:(٣٧٢)

هشوش بشوش يلقى بالرحب قاصداً

وعن مثل حب المزن تلقاه يفترُّ

فلا غضبٌ حاشا بأن يستفزه

ولا حدّة كلا ولا عنده ضر

ومن صفات هذا الشيخ أيضا هذا التواضع لا عن عجز وضعف، بل عن قوة واقتدار، فهو عزيز شريف، ولكن ليس جبارا متكبرا ولا مختالا فخورا، ينظر إلى هذه الدنيا نظرة احتقار وازدراء، يشفق على أولئك الذين يتهالكون للفوز بملذاتها وزخرفها فهي عنده لا تساوي جناح بعوضة بل أتفه من ذلك."(٣٧٣)

ذليل لأهل الفقر لا عن مهانة

عزيز، ولا تيه لديه ولا كِبْر

وما زهرة الدنيا بشيء له يرى

وليس لها - يوما - بمجلسه نشر

وهدف الصوفي هو العمل على الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا من أجل غاية محددة هي إقرار الحق والعدل وإنصاف المظلوم وهداية الانسان، ضف إلى ذلك حرصه على مريديه وحدبه عليهم، أورثه الرسول الكريم هذا النسب وهذا الإرث العظيم وخصه بالفضل العميم فله مطلق الحرية في التصرف على هدي السنة الطيبة الشريفة :

حـريص عـلى هـدي الخلائق جـاهـد

رحـيم بـهم، بـر، خـبـيـر،له الـقَـدْر

كـسـاه رسـول الـله ثـوب خلافـة

له الحـكم والـتـصـريف والـنـهي والأمـر

وماهذه الفضائل إلا نعمة من الله منَّ بها على هذا الشيخ، والله حر يفعل ما يريد، فحين أنعم على شيخه بهذا الخير فقد اصطفاه وحباه ورفعه مكانا ساميا، ولذلك ترى شاعرنا يقارن بين نوعين من موجبات الفخر، وهو يمدح شيخه حين يفاضل بين الفخر بالعلم العامل، والفخر بالملك الزائل ولو بعد نصر، وتلك خصيصة لا تفارق مذهبه في الحياة منبعها الصدور عن ارادة التطبيق، تطبيق العلم على العمل وعلى السلوك، ومن المفارقات العجيبة أن يقتبس الامير حكمته نصا وروحا تقريبا من القرآن[٣٧٤] ثم يتلوها بحكمة مؤكدة بصيغة قسم جاهلية :[٣٧٥]

فـذلك فـضل الـله يـؤتـيه من يـشـا

ولـيس عـلى ذي الـفـضل حـصـر، ولاحـجـر

وذا، وأبـيك الـفـخـر لا فـخـر من غـدا

وقـد مـلك الـدنـيـا، وسـاعـده الـنـصـر

ويحاول الأمير أن يحقق فى أستاذه درجة الكمال بهذه الصفات الكريمة التي يقف أمامها الغير عاجزا عن بلوغها بل وحتى وصفها، ذلك أن الإمام عليا كرم الله وجهه- نفسه- لو رأى هذا الشيخ لأحبه لأنه إنسان صادق مجاهد زاهد، ولجعله خليفة له في علمه، لباعه الطويل وتبحره في مختلف العلوم والفقه :[٣٧٦]

وهـــذا كـــمـــال كَلَّ عن وصف كـــنـــهه
فـــمن يـــدَّعي هـــذا، فـــهـــذا هـــو الـــســـر
أبـــو حـــسنٍ لـــو قـــد رآه أحـــبـــه
وقـــال له: أنت الخـــلـــيـــفـــة يـــا بـــحـــر

ويصل بنا المطاف إلى موضوع الحكمة ليؤكد الأمير على أن ممدوحه أهلاً لهذه الصفات الحميدة، وقد التزم كما نلاحظ في بداية كل بيت من أبياته حرف الميم كما هو الشأن عند شعراء الحكمة، ولعل المراد من هذا الالتزام إضفاء صبغة فنية تميز غرض الحكمة الذي يفرغ الشاعر من خلاله تجاربه الطويلة وخبرته مع الحياة، كما عرفها عن كثب، حيث نشأت لدى الأمير قناعة تامة بأن مناط الفضل وموضع التمايز هوبقدر مايمن الله به على الإنسان من علم نافع، وإيمان راسخ، وخلق حسن، وهذا ما حاول الأمير أن يحققه فى ممدوحه الشيخ محمد الفاسي: (٣٧٧)

ومـــا كل شـــهـم يـــدَّعي الـــســـبْق صـــادق
إذا سـيق لـــلـــمـــيـدان بـــان له الخـــسْـــر
وعـــنـــد تجـــلِّي الـــنـــقع يـــظـــهـــر من عـــلا
عـــلى ظـــهـــر جـــردبلٍ ومن تحـــته حُـــمْـــر
ومـــاكل من يـــعـــلـــو الجـــواد بـــفـــارس
إذا ثـــار نـــقع الحـــرب والجـــو مـــغـــبـــرّ
ومـــا كل ســـيف ذو الـــفـــقـــار بـــحـــده
ولا كل كـــرار عـــلـــيًّـــا إذا كـــروا
ومـــا كل طـــيـــر طـــار في الجـــو فـــاتـــكـــاً
ومـــا كل صـــيَّـــاحٍ إذا صـــرصـــر الـــصـــقـــر
ومـــا كل من يُـــسْـــمَى بـــشـــيخ كـــمـــثـــلـــه
ومـــا كل من يُـــدْعَى بـــعـــمـــروٍ إذن عـــمـــرو

ومراد الشاعرمن هذا كله هو أن يبين أن هذا الشيخ لم يكن مدعيا لهذه الصفات

كذبا ونفاقا، بل إن مانعت به هي الحقيقة كاملة، لأن الشاعر لا يمدح إلا صدقا كما مر بنا من قبل.

٢ - المدح السياسي:

لم يأت المدح السياسي عند الأمير إلى جانب غيره من الفنون الشعرية في القصيدة، وانما للمدح السياسي قصائد مستقلة (قصيدتين ومقطوعتين) فكان المدح عنده وحدة قائمة بذاتها، ولم ينظم الأمير هذه المدائح بغية " التكسب والتزلف والحظوة، وانما نظمها في سبيل الشكر ورد المعروف والجميل[٣٧٨] " كما أنه توجه بمدائحه هذه إلى شخص واحد هو السلطان عبدالحميد الأول دون غيره.

وقف عبدالقادر يمدح بني عثمان بتركية وهم سلاطين الخلافة، ولكن بتعبير أدق لم يكن شعره مدحا لهم "وإنما بتعبير نبوي مأثور يدعو لهم دعاء صالحا ويرجو لهم اليوم رجاءه النصر لنفسه بالأمس[٣٧٩] "

ففي قصيدته" آمن من حمام مكة" يستهل الشاعر أبياته بحمد الله وشكره إجلالا وتعظيما على كل حال وفي كل آن، في الشدة والرخاء والضيق والفرج، فالمؤمن صبور شكور يتقبل الأقدار بنفس راضية مؤمنة، فما بالك إذا أنعم الله عليه وأبدله يسراً بعد عسر، وفرجا بعد ضيق، وحرية بعد أسر، فإن المقام يتطلب الشكر العميم، والحمد العظيم للمولى تبارك وتعالى على نعمائه وخيره، فقد منَّ الله عليه بالحرية وأتاح له فرصة التشرف بلقاء الخليفة العثماني، وما يمثله هذا الأمر من أهمية عند الشاعر، فأكرمه الخليفة ونعَّمه وشمله بعطفه وفضله، فغدا الأمير سعيدا فرِحاً، خاصة وأنه تخلص من أمانة المسؤولية وتكاليف الإمارة وأوزارها التي كان يعتبرها الشاعر حملاً ثقيلاً أزيح عن كاهله: [٣٨٠]

الحمد لله تعظيماً وإجلالا

ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا

ومـا أتت نـفـحـات المسك نـاسـخـــــة
من المـــكـــاره أنـــواعـــاً وأشـــكـــــالا
وأشـكـر الـله إذ لم يـنـصـرم أجـلـــي
حــتى وصـلـت بــأهل الــدين إيــصـــالا
وامـتـد عـمـري إلى أن نـلـت من سـنـدي
خـــلـــيـــفـــة الــلـه أفــيـــاء وأظـــلالا
فـالـله أكـرمـني وأسـعـدنـــي
وحـط عـــنـيَ أوزاراً وأثــــقـــــالا

لقد طال الأمر على الشاعر حتى دب في قلبه اليأس وتملكه القنوط، وظن أن أسره سيطول إلى الأبد، وأن نازلته قد استحكمت حلقاتها فمالها من فرج، ولكن الله يجعل لكل شيء سببا، ويجازي الصابرين على صبرهم، فيبدل خوفهم أمنا وحزنهم فرحا، ويجعل لذلك ميقاتاً معلوماً يصبح فيه الأمل حقيقة والحلم واقعاً، وهذا ما حصل مع شاعرنا فعلا، فقد فك أسره وأطلق سراحه، فسكن فؤاده بعد اضطراب، ونال وصال الأحبة والإخوان، فبلغ مارمته نفسه وأصبح حراً طليقاً هانئاً سعيداً كحمام مكة في أمنه، لا يمسه الأذى ولا يقاربه الخطر، فتاه عزاً ودلالاً، فشدا وغنى، وجر الذيل فخراً واختيالاً، فهو كالطير الحبيس أفلت من قفصه لينعم بلذة الحرية والحياة، فتراه يرفرف ويزقزق ويغرد لا يعرف بأي وسيلة يعبر عن شعوره بالتحرر والخلاص من العبودية، فليس لغيره سلطان عليه وهو ضيف الخليفة والمقام مقام مجد وعز ودلال: (٣٨١)

قـد طـال مـا طـمـحت نـفـسي ومـا ظـفـرت
لــكنَّ لـــلـــوصل أوقـــاتـــاً وآجــــــالا
أســكن فــؤادي وقــرَّ الآن في جــســـدي
فـقـد وصـلـت بـحـزب الـله أحـبـــالا

هــذا المـرام الــذي قــد كـنـت تـأمــلــــــه

فـطب مـــآلاً بـلـــقـــيـــاه وطب حـــــــالا

وعش هـــنـــيـــئـــاً فــأنت الــيـــوم آمن مِـــن

حـــمـــام مـــكـــة إحــــرامـــا وإحـــــلالا

فـأنت تحت لــواء الــمــجــد مـغــتــبـــط

في حــضــرة جـــمــعتْ قــطــبــاً وإبـــــدالا

وتـه دلالا، وهـــز الــــعـــطف من طــــرب

وغـن وارقص وجــــر الـــذيل، مـــخـــتـــالا

أمِـنتَ من كل مـــكــروه ومــظـــلـــمـــــة

فـبح بمـا شـئت تـفـصـيلاً وإجـمـــالا

هـذا مـقـام الـتـهـاني قـد حـلـلـت بـــه

فـــارتعْ ولا تــخش بـعـد الـيــوم أنـكـــالا

ثم يخلص الأمير بعد هذه المقدمة التي صورت فرحته وما كان يقاسيه إلى مدح السلطان عبدالمجيد، وقد تملَّكه الشعور الديني الجارف الذي لازمه في كل أبيات قصيدته التي توافق نفسيته المؤمنة المتدينة، فيناجيها ويبشرها بقرب أمير المؤمنين الذي بلغ بفضل من الله مرتبة الكمال الديني قولا وعملا فحاز مجدا دائما وعزا تليدا، وقدرا جليلا، فعمت أفضاله وحسناته الأنام، فنال الدرجات العالية، ولمَ لا ؟، أليس عبدالمجيد حصن الخلافة المنيع وكافلها وحاميها، يذود عن حياض الدين ويدافع عن الإسلام فيبذل الغالي والنفيس ويسترخصها في سبيل الله جهادا ودفعا لغائلة العدوان، فما عهد له الناس مثيلا ولا نظيرا في هذا الزمن، فليحفظه الله ويشد أزره وينصره على أعدائه نصرا مبينا، ليعم سلطانه فيذل اعداء الله وأعداء الدين الذين يتربصون بهذه الخلافة المجيدة: (٣٨٢)

أبـــشــر بــقـــرب أمـــيـــر المـــؤمـــنـــين ومن

قـــد أكـــمل الـــلـه فـــيـه الـــدين إكـــمـــالا

عــبــد المجــيــد حــوى مــجــدا وعــزا علا

وجل قــدْراً كــمــا قــد عم أنــــــوالا [٣٨٣]

كــهف الخلافــة كــافــيــهــا وكــافــلــهـــــا

ومـــا عـــهــدنـــا لـه في الــقــرن أمـــثـــالا

يـــارب فـــاشـــدد عـــلــى الأعــداء وطـــأتـه

واحم حـــــمــــاه، وزده مـــــنك إجـــلالا

وأظـــهـــرَنْ حـــزبه في كــل مـــتــــجَّـــهٍ

وســـدِّدنْ مـــنــه أقـــوالا وأفـــعــــــــالا

وابــسط يــديه عــلــى الــغــبــراء قــاطــبـــة

وذلِّـــــــــــلَنْ كـل مَـن فـــي الأرض إذلالا

وما دامت الفرصة متاحة، وحرية التعبير مكفولة في حضرة أمير المؤمنين، فإنه لم ينس أهله وصحبه ووطنه، فالواجب والوفاء يفرضان عليه عرض حالهم وما يقاسونه تحت نير المستعمر الغاشم، فيلفت نظر الخليفة إلى ما يعانيه أبناء الجزائر، وما يرجونه من آمال في عبدالمجيد ليشد أزرهم ويعينهم بكل ما أوتي من قوة ـ ومن رباط الخيل، ليواصلوا جهادهم ويذبوا عن الدين والوطن، فكلهم أمل ورجاء في نظرة رحمة والتفاتة عون من حامي الخلافة، ليكشف ضرهم ويجلي خوفهم، فما المسلمون إلا إخوة فحق الأخوة دين في عنق كل مسلم: [٣٨٤]

فــالمــســلــمــون بــأرض الــغــرب شــاخــصــة

أبـــصـــارهم نـــحـــوه يـــرجـــون إقـــبـــالا

كم ســـاهــر يــرتجي نــومــاً بــطــلــعــتـــــه

وحـــائـــر يـــرتجي لـــلـــحـــزن تـــســـهـــالا

وينعطف شاعرنا بعد أن بلَّغ الأمانة في مدحه معددا مناقب آل عثمان ومآثرهم مجسدة في صورة عبدالمجيد، فيأتي بكم الخبرية على حالها المعتاد عنده في وصف

هؤلاء الأكارم الأماجد، فكم فرجوا من أزمات عن المسلمين فكشفوا الغم وأزالوا الهم، فهم الرحمة المهداة، والوقاية المرجوة والبلسم الشافي، يبذلون في مسعاهم الكريم الأنفس والأموال يدفعهم في ذلك نسب شريف ومجد سام فهم أنصار دين الله وحماته بعد أن عز الأنصار، يجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، يحافظون على العهد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا: (٣٨٥)

كم أزمة فرَّجوا؟ كم غمة كشفوا؟
كم فككوا عن رقاب الخلق أغلالا
هم رحمة لبني الإيمان، قاطبة
هم الوقاية أسواء وأهوالا
أنصار دين النبي بعد غيبته
في نصره بذلوا نفساً وأموالا

فقد خصهم الله بنعمة كبرى، وشرف أزلي دائم الذكر، لما جعل فتح "القسطنطينية" على أيديهم والتي حاول الصحابة والتابعين فتحها فلم ينجحوا وكأن الله كان يؤجل هذه المنقبة العظيمة لآل عثمان ليظل ذكرهم دوما على الألسن تشريفا وتكريما لهم لما بذلوه في سبيله: (٣٨٦)

قد خصهم ربهم في خير منقبة
ما خص صحباً بها قبلاً ولا آلا
كم حاول الصحب والآل الكرام لها
والله يختص من قد شاء أفضالا

فهذه السلالة الطيبة والشجرة المباركة دأبها الجهاد والكفاح في سبيل الله ونصرة دينه، فهم يقولون ما يفعلون منذ أن تحملوا قيادة المسلمين وأمانة الخلافة، وازداد المجد ثباتا والفضل اتساعا والجهاد انتشارا بمقدم خير خلف لهذا السلف الصالح ونعني به السلطان عبدالمجيد فهو في بني عثمان كالدرة في القلادة لا يكتمل جمالها إلا بها: (٣٨٧)

مــــازال في كل عـــصـــر مـــنـــهم خــــلف

يــحــمي الــشــريــعــة قــوّالا وفــعّــــــالا

حــتى أتى دهــرنــا في خــيــر مــنــتــخب

من آل عـــثــمـــان أملاكـــاً وأقـــيـــــــالا

ويعمد الشاعر إلى مقارنة حاله وما كان عليه في السابق من ذل الأسر وهوانه وعذابه، وما آل إليه أمره الآن من عز ومجد ورفعة وجاه، وما كان لينال ذلك لولا فضل هذا السلطان عليه، بل إن الأمير يقسم على ذلك للاعتراف لذي الفضل بفضله، ويبدو في هذه المقارنة أثر علم النحو واعتسافه في الإشارة إلى ستة أبواب فيه، في بيتين اثنين، إلا أنها جاءت رقيقة الحاشية يسيرة التفاؤل خفيفة السمع:[٣٨٨]

قد كـنت مـضـمـر خــفْضٍ ثم أكسـبـنــــي

رفــعـــاً وقـــد عـــمَّـــني جـــوداً وأفـــضـــالا

وبـــالإضـــافـــة بـــعـــد الـــقـــطع عـــرَّفـــنـــي

وحط عـــنـــيَ تـــصـــغـــيـــراً وإعـــلالا

هـــــــــــذا وحـق عـلاه، كـم أزاح، وكـم

أزال عـــنـي بمـــحض الـــفـــضل أثـــقـــالا

ولئن تبدلت الأحوال على الأمير، فلم يعد يملك من حطام هذه الدنيا إلا اسمه وشرفه ليقابل المعروف باسمه، إلا أنه يسارع إلى الشكر والاعتراف بالفضل لصاحبه فيجد العزاء في هذه الأبيات، يمدح بها صاحب نعمته آناء الليل وأطراف النهار شاكرا حمده، مقرا بفضله وتلك شيم الكرام، فالخير لا يثمر إلا في النفس الكريمة الأصيلة، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟[٣٨٩]:

لا زال تـــخـــدمه نـــفـــسي وأمـــدحـــــه

مـــســـتـــغـــرق الـــدهـــر أبـــكـــاراً وآصـــالا

أهـــدي مـــديـــحـــي وحـــمـــدي مـــا حـــيـــيت له

أفـــادني أنـــعـــمـــاً - جـــلَّتْ - وإقـــبـــــالا

جـــزاه عـــني إلـه الـــعـــرش أفـــضل مـــــا

جـزا بـه مـحـسـنـاً - يـومـا - ومـفـضـالا

أما قصيدته الثانية فنظمها الشاعر في مدح السلطان عبدالمجيد والتضرع إلى الله كي ينصر العثمانيين حينما كان القتال قائماً بين روسيا وحلفائها والدولة العثمانية.

يستهل عبدالقادر قصيدته بدعاء ملحاح، وتضرع صادق إلى الله متوسلا إليه بأسمائه الحسنى أن يتقبل دعوته بالنصر والثبات للخليفة، وأن يؤيده على أعدائه المتحالفين عليه، الذين يسعون إلى القضاء على دولة الإسلام منطلقا في ذلك من فكرة دينية واقتناع تام بأن الله قادر على نصرة عباده المؤمنين المخلصين المجاهدين في سبيل الله مصداقا لقوله تعالى " وقال ربكم ادعوني استجب لكم- سورة غافر، آية٦٠"

يـــــارب يـــــارب الأنـــــام ومـن

إلـــيه مـفـــزعـــنـــا ســـرًا وإعلانــــا(٣٩٠)

يـــاذا الجلال وذا الإكـــرام مـــالـــكـــنـــا

يـــاحي يـــامـولِـيـــاً فـضلاً وإحـــســـانـــا

يـــارب أيِّـــد بـــروح الـــقـــدس مـــلـــجـــأنـــا

عـــبـــد المجـــيـــد ولا تـــبـــقـــيه حـــيـــرانــــا

فهذا الخليفة المجاهد من سلالة أصلها ثابت وفرعها في السماء قد ورث هذا الملك والعز أبا عن جد، فحافظ على العهد وصان الأمانة، فسار على ملة آبائه غازيا مجاهدا، بعد أن كاد الخلف يبتعد عن السبيل، فبذل الأنفس والأموال ابتغاء مرضاة الله، فحق على المولى أن ينصره، ويؤيده مصداقا لقوله تعالى"إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم- سورة محمد، آية ٧" فهؤلاء العداة لا يحاربون عبدالمجيد لذاته بل إن حربهم حرب عقيدة، يسعون للقضاء على الإسلام والمسلمين، ولن يتأتى للخليفة مجابتهم إلا باتحاد المسلمين وتكاتفهم ولم يجد شاعرنا أمام هذا الموقف إلا الدعاء والتضرع إلى الله أن يوحد المسلمين ويلم شملهم لنصرة دينه تحت راية هذا السلطان

المجاهد : [٣٩١]

ابنُ الخلائف وابن الأكــــرمــــين ومَـنْ
تـوارثـوا الملك سلـطـانـا فسـلـطـانـا
أحـيـا الجـهـاد لـنـا من بـعـد مـادرســت
وضـاعف المـال أنـواعـاً وألـوانـا
فـانـصـره نـصـراً عـزيـزاً لا نـظـيـر لـــه
حـتى يـزيـد الـعـدا: هـمًّـا وأحـزانـا
واحـفظ علاه وأرسل يـاكــريم لـــه
من الـملائك حـفَّـاظـاً وأعـوانـا
وانـصـر به الـشـرع وارفع يـارؤوف به
عن ديـنك الحق لا تـعـدمه بـرهـانـا
واجـمع إلـهي قـلـوب المـسـلـمـين عـلـى
وداده أعْـلِـهِ، أعـظِـم له شـانـا

فهذا الدعاء الملحاح ، والتضرع الصادق إلى توحيد الصفوف ، أو على الأقل توحيد الكلمة ينبعث من نفس الشاعر صادقا ، لأنه يدرك مالوحدة الصف من قوة فقد مر بمثل هذه الأحداث ، حيث كان أميراً على الجزائر ورأى بأن أخطر شيء يهدد كيان الأمة هو فرقة كلمتها ، وتشتت صفوفها ، ولذلك فهو يحذر من تكرار هذه الماساة ، ثم نرى عبدالقادر ينزل على أعداء الخليفة بأقصى وأشد دعوات الهلاك والويل والثبور ، فيدعو الله أن يهدم قواعدهم ، ويزلزل كيانهم ، ويفرق شملهم ، ليسهل على جيش الخليفة مجابهتهم وردهم خائبين عن ديار الإسلام : [٣٩٢]

واهـدمْ وزلـزلْ وفـرق جـمع شـائـنه
واجـعل فـؤادهم بـالـرعب مـلآنـا
وانـصـر وأيـد وثـبّتْ جـيش نـصـرته

وينفذ الأمير من مدح السلطان وآبائه إلى مدح هؤلاء المجاهدين في جيش الخلافة، والثناء عليهم، ثناءه على جنوده من قبل، وينقل من صفات أولئك ما يتمناه لهؤلاء ليستعيض عن أمل مفقود بأمل منشود، حتى لا ينقطع الرجاء، فيثني على هؤلاء الأبطال الذين بذلوا أنفسهم الغالية رخيصة ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ذلك" ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا-سورة التوبة، آية١١١" وتلك لعمري التجارة الرابحة والفوز العظيم، لذلك تراهم يوم تقع الواقعة يضربون أعداءهم ذات اليمين وذات الشمال بسيوف وامضة تلمع في ظلمات المعركة تؤازرها طعنات رماح نافذة لا تحيد عن هدفها، فترى الاعداء حينئذ صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية مضرجين في دمائهم، فيزداد المجاهدون إيمانا وثقة وحماسا تسري حرارة الجهاد في عروقهم فيستدفئون بنارها، غايتهم رضا الرحمن ورضوانه عليهم، لا يريدون من ذلك جزاء ولا شكورا، تراهم فوق ظهور خيل ضامرة وكأنهم عقبان تنقض على فرائسها فتذيقها كأس المنية:

البـاذلـون بـيـوم الحـرب أنـفـسـهـم
لـله كم بـذلـوا نـفـسـاً، وأبـدانـا
والـضـاربـون بـبـيض الـهـنـد مـرهـفـة
تـخـالـهـا في ظلام الحـرب نـيـرانـا
والـطـاعـنـون بـسـمـر[٣٩٣] الخط عـالـيـة
إذا الـعـدو رآهـا شـرَّعـت بـانـا
والمـصـطـلـون بـنـار الحـرب شـاعـلـة
مـطـلـوبـهم مـنك يـاذا الـفـضل رضـوانـا
والـراكـبـون عـتـاق الخـيـل ضـامـرة
تـخـالـهـا في مـجـال الحـرب عـقـبـانـا[٣٩٤]

وهؤلاء الرجال المجاهدون تراهم دوما سباقين إلى ساح الوغى حين ينادي منادي الجهاد، وتبدي الحرب نواجذها فيطيرون إليها فرسانا وراجلين يتنافسون لنيل الشهادة والفوز بالجنة لاتلهيهم عن ذلك دنيا زائلة يوم النداء الأكبر، صابرون يحتسبون أرواحهم عند بارئها، هم الليوث غضبى بل أشد من ذلك، فمجرد الاقتراب منهم معناه الموت المحقق، دأبهم شق الصفوف وقطع الرؤوس اليانعة التي حان قطافها، فيمسي العدو مبهورا متعجبا من أفعالهم يطلب النجاة غير مصدق لما يرى: [٣٩٥]

جيش إذا صاح صيَّاح الحروب لهم
طاروا إلى الموت فرسانا ورجلانا
هم الجبال ثباتا يوم حربهم
فصابر من دعاهم صبره خانا
هم الليوث، ليوث الغاب غاضبة
والليث لا يُلتَقَى إن كان غضبانا
هم الألى دأبهم شقُّ الصفوف لدى
حملاتهم صار جيش الكفر دهشانا
الدافعون عن الإسلام كل أذى
بأنفس قد غلت قدْراً وأثمانا
كم غمة كشفوا كم كربة رفعوا
وكم أزاحوا عن الإسلام عدوانا

لقد كان عبدالقادر في الجزائر قادرا على استنفار الجند وجمع المتطوعين وإصدار الأوامر، لكن الحال تبدل، فلم يعد يملك في ظرفه هذا إلا الدعاء كعادته، والتضرع إلى الله أن ينصر هذا الجيش المسلم" فأصبح الدعاء لهؤلاء بالانتصار على ثلاث دول منها روسيا القيصرية يقتضي حسن التصرف ومواجهة كل حال بما يقتضيه"[٣٩٦] فاستحضر هنا أسماء ستة وثلاثين صحابيا[٣٩٧] كريما، ما منهم إلا له منزلة ومقام معلوم في صدق الجهاد، وحسن البلاء يصفهم بصفات نخالها محببة وقريبة من نفس السلطان عبدالمجيد،

ليختم أبياته مستحضرا مثالية الرسول صلى الله عليه وسلم متوسلا بها عند ربه عسى الله أن يتقبل دعاءه فيمنُّ بالنصر وما ذلك على الله بعزيز : (٣٩٨)

إني تــوســلت يــارب الأنــام بــهـم

أرجــوك فـضلاً وغــفــرانــاً وإحـسـانـا

ثم الـصلاة عـلـى المخـتـار سـيـدنـا

مـا صـارت الـشـيب يـوم الحـرب شـبـانـا

ونعرج الآن في ختام حديثنا عن المدح السياسي على المقطوعة الأخيرة التي أنشدها الأمير شاكراً مادحا السلطان عبدالمجيد حين أهداه هذا الأخير الوسام المجيدي من الدرجة الأولى ، فتقبله الأمير قبولاً حسناً واعتبره أعظم هدية منحت له ، لم تكن تخطر له على البال ، لذلك كان السرور عظيما ، فقد فاجأه السلطان بهذه النعمة- حسب تعبير الشاعر- فوجب الشكر والعرفان لأن الشاعر يرى ضرورة شكر الغير على معروفهم وإحسانهم ، وسيظل يذكر هذه النعم ذكره أيام الصبا التي يسترجعها الإنسان حين يدفعه الشوق والحنين إلى تلك الأيام الخوالي يجد فيها متنفسا وراحة ، فكذلك الشأن بالنسبة للأمير وهو يذكر هذا الطوق والجميل الذي قلده إياه السلطان ، فقد ملكه بالإحسان ، والكريم إذا أكرمته ملكته : (٣٩٩)

ولـم أر أعــظـم مـن نــعــمــة

مُــنِــحتُ ولـم تك لـي في حــســاب

سـأشـكـرهـا شـكـر وقت الـسـرور

وأذكـرهـا ذكـر وقت الـشـبـاب

أيـا سـابـقـا بـالـذي لم يـجـل

بـفـكـريَ، ثـوبـا، ونـعـم الـثـواب

كـذا فـلـتـكن نِـعَمُ الأكـرمـينَ

تـفـاجِـي بـلا مـنـة أو طِـلاب

٣ - المدح الأدبي:

من الملاحظ أن الأمير الشاعر قد نظم قصائده في المدح الأدبي في الفترة الأخيرة من حياته ١٨٥٦-١٨٨٣[٤٠٠] - والتي قضاها في مدينة دمشق.

وتعتبر قصائده هذه أقرب إلى المساجلات الادبية، منها إلى فن المدح لأن الشاعر كان يتبادل هذه القصائد الشعرية مع ممدوحيه في المناسبات المختلفة على سبيل التهنئة والتكريم والاحترام بغية زيادة أواصر المحبة والإخوة وإدخال السرور على القلوب. تركزت مناقب ممدوحي الشاعر على جملة من الفضائل الفطرية والمكتسبة كالنسب الشريف والعلم والشجاعة والأخلاق الحميدة والجمع بين السيف والقلم. ففي قصيدته "أنا مخلص للود شاكر" يرد الأمير التحية بأحسن منهاويعتبر الشيخ أمين الجندي قمة في الفصاحة والبلاغة تعبق أبياته الجو عطرا ومودة:[٤٠١]

أحلى المديح مديح خِلٍّ فاخر
أقواله تنبي كدرٍّ باهرِ
عما أجَنَّ من الوداد جِنانه
ألفاظه ترى كشَهْد قاطر
تكسو الملاحة والطلاوة وجهها
فالود من أرجائها كالعاطر
ياصاح خاتمة الأفاضل كلهم
من كل شهم كاتب أو شاعر

ومن الطبيعي أن يحمل الشاعر لهذا الصديق الصالح من المودة والحب والإخلاص نظير وفاء هذا الأخير وكرمه، ومن شدة حب الأمير لهذا الخل، فقد ملك عليه قلبه، وأسر فؤاده، له من المودة في قلبه منزلة لم يرمها أحد قبله ولا بعده، ويزيده الشاعر اطمئنانا على هذه المكانة وهذا الحب، فهما له دون سواه، فهو مخلص لهذا الخليل شاكرا فضله وفياً لهذه الصداقة، راجيا لها الدوام والاستمرار:[٤٠٢]

عـــنـــدي لـــكم بـــين الـــضـــلـــوع مـــــودة
مـــحـــفـــوظـــة ومـــصـــونـــة لـــلـــغـــابـــــر

كن كـــيف شـــئت فـــأنت أنت أمـــيـــنـــهـــا
مـــا بـــين بـــادي عُـــرْبـــهـــا والحـــاضـــر

مـــا الـــدر إلا مـــا أتـــانـــا مـــنـــكـــم
أنـــا مـــخـــلـــص لـــلـــود أول شـــاكـــــر

وفي قصيدته التالية التي بعث بها الشاعر إلى الشيخ ابو النصر الطرابلسي شاكراً ومادحاً، رداً على قصيدة امتدح بها هذا الشيخ الأمير فإننا نرى أن الشاعر يسير على نفس النهج، ويعدد مناقب ممدوحه من علم ودين وفقه وأخلاق، فصاحبه ليس برجل سيف، ولكن صاحب قلم وعلم، فالمقام يفرض سبيلا يتلاءم مع صفات الممدوح، وليس ذلك بالأمر العسير على شاعرنا فقد جمع بين رتبتي السيف والقلم وهو أدرى الناس بإعطاء أو إيفاء كل جانب حقه.

يخبرنا الشاعر بأنه قد تلقى كتابات أشبه بروضة غناء، قد زهت وتلونت بأنواع الورود والرياحين، لا يمل المرء جمالها وبهاءها، تسري كلمات هذا الكتاب في نفس قارئه وتدب نشوتها في عروقه دبيب الخمر في روحه فتراه جذلان نشوان، يتمايل مرحا، وسعت فرحته كل شيء، يطلب المزيد ويأبى الحرمان، ضف إلى ذلك أن هذا الكتاب هو عنوان المودة ورسول المحبة، لأنه يحمل بين كلماته أجمل واصدق معاني الوفاء والأخوة، فعز على الشاعر الابتعاد عنه، فهو معه دوماً وملازماً له: [٤٠٣]

أتـــاني كـــتـــاب لايمل ســـمـــاعـــــه
كـــتـــاب كـــوَشْيِ الـــروض تـــزهـــو بـــقـــاعهُ

يـــزيـــد عـــلـــى الـــتـــرداد طـــيـــبـــاً ولـــــذة
يـــعـــز عـــلـــيـــنـــا طـــرحـــه ووداعـــــه

يـــدب دبـــيب الخـــمـــر في جـــسم ســـامع
فـــيـــطـــربـــنـــا إســـمـــاعه وســـمـــاعـــــه

وإلى جانب كونه كتاب وفاء ومودة، فإن أبا النصر قد أودع فيه ابلغ العبارات

والألفاظ فاق بها غيره من الكتاب منطقا وأسلوبا، بيراع كأن مداده ينفث سحرا، يسلب الألباب ويسحر الأفئدة والقلوب لحسن صياغته وجمال أسلوبه، ينير بشعاعه المضيء الدرب الحالك، بلغ في ذلك مرتبة التمام والكمال: (٤٠٤)

كـتـاب أبـي الـنـصـر الـذي فـاق مـنـطـقـا
ويـنـفـث سـحـراً بـابـلـيـاً يـراعـه

فلا زال في أوج الـكـمـال مـخـيـمـا
يـضـيء عـلـيـنـا نـوره وشـعـاعـه

ويمضي الأمير بعد هذا العرض متغنيا بصفات ممدوحه، فهو حامي الذمار بالعز والمجد والعلم، أفعاله ممدوحة، وطباعه مشكورة، وفضله عميم، لكأنه كعبة الفضل يحج الناس إليها لينالوا العطاء، ويتزودوا بخير الزاد، العلم والتقوى، سيرته في ذلك، دعوة الله بالحجة والبرهان والحسنى، حتى بلغ العلا والذرى، يطاول عنان السماء عزا ومجدا، مبشرا لا منفرا، وميسرا لا معسرا ذا نفس كريمة لا يعرف البخل والشح سبيلا لها:

ولا زال من يـحـمـي الـذمـار بـعـزة
ولـو جـمـعـوا مـايـسـتـطـاع دفـاعـه

ولا زال مـحـجـوج الأفـاضـل كـعـبـة
ومـمـدوحـة أفـعـالـه وطـبـاعـه

ولا زال سـيَّـاراً إلـى الـلـه داعـيـا
بـعـلـمٍ، وحـلـمٍ مـا يـضـم شـراعـه

ولا زال لـلـعـلـيـاء أرفع رايـة
وبـشـراه مـبـذول لـنـا ومـتـاعـه

ويختتم الأمير أبياته بالدعاء لممدوحه بأفضل ما ورد في الأثر بأن يبقيه الله عين زمانه، يحرس العباد ويرعاهم، بكرم وفضل، ويحمل عنهم بعض الذي يعانون

وتلك رسالة هذا الشيخ في هذه الحياة: (٤٠٥)

فـــأبـــقـــاه من رقّـــاه عـــين زمـــانـــه

وحـــامل كل الـــكل مـــنـــا وســـاعـــه

ويجمع الأمير في قصيدته التي مدح بها عبدالكريم الحمزاوي(٤٠٦) بين العلم والفكر والشجاعة، والنسب النبوي الشريف، ومناسبتها أن هذا الأمير نشر ديوان شعر، وأهدى نسخة منه للأمير، فتقبلها عبدالقادر شاكرا وقرضه بقصيدة ميمية استهلها بالشكر والثناء على هذا السيد الكريم العالم الذي أطاعته القوافي، وانصاعت إليه جوامع الكلم، فعباراته سلسة لا غموض فيها، ومعانيه واضحة ودقيقة، رقيقة رقة النسيم العليل، تسري في النفس العليلة، فتبعث فيها الشفاء والراحة فتغدو سابحة في عالم أدبي روحي فيه رومانسية وجمال(٤٠٧):

فـــذا ديـــوان ســـيـــدنـــا الـــكـــريم

ســـلـــيل المـــصـــطـــفى عـــبـــدالـــكـــريمِ

مـن الـلائي(٤٠٨) تـــطـــيـــعـــهم الـــقـــوافي

وتـــنـــقـــاد انـــقـــيـــادا، كـــالـــغـــريـــم

وتـــألـــفـــهم مـــعـــان شـــاردات

دقـــيـــقـــات، أرق مـــن الـــنـــســـيـم

لـــهـــا في قـــلب ســـامـــعـــهـــا دبـــيـــب

دبـــيـب الـــبـــرء في ذات الـــســـقـــيـم

وتـــطـــرب من يـــفـــر من المـــثـــاني

وتـــرقص من يـــكـــدر بـــالـــنـــديـم

وممدوح الأمير جمع طرفي المجد: من سيف وقلم، فهو بطل صنديد يريك برهانه في ساح المعركة، يذيق أعداءه المنون، فتراهم هشيما تذروه الرياح يطلبون النجاة، وهو أديب إذا هز اليراع ينصاع البيان، فيأتي بالحجة والبرهان والبينة البليغة فإذا كان غيره فرسان الوغى فهو فارس الحرب وفارس الكلمة يمتطي البيان ليحقق النصر

بالإقناع والإمتاع فجمع بذلك طرفي الفخر والمجد والسؤدد وتلك لعمري الغاية التي ينشدها كرام النفوس من أمثال هذا السيد الذي أمسى كصاحب سيف الدولة شاعرنا العربي حين يصف نفسه[٤٠٩] :

الخـيل والـلـيل والـبـيـداء تـعـرفـني

والـضـرب والـطـعن والـقـرطـاس والـقـلم

ويعرج إلى ذكر نسب ممدوحه الشريف فهو الكريم ابن الكريم ينحدر من سلالة طاهرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، لا يدانيه أي أحد في هذا الشرف السامي ، ومن هنا كانت هذه العلاقة بين الشاعر وممدوحه في هذا الفخر التليد ، فلا يعلو أحدهما على الثاني ولا يغني عنه شيئا[٤١٠]

كـريم من كـريم من كـريـم

كـريم، من كـريم، من كـريـم

إلى أبـنـاء هـاشم قـد نمـتـه*

ذوو الأحـسـاب والـشـرف الـعـمـيم

فـذخـري حـبـهم عـنـد احـتـيـاجي

ولا يـغـني حـمـيم عن حـمـيـم

ونختم جولتنا مع الشاعر بهذه القصيدة التي أنشدها مادحا مفتي دمشق معجبًا بفضائله ومناقبه من علم وخلق وأدب ، فممدوحه سباق للمكارم حائز لأعلى المراتب والمحامد ، له يراع إذا اهتز ترى السيوف خاشعة ذليلة الطرف ، تؤمر فتطيع وتدعَى فتجيب ، فهي في خدمة القلم والفكر ، وفي ذلك تفضيل من الأمير للعلم على الشجاعة وللقلم على السيف : [٤١١]

خـلـيـلي أتـانيَ مـنك الـكـتـاب

فـلـله درك مـا أجـمـلـه

أتـاني كـمـا أنـا ذا طـالـب

فلا زلت في الـــوقت ذا أفْــضـــلـه

ولا زلت حـــائـــز قـــصب الـــسـبـــاق

إلـى كل فـــضـــل عـلا نـــائـــلــه

تـــهـــز الـيـــراع فـتـخـشى الـسـيـوف

وتـــصـــبح مـــهــزومـــةً جـــافـــلـه

ومـــازالت الـــســـمـــر والمـــرهـــفـــات

لأقـلامـــكـــم خـــدمـــا مـــاثـــلـه

وإن كـــان فـضـــل الـمرء وقيـمته في لسانه، فـلـمـمـدوح الـشاعـر الألسن في كـل العـلـوم والـمعارف، ولـيس ذلك بـغـريـب، فحسبه أن يذكـر اسـمـه لترى المعاني السامية قد اشتملت عليه، فقد بلغ من الفضل مبتغـاه، وارتـقـى أسـبـاب الـعـز والمجد سموا لم يـجـد الأمير صاحبه ومادحه- الذي عـهدناه لا يتملق ولا يثني على الرجل إلا بما فيه - أمام هذا إلا أن يقول ملء فيه" ماأكمله" على حد قول الشاعر:

إذاكـــان فـضـل الــغـنـى بـالـلـســـان

فـــأنـــتم لـــكم ألـــسن فـــاضـــلــه

لـــئن كـــان ؟، لـــفظ اســمـــكم مـــفـــرداً

فـــمـــعـــنـــاكم الجـــمع مـــاأشـــمـــلـه

ولـــو كـــان بـــالـــفـضل يـــرقى الـــســمـــاك

رقـــيـــتم، وأثـــقـــلـــتم كـــاهـــلـــه

جـــمـــعت أدابـــاً وفـضـل انـــتـــســـابٍ

فـــنـــاعـــتـــكم قـــال: مـــا أكـــمـــلـــه

هـ - الشعر الديني: الصوفي - المدائح - الحجازيات:

ا - التصوف والشعر الصوفي:

يعتبر الامير التصوف" جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال

النفس تحت الاوامر الإلهية، والاطمئنان والاذعان لأحكام الربوبية لا شيء آخر من غير سبيل الله[٤١٢] للوصول إلى غاية سامية وهدف جليل باعتبار "أن الصوفية هم سادات طوائف المسلمين"[٤١٣]

فمفهوم التصوف إذن عند عبدالقادر " هو جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة والعبادات الخالصة لله والحضور الدائم له[٤١٤].

ومادمنا نتحدث عن الأمير وعلاقته بالتصوف، فإن المقام يفرض علينا أن نعود قليلا للوراء لنكتشف الاسباب والدوافع التي حملت عبدالقادر على سلوك هذا الطريق الصعب الجليل في محاولة لاستعراضها، ذلك أن التصوف قد ارتبط بحياة الأمير ارتباطا شديدا حتى يخال المرء وهو يتصفح حياته أنه خلق ليكون صوفيا، وما الإمارة والسلطان إلا محطات عارضة في حياته.

فالأمير تشرب الدين من صباه، حيث نشأ في أسرة محافظة شديدة التدين يشهد لأفرادها بالتقوى والصلاح والعلم والزهد، فأبوه كان" مرابطا" وشيخ الطريقة القادرية في الجزائر، والذي سعى جهده في تنشئة ابنه نشأة دينية علمية صوفية، وتأهيله دينيا ليستخلفه في منصبه، بل إن طموح عبدالقادر الأكبر في شبابه هو أن يصبح "مرابطا" مثل والده[٤١٥]، ولم يخطر بباله قط أن يتحمل ثقل أمانة الإمارة وقيادة الشعب، فالظروف والأحداث هما اللتان أجبرتاه على ذلك" وإن دوره الحقيقي لم يكن إقامة دولة، بل العبادة والتجرد والبعد عن هذا العالم"، ولنستمع إليه وهو يقرر هذه الحقيقة الثابتة في احدى رسائله لأحد الأساقفة الفرنسيين بقوله: " لعلك قد اكتشفت من خلال حديثنا أنني لم أولد لأكون محاربا ولو يوما واحدا، ويبدو لي أنه كان يجب علي أن لا أكون محاربا ولو يوما واحدا، ومع ذلك فقد حملت السلاح طيلة حياتي، ما أكثر غموض مغيبات القدر، ولم يكن سوى محض الصدفة أن وجدت نفسي بعيدا عن الدور الذي حدده لي ميلادي وتربيتي وميولي [٤١٦]

وإلى جانب هذه النشأة الدينية القوية" التي أثرت في تكوينه النفسي منذ نشأنة الأولى

وهي بيئة دين وعبادة وتصوف وزهد وتقشف[٤١٧] "، فإن لنسبه النبوي الشريف وانتمائه إلى الدوحة المباركة، الأثر الكبير أيضا في توجيهه الصوفي وسلوكه هذا السبيل، ويتجلى لنا موقفه من أهل البيت في شرحه للآية الكريمة: " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا- سورة الأحزاب، الآية ٣٢" فيقول في الموقف ٢٧٦" "تأمل هذه العناية الكبرى والنقبة العظمى والمنزلة الزلفى لأهل البيت النبوي، ولفظة أهل البيت تعمهم من أولهم إلى آخر مولود منهم، حصر تعالى إرادته لإذهاب الرجس عنهم - والرجس هو الذنب- تطهيرا كاملا مؤكدا بالمصدر، وذلك بأن يكون كل ما يصدر منهم من المعاصي والمخالفات مغفورة لهم، بل المغفرة متقدمة لا بأنهم معصومون من المخالفات، كلا وحاشا، بل معنى أن ذنوبهم تقع مغفرة لهم عناية إلهية"[٤١٨] .

على أن الأمير لم يقنع بهذا النسب المتوارث، بل سعى جهده ليربطه بجلائل الأعمال، ويجاهد في سبيل تحقيق الغايات النبيلة التي ينشدها وهو يسلك طريق التصوف ليصبح من أهل البيت الإلهي مشيرا إلى ذلك بقوله: " إذا كانت عنايته تعالى بأهل البيت النبوي الشريف، كما أخبر فما ظنك بعنايته بأهل البيت الإلهي؟ وهم المعنيون بأهل القلوب"[٤١٩]

فعبدالقادر بطموحه وإيمانه بالقليل من المجد، دوماً تراه يسارع إلى الخيرات والأعمال الصالحة، والالتزام بتعاليم القرآن وجده المصطفى (ص)، ليصبح من أهل البيت الإلهي، ويضيف بذلك مجدا على مجد لأن الخير كل الخير في الجمع بين البيتين النبوى والإلهي، وتلك لعمري منتهى الآمال فمن " كان من أهل البيت النبوي والإلهي فبخ بخ، وكرامة على كرامة، ونورا على نور، ومن كان من أهل البيت النبوي فقط فهو دون من كان من أهل البيت الإلهي"[٤٢٠] .

إضافة إلى هذا فقد لعبت الأحداث دورا رئيسيا في توجه الأمير الوجهة الصوفية فغني عن البيان، أن المرحلة الأولى من حياة عبدالقادر ونقصد بها مرحلة الإمارة

والجهاد التي امتدت من ١٢٤٦ - ١٢٦٤هـ/ ١٨٣٠ - ١٨٤٧م قد شغلته عن هذا السبيل وانحصرت اهتماماته في الأمور السياسية والعسكرية حاملا أعباء أمة وقائدا لكفاح شعب، على أن ذلك لم يستمر طويلا مع عبدالقادر فبانتهاء هذه المرحلة بدأت " مرحلة جديدة هي مرحلة التصوف والعبادة والتجرد من متاع الدنيا الفانية[٤٢١]، فكان أسره "بامبواز " AUMBOISE من أهم المحطات التاريخية في تصوفه، فقد ضاقت عليه الأرجاء وتبدل حاله، عزاؤه الوحيد في سجنه أو خلوته إن صح لنا التعبير- هو الدعاء المتواصل والصبر الجميل، ولنستمع إلى عبدالقادر وهو يصور لنا حاله، ويصف لنا نفسيته التعيسة يقول: " دخلت مرة خلوة، فعندما دخلتها انكسرت نفسي وضاقت علي الارجاء، وفقدت قلبي، وإذا المعرفة نكرة، والأنس وحشة، والمطايبة مشاغبة، والمسامرة مناكرة، فكان نهاري ليلي ويحا وويلا، وأي قربة أردتها ابتعدت بها، فلم يبق معي من أنواع الصلوات إلا الصلاة، فكان هذا ابتلاء"[٤٢٢] .

وهكذا أتيح للأمير في هذه الخلوة التأمل والتفكير الروحاني الهادىء العميق فكانت ساعات يومه وليله عبادة، وذكر وتبتل وابتهال للمولى سبحانه وتعإلى أن يفرج كربه ويحل أزمته، فكانت رحمة ربه أن منَّ عليه بفضل عظيم حيث" كانت ترد عليه الواردات في الوقائع مشيرة وآمرة بالصبر[٤٢٣] ولذلك اعتبرت هذه المرحلة بمثابة حلقة الوصل بين مراحل التصوف عنده. ومما زاد في أهميتها هو ذلك اللقاء بين الأمير وبين الصوفي الكبير الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني، الذي يبدو أن الأمير عبدالقادرتتلمذ عليه" وتلقى عليه مبادئ الطريقة الشاذلية وأصولها وناقشه في الموضوعات الصوفية"[٤٢٤] .

على أن أهم مرحلة من مراحل التصوف عنده، هي تلك التي تلت إطلاق سراحه وفك أسره، ففيها "تغلغل الأمير في العلوم وأظهر من دقائق الحقائق وعوارف المعارف ما يؤذن بسمو مقامه وعلو قدره[٤٢٥] " ولذلك يرجح " أن يكون أديبا أول اتجاهات الأمير، أما التصوف نفسه فآخر ما اتجه اليه . . . فالتصوف أساس تراثه الموروث

والأدب والعلم، كلاهما يرتبط عضويا بعلم التصوف وموضوعاته ووسائله وأهدافه ومؤلفاته لا سيما التي اختارها الأمير."[٤٢٦]

وكانت هذه الفترة الأخيرة أطول مراحل التصوف عند الأمير من الناحية الزمنية، اذ تمتد ما يقرب الثلاثين سنة قضاها الأمير عبادة وذكرا، وقد ذكر جواد المرابط أن الأمير "كان يدخل الخلوة أربعين يوما في أشرفية «صحنايا» على قطرات من الماء وعلى لوزة وتمرة كل يوم، أحيانا يكون قوته في خلوته كسرة خبز صغيرة مع قليل من زيت وتمر كل يوم،[٤٢٧]" وكان عبدالقادر يفعل هذا في حين يأكل عشرات الضيوف وعشرات الخدم من مطبخه وعلى مائدته.

وفي هذه المرحلة تم له الفتح العظيم إبان خلوته الصوفية الشهيرة حين مكث في البقاع المقدسة مجاورا الحبيب المصطفى لسنة ونصف سنة ١٢٧٩ - ١٢٨٠ / ١٨٦٣ - ١٨٦٤، حاجاً ومقبلاً فيها على العبادة وجهاد النفس والخلوة، حيث التقى فيها بالشيخ العارف بالله محمد الفاسي شيخ الطريقة الشاذلية وتتلمذ عليه، وشرب عنه الطريقة، إلى أن ارتقى في معارج الأسرار الإلهية " وتم له الارتقاء في غار حراء لأنه انقطع فيه أياما عديدة إلى أن جاءته البشرى ووقع له الفتح النوراني، وانفتح له باب الواردات واستظهر من القرآن الكريم آيات، ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحة"[٤٢٨] وقد أشار الأمير إلى هذا فى رائيته الشهيرة التي يمدح فيها شيخه الفاسي ومطلعها:[٤٢٩]

أمسعود جاء السعد والخير واليسر

وولَّت جيوش النحس ليس لها ذِكْرُ

وعلى هذا النمط قسَّم دارسو حياة الأمير تصوفه إلى هذه المراحل الثلاث التالية:

المرحلة الأولى: التي سافر فيها مع والده إلى بغداد بعد أداء فريضة الحج ١٢٤١ وفيها زار ضريح القطب الرباني السيد عبدالقادر الجيلاني قدس الله سره، / وأخذا الإجازة بالطريقة القادرية عن الشيخ محمود القادري نقيب الاشراف.

المرحلة الثانية : وهي مرحلة الأسر التي قضاها عبدالقادر في فرنسا أو على الأصح خلوته فى "أمبواز"

المرحلة الثالثة : والتي أقام فيها الأمير بمكة حاجاً لسنة ونصف مجاوراً الأماكن المقدسة ، ولقائه الشهير بالشيخ محمد الفاسي مقدم الطريقة الشاذلية .

هذه لمحة مبسطة عن مراحل التصوف عند عبدالقادر والأسباب والدوافع التي ساهمت في سلوك عبدالقادر لهذا السبيل ، ننتقل بعدها لنعيش مع شعره الصوفي ، وقبل أن نتعرض لتحليل قصائده ودراستها لا بد أن نسجل أن للأمير قصائد كثيرة في التصوف على حد قول محقق الديوان" وإني لأعرف له كثيرا من هذا النوع يتناشده رجال الطرق في أذكارهم على أني وإن كنت قليل الشك في نسبته إليه ، فلا ريب عندي في انه أصبح خليطا عجيبا من قوله وقول سواه من الدخلاء على هذا الفن ، ومزيجا غريبا من أقوال متفاوتة الدرجات وأكثره محطم الوزن مضطرب المعنى ، يشق تخليص بعضه من بعض ، وليس من وراء ذلك جدوى فنية ذات قيمة ، والذي بين أيدينا فيه الكفاية ليدل على مستواه في الشعر ، وعلى الفنون التي تعاطاها ، ومنزلته بين شعراء عصره ، وأسلوبه وقدرته"(٤٣٠) .

وللأمانة العلمية نسجل ملاحظة الدكتور عبدالله الركيبي وهو يتحدث عن شعر التصوف عند الأمير عبدالقادر حيث ذكر" أن هناك من القصائد وخاصة التي قالها الأمير في التصوف تختلف في شكلها والفاظها أو عباراتها من مصدر إلى آخر فهي في ديوانه تختلف عنها في كتابة المواقف ، ومن هنا فإنها في الديوان تبدو سليمة إلى حد ما في أوزانها وتفعيلاتها ، بينما تبدو في المواقف مكسورة نظرا للتقديم والتأخير في عباراتها مما يدعو إلى التساؤل : هل ان القصائد التي في المواقف هي الأصل ثم نشرت في الديوان بترتيب وبصيغة جديدة؟ ومن قام بهذا العمل ."(٤٣١)

ومهما قيل عن شعر التصوف عند الأمير فإنه لا يحط من قيمته وجهده في هذا

المضمار، ويكفيه فخراً أنه" أول شاعر جزائري حديث كتب في التصوف نثراً وشعرا، وترك تراثاً ضخما بالقياس إلى غيره من العلماء والشعراء في عصره، وربما إلى من جاء بعده على تفاوت بينهم قلة وكثرة [٤٣٢] " وإذا عد الأمير في بداية حياته شاعر العروبة والإسلام "فإنه في آخرها يمكن اعتباره شاعر التصوف بلا منازع [٤٣٣] "

والقصائد التي بين أيدينا تجول كلها في دائرة شعراء التصوف الأقدمين مثل الحديث عن المتصوفة ووصف حالاتهم وانجذابهم أو مشاهدتهم ونشوتهم في حالة السكر والصحو، أوحالة الشك التي تعتري المتصوف وهو يلتمس طريقه إلى جانب الله، كما نجد التقليد واضحا في الموضوعات والأفكار، بل إن الأمير يبدو في شعره الصوفي متأثرا إلى أبعد حدود التأثر " بآراء محيى الدين بن عربى في فتوحاته المكية ومقلدا لإبن الفاض في كثير من صيغته وتعابيره"[٤٣٤]

ففي قصيدته "أستاذي الصوفي[٤٣٥] التي أنشدها الشاعر في مدح شيخه الناسك الصوفي محمد الفاسي والتي" تعتبر من عيون قصائده الموثقة رواية ونسبة[٤٣٦] " حتى أن د. محمد السيد الوزير يراها أجمل وأطول مدائحه وربما قصائده كلها[٤٣٧] . "

وقد سبق أن تعرضنا لهذه القصيدة في غرض المدح لذلك فلا يعنينا منها في هذا المقام إلا الأبيات التي يتحدث فيها الشاعر عن الجانب الصوفي وتشوقه إلى المتصوفة بعاطفة قوية جياشة تظهر ميله لأهل الطريقة التي يمثلها هذا الشيخ.

ومن عادة رجال الصوفية أن يرمزوا بالحبيب إلى الذات الإلهية في غالب الأحيان، أو إلى الرسول(ص) تارة أخرى، إلا أن الأمير في قصيدته هذه يرمز بالحبيب إلى الشيخ محمد الفاسي، اعتقاداً بل يقيناً من الأمير بأن هذا الشيخ لا يعدو أن يكون ولياً صالحاً وعالماً صوفياً من أولئك الذين سلكوا سبيل البشير المصطفى، والذين وصفهم ربهم بقوله: " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون – سورة يونس. آية ٦٢"

فبعد مقدمة القصيدة التي صور فيها حالته البائسة الكنود، بلياليه الطوال، وأيامه الداجنة الحبلى بالهجران والفراق والعذاب، لحرمانه من رؤية هذا الشيخ المبارك، لا يلبث أن يقدم الحل فتنفرج أزمته التي خال أن حلقاتها قد استحكمت فيأتيه الفرج من حيث لا يحتسب، فلم يمكث إلا قليلا حتى أتاه البشير يحمل إليه الخبر السعيد، متمثلا في دعوة شيخه له بالحضور إلى مكة المكرمة، فأية بشرى هذه، وأية فرحة تملكت الأمير وهو يتلقى هذا النبأ السعيد، فحالما وصلته، طار به جناح الشوق الذي لا يخشى له كسر، يقطع الفيافي والبراري والسهول فكل شيء يهون، ولا بد أن تتم الرحلة مهما اشتدت الصعاب وتراكمت العقبات، إنه الأمل الذي عاش الأمير يعد له الأيام والليالي فليحققه وليكن ما يكن، صحيح إن الدرب شاق والسفر طويل ومضني لكن الغاية والهدف أسمى وأجل أن تقف أمامها النوائب والمعوقات، فكل شيء يرخص في سبيل اللقاء والوصال، إلى أن وصل الشاعر إلى بطاح مكة المكرمة التي شرفها المولى وأعزها ورفع مقامها وقدرها ببيته العتيق، وكعبتها المشرفة، فتسامت بذلك مجداً وعلواً فلا يدانيها فخر ولا مجد، وأمام هذا المشهد الرهيب المهيب، يقف عبدالقادر متدبراً في آيات الله وحكمته، في أنه جعل بيته المعظم حرماً آمناً يحرم فيه الصيد مع أنه مباح ومشروع في بقية أنحاء البسيطة، مستشعراً عظمة المولى تبارك وتعالى مبدياً فرحه وحبوره، وهو يكرر لفظ «بطاح» وكأننا به يريد أن يصور أو ينقل لنا ذاك الجو الروحي الذي يمتلك النفس وهي تؤم هذه البقاع المشرفة فتزهد في حطام الدنيا وزخرفها لتلج بالروح والجسد في هذا العالم الروحاني المتشبع بالنفحات الإلهية، فلا قلق ولا خوف ولا اضطراب رحمة من رب الأنام" ولمَ لا والإنسان حين يؤم هذه البقاع المشرفة، تدقق ما بينه وبين خالقه الحجب فيغفر له ذنوبه، مصداقاً لقول رسول اله صلى الله عليه وسلم(من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)، وهذا ما عبر الشاعر عنه بقوله: من حلها حاشا أن يبقى له وزر: (٤٣٨)

إلى أن دعتني همة الشيخ من مدى

بـعـيـد: ألا فـادن فـعـنـدي لك الـذخـرُ

فـشـمَّـرت عن ذيـلـي الإطـار، وطـار بي

جـنـاح اشـتـيـاق لـيس يـخـشى لـه كـسر

ومـا بـعـدت عن ذا المحب تـهـامـة

ولـم يـثـنـه سـهل هـنـاك ولا وعـر

إلـى أن أنـخـنـا بـالـبـطـاح ركـابـنـا

وحـطت بـهـا رحـلي، وتم لـهـا الـبـشـر

بـطـاح بـهـا الـبـيت المـعـظم، قـبـلـة

فلا فـخـر إلا فـوقه، ذلك الـفـخـر

بـطـاح بـهـا الـصـيـد الحلال مـحـرم

ومن حـلـهـا حـاشـاه يـبـقى لـه وزر

ومن عادة الصوفي أن يذيب شخصيته في شخصية المرشد حتى أنه ليؤثر عن ذي النون المصري أنه قال: " طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه[٤٣٩] " إلا أن اعتزاز الأمير بنفسه دفعاه إلى أن يساوي نفسه بنفس شيخه ولم لا؟ أليس الأمير سليل الشرف النبوي، والعالم المجاهد التقي الورع فحق له أن يفخر بذلك فهو لم ينس فروسيته ونسبه وخلاله الحميدة.

وقد ورد أن المريد الذي لم يجد الشيخ الذي يتأدب به، ويأخذ عنه الطريقة عليه أن يهاجر إليه ويقيم عنده لا يبرحه حتى يؤذن له، ولكن الأمر هنا اختلف تماما لدى شاعرنا، فالشيخ هو الذي قدم لزيارة عبدالقادر نفسه، واعتبر ذلك شرفا له، كما اعتبر الأمير ابناً له بالتبني الصوفي- إن جاز لنا التعبير- بذلك منذ أن خلق الله هذا الكون، فما السر يا ترى وراء هذا؟ يجيبنا الأمير سريعا بأن هذه المنزلة وهذا الاحترام مرده إلى نسبه الكريم الطاهر الذي منَّ به الله عليه فنعم النسب وياحبذا الذخر:[٤٤٠]

أتـانـي مـربي الـعـارفـين بـنـفـسه

ولا عـجبٌ فـالـشـأن أضـحى له أمـــر

وقــال فــإني مــنــذ اعـداد حــجـــة[٤٤١]

لمنتظر لقياك يا أيها البـــدر

فــأنت بــني مــذ" ألــست بــربــكــم؟[٤٤٢]

وذا الـوقت حـقـا ضـمه الـلـوح والـسـطـر

وجــدّك قــد أعــطــاك من قــدمٍ لــنــا

ذخـيـرتـكم فـيـنـا ويـاحـبـذا الـذخـــر

على أن عبدالقادر سرعان ما يتدارك الأمر ويعود ذلك المريد الذليل التابع لشيخه، يطيعه الطاعة العمياء، فالأمير ليس مبالغا إن صرح بأنه قبل أقدام بساط هذا العارف بالله عند مثوله بين يديه بعد طول انتظار له من شيخه، على أن هذا الخضوع والانحناء والتذلل قد أتى أكله، فها هو شيخه يرمى له بالبشارة فأفضى إليه بالسر، وبذلك قضي أمراً كان مقدراً للأمير، فنال به البركة، وأصبح أهلاً لأن يعد من المتصوفة، فكأن حاله كان كنحاس لا قيمة له ثم جاء هذا الشيخ فحوله إلى ذهب خالص يتهافت الناس لامتلاكه: [٤٤٣]

فــقــبّــلت من أقــدامه وبــســاطـــه

وقــال: لك الــبــشــرى بــذا قــضـي الأمــر

وألـقى عـلى صـفري[٤٤٤] بـإكسـيـر سـره[٤٤٥]

فـقـيل له: هــذا هــو الــذهب الـتــبـــر

وما هذا التقدير والإجلال لهذا الشيخ إلا لكونه ذا شمائل وأخلاق سامية فهو حريص على هذي الخلائق رحيم بهم بر عطوف، لأنه خبير بأحوالهم ومعاناتهم فقد أعطى مطلق الحرية في الحكم والتصريف اعتقادا من الأمير بأن هذه القوى الهائلة التي منحت لشيخه، مستمدة من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وصفه رب العزة بقوله: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم

بالمؤمنين رؤوف رحيم-سورة التوبة آية ١٢٨" .

محمدٌ الفاسي، له من محمدٍ
صفيّ الأله الحال والشيم الغر[٤٤٦]
حريص على هدْي الخلائق جاهد
رحيم بهم بر خبير له القدر
كساه رسول الله ثوب خلافة
له الحكم والتصريف والنهي والأمر

وينتهي شريط العذاب والقلق حين يطأ الأمير ربوع الحجاز ، فتكتحل مقلتاه بمرأى قداستها وطهارتها ، إنها البلد التي نشأ بها شيخه ، وترعرع بين جنباتها ، يحن اليها الناس وتهفو لها أرواح الصوفي العشاق ، لأنها "رمز للحبيب الأول والأخير وهو الله"[٤٤٧] فهذه مكة أشرف وأقدس الحواضر ، لا يطاولها في مجدها شمس ولا قمر ، ولا يبلغ ذروة جلالها طير ولا نسر ، فيها البيت العتيق مهبط الوحي الأول ، وعلى أديمها نشأ الحبيب المصطفى ، وبين وديانها وشعبها ، انتشرت دعوة " لا إله إلا الله محمد رسول الله" ، ولذلك فلا عجب أن تهوي اليها أفئدة المؤمنين ليشهدوا منافع لهم ويذكروا الله في أيام معلومات ، يطوفون حول البيت العتيق ، و ذلك لعمري منتهى الأمل عند كل مسلم على أن للأمير والقوم كعبة أخرى لا طواف إفاضة لها ولا قدوم ولا ركن فيهاولا حجر ، تهوي لها قلوب الصوفية ، ينهلون من منابيع الحب الإلهي ، والعشق الرباني فشتان إذن ما بين الحجيجين ، فالأول قد أدى مناسك ربه ، فله أجر ما أحرم وطاف وسعى ووقف ، أماالثاني فقد نال الملك والسلطان والعز في رحاب القدس الأعلى والنور الأسنى :

فمكة ذي خير البلاد فديتها
فما طاولتها الشمس يوما ولا النسر
بها كعبتان: كعبة طاف حولها
حجيج الملا، بل ذاك عندهم الظفر

وكعبة حجاج الجناب الذي سما

وجل فلا ركن لديه ولا حجر

وشتان مابين الحجيجين عندنا

فهذا له ملك وهذا له أجر

ويتعجب عبدالقادر أشد العجب من أولئك الذين كان مقصدهم البيت ومبتغاهم الكعبة ويميلون عن الجانب، وهي الحضرة المباركة تنبع وتشع أسمى الخلال والفضائل الربانية، ففيها تلقى الجود والكرم والخير العميم بدون حساب، ولا تسل عما أعد فيها من رياض زاهرات بمعارف وعلوم ربانية، لمن كان له الحظ في الارتشاف من ينابيعها، والتزود منها، فياحبذا الفضل، فطوبى لمن كان نصيبه هذا الخير الذي لا عين رأته ولا أذن سمعت به ولا خطر على بال بشر: [٤٤٨]

عجبت لباغي السير للجانب الذي

نقدس مما لا يجدُّ له السير

ويلقي إليه نفسه بفنائه

بصدق تساوى عنده السر والجهر

فيلقى مناخ الجود والفضل واسعاً

ويلقى فراتاً طاب نهلاً فما القطر

ويلقى رياضاً أزهرت بمعارف

فياحبذا المرأى وياحبذا الزهر

ثم يعرض الأميرللحديث عن الخمر التي كثيرا ما تغنى بها الصوفيون وسكروا بها، فهي ليست خمر دنيا وما فيها من إثم وفواحش كما وصفها رب العزة، بل إن الخمر المقصودة هنا"الخمر الإلهي الذي لم تعتصره يد البشر وليس بسكر حقيقة، لا يقصدون الخمر الذي يذهب العقل ويطير الفؤاد ويذهل الإنسان، إنما سكر هؤلاء العشاق من وقدة الحب، وحرقة الجوى، ولذة الوصال والقرب من الله العلي القهار[٤٤٩] " ولذلك نرى

شاعرنا الصوفي يفيض في وصف أثرها الحسى والروحي يقول الأمير: [٤٥٠]

ويــشــرب كــأســا صــرفــة من مــدامــة

فـيـا حـبـذا الـكـأس ويـا حـبـذا خـمـر

فلا غــول فــيـــهــا،لا،ولاعـــنـــهــا نـــزفــة

ولـــيس لـــهــا بـــرد ولـــيس لـــهــا حـــر

مـعـتـقـة من قـبل كـسـرى مـصـونـة

ومــا ضـمــهــا دن ولا نـــالــهــا عــصــر

ويشفق الأمير تارة، ويتحسر أخرى على أولئك الذين حرموا شربها، حتى الملوك والعلماء لو هبت عليهم ريحها ورأوا ختم إنائها لزهدوافيما هم فيه لأنها عين الصواب والحق، فهي العلم كل العلم: [٤٥١] .

فـلـو نـظـر الأملاك خـتم إنـائـهـا

تـخـلـوا عن الأملاك طـوعـا ولا قـهـر

ولــو شــمت الأعلام في الــدرس ريــحــهــا

لما طـاش عن صـوب الـصـواب لـهـا فـكـر

فـيـا بـعـدهم عـنـهـا، ويـابـئس مـارضـوا

فــقــد صــدهم قــصــد وســيِّــرهــم وزر

ويشرف في خاطر الأمير ذلك التوارث العرفاني دون انقطاع عن طلب العلم، فهذه الخمر عنده هي العلم ومركزه، وكل ما حولها يدور في فلكها، لذلك فلا يقربها إلا من خبرها وعرف قيمتها وهو-الصوفي- أما غيره فلا يفقهون من أمرها شيئا، قد فاتهم الربح، وحقت عليهم الخسارة في الدنيا حين صرفوا عنها ولم يشربوها: [٤٥٢]

هـي الــعــلـم، كل الــعــلـم والمــركــز الــذي

بـه كل عـــلـــم حـــيـــن لـــــه دور

فلا عــالـم إلا خــبــيــر بــشُــربــهــا

ولا جـاهل إلا جــهـول بــهـا، غـــــــــر

ولا غـــبن في الــدنـــيــا ولا من رزيـــئـــة

ســوى رجل عن نــيـلــهـا حــظه نـــــــزر

ولا خـــســر في الــدنــيــاولا هــو خــاســر

ســوى واله، والــكف، من كــأســهـا صـفـر

ويبلغ الشاعر درجة كبيرة من التقليد حين يأتى بأبيات أبى نواس في وصفه للخمر العادية، ويضمنها قصيدته. على أن الأمير هنا يلح فيها على فكرة التصريح بالحب الإلهي، فالاختلاف بينهما هنا في التأويل فقط، وليس عبدالقادر بمبتدع في هذا، فقد سبقه إلى ذلك كثير من الشعراء المتصوفة" فالخمريات منبع فوار من منابع الأدب الصوفي، يكفي أن نورد لأمير الخمر أبي نواس قصيدة لا تختلف عن خمريات الصوفية المتأخرين إلا بالتأويل فقط، فقد سار شعراء الصوفية في الخمريات على آثاره وغرفوا من عبقريته وعبقرية أقرانه[٤٥٣]"، يقول الأمير: [٤٥٤]

إذا زمــزم الحــادي بـذكـر صـفـاتــهــــا

وصــرح مــا كــنًّى ونــادى، نــأى الــصـبـر

وقـال: اسـقـنـي خـمـراً وقل لي هـي الخـمـر

ولا تـــســقـــنـي ســراً، إذا أمــكـن الجـــهـــر

وصـــرِّحْ بمن تـــهـــوى ودعْــني من الــكِـنى

فلا خـــيـــر في الـــلـــذات من دونـــهـا ســتـر

ثم يخلص للحديث عن تأثير هذه الخمر فى شاربيها من المتصوفة فيصور لنا حالاتهم في لوحات معبرة، فقد هامت عقولهم، ودب في نفوسهم الانشراح والانبساط فتراهم سكارى وماهم بسكارى بنشوة هذه الخمر لا يدرون بشيء مما جرى حولهم غمرتهم سعادة طاغية، فأفقدتهم الإحساس بالواقع المادي، أعرضوا عن زينة الدنيا فتسامت أنفسهم، وحلقت أرواحهم في الآفاق، يسبحون في ملكوت القدس الأعلى،

هم ملوك الأرض وسادة الأنام، بهم الرجاء وعليهم الأمل، فقدوا الشعور بعالمهم الأرضي فهم حيارى، لا يعرفون لهم سبيلا، ليس لهم ذكر ولا فكر، فكل ما هناك أرواح شفافة هائمة في عالم غريب لا يدركه إلا من عب واغترف من هذا النبع: (٤٥٥)

ترى سائقيها كيف هامت عقولهم
ونازلهم بَسْطٌ وخامرهم سكر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم
وشمس الضحى من تحت أقدامهم عفر
وقالوا: فمن يُرجَى من الكون غيرنا
فنحن ملوك الأرض لا البيض ولا الحمر
تميد بهم كأسٌ بها قد تولهوا
فليس لهم عُرْفٌ وليس لهم نكر
حيارى فلا يدرون أين توجهوا
فليس لهم ذكر، وليس لهم فكر

ولهؤلاء الندمان السكارى موسيقاهم الخاصة فهم لا يطربون لغيرها يرون جمال اللحن وحلاوته في أصوات آيات الله فى كونه، فيطربون إذا ومض البرق، ويرقصون إذا قصف الرعد، يهب عليهم طيب النسيم فيز يدفي سكرهم ونشوتهم، حتى لكأنهم مسحورون، وما بهم إلا سحر الطبيعة وجمالها، ولرهافة إحساسهم وشعورهم، فهم يتأثرون لنشيج وحزن أضعف مخلوقات الله فيبكيهم هديل الحمام في الدجى، يسكبون دموع الرحمة والخوف والخشية، فيختلط هذا البكاء بذاك الطرب في النفس الصوفية، فتذوب له أكبادهم، وتقشعر منه جلودهم مهما بلغت القوة ورباطة الجأش. وعلى الرغم من قوة الصوفي وشدة احتماله، إلا أنه يضعف أمام ظباء وغزلان"رامة" حين تتبدى له بقاماتها الهيفاء، وعيونها الجميلة الأخاذة، فتسلب الأفئدة وتأسر الألباب، فلا ترى إلا عشاقاً يهيمون حباً ويذوبون شوقاً للقاء: (٤٥٦)

فيطربهم برق تألق بالحمى
ويرقصهم رعد بسلع له أزر

ويسكرهم طيب النسيم إذا سرى

تظن بهم سحرا ولي بهمُ سحر

وتبكيهم وِرْق الحمائم في الدجى

إذا ما بكت من ليس يدري لها وكر

بحزن وتلحين تجاوبتا بما

تذوب له الأكباد والجلمد الصخر

وتسبيهم غزلان رامة، إن بدت

وأحداقها بيض وقاماتها سمر

ويعرج بنا عبدالقادر للحديث عن معاناته وماقاساه في سبيل الحصول على هذه الخمر، التي أطنب في وصفها وذكر محاسنها، فقد ضحى بكل غال ونفيس من أجل غايته، فهانت الدنيا في عينيه، هجر الأهل والأحباب والغيد الحسان، وصارع العوادي والعدا، فلم تثنه الطبيعة بجبالها، وبحارها، وصحاريها عن مواصلة المشوار وبلوغ ماتاقت إليه، فلا أحد كائنا من كان ومهما بلغت محبته ودرجته عند عبدالقادر، يقدر على أن يرده عن قصده أليس هذا النوع من الحب والتضحية منتهى الفروسية الحقة: (٤٥٧)

وفي شمّها - حقا - بذلنا نفوسنا

فهان علينا كل شيء له قدْر

وملْنا عن الأوطان والأهل جملة

فلا قاصرات الطرف تثني ولا القصْر

ولا عن أصيحاب الذوائب من غدت

ملاعبهم مني: الترائب والنحر

هجرنا لها الأحباب والصحب كلهم

فما عاقنا زيد ولا راقنا بكر

ولا ردنا عنها العوداي ولا العدا

ولا هالنا قفر ولا راعنا بحر

وفى سبيل تحقيق غايته الأسمى، يستبدل لباس العز والمجد، بلباس الذل والهوان عن طيب نفسه، بل إنه يحبذ هذا الأمر-على الرغم من مرارته - لأن المولى تفضل عليه بهذا فأكرمه، ووفقه فحقق مبتغاه، فوجب الحمد والشكر لصاحبه:[٤٥٨]

وفــيــهـــا حلالي الــذل من بـــعــد عــزة
فــيـــاحـــبـــذا هـــذا ولـــو بـــدءه مـــر
وذلك من فـــــضل الإلـه ومـــــنَّـــــة
عـلي، فـمـا لـلـفـضل عـدٌّ ولا حـصـر
وقـد أنـعم الـوهـاب فـضلاً بـشـربـهـا
فـــلـــله حـــمـــد دائم وله الـــشـــكـــر

ومادام قد بلغ ماتاقت نفسه إليه، فهو بنعمة ربه يحدث، لأن ما وصل اليه وناله يعجز الغير عن معرفة وادراك قيمته، حتى ولوكانوا ملوكا، فلا يسعون إليه ولا يبذلون الأنفس في سبيله، لأنهم انساقوا وراء شهواتهم، وزينت لهم الحياة الدنيا فباؤوا بخسران مبين، فكل ما عندهم وما يملكون، يتنازل عنه الصوفي مقابل رشفة من هذه الخمر، يذهب شاربها بالفوز والفلاح والخير، ويعود المحروم منها بالحسرة والندم:[٤٥٩]

فـقل لمـلـوك الارض أنـتم وشـأنـكم
فقسمتكم ضيزى[٤٦٠]، وقسمتنا كثر
خـذ الـدنـيا والأخـرى أبـاغـيـهـما مـعـا
وهـات لـنـا كـأسـا، فـهـذا لـنـا وفـر

ويهنيء الشاعر نفسه والصوفية، في ختام قصيدته بهذا الفوز العظيم، والتجارة الرابحة، فقد غنموا بعد فقر، وأمنوا بعد خوف فهم لا يحزنون، نورهم يسعى بين أيديهم ومن خلفهم، بلغوا أعلى الرتب فهم في هدى من ربهم، أماغيرهم فحدث عنهم ولا حرج، تراهم في ظلمات يعمهون، صم، بكم، عمي، لا يفقهون من أمر

دنياهم إلا مابدا منها، على أعينهم غشاوة، انساقوا وراء شهوات الحياة وبريقها المزيف، فهم كالأنعام أو أضل قليلا، انطبق عليه قول المولى تبارك وتعالى: "ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون – سورة الأعراف، آية١٧٩":

هنيئا لنا يامعشر الصحب، أننا
لنا حصن أمنٍ ليس يطرقه ذعر[٤٦١]
فنحن بضوء الشمس والغير فى دجى
وأعينهم عمي وآذانهم وقر
ولا غرو في هذا، وقد قال ربنا
تراهم عيونٌ ينظرون ولا بَصْر

وكما نظم الأمير في الخمر الإلهية، فقد تطرق لموضوع الغزل أو الحب الإلهي سالكا سبل الأولين من القوم الذين تناولوا هذا الغزل والحنين والوجد والبقاء والفناء غير أن شعرهم" لم يأخذ من الشعر التقليدي سوى القوالب الموسيقية بينما تميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزي الذي يوحي بالفكرة ولا يصرح بها[٤٦٢] " وهو الأساس الذي يرتكز عليه الأدب الصوفي في كل فنونه "فهم يعبرون عن المعنى بألفاظ تدل في ظاهرها على شيء قريب يدركه القارئ العادي، وتحمل في باطنها معنى آخر بعيد، لا يصل اليه إلا الدارس المتعمق أو الإنسان المتخصص بفهم بواطن النصوص والصوفي الحق[٤٦٣] " ولذلك فكثيرا ما يختلط الأمر على القارئ إلى حد أنه" إذا لم يقف بطريقة ما على غرض الشاعر، فإنه لا يستطيع التمييز بين قصيدتين إحداهما يتغنى صاحبها بالحب الإنساني، والأخرى بالحب الإلهي"[٤٦٤] .

وعلى هذا فالصوفي ليس فقيهاً يكتب الشعر، بل إنه فنان يمتلك زمام الحس الأدبي فيعبر عن أشواقه، وما يختلج في نفسه، في صور من القول، فنية راقية.

والمتصفح للشعر الصوفي الذي يتناول الغزل الإلهى" يشعر أنه أمام عاطفة حب عنيفة، وأمام إنسان أذابه الوجد، وأضناه الحنين، ويتمه الجوى، وحرك فؤاده الشوق إلى الحبيب . . قوام هذا الحب إخلاص من العاشق، وصدق في عاطفته وإيمان بحبه وعزم على البقاء معه وفيه، وذوبان من أجله، وتلذذ بالعذاب الذي يضنيه، والحرقة التي تكويه، والدموع التي ترويه، والسهام التي ترديه، حب يتمرد على كل غزل أو نصح نصيح(٤٦٥)".

والشعراء الصوفية في هذا الغزل" يرمون إلى معاني متدفقة بدوافع الحب والغرام الإلهي، إذ إن الأوصاف الحسية، لا تساعد ولا تناسب الموصوف ولا حال الواصف فالواصف أسكره الوجد، وغيبه الغرام، وقتله الحب، فيصف الخمر، ويقصد الخمر الإلهي، ويتيم بلبنى وسعدى، ويقصد الذات العلية(٤٦٦)"

ولن نذهب بعيدا فهاهو الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي يعطينا القاعدة العامة لهذا الغموض والرمز حين يقول: " وجعلت في ذلك بلسان الغزل والتشبيب، لتعشق النفس لهذه العبارات، فتتوافر الدواعي على الإصغاء اليها وهو لسان كل أديب ظريف، وقد نبهت على المقصد في ذلك بأبيات وهي(٤٦٧):

كل مـــا أذكـــره مـن طـــلـــل
أو ربـــوع أو مـــقـــام كل مـــا
وكـــذا إن قـــلـتُ هـي، أو قـــلت يـــا
وإلا إن جـــاء فـــيه أو مـــا
وكـــذا إن قـــلت هي أو قـــلت هـــو
أوهـــمـــو أو هن جـــمـــيـعـــا أو هـــمـــا

إلى أن يقول:

كل مـــا أذكـــره ممـــا جـــرى
ذكـــره او مـــثـــلـه أن تـــفـــهـــمـــا

فـــاصـــرف الخـــاطـــر عن ظـــاهـــرهـــــا
واطـــلـب الــبـــاطن حـــتى تـــعـــلـــمــــــا

وعلى هذا الدرب سار عبدالقادر، فنراه في قصيدته التي بين أيدينا وكأنه يتغزل بمحبوب مشخص أمامه، يبثه أشواقه ويصف له حاله، وما يقايسه من ألم البعاد والهجر، وقبل أن ندخل في دراسة هذا القصيدة لا بد ان نشير إلى ملاحظة هامة وهي أن قصيدة عبدالقادر تعد نسخة لقصيدة السهروردي[٤٦٨] التي يقول في مطلعها[٤٦٩]:

أبـــــــدا تحـن إلــــــــيـــــــــكـــــم الأرواح
ووصــــالــــكم ريــــحــــانــــهــــا والــــراح
وقــــلــــوب أهل ودادكم تــــشــــتــــاقــــكم
وإلـى لــــذيــــذ لــــقــــائــــكم تــــرتــــــاح

فحرف الروي هونفسه في كلتا القصيدتين، والمعاني متطابقة" حتى ليظن القارئ أن القصيدتين من نظم شاعر واحد"[٤٧٠].

نعود إلى قصيدة شاعرنا التي يستهلها بالتعبير عن فرحته العارمة، ولهفته الكبرى برؤية حبيبه الغالي، فقد تحقق له الوصال بعد معاناة وعذاب شديدين، فحق له أن يحتفل بهذا اليوم االموعود المنشود، الذي يعتبر عيدا له، ففيه وصل بروحه وسعادته وهنائه، واكتحلت عيناه بطلعة الحبيب ذو الوجه الحسن الصبوح، فدبت في نفسه نشوة السكر وعمت الروح والجسد، فهو فرح جذلان، لا يرى من هذا العالم شيئا إلا وتجسدت صورة حبيبه فيه، فقد ملك هذا الحب قلبه وسيطر على كيانه، فلم يرق للأمير غيره. وقد تعمد الشاعر استعمال إسم الموصول المذكر بدلا المؤنث ليظهر أنه يتغزل غزلا صوفيا على الرغم من أن بعض التعابير التي تشير إلى جمال مطلَق. يقول الأمير:[٤٧١]

أوقــــات وصــــلــــكم عــــيــــد وأفــــراح
يــــامن هم الــــروح لي والــــروح والــــراحُ
دبت حــــمــــيــــاهمُ في كل جــــوهــــرة

عـــقل ونـــفس وأعـــضـــــاء وأرواح

فـــمـــا نـــظـــرت إلى شيء يـــشـــبّـــهه

فـمـا يـروق لـقـلـبي بـعـد مـــــــلاّح

وعبدالقادر لا يلام في هذا الهوى الذي ملك عليه روحه ومهجته فلن ينثني عنه ولو أدى به الأمر إلى أن يهجر الناس جميعا ، غرق في هواه حتى أخمص قدميه ، جرفته أمواج هذا الحب ، فليس له من عاصم ، ملكه جمال الحبيب فأغنت طلعته عن ضوء الشمس البهيجة ، حتى الجماد لو رأى هذا الحسن لتفجر نطقا وتسبيحا له ، وإن الكواكب السابحة في الفلك لو نظرت جمال حبيب شاعرنا لتوقفت عن الدوران ، لتشهد حسنه وبهاءه ، فلا لوم عليه إذن في هذا العشق والهيام مادام الأمر قد وصل إلى هذا الحد ، ونلاحظ هنا أن الأمير عمد إلى قواميس التصوف وعبارات الصوفية مثل الغرق ، والبحر ، والملاح ، ليصف لنا هذا الحب تقليدا لنهج القدماء بل نراه يستخدم التشخيص لا " عن ضعف في التأليف أو جهل باللغة وقواعدها ، بل لأن الصوفية يرون في الموجودات صفة الله تقوم بها ويعتقدون أنها تتحدث ، وتعقل ، وتفهم وتحسن وتشعر كالإنسان تماما ، لذلك يخاطبونها بصيغة العاقل[٤٧٢] " ، يقول الأمير[٤٧٣] :

غـــرقت في حـــبـــهم دهـــر ألم تـــرنـــي

في بـــحـــرهم سـفن -حـقـا -ومـــــلاح؟

مـــاذا عـــلى من رأى يـــومـــا جـــمـــالـــهـــم

أنْ لـــيس تـــبـــدو له شـــمس وإصـــبـــــاح

جـبـال مـكـة لـو شـامـت مـحـاسـنـهـــم

حـنـوا ومن شـوقـهم نـاحـوا وقـد صـاحـوا

شـــهب الـــدراري مـــدى الأيـــام ســابــحــة

لـــو أبـــصـــرَتْـــهم لمـــا جـــاءوا ولا راحـــــوا

ويتعجب الأمير أشد العجب من صبر المحبين واحتمالهم وحرصهم على مداراة ما

في أنفسهم من أسرار المحبة الإلهية التي إئتمنوا عليها، فحاول أن يحذو حذوهم ويكتم ما يعتلج في نفسه من ضروب الهوى، ولكن أنى له ذلك فقد خانه الصبر وافتضح أمره، فظهرت علامات العشق عليه فانكشف السر، وماذاك إلا لأن الهوى فضاح: [٤٧٤]

لــو كــنت أعــجب من شيء لأعــجــبــني

صــبــر المحــبــين مــانــاحــوا ولا بــاحــوا

أريـد كـتـم الـهـوى حـيـنـاً فـيـمـنـعـنــي

تــهــتّــكي كــيف لا؟ والحب فــضّـــاح

وما دام الأمر قد انكشف، فإن عبدالقادر قد عزم على مواصلة مشوار حبه فلن يميل عنه، مصرا على المضي في هذا الدرب حتى ولو تعرض للموت والهلاك وتلك- فيما نعتقد -خصيصه أخرى من خصائص فروسية الأمير التي عاشها وتغزل بها في محبوبته أثناء جهاده الأصغر يستحضرها الآن في حبه الإلهي وغزله الصوفي[٤٧٥]:

لاشيء يــثــني عــنــاني عن مــحــبــتــهم

ولا الـــصـــوارم في صــــدري وأرمـــاح

ثم يلتفت شاعرنا إلى ذلك العذول الذي يلومه في حبه الذي سحر به، فيؤكد له صدق قوله فيه بأنه قد سحر في هذا الهوى، لكن الشيء الذي يجهله هذا العذول أو اللائم هو أن هذا السحر أمر فيه خير الشاعر وفلاحه وسعادته وصلاحه، وسيظل دوما محل ذكر ومدح بين العشاق بهذا الأمر، ولم يتحامل الأمير على لائمه، لأنه جاهل ببواطن الأمور، فيشفق عليه ويترفق في تأنيبه، ملتمسا له العذر في هذا العشق والهوى الذي يضن به عبدالقادر على الناس جميعا إلا حبيبه لافتا نظر هذا العاذل أن كثرة اللوم إغراء وتشجيع واستمرار في هذا الحب إلى النهاية: [٤٧٦]

قــال الــعــواذل فــيك الــســحــر قــلت لــهم

نـــعـم ولي صــــحـــــة فـــيه وإصلاح

لا زال يـــربـــو مع الأنـــات بي أبـــــدا
فــــلي به بــــين أهل الحب أمــــداح
يـاعــاذلي كن عــذيــلي في مــحــبــتــهــم
فــإن قــلــبي بمــا يــهــواه، مــشــحــاح
إن الملامَ لإغــــراءٌ وتـــــقــــويـــــــة
مــهلا فــإنك مــكــثــار ومــلــحـــــاح

وترى شاعرنا في هواه عزوفا عن مخالطة الناس، فهو وحيد لا يشاركه الندمان سكره وشرابه، إلا واحدا اصطفاه الأمير واختاره، لأنه يحدثه عن حبيبه ويحمل اليه أخباره، فلم يعد لعبدالقادر أي شغل، إلا تنسم هذه الأخبار، ويعتبر هذا العمل نعم التجارة الرابحة والفوز العظيم، ففيه غنم الشاعر، بينما ترى غيره يصارعون الحياة من أجل متاعها وبهجتها الزائلة، كسب السمو وارتقى إلى جنان الخلد، حيث أمست نفسه راضية مرضية بما تنعم به من خيرات لا مقطوعة ولا ممنوعة.

فــمــا نــديمي بــحـــان الأنس غــيــر فــتى
لـه لأخــــبـــارهـم نـــشـــر وإيـــضـــاح
لا كـــــسْب لي ولا شــــغل ولا عــــمـــل
فـــفي حــــديــــثـــهم تجْـــرٌ وأربـــــاح
مـا جـنــة الخــلــد إلا في مــجـالـــسـهـــم
فـــيـــــهـــا ثـــمــــار وأطـــيــــار وأرواح

وتبلغ درجة إخلاص الشاعر لحبيبه مرتبة عظيمة، فقد أحبه حبا لا يشاركه فيه أحد ولو أصبح تحت الثرى باليا، فذكره كاف لإذكاء جمرات الهوى، فكلما تذكر الشاعر حبيبه أو خطر له على بال هبت الذكريات والأشواق من مكامنها فاشتعلت نار الحب في فؤاده، فهو حب دائم أزلي لا تمحيه الأيام والسنون، ولا تفتر حرارته رغم البعد والفراق: [٤٧٧]

هــوى المحب لــذى المحــبــوب حــيث ثــوى

وكـــيـــفـــمـــا راح هـــبت مـــنه أرواح

ويخلو شاعرنا بحبيبه بعد عذاب ومعاناة، وقد أديرت أباريق الخمر وأقداحها فيعب منها ما شاء ويود لوأن الجلسة تمتد وتطول فلا الليل يدبر، ولا الصبح يسفر، لينعم طويلا بالخلوة في هذه الحضرة الربانية، ذلك أن أشد ما يروع العاشق الولهان، هو دنو واقتراب موعد فراق من يهوى، وعلى الرغم من أن الليل بظلامه وهمومه مصدر شكوى المحبين، إلا أن الصورة انعكست لدى شاعرنا هذه المرة فأصبح ليله نبع فرح وسرور وإشراق وبهاء، يرجو لو أن أيامه كلها ليالي لينعم دوما بوصال الحبيب ولقائه، فيمسي دهره نور وأفراح: (٤٧٨)

أود طــول الــلــيــالي إن خــلــوت بــهـــم

وقـــد أديـــرت أبـــاريق وأقـــــــداح

يـــروعـــني الـــصـــبح إن لاحت طلا ئـــعه

يـــالـــيـــته لم يـــكن ضـــوء وإصـــبـــاح

لـيـلي بـدا مـشـرقـا من حـسن طـلـعـتـهـم

وكل ذا الـــــدهـــــر، أنـــــوار، وأفـــــراح

وإذا كان عبدالقادر قد تعذب وعانى ويلات هذا الحب، فعزاؤه أنه قد بلغ المرام بالوصال، فاطمأنت نفسه وسكن فؤاده، وقرت عيناه فاكتحلت برؤية طلعة الحبيب البهية، ولكنه-وهذا حال العشاق دوما- لم يقنع فيطلب المزيد، لأنه يرجو إلهاً وسعت رحمته كل شيء، يجيب دعوة الملهوف، وينعم عليه من خزائن مالها قفل ولا نفاذ: (٤٧٩)

أســكنْ فــؤادي وطب نـفـســاً وقــرَّ، لــقـد

بـــلـــغتَ مـــارمتَ قـــرَّ الـــنـــاس أوســاحـــوا

واطـــلب إلـــهك مـــا تـــرجـــو فـــإن لـــــه

وعلى نفس المنوال يمضي في حبه الإلهي في قصيدته"أنا الحب والمحبوب والحب جملة[٤٨٠] " حيث يصور فيها ما يعترض سالك هذا السبيل من آلام وأشواق، وما يكابده من عذاب وحرقة وتطلع للحبيب، والرجاء في الوصال باعتباره" عنوان التصوف وهو البذرة الأم التي نمت شجرته، وتهدلت أغصانه، وانبثق زهره، وأينع ثمره، وقد جعل الصوفية من هذا الحب فلسفة تحيط بكل شيء في الكون، وتمتد أجنحتها إلى كل أفق في الحياة، فلسفة تمسح من وجه الكون الكبير قناعه المادي، ليتحول الكون جميعه إلى أرواح حساسة عابدة، مسبحة لأنها بالحب حلقت، وبالحب قامت، وبالحب تسبح وتهدف ثم تمشي إلى الأخلاق الإنسانية فتنفخ فيها من روح الله، وتسلو بها إلى هداه ورضاه[٤٨١] " فلا جرم إذن أن يسعى الصوفي إلى نيل هذه الغاية مهما كلفه الأمر واعترضت سبيله المحن والصعاب لأنه يضع نصب عينيه قوله تعالى : " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم – سورة آل عمران ،آية ٣١" وهو أسمى ما يبتغيه العبد من مولاه فاقتضت بذلك طاعة الأوامر واجتناب النواهي .

وما دام حب الله قد ملأ فؤاد شاعرنا، وذاق حلاوته وطعمه، فإنه لا يستطيع أن يسلو هذه المحبة، فقد ملك فؤاده الهوى وأسر قلبه، فكلما رام البعاد اشتعلت نيران الشوق والحنين في أحشائه فازداد هياما، ولن يطفئ نار لوعته ويسكن ذاك الحر أي شيء، حتى ولو جيء بماء البحر فإنه لا يجدي نفعا فالعاشق دوما ظمآن مهما ارتوى يطلب المزيد من الحب واللقاء والوصال، لأنه به يحيا وفيه يموت، فكلما هبت ريح الحبيب واشتم نسائمه، ازدادت نيران القلب تأججا ودعوة إلى لقاء جديد : [٤٨٢]

عن الحب مالي كلما رمت سلوانا

أرى حشو أحشائي من الشوق نيرانا

لواعج[٤٨٣] لو أن البحار جميعها

صببن لكان الحر أضعاف ماكانا

تـئج[٤٨٤] إذا مـا نجْـد هب نـسـيـمـهـــا
وتذكوا بـأرواح[٤٨٥] تناوح[٤٨٦] ألـوانـــــا
فــلـــو أن مـــاء الأرض طـــرًا شـــربـــتــه
لمــا نــالــني ريٌّ ولا زلت ضــمــآنـــــا

وكلما تدانت المرابع بينه وبين المحبوب بغية السلوى، زاده القرب شجونا وحزنا، فأمره غريب محير: فلا البعد كان له شافيا، ولا القرب كان له ناسيا، كتب عليه العذاب والحرمان، ففي بعده شوق تقطعت له مهجته، وفي قربه زيادة لهذا العذاب، يتطلع للحبيب ويتلهف للقائه، ينادى فؤاده المكلوم بآلام البعد واللقاء، فقد عز الدواء واستفحل الداء، وتملكه الأسى، فامتلأت عيناه دمعا، ولم يبق أمامه إلا الصبر مادام التشكي لم يجد نفعا: [٤٨٧]

فـإن قـلت يـومـا قـد تـدانت ديـارنـــا
لأسـلـو عـنـهم زادني الـقـرب أشـجـانـا
فـمـا الـقـرب لي شـاف ولا الـبـعـد نـافع
وفي قربنـا عشق دعـانيَ هـيـمـانـــا[٤٨٨]
وفي بـعـدنـا شـوق يـقـطّع مـهـجـتـــي
كـتـقـطـيـع بـيت الـشـعـر لـلـنظم مـيـزانـــا
فــيــزداد شــوقي كــلــمــا زدت قــربـــة
ويــزداد وجــدي كــلــمــا زدت عــرفـانـــا
ويـــاكَـــبِـــدي ذوبي اسىً وتحـــرّقـــــاً
ويـا نـاظـري لازلت بـالـدمع غـرقـانـا

تاه الأمير وهام في خضم هذا الحبيب حتى ضاعت نفسه، فأصبح يسائل عنها كل غاد ورائح، يتنسم أخبارها، يبحث عن ذاته الضائعة في هذا العالم الروحي الذي حلقت فيه نفسه بأجنحة الشوق، فلم تعد ترى منه إلا صورة المحبوب، ولا تبغي من

الدنيا إلا الوصال، ومن أجل ذلك يعمد إلى مقايضة من يجمعه بهذا المحبوب بنفسه، فيبيع له هذا الجسد الفاني يستعبده أبد الدهر، أما تلك الروح فلا سلطان عليها لغير الحبيب ولا جرم أنها تجارة رابحة ومكسب ثمين في نظر الشاعر: (٤٨٩)

أسائل عن نفسي فإني ضللتها

وكان جنوني مثل ما قيل أفنانا

أسائل من لا قيت عنيَ والهاً

ولا أتحاشاهم رجالا وركبانا

أقول لهم من ذا الذي هو جامعي

ويأخذني عبداً مدى الدهر حلوانا

ويبلغ به الحنين والشوق إلى الأراضي المقدسة الطاهرة أين انبثقت الرسالةوظهر النور والحق مقتفيا آثار القوم في ذكرهم لهذه البقاع الشريفة التي تدل في ظاهرها على شيء يدركه القارئ، ولكنها تحمل في باطنها معاني أخرى لا يفقهها إلا الصوفي الذي ارتبطت روحه بهذه الأماكن، فلا يعرف له موطنا غيرها، ففيها نشأ وبين وديانها وفيافيها اشتد عوده وترعرع، يربطه الحنين دوما إليها، متى بان عنها فلا غرو أن يذكرها الأمير وغيره من الصوفية متى اشتد بهم الحنين والشوق، يلثمون أركانها وأحجارها ويتمرغون في تربتها لا حباً فيها" وإنما هي رمز حب صادق، وهوى مبرح، وعاطفة جياشة صادقة، إنها رمز للحبيب الأول والأخير وهوالله، وإن العاشق الصادق لا يلثم هذا الجدار أو ذلك، لا للذاتهما، بل حبا بمن سكن فيها، كذلك يفعل الصوفيون". (٤٩٠) ويعجب الشاعر في نهاية قصيدته من هذا الحب والهيام فالمتعارف عليه أن الإنسان يحب غيره، لكن الأمر هنا اختلف بالنسبة لشاعرنا، فما محبوبه إلا نفسه، لم يعشق سواها، فهو الحُب والمحبوب والحب، وما العاشق والمعشوق سواه، وتلك جوهر نظرية الوجود التي آمن بها عبدالقادر -بكل تحفظ-: (٤٩١)

ومن عجب ماهمتُ إلا بمهجتي

ولا عـشـقتْ نـفـسيَ سـواهـا، ومـاكـانـا

أنـا الحب والمحـبـوب والحب جـمـلـة

أنـا الـعـاشق المـعـشـوق سـرا وإعلانـا

وقد إتخذ الصوفية من بعض الآيات القرآنية دعامة يقيمون عليها مذهبهم في هذه النظرية كقوله تعالى" الله نور السموات والأرض- سورة النور آية ٣٥" وقوله تعالى" فأينما تولوا فثم وجه الله –سورة البقرة الآية ١١٥ " ولعل الحلاج كان أول من نادى بهذه النظرية قبل ابن عربي، إلا أنها نسبت إلى هذا الأخير، فأوفاها شرحاً في" فتوحاته"و" فصوصه" ومؤداها "أن الموجود كله حقيقة واحدة، تمثل لحواسنا متكثرا في موجوداته الخارجية، وإن بدا لعقلنا ثنائيا يتألف من الله وعالم الأعيان، إنه حقيقة واحدة هي موجودة بذاتهاوهي العالم من حيث هي موجودة بذاتها[٤٩٢] " أي أنه يقرر أن الحياة تسوى في كل شيء، وأن العالم " يتكون من ذرات روحية تحتوى كل ذرة منها على ما لانهاية من التغيرات، وهذه التغيرات أساس بما يسميه هو الخلق الجديد، ومن ثم فليس الموت انخراطا في العدم بل هو انتقال من صور إلى أخرى دون وقوع في مذهب تناسخ الأرواح، وسريان الحياة في كل شيء مرتبط عنده بتأثير الأسماء الإلهية: [٤٩٣]

فوحدة الوجود إذن" يراد بها أن الحقيقة الوجودية واحدة، وأن الكثرة الظاهرة مظاهر وتعينات فيها، أي أن " الخلق" الظاهر هو " الحق " الباطن[٤٩٤] " أو بمعنى أدق أن الخالق والمخلوق شيء واحد في الجوهر وإن اختلفا في المظهر والصورة.

والقول بهذه الوحدة التي ترى في الإنسان أو العالم صورة لله، هي السبب الرئيس الذي تذرع به خصوم ابن عربي فهاجموه، واتهموه بالكفر والإلحاد[٤٩٥] " حتى وصل بعضهم إلى حد رميه بالكفر حينا، والزندقة أحيانا" ويخيل الينا أن أولئك الذين يسمون بالمتصوفة فريقان، فريق سلك مسلك الشريعة الصافية، وفريق جنح عن الصراط وزعم أن جنوحه لون من ألوان التصوف، ولا شك أن الفريق الثاني هو الذي

قال بالحلول، والاتحاد، وبوحدة الوجود فكفر، وكان يظهر شيئا هو التقوى، ويبطن شيئا هو الكفر، وتقويض كل شرع . . . أو أن أفراد الفريق أصيبوا بمس من الجنون، فراحوا يهذون ويخلطون في كلامهم، فيزعمون أنهم اتحدوا بالإله أو أن الإله اتحد بهم، وأنهم أصبحوا جزءا واحدا(٤٩٦) .

وممن تصدى لهذه النظرية وغيرها وانتقدها انتقادا مرا، نذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قال: " ما تضمنه كتاب فصوص الحكم وما شاكله من الكلام فإنه كفر باطنا وظاهرا، وباطنه أقبح من ظاهره، وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول، وأهل الإتحاد، وهم يسمون أنفسهم المحققين(٤٩٧) " .

أما جواد المرابط فيرى أن فكرة وحدة الوجود" نظرية فلسفية ضد الشرك بل ضد الكثرة، وهي مسألة من ناحية ثانية لا علاقة لها بالدين، وكل ما فيها أنها تدل على الوحدة في نظام العالم، وانسجام نواميسه، والحياة مهما يكن فيها ما يوحدها ويجعلها في وجود واحد، فإن فيها من الأسرار ما لايصل إليه العقل، ليجعلها كلها خاضعة لفكرة واحدة . . . وإن الإنسان أعجز من أن يجمع العالم الغامض وخفاياه المجهولة في نظرية واحدة تعتبر وحدها أنها نهائية(٤٩٨) " وهكذا أثار ابن عربي بنظريته هذه موجه قوية من الخلاف وخصومة شديدة بين العلماء والفقهاء، فتباينت الأراء بينهم معارضة ومخالفة، ومؤيدة مناصرة، لكن الواقع أن هذا الأمر لم يكن وقفا على ابن عربي ونظريته فحسب، بل ان المتصوفة جميعا" رموا بسهام النقد والطعن، واختلفت الآراء حولهم تأييداً وانكاراً، ويرجع ذلك إلى أنهم يسلكون في تقرير معتقداتهم طريقة تخالف المألوف، مثل علماء الكلام في استنادهم إلى الآثار من القرآن والسنة في تقرير المعتقدات وان اختلفوا في مدلول هذه الآثار، ولا هم كالفلاسفة الذين ينكرون كل ما عدا العقل، طريقة لتقرير معتقداتهم، وإنما طريق الوصل إلى الله، وتحصيل المعرفة عندهم هو الكشف والأشواق . . . يستعملون الذوق والروح والوجدان سبيلاً إلى معرفة الله، ولا يتقيدون بظاهر الشريعة، ويفسرون الآثار تفسيرا باطنا يخالف ما يدل عليه ظاهرها، مما جعل بينهم

وبين الفقهاء بوناً شاسعاً من الخلاف تمتلئ بأحداثها الكتب[٤٩٩] " وأياً كان الأمر والاختلاف فإنه ليس لنا فيه أي حكم ولا نملك في هذا إلا قولنا يفصل الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون فتلك مسألة تهم المشتغلين بعلم التصوف والفقه.

نعود بعد هذه الفسحة الصوفية إلى شاعرنا وقصيدته التي عنونها محقق الديوان" بوحدة الوجود[٥٠٠] " تأكيدا منه على أن الأمير كان يؤمن بهذه الفكرة في تصوفه باعتباره تلميذ ابن عربي.

فهذه الأفكار التي وردت في الأبيات قادت الشاعر ولا شك إلى متاهات خطيرة، ودروب صعبة، يحتار المرء أمامها ولا يجد تفسيرا مقنعا سوى أنه " كان يطلق الآراء والأحكام، ويلقي الكلمات بدون أن يعي أثرها وتأثيرها في السامع، ودون أن يشعر بضررها وتأويلها[٥٠١] " ولا ريب أنه قد اندفع في هذا، مقلداً تارة ومتأثراً أخرى بسابقيه من القوم، فقد اندمج في حبه لمولاه، وتسامت روحه إلى مراق وأحوال فأراد أن يعبر عن ذلك، فخانته العبارة، وتاهت به الفكرة، فوقع في المحظور، وأصبح قوله يؤول تأويلا ربما لم يعتقده الأمير البتة، حيث يقول مدافعا عن نفسه في هذا المجال " واحذر أن ترميني بحلول، واتحاد، أو امتزاج، أونحو ذلك فإني بريء من جميع ذلك، ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله، فإنني فهمت منهما ما فهمت أنت وزدت عليه[٥٠٢] " كما حذر أولئك الذين يؤولون كلامه على نحو لم يقصده بقوله: "إياكم ثم إياك أن تتوهم وتتخيل فيما أذكره في هذا الموقف تشبيها عقليا أو تمثيلا، أو حلولا، أواتحادا، أو سريانا، أو امتزاجا أو ارتساما، أو اتصالا، أو انفصالا، أو مقابلة، أو مقارنة، أوتقديما، أو تأخيرا، أو قبلية، أو بعدية، أو كيفاً، أو كماً، أو معيةّ، أو أين، أومتى، أو ترتيبا، فمن توهم شيئا من ذلك، سقط في مهواة من التلف على رأس أمه[٥٠٣] ".

ومن هنا فإن عبدالقادر كما يقول الدكتور الركيبي" لو رجع إلى قصائده لما رضي عنها ولأعاد النظر في صياغتها من جهة، ولبدل من نظرته فيها من جهة أخرى حتى

ينفي عنها هذه الخيالات المضطربة، والتهويمات المشطة، وحتى يصلح من أخطائها العروضية الكثيرة التي تقربها من النثر في لغتها وصورها[٥٠٤] " على أن هناك حقيقة هامة لا تخفى على الدارس هي أن غزل الأمير الإلهي وحلوله واتحاده لا تخرج عن كونها تقليداً بحتاً وآياتنا في ذلك حياة الأمير وسيرته التي تعرضنا إليها، فهو إنسان متدين، دافع عن الإسلام بسيفه وقلمه، وجاهد الكفار حرباً وقولاً، واعتبر التصوف والعبادة إذا لم يقرنا بالعمل مجرد لعبة، ودليله في ذلك الكتاب والسنة، حيث" يرفض في نومه، قبول ما يرفضه في صحوه وعلمه[٥٠٥] " وقد أورد له محقق الديوان هذه الأبيات في هذا المعنى، أرسلها إلى كاتبه ابن رويلة يبين له فيها التصوف الحق والعبادة الكاملة: [٥٠٦]

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخْضب خده بدموعه
فنحورنا، بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطن
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
رهج السنابك والغبار الأطيب

ومهما يكن من الأمر، فإننا نعتقد أن الشاعر-على الرغم من هذا-كان يلتمس هذه السبل باعتبارها تؤدى إلى الإيمان، والمحبة، والمعرفة، والتوحيد وإن تعددت طرقها وتباينت مناهجها في الوصول إلى الحقيقة المجردة، حقيقة معرفة العبد لخالقه، والإذعان له بالطاعة والخنوع، والإقرار له بالوحدانية والربوبية، وما نشك أن شاعرنا كان يرمي إلى غير هذا، وحجتنا في ذلك ما تركه من قصائد صوفية، كان أبعد فيها عن التكلف والتعسف في القول، فهي تعبير عن إيمان قوي وعميق بالمولى تبارك وتعالى والرضا بالقدر خيره وشره.

يقول في قصيدته "غيب[٥٠٧] " التي يتعرض فيها لمصير الإنسان وما ينتظره يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فإما فوز ورضوان، وإما خسران وغضب من الله، ففيها خنوع وتذلل لله، ورجاء في رحمته وعفوه، تمثل شخصيته الدينية التي يمكن وصفها بإيمان العوام، فيها صدق العقيدة، وبساطة التعبير عنها، وتتجلى هذه الصفة إذا وازنا بينه وبين شعراء الزهد والتزاهد من أمثال أبي العتاهية، وبينه -مرة أخرى- وبين شعراء الإسلام الحديث، فالنوع الأول يثير فينا التساؤل حول الصدق: أهو زهد أم تزاهد؟ والنوع الأخير يثير فينا تساؤلا: هل إثارة اعجابنا به نابعة من صدق عواطف الشاعر أم من قدرته على الإبداع الفني؟ ويجيء شعر عبدالقادر في موقف وسط بينهما يحمل الكثير من الصدق والأصالة: يقول الأمير[٥٠٨]:

أيا نفس إن الأمر غيبٌ فما تدري
بماذا يكون الكشف في آخر العمرِ
فإما بشير باللقاء وبالرضى
على طول عتْبٍ بالزيارة للزَّور
وإما بضد بل ولا كان ضد ذا
تعالى إلهي عن عذابي وعن ضري
وليس تَلافٍ بل ولا ردٌّ فائتٍ
هنالك لا يجدي سوى الجبر للكسر
أليس لهذا الخطب ويحك شاغل
عن الأهل والأصحاب زيد وعن عمرو
ايا سامع الشكوى ويادافع البلى
ويامنقذ الغرقى وياواسع البر
تجهت لك وجهي بأكرم شافعٍ
محمدٍ المبعوث للعبد والحر
لترسلَ لي عند الوفاة مبشراً

تلكم كانت أهم المواضيع التي تعرض لها شاعرنا في التصوف، ولا بأس ونحن نتحدث عن هذا الجانب الديني الروحي أن نعرض لمدائح الأمير النبوية ومقطوعاته التي أنشدها حبا واشتياقا لمهد النبوة وربوع الرسالة، وصاحبها، أو ما يسمى "بالحجازيات".

٢ - المدائح النبوية:

تعتبر المدائح النبوية، فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي مفعمة بالصدق والإخلاص[٥٠٩] "، وقد وجد فيها الشعراء ملجأ وملاذاً يسكنون اليه، تدفعهم إلى ذلك الحالة التي آل إليها المسلمون الأبرار يستلهمون من سيرتهم العطرة العبر، وينفسون عن أنفسهم ما يحسونه من ظلم واضطهاد، يهربون بأفكارهم من أمام هذا الواقع المرير، ويحنون إلى ذاك العهد المجيد الذي كان المسلمون فيه أسيادا أقوياء، يمنون الأنفس الجريحة بآمال الخلاص وقرب الفرج، وانبلاج الصبح الذي طال انتظاره، ولذلك يلاحظ "أن عصر ازدهار المدائح النبوية هو عصر الحروب الصليبية وغزو التتار للشرق الإسلامي، ثم حقبة انتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس، و لذلك مغزاه"[٥١٠]

والأمير عاش كثيرا من المحن وعايشها، فرأى بأم عينيه الاستعمارالبغيض يدوس أرض بلاده، فقاومه إلى أن أذن له الله بإلقاء السلاح، فانتقل سفيرا مغربيا إلى الشرق، ليرى الهيمنة والضعف فيه صورة لما تركه في المغرب، فالمسلمون منقسمون وأعداؤهم يتربصون بهم، فحز ذلك في نفسه، وعز عليه الصمت، فانبرى بقلمه يوظفه مقام السيف.

وهكذا كانت مدائح الأمير النبوية متنفسا له، وتعبيرا عن واقع مرير، تغلب عليها نظرة صوفية، كما تكشف بوضوح عن نفسيته المؤمنة بالله، المحبة المطيعة لرسوله وأهله وصحبه الكرام.

ففي مقطوعته" ياسيدي يارسول الله[٥١١] " التي اتخذت من الرسول الكريم محورا لها دعاء وتوسلا ومدحا، لأنه يمثل السند والرجاء، والحصن والمدد والذخيرة عند الاحتياج، والعدة عند الخطر، فهو الشفيع الرؤوف الرحيم: [٥١٢]

يـا سـيـدي يـا رسـول الـله يـا سـنـدي
ويـا رجـائي ويـا حـصـني ويـا مـددي
و يـا ذخـيـرة فـقـري يـا عـيـاذيَ يـا
غـوثي ويـا عـدتي لـلـخـطب والـنـكـد
يـا كـهف ذلي ويـا حـامي الـذمـار ويـا
شـفـيـعـنـا في غـد أرجـوك يـا سـنـدي

فليس للأمير شفيع غير المصطفى، لذلك يسعى دوما لرضاه بالعمل الصالح، واتباع سنته بتذلل وحب لعله ينال الحظوة فيكون مع الذين رضي الله عنهم، وذلك هو الفوز العظيم: [٥١٣]

لا عـلـم عـنـدي أرجِّـيه ولا عـمـل
أمـام نجـواي من هـدى ومن رَشَـد
أبـغـي رضـاك ولا شيءَ أقـدمـه
سـوى افـتـقـاري وذلي واصـفـرار يـدي
إن أنت راضٍ فـيـا فـخـري ويـاشـرفي
مـاذا عـلـيَّ إذا والـيت من أحـد

ويرى الشاعر أن زيارة قبر الرسول والتشرف برؤيته فوز يتوق إليه كل مؤمن مسلم، ونعمة من نعم الله الكبرى يمن بها على عباده، فلا ينالها إلا السعيد المحظوظ، ولا يحرم منها إلا الشقي التعيس، ولذلك فهو دائم التساؤل عن هذا الموعد المبارك الذي ستكتحل فيه عيناه برؤية الحبيب المصطفى، والوقوف بين أيديه في رحاب روضته المشرفة، فينقلب نحسه سعدا، وشقاؤه سعادة، فكتب معبرا عن ذلك إلى صاحبه ابن

رويلة وهو لا يزال أسيرا بأمبواز، هذه المقطوعة: (٥١٤)

أُخيَّ نـلتَ الـذي قـد كـنت تـطـلـبـه

وفـزت دوني بمـا تـرجـوه ومـا تـرغـبه

وسـاعـدتك الـلـيـالي لا شـقـيت فـدُم

قـريـر عـين بـوصل لـيس تـسلـبـه

قـد طـاب في طـيـبـة الـغـرًا مـقـامـكمُ

جـوار مـحـبـوبـنـا، من كـنت تـرقـبـه

يـاهل تـرى مـثـلـمـا فـزتم أفـوز؟وهل

تـعلـو سعودي عـلى نـحسي فـتقـلبـه؟

والأمير كثير التوسل بالرسول، ونادرا ما يختم قصائده بغير ذلك، وهي عادة جرى عليها شعراء هذه الفترة وخاصة منهم شعراء المغرب بشكل واضح(٥١٥)، يقول بعد أن استوفى الغرض من احدى قصائده: (٥١٦)

بـجـاه خـتـام المـرسـلـين مـحـمـد

أجلّ نـبي كل مـكـرمـة حـوى

عـلـيـه صلاة الـلـه ثـم سلامـه

وآل، وصـحـب مـاسـرى الـركب لـلـوى

ويتوسل الأمير بجاه الرسول عند ربه وهو يدعو لجنده بالنصر في إحدى قصائده بقوله:

يـارب لا تـتـرك ضـعـيـفـا فـيـهـم

يـارب واشـمـلـهم بـخـيـر تـشـمـل(٥١٧)

مـتـوسلا مـولاي في ذا كـلـه

مـتـشـفـعـا بـشـفـيع كل مـكـمِّـل

وجَّـهتُ وجـهي في الأمـور جـمـيـعـهـا

لمحـمـد غـيث الـنـدا المـسـتـرسـل

صـلى عـلـيه الـلـه مـا سحَّ الحـيـا

والآل مــا ســيف ســطــا في الجـــحــفل

ولا يقتصر الأمير في توسلاته وتضرعه على الرسول وحده، بل نراه يتوسل أيضا بالصحابة الكرام الذين وصفهم المولى بقوله: " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا-سورة الفتح، آية ٢٩" فنراه يستدعي في إحدى قصائده أسماء ستة وثلاثين من أهل بدر، مامن منهم إلا له مقام معلوم في صدق الجهاد، وحسن البلاء، وقوة الإيمان دون أن ينسى كعادته استحضار مثالية الرسول لأنه البدر والآل والأصحاب هم الكواكب(٥١٨):

وجــهت وجــهي أنِــلْــني مــا دعــوت به

بــأهل بــدرٍ حــمــاة الــدين أركــانــا

أعـــني الألى صــرَّح الحــفّــاظ ذكــرهم

بــإســمــهم تــاركــا من خــلــفــهم بــانــا

بــقــطــبــهم أحــمــد المخــتــار من مــضــر

وســيــد الخــلق أمــلاكــا وإنــســانــا

ثم يسترسل في ذكر أسمائهم الواحد تلو الآخر يقول: (٥١٩)

كـذا خـلـيـفـتـه الـصـديق مـلـجـأنــا

وأعــظم الــنــاس إيمــانــا وإيــقــانــا

وبــالمــكــنَّى أبي حــفص الــذي افــتُــتِــحتْ

بـه المــغــالق حــتى صــعــبــهــا دانــا

وبــالخــلــيــفــة ذي الــنــورين ثــالــثــهــم

أعــني بــذلك عــثــمــان بن عــفــانــا

وبــالإمــام أخي المخــتــار ذاك عــلي

من في الــوغى بــالــعدا تــلــقــيه فرحــانــا

وحــاطب وبلال ثم حــمــزة ذا

عم الـنـبي كـريم سـاد قـحـطـانـــــا

إني تــوســلت يــارب الأنــام بـــهـــم

أرجــوك فـضلا وغـفـرانـا وإحـسـانـــا

ثم الــصلاة عـــلى المخـــتـــار ســيـــدنـــا

مـاصـارت الـشـيب يـوم الحـرب شـبـانـا

٣ - الحجازيات:

لم ينس شاعرنا في شعره الديني تلك البقاع الطاهرة المقدسة التي أنجبت هذا النبي الكريم، فأفرد لها الأبيات والمقطوعات تشوقا وهياما بأهل تلك الربوع وبمن سكن أرض الحجاز"وإذا كان شعراء المديح النبوي يذكرونها ويفتنون بها كالصوفيين -ومنهم الأمير- على آثارهم يتغنون حبا بالرسول وبمن خلق الرسول، وجعل مكة مهبط الوحي الأول، وموقع بيته العتيق[٥٢٠]" ذلك أن الحديث عن بطاح مكة، ويثرب، وزورد، العقيق، ولعلع، وسلع هو الحديث عن رسول الله (ص)، لأن هذه الأماكن قد ارتبطت ذهنيا وروحيا بحياة الرسول، ففيها نشأ وترعرع، وبين وديانها وشعبها شب، ومنها انتشر النور الإلهي والرسالة الخالدة ومنها وإليها كانت غزواته وهجرته، فلا جرم إذن أن يتخذها الشعراء رموزا للحديث عن الرسول، وعن الحب الإلهي وغيرهما، فالشاعر لا يجد مندوحة عن الغزل، لأنه يعبر عن التطلع إليها، وأيضا فيه تقليد للقصيدة العربية في مطالعها الغزلية القديمة[٥٢١]".

والأمير من خلال ما مر بنا ذاق حلاوة زيارة هذه البقاع أثناء رحلته الأولى مع والده لأداء فريضة الحج، فتمكن حبها في قلبه، وكثيرا ما كان يمني نفسه بالعودة ثانية، إلا أن انشغاله بأمور الجهاد والإمارة حال دون ذلك، ولكن لم ينسيانه قطعا التفكير فيها، وتحقق رجاؤه بعد فك أسره، هذا الأسر الذي فجر عاطفة الأمير شوقا، وحزنا، وألما، بثها بين ثنايا قصيدته"عذاب الأسر" فيها تصوير حي وصادق لهذه النفس المعذبة

المقهورة، التي أرغمت على فراق الأحباب وجعل بينها وبينهم سدا فاصلا، فغادروه بقية باقية لا روح فيه ولا أمل: [٥٢٢]

لم يبق يوم البين والهجر الذي
خُلقا لتعذيب الأحبة - مسعفا
إلا صبابته وجسماً قد غدا
ملقى كشنٍّ بالفلا لن يُخصفا

فتأججت نار الفراق في فؤاده، وفاضت عيناه دمعا تذرفه على الخد شوقا وحرقة، هجره النوم فلا يرتد إليه جفنه، وكأن عينيه فيهما قذى، فحرم من رؤية طيف الأحبة، مما زاده عذابا وألما، فهو أشبه بلديغ لسعته حية فسرى سمها في أوصاله، فأمسى يتقلب في فراشه، يكابد الأوجاع والآلام: [٥٢٣]

زفرات قلبي جمر نار أججت
منه دموع العين فاضت ذُرَّفا
بمحاجرٍ من حاجرٍ[٥٢٤] أقذاء قد
طردت ضيوف الطيف جاءت طوفا
هل من منام للديغ بمرة
فضلاً عن المرات أو هل من غفا

ثم يعرج على ذكر تلك الأماكن الشريفة، فمن حاجرإلى سلع، إلى العقيق إلى طيبة، ويربط بينها وبين حالته النفسية المعذبة بنار البين، فما إن يومض برق سلع حتى تفيض نفس الشاعر أسفا وحسرة، فكأن هذا البرق سيف صارم يفعل في أحشائه فعل السم، فما ذلك البرق والرعد إلا زفرات الشاعر، وما هذه الأمطار إلا دموعه التي يذرفها شوقا وألما فتحاكي حالته بأصدق وصف، فاختلط دمعه بدمه، فشابه العقيق احمرارا، تصويراً من الشاعر لشدة ماهو فيه، ومدى تعلقه بهذه الأماكن وساكنيها: [٥٢٥]

مــــا إن تـــألق بـــرق ســـلعٍ[٥٢٦] والحـــمى

حـــتى تـفـيض الــنـفس مـنه تـأسـفـــا

وأراه ســـيـــفـــاً صـــارمـــاً وسط الحـــشـــا

فــعل الأفــاعي أو شـــهـابــاً مــا انـطــفــا

يـــحـــكي زفـــيــــري رعـــده، وريـــاحـــه

وبـــوبـــلـه حـــاكى دمـــوعي الـــوكَّـــفـــــا

وإذا جــــرى ذكــــر الـــعـــقـــيق وأهـــلـــه

أجـرى الـعـقـيق[٥٢٧] تـأسـفـاً وتـلـهـفـــا

ولم يجد شاعرنا أمام هذا، إلا مناجاة أهل هذه البقاع مسترحما مستعطفا متوسلا إليهم أن يرحموه من هذا العذاب، فقد كفاه ماناله من صدود وهجران وبعد، وعذره أنه لم يكن يدري ما الهوى قبل أن يعرفهم، وربما يشفع له عندهم أن هواه صادق فطري لم يتكلف فيه قط، فليذكروه رحمة بحاله، فقد أشرف على الهلاك وسط أعدائه، اجتمع عليه عذاب الأسر، وشماتة الأعداء، وطول الفراق: [٥٢٨]

يـــاأهل طـــيـــبـــة مـــالـــكم لم تـــرحـــمـــوا

صـبـاً، غـدا لـنـوالـكم مـتـكـفـفـــــا[٥٢٩]

لا تجـــمـــعـــوا بـــين الـــصـــدود وبـــعـــدكم

حـــسـبي الـصـدود عـقـوبـة فـلـقـد كـفى

لم أدر شـــيـــئـــا قـــبل مـــعـــرفـــة الـــهـــوى

حــبي لـكم مـــا كـــان قط تـــكـــلـــفـــــــا

مـــا بـــالـــهم يـــاصـــاح لم يـــتـــذكـــــروا

صـبـا كـئـيـبـا في المحـبـة مـدنـفـــــا[٥٣٠]

مـــا: قـــيل ذاك أسـيـــرنـــا وقـــتـــيـــلـــنـــا

بـــين الـعـــوادي والأعـــادي مـــثـــقـــفـــــا[٥٣١]

و لطالما حاول العدو أن يصرف نظر الأمير عن حب هده الأماكن وأهلها ، وتحويل وجهته عنها وعنهم ، إلا أنه أبى وأصر ، فقد سيطر هواهم عليه ، وتملكه فلن يولي شطر قلبه غير قبلتهم ، حتى ولو كان فيه هلاكه وحتفه ، ولن يرضى عن حبهم بديلا لأنه لا يملك من أمر هواه شيئا ، فهذا قدره وليكن مايكن : (٥٣٢)

قلبي الأسير لديكم والجسم في
أسر العداة معذباً ومكتَّفا

حاشاكم لجميل ظني فيكم
أن تشمتوا فيَّ العدو المرجفا

ولطالما لام العذول بحبكم
وأطال عتْبي ناصحاً ومعنفا

ولكم سعى كيما يصرّف وجهتي
عن وجه ودكم ولم يك مصرفا

ويود لو أني سلوت هواكم
فيكون لي خلاً وفياً منصفا

قلب الشجي كما علمتم أنه
لا ينثني عن حبكم متخوفا

يبغي الوصال ولو تمزق تالفاً
ويلذ أن يلقى العذاب ويتلفا

وللشاعر مقطوعة أخرى في مناجاة أحد أنشدها وهو على وشك الفراق والعودة إلى الأهل والديار ، مبارحا البقاع المقدسة ، تفوح حبا وشوقا وحنانا ، فما كاد ميعاد السفر يحل حتى خارت قوى الشاعر ، وخانته عباراته وعبراته ، فلم يجد إلا دمعا في العين ، ونارا في القلب ، ونفسا ضعيفة لا تحتمل البعد والبين ، فتمنى الرحيل قبل الرحيل ، يناجي مولاه ويشكوه ضعفه وقلة حيلته ، وثقل حمله الذي تنأى عن حمله العصبة أولى القوة ، فما بالك بالفرد الواحد الضعيف : (٥٣٣)

تــذكــرت وشك الــبـــين قــبل حــلـــولــه
فـجـادت عـيـوني بـالـدمـوع عـلـى الخـــــد
وفي الـــقـــلـب نـــيـــران تـــأجج حـــرهـــا
سـرت في عـظـامي ثـم صـارت إلى جـلـدي
ومـــاليَ نــفس تـــســتــطــيـع فـراقـــهـــم
فـيـالـيت قـبل الـبـين سـارت إلى الـلـحـد
إلى الــله أشــكـــو مـــا ألاقي من الــنـــوى
وحـمـلـي ثـقـيـل لا تـقـوم بـه الأيـــــدي

وكان عبدالقادر يظن أن أيام النحس والشقاء قد ولت دون رجعة حين طاب له العيش والمقام في طيبة ، وحلا له المستقر ، ولكن أتاه النحس من حيث لا يدري ، فقلب سعادته شقاء ، وفرحه حزنا ، وعادت ليالي العذاب أشد مرارة فأمسى الشاعر حائرا يهيم على وجهه ، تتنازعه الأشواق ، فمرة هنا وأخرى هناك ، يجوب المكان كله لعله يشبع نهم النفس الجائعة ، ويروي عطش الروح الظمأى المتلهفة إلى هذا البلد الأمين وصاحبه الكريم (ص) : [٥٣٤]

بـــطـــيـــبـــة طـــاب الـــعـــيش ثـم تـــمـــرَّتْ
حلاوتـه، فـالـنـحس أربى عـلـى الـسـعـد
أردد طـــرفي بـــين وادي عـــقـــيـــقـــهـــا
وبــين قــبــاهــا ثـم ألــوي إلى أحـــــد
مـــنـــازل من أهـــواه طـــفلاً ويـــافـــعـــاً
وكـــهلاً إلـى أن صـــرت بـــالـــشـــيـب في بُـــرد

ونخلص القول بأن هذا الجانب- جانب الشعر الديني عند عبدالقادر- من الخصوبة بمكان وهو يكشف عن احساس صادق وفكر عميق وشفافية نفس تتطلع إلى رحاب أبعد بكثير من الواقع الضيق الدميم .

ابيض

الفصل الثالث

الأمير عبدالقادر الجزائري

ونثره

الأمير عبدالقادر الجزائري ونثره

أ - مؤلفاته:

١ - ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

يعتبر مؤلف (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) من بين أهم مؤلفات الأمير عبدالقادر شهرة ولا يكاد يختلف المؤرخون والدارسون لحياته وسيرته في نسبته اليه .

الف الأمير كتابه هذا في عام ١٢٧١ - ١٨٥٥ كما يذكر الكاتب نفسه في خاتمة كتابه بقوله : " وكان الفراغ من تسويدها في يوم الإثنين ١٤ من رمضان سنة ١٢٧١ هجرية والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا[٥٣٥] " .

و الكتاب " ينبئنا عن سعة ثقافة الأمير ومواقفه من الحضارة الغربية المعاصرة ومدى تأثره بما امتازت به هذه الأخيرة من اختراعات وازدهار صناعي وعلمي[٥٣٦] "

وقد كان اختيار عبدالقادر عضوا مراسلا لمجمع الخالدين بباريس سببا لتأليف الكتاب لتكون عضويته فيه ذات دلالات علمية وفكرية فقدم هذا البحث "على نسختين احداهما باللغة العربية والأخرى مفرنسة بقلم ترجمان القنصلية في دمشق[٥٣٧] " وهو ما أشار إليه المؤلف في مقدمة كتابه يقول : " أما بعد فإنه بلغني أن علماء باريز وفقهم الله العليم العزيز كتبوا اسمي في دفاتر العلماء ، ونظموني في سلك العظماء فاهتززت لذلك فرحا ثم اغتممت ترحا ، فرحت من حيث ستر الله علي حتى نظر عباده بحسن

الظن إلي، واهتممت من كون العلماء استسمنوا ذو ورم ونفخوا في غير ضرم، ثم أشار لبعض المحبين منهم بارسال بعض الرسائل إليه فكتبت هذه العجالة للتشبه بالعلماء الأعلام ورميت سهمي بين السهام:

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم

إن التشبَّه بالكرام فلاح

وسميت هذه الر سالة" ذكرى العاقل وتنبيه الغافل[٥٣٨] "

قسم عبدالقادر كتابه إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وأدرج تحت كل باب مجموعة من العناوين التي تخدم مشتركة الفكرة الرئيسية،[٥٣٩] وجاء مؤلفه في ثمان وخمسين ومائة ١٥٨ ص من الحجم المتوسط، وقد قام بتحقيقه والتقديم له مشكورا الدكتورممدوح حقي وقامت بطبعة دار اليقظة العربية ومكتبة الخانجي دون ذكر التاريخ وتم ايداعه بدار الكتب تحت رقم ٤٣٨٥/ ٧٦.

يتحدث الأمير في مقدمة كتابه عن مضمون رسالته " ليضع قارئه أمام الموضوع بجملة فيكون على بينة منه قبل الإقدام عليه ورسم خطته التي سار فيها رسما منسقا مرتبا"[٥٤٠] حيث جعل مقياس التفاضل بين الناس يكمن أساسا في العقل والعلم، وهما الوسيلتان الوحيدتان لإدراك الحق ولذلك وجب على العاقل في نظر الأمير " أن ينظر في القول إلى قائله، فإن كان القول حقا قبله سواء كان قائله معروفا بالحق أو بالباطل[٥٤١] " لأن الحكمة ضالة العاقل" الذي يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال"[٥٤٢] ويضرب الأمير الكثير من الأمثلة والشواهد التي تتوافق مع نظرته داعيا إلى نبذ التقليد وإطلاق حرية الفكر والعقل للتطور، والتأمل للاعتبار لمعرفة الحق بالدليل وفي ذلك يتمايز الناس مراتب فمنهم " عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره وهو

الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد . . . وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره وهو الذي قلد آباءه وأجداده في ما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده، والأعمى لايصلح أن يقود العميان"(٥٤٣).

ويرى عبدالقادر في نهاية مقدمة مؤلفه أن هذا العقل لايمكنه أبداً إدراك الأشياء على حقيقتها إذا حجب الله – سبحانه وتعالى– عنه أنوار الهداية والتوفيق، فيغدو مثله " كالعين الباصرة لايمكنها إدراك الأشياء إلا عند طلوع النيرات كالشمس ونحوها فكذلك العقل لا يقدر على إدراك الحقائق دون خطأ إلا إذا طلعت عليه أنوار التوفيق والهداية من الله تعالى"(٥٤٤) . وهكذا يمهد الأمير لقارئه حتى يمكنه من الإلمام بجوانب الموضوع مستهديا بالعقل للوصول إلى الحقيقة المبتغاة .

أما الباب الأول (في العلوم والجهل) فقد بين فيه عبدالقادر مكانة العلم العام وفضل العلماء " العاقلين" على غيرهم، وقسم هذا العلم نفسه إلى محمود ومذموم، فالأول " ما ترتبط به مصالح الدين والدنيا كالطب والحساب، وكل علم لا يستغنى عنه في قوام أمر الدين والدنيا كأصول الصنائع والفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة"(٥٤٥) أما العلم المذموم فيراه الأمير يؤدي حتما" إلى ضرر إما بصاحبه أو بغيره كتعليم السحر والطلسمات(٥٤٦) " تأسيا بعقيدته التي تدعو إلى اجتناب هذه الأشياء لما فيها من فساد للعقل والجسد، محاولا الإلمام والحديث عن بعض العلوم التي اشتهرت عند بعض الأمم القديمة كالبابليين والسريانيين والكلدانيين وأهل مصر ذاكرا بعض علماء الإسلام وهو في معظم سرده لهذه الرحلات العلمية لا ينسى علما دون آخر، ولا يحتقر شيئا منه فتراه يتحدث تارة عن الكيمياء وخواصها وطورا عن الصناعة وفوائدها وطورا ثالثا عن التنجيم وهو ينطلق في كل هذا من مبادئ ثابتة تخضع لمفهومه العلمي والإيماني

كرجل فكر مثالي إسلامي متحرر يدعو إلى العلم ويقدسه بل يراه الغاية من خلق الإنسان نفسه، فالعبادة الصحيحة لا تتأتى عن جهل ولذلك فإن " شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم وبها كماله[٥٤٧] " محترزا من بعض الأخطاء التي تجنح بهذا العقل أحيانا عن سواء السبيل مستدلا بما جاء به القدماء كل حسب اختصاصه في مجاله " فالمنجم مثلا باستدلاله بالنجم على الحوادث كاستدلال الطبيب بالنبض"[٥٤٨] ومن هنا راح الأمير يحذر - في معرض حديثه- من أشباه العلماء أولئك الذين يتعاطون العلم وهم ليسوا من أهله، فيكون شرهم وبلاؤهم أكبر من نفعهم لأنهم يبتغون وراء ذلك عرضاً دنيوياً زائلاً ولو على حساب الدين والأخلاق" ويدخل في هذا الوعاظ الذين يصعدون المنبر إذا لم يكن وراء كلامهم علم نافع وليس مرادهم إلا اكتساب الدينار والدراهم"[٥٤٩] .

وبهذا يكون الأمير قد وضع أمامنا إطار الصورة في هذا الباب بتركيزه على مكانة العلم والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، مبرزا أهمية العقل كوسيلة مثلى في الوصول إلى الحقيقة.

أما الباب الثالث (إثبات العلم الشرعي) يحاول فيه الأمير عبدالقادر اثبات النبوة وحاجة الإنسان إلى العلوم الشرعية والدينية التي لا تتحقق إلا عن طريق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين يحملون ويبلغون أقوامهم هذه التعاليم السماوية لأنهم الواسطة بين الخالق وعباده بتبليغهم الرسالة وأداء الأمانة وهداية البشر لما يصلحهم دينا ودنيا. فعقل الإنسان مهما بلغ من الكمال والقدرة والاستطاعة فإن له حدودا لا يتجاوزها ولا يستطيع أصلا الوصول إليها وادراك كل الظواهر" فالعقل وإن بلغ من الشرف والاطلاع على حقائق الأشياء ما بلغ، فثم علوم لا يصل إليها ولا

يهتدي إلى الإطلاع إليها إلا بتصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد إليهم بمعنى ان علوم الأنبياء زائدة على علوم العقل"(٥٥٠) ولذلك يحرص الأمير المعلم على الدعوة إلى الإيمان والتصديق بما جاء به هؤلاء الرسل من أحكام وشرائع وعلوم قد لا تدركها العقول والحواس عن طريق العلم العقلي لأن " وراء العقل طور آخر وأمور أخرى، العقل معزول عنها، ولا يصل إليها بنفسه بل بغيره"(٥٥١) . ومن هنا راح الأمير يميز بين مرتبتين أو درجتين من العلوم اللذين لابد منهما للإنسان حتى يستطيع أن يحقق غايته وتوازنه النفسي والروحي والاجتماعي ولن يحصل الكمال إلا بهما" فالعلوم التي تحل في العقل تنقسم إلى عقلية وشرعية، أما العقلية فنعني بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع . . . . . وأما العلوم الشرعية فهي المأخوذة عن الأنبياء وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وفهم معانيها بعد السماع، وبها يكمل العقل ويسلم من الأمراض(٥٥٢) " ذلك أن الأمير يؤمن بأن هذه الشرائع مكونة للنقائص وزينة للعقول وطمأنينة للنفوس " فجميع أقوال الأنبياء لا تخالف العقول، ولكن فيها مالا يهتدي العقل إليه أولا، فإذا هدي إليه عرفه وأذعن له(٥٥٣) " فكان لزاما التدين والإيمان والإقرار بنبوة هؤلاء الرسل قولا وعملا " لأن المكذب للأشياء بعقله عما جاؤوا به من الأعمال والعبادات مغرور(٥٥٤) " والغرور يؤدي إلى الاستكبار والتعصب وهما سبيل الكفر وهو ماحاول الأميرأن يحذر منه بدعوة الناس – وهو يخاطب علماء أوربا– إلى التسامح والأخوة والتواضع ونبذ الكراهية لأن " الدين واحد باتفاق الأنبياء وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية"(٥٥٥) .

وبذلك يتدرج الأمير في عرض افكاره في هذا الكتاب بتسلسل منطقي مراعاة لمقتضى الحال، وبالتالي جاء هذا الباب مكملا للباب الأول وهي طريقة للاستدلال

المعرفي عند علماء المسلمين أي الاعتماد على العقل والنقل معا لادراك الحقيقة لان العقل وحده قاصر في بعض المواقف والنقل أيضا لا يحقق أحيانا ما ينشده الإنسان إذا انتابته الشكوك فلا يطمئن إلى أحكامه إلا إذا آزره العقل فيها .

وكان الباب الثالث مخصصا للحديث عن (فضل الكتابة) حيث بين الأمير فيه حاجة الإنسان اليها لتقييد حوائجه وتدوين مآثره والإنسان مدني بطبعه ، ولن يتحقق له إدراك هذه الغاية والتواصل مع أخيه الإنسان إلا بإيجاد قنوات وإشارات ورموز والتي تتمثل أساساً في الكتابة ، ومن هنا راح الأمير -كعادته يتتبع مراحل نشأتها عند مختلف الأمم القديمة ليصل في النهاية إلى تحديدها في اثنتي عشرة كتابة[٥٥٦] ، محاولا إيجاد الفروق بين هذه اللغات سواء من حيث الأصوات أو من حيث دلالاتها وأشكالها وما في كل لغة من لهجات ، مركزاً على منزلة الكتابة العربية من بينها راسماً خطوط انتشارها وأسماء الخطوط العربية واول من خط بها قبل مجيء الإسلام الذي رسم هذه اللغة أو الكتابة العربية بصورتها الحالية .

ويحاول الأمير أن يعلل بعض الظواهر فتراه يقرر مثلا أن السبب الذي جعل اليونان والروم يكتبون من اليسار إلى اليمين هو أن هؤلاء كانوا يدركون أن " شأن الجالس أن يستقبل الشرق لأنه مطلع النيرات ومحل ظهور النور فإذا توجه إلى المشرقي يكون الشمال على اليسار ، فإذا كان كذلك فاليسار يعطي اليمين القوة وسبب آخر وهو أن حركة الأعضاء من استمداد الكبد ، والكبد يستمد من القلب والقلب من جهة اليسار فطريق الكتابة أن يبتدأ من الجهة التي منها الاستمداد"[٥٥٧] .

كما يعرض الأمير في هذا الباب إلى قضايا هامة وأساسية سبق بها عصره متحدثا

عن التصانيف والتآليف وأنواعها حاثاً الإنسان على الابتكار والاجتهاد وعدم الالتفات لما خلفه السابقون والنظر إليه على أنه الكمال والمثال والنموذج " لأن نتائج الأفكار لا تقف عند حد وتصرفات العقول لا حد لها . . . . ولا يستبعد أن يدخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين"[٥٥٨] . فالعلم في نظره بحر لجي مترامي الأطراف لا تدركه الأبصار ولا تحوطه العقول، يغرف منه المتقدم والمتأخر ولا ينفذ ولذلك، فالخطأ الخطأ في -رأي الأمير- أن يقف المرء عند حدود ما خلفه السلف والادعاء بأنه منتهى الغاية والكمال" فقول القائل ماترك الأول للآخر شيئا خطأ والقول الصحيح هو كم ترك الأول للآخر ويقال: لا كلمة أضر بالعلم من قولهم ماترك الأول للآخر شيئا"[٥٥٩] وكأني بالأمير ينتصر بقوله هذا إلى الابتكار والتجديد شرط أن يكون مرتكزا على قواعد علمية يستطيع المؤلف من خلال تصنيفه أن يبلغ كل ما يريده إلى المتلقي بلغة وأسلوب ومنهجية تتوافق مع عصره ومجتمعه ومدركاته واستعداداته فنجاح الأمر في -راي عبدالقادر- يكمن في " اتمام الغرض الذي وضع الكتاب من أجله من غير زيادة ولا نقص، وعدم استعمال اللفظ الغريب لا في الرموز والالغاز، وينبغي أن يكون التصنيف مسوقاً على حسب إدراك أهل الزمن وعلى قدر ما تصل إليه عقولهم[٥٦٠] " مستعرضا بعض القضايا الأساسية الهامة كحديثه عن دلالات الألفاظ وعلاقتها بالمعاني ومدى قدرتها على إيصال المعلومات والأفكار وتفاضل الكتاب في هذا، خاتما حديثه بعرض موجز حول نشأة ومراحل حركة التدوين والترجمة في العصور الإسلامية وخاصة العباسية منها لنقل تراث وعلوم الأمم الأخرى إلى العربية والانفتاح على كل الثقافات مشيداً بدور بعض الحكام المسلمين في هذا وخاصة الخليفة المأمون ابن الرشيد في بعث وتشجيع هذه الحركة وتحفيز العلماء إيمانا منه بدولة العلم

والإيمان وأن هذا التراث الإنساني حق للجميع كل فيه شركاء، فترجمت مؤلفات كبار الفلاسفة والعلماء " وألزم الناس قراءتها ورغبهم في تعلمها، إذ المقصود من المنع منها في صدر الإسلام هو لأجل ضبط قواعد الشريعة ورسوخ العقائد الصحيحة وقد حصل ذلك[٥٦١] "

أما الخاتمة فقد تحدث فيها عبدالقادر عن أقسام الناس واختلاف أجناسهم والفروقات المختلفة بينهم بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب مفصلا الكلام عن هذا التمايز والتباين واختصاص كل أمة بميزة تنفرد بها عن غيرها وتدل عليها كالهنود بعلومهم ومذاهبهم وحضارتهم ويكفيهم شرفا – على حد قول الأمير –أنهم أول من وضع الشطرنج مشيدا بعلمائهم وحكمائهم وتآليفهم . والأمر نفسه في عرضه لمآثر الفرس وأمجادهم وأمة اليونان وفضلهم والرومان وحنكتهم وقوتهم ليصل الأمير إلى أن كل هذه المآثر هي ثمر جهد إنساني عام، جيل يمضي وآخر يأتي ليضع لبنة في بناء هذا الصرح المعرفي الواسع لتكتمل حلقته ودرته بهذه الأمة أمة العرب التي شرفها الله سبحانه وتعإلى بحمل الرسالة وهداية الإنسانية، ففضلهم على غيرهم لا يدانيه فضل، وشرفهم في ذلك بيّن، مستعرضا جوانب هامة من حياتهم وعاداتهم وخصالهم وعلومهم في الجاهلية والإسلام، معددا فضائلهم وشيمهم التي حق لهم أن يفخروا ويفاخروا بها من " البيان في الكلام والفصاحة في المنطق والوفاء بالعهد وإكرام الضيوف وعلو الهمة[٥٦٢]

"محتجا في ذلك ببعض القصص والأحداث التاريخية مشيرا باقتضاب إلى العبرانيين وأهل مصر ليؤكد أن حكمة الله اقتضت أن تختص كل أمة بفضل وميزة ولم تكتمل إلا بما عند غيرها من الأمم الاخرى ليغدو هذا الإرث إنسانيا مشتركا بين الجميع

وإن اختلفت الألسن والألوان.

ويحاول الأمير أخيرا البرهان على أن الاختلاف الحاصل بين الناس في العقول والمعارف والطباع والأمزجة مرجعها أساسا إلى موقع اختلاف بلدانهم من خط الإستواء وأحوال الشمس في الحركة حيث يجملها الأمير في ثلاثة أقسام[٥٦٣] تبرز إيمانه بالفروق الفردية والجماعية وأن الإنسان ابن بيئته تتجلى آثارها وملامحها في فكره وأخلاقه، مع الإشارة إلى أن الأمير كرر هذه الأشياء لفظا ومعنى وقد سبق له أن عرض لها في بداية مؤلفه[٥٦٤] .

وخلاصة القول أن عبدالقادر في كتابه هذا أثبت لعلماء أوربا بأنه لا يقل عنهم علما ومعرفة وأنه رجل سبق عصره بهذه الأفكار الموسوعية التي آلف فيها بين موروثه الذي يعتز به وبين علوم عصره التي يلم بها ويدعي أولئك أنهم سباقون إليها . وقد حاول أن يلملم هذه المعلومات ويقدمها بطريقة توحي أن الأمير كان موضوعيا فلم يغل ولم يتطرف ولم يتعصب ولم يحتقر علما دون آخر لأنه كان يؤمن إيمانا قويا أن الوصول إلى الحق لا يكون إلا عن طريق العلم النافع بما خلفه الأولون وما يجب أن يقوم به اللاحقون لبلوغ اليقين الذي لن يتحقق إلا بالعقل والنقل وبذلك يكون عبدالقادر قد فتح باب الاجتهاد في عصره ذكرى للعاقلين وتنبيها للغافلين.

٢ - المقراض الحاد (لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد):

أما مؤلفه (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد)وهو أشبه برسالة تصدى فيها الأمير عبدالقادر للتدليل بحجج دامغة وأدلة منطقية عقلية وكونية على وجود الله سبحانه وتعإلى خالق هذا الكون "فجاء كتابه هذا حصيلة عمر

طويل تقضى في الاستقصاء والبحث والتنقيب والتمحيص لكل ما روي ونقل ونشر عن الديانات والرسل والأنبياء والكتب السماوية ."[٥٦٥]

والكتاب يقع في أربع وخمسين ومائتي صفحة ٢٥٤ من الحجم المتوسط، قسمه الأمير إلى شبه مقدمة وثلاثة ابواب أدرج تحت كل باب مجموعة من العناوين سعى الأمير من خلالها إلى نهج طريقة تبسط للقارئ فهم مضمون حديثه، وقد حرره محمد بن عبدالله الخالدي المغربي كما هو مبين من واجهة الكتاب، ونشرته دار مكتبة الحياة في بيروت دون تاريخ .

حاول الأمير في مقدمة كتابه هذا كما فعل في" ذكرى العاقل وتنبيه الغافل " ان يحدد الوسيلة التي تمكن الإنسان ولا بديل عنها لإدراك حقائق الكون والاهتداء إلى خالقه، فبدأ بتعريف العقل هذه الملكة التي أنعم الله بها على الإنسان ليسعد في الدارين وهي "أشرف الخواص التي ميز بها الإنسان عن الحيوان " ذلك أن العقل "منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمر من الشجر[٥٦٦] " فلا يكتمل أحدهما إلا بالآخر ولذلك قرن بينهما تعالى في كثير من آي الذكر الحكيم: " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر اولو الألباب[٥٦٧] " .

ثم ينتقل الأمير للحديث عن شرف النظر العقلي وتفاوت أدراك الأشياء والحقائق بين الناس وانقسامهم في ذلك بحسب استعداداتهم النفسية والعملية لاستيعاب هذه العلوم لأن العقل نفسه مراتب أربع[٥٦٨] ومن هنا تباينت منازل الناس وتفاضلوا في الأعمال تبعا لحاجة كل كل واحد منهم إلى الآخر فلا يمكن للفرد وحده أن يبدع من العدم لأنه وببساطة " لا يمكن أن يعيش منفرداً لأن الغذاء والكسوة يحتاجان إلى آلات

وتحتاج الآلات إلى حداد ونجار ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز ولهذا امتنع أن يعيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماعيات[٥٦٩] " .

وهكذا تتجلى صورة الإنسان الكامل بعمله نظرة الأمير ولذلك فهو لا يحتقر عملا أو حرفة دون أخرى بل إن العمل مهما صغر أمره أو شأنه في أعين البعض هو الدلالة الحقة على كرامة الإنسان وشرفه لأنه يمثل اليد العليا بشرط ان ينأى صاحبه عن الغرور والاستعلاء لأن الغرور في شرع عبدالقادر " نوع من الجهل فكل ما ورد في ذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور[٥٧٠] " لأنه بلا ريب مفسدة للنفس وسبيل الشيطان إليها فيزين لها أفعالها بما يوافق هواها فتقنع النفس بذلك فتردى لأن الغرور : " سكون النفس إلى مايوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد إنه على خير على شبهة فاسدة فهو مغرور[٥٧١] " ولذلك يرى عبدالقادر ان الخطر والخطر كله حين يعتقد الإنسان بغروره أنه حاز الرضى من خالقه وضمن لنفسه المخدوعة مكانا عند الله حين أحسن الله إليه بنعيم الدنيا الزائل فيذهب طيباته في حياته بدون وجه شرعي ثم يأمل في كرم الله دون أن يقدم ما يشفع له عنده في يوم تجد كل نفس ما عملت محضرا ، ولذلك راح الأمير يحذرنا من أن " نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله تعالى وأن الله يحمي عبده الدنيا وهو يحبه كما يحمي احدكم مريضه الطعام والشراب وهو يحبه[٥٧٢] " ولعل مرد هذه النظرة ، ترجع إلى حياة وسيرة الأمير الصوفية التي نرى أن الزهد في الحياة والرضا بالمقسوم وكبح جماح النفس وترويضها والابتعاد عن ما حرم الله هي السبل التي توصل الإنسان إلى النجاح والفوز بنعيم الآخرة وبلوغ مرتبة الرضا .

و بعد هذه المقدمة التي اعترف فيها الأمير بأنه أرسل عنان قلمه يبدأ في الحديث عن المحور الأول الذي خصص له باباً عنونه (بإثبات الألوهية وبيان الطريق إلى معرفة

الله تعالى)[٥٧٣] وفيه استعرض عبدالقادر كثيراً من الأحكام والدلائل والبراهين التي توصل الإنسان "العاقل" إلى اليقين ومعرفة خالقه بالنظر والتأمل في آياته وإبداع خلقه في كل شيء في هذا الكون إشارة إلى وجود العليم الحكيم وكل آية تنبئ عن قدرته تعالى، فهذه الأرض بعجائبها من أنهار وبحار وجبال وحيوان ونبات لآيات لقوم يعقلون، يفسر تارة ويعلل أخرى بطرائق علمية متعرضاً إلى أدق دقائق هذه المجرات الكونية مشيراً إلى خواصها وتأثيرها على حياة الإنسان والكائنات الأخرى متتبعا جزئياتها محاولاً عرضها من كل الوجوه. [٥٧٤]

والحقيقة عند عبدالقادر كاملة فلا يمكن فهم الظاهرة الكونية فهماً صحيحاً إلا بتتبع عناصرها ولملمة جزئياتها المتباعدة لأن الإنسان يدرك الأمر في بدايته إدراكاً كاملاً وكلياً ثم ينتقل إلى فهم الجزء ويعود ثانية إلى الكل مهتدياً بالعلم والدليل العقلي، واستبعاد فكرة التنجيم والإيمان بها كوسيلة للوصول إلى الحقيقة العلمية، لأنها في نظر عبدالقادر لا تخرج عن كونها ظاهرة فلكية أكثر منها سحرية يقول الأمير: " وأما ماوراء ذلك من ادعاء الاطلاع على الغيب بالنجم، والقطع به فهو باطل، وما يتفق من إصابة المنجم على ندوره فهو اتفاقي[٥٧٥] " وبذلك تتجلى روح الأمير لأن كامل العقل العالم عنده هو الذي: " يغوص بعقله من المسببات إلى الأسباب، إلى مسبب الأسباب، غير الشمس والقمر والكواكب مسخرات بأمره سبحانه وتعالى[٥٧٦] ".

والأمير ينهج في كل هذا سبيل الاستدلال والاستشهاد بما ذكره العلماء المسلمون وغيرهم، فيعرض آراءهم ونظرياتهم في ذلك – وإن لم يشر إلى مصادره في أحيان كثيرة – مناقشاً تارة ومحللاً أخرى معتمداً على زخم روحي في تحليل بعض هذه الأحكام العلمية والفلسفية وحتى الصوفية، عارضاً لبعض أقوال هؤلاء كفخر

الدين الرازي وصدر الدين الشيرازي وإمام الحرمين وحجة الإسلام الغزالي . على أننا نلاحظ ظاهرة تكرار بعض القضايا التي جاءت في مؤلفه (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) تكراراً يكاد يكون حرفياً ومن ذلك حديثه عن اختلاف الناس تبعا لاختلاف أحوال الشمس وحركتها[٥٧٧] .

ويسعى الأمير جهده لجمع كل الأدلة التي تثبت وجود خالق الكون تعالى فلم يكتف بما ذكره بل تراه يعود إلى الإنسان نفسه- هذا العالم الصغير المعجز – فهو آية في حد ذاته (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) "فصّلت آية ٥٢" ويبدو الأمير هنا أشبه بالجراح الذي يقوم بعملية تشريح لهذا الجسد فيتحدث عن كل صغيرة وكبيرة مبينا وظيفة كل عضو فيه بكل تناسق توحي بعظمة بارئه ، فمن القلب ومكوناته والدماغ وحواسه إلى الكبد إلى خلق العلقة والمضغة فلا يغادر شيئا إلا أوسعه شرحا وتبيانا[٥٧٨] ليصل إلى مسألة حساسة ومعقدة جوهر الإشكال (الروح) التي شغلت التفكير الإنساني ولم يهتد إلى فهم حقيقتها وكنهها وماهيتها ، لأنها من غيبيات الله ، والعقل عاجز عن إدراكها يقول تعالى : " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " الإسراء آية ٨٤ مبرزاً الاختلاف والتباين في معرفة وإدراك هذا الأمر مؤكدا على " أن الأولين والآخرين على مر الأيام والأعوام اختلفوا في الروح على زهاء ألف قول[٥٧٩] " ، مشيراً إلى اتفاق " المليين من اليهود والنصارى والمسلمين على أن الروح حادثة إذ لا قديم عندهم إلا الله[٥٨٠] " مبينا آراء الفلاسفة واختلاف مشاربهم حول هذه المسألة كأفلاطون وأرسطو وابن سينا والغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم .

وهكذا يستمر الحديث عن ماهية الإنسان – هذا الكائن العجيب – جسدا وروحا

فلا يغفل عبدالقادر شيئا إلا وأشار إليه بالتفصيل والتحليل مجسدا في ذلك عظمة الخالق في هذا الإنسان بقواه المدركة وقواه المتحركة وينهي الأمير بابه هذا بخلاصة تثبت " أن فاعل الكل وصانع الجميع واجب الوجود بذاته . . . . . إنه حي بلا مزاج فاعل في الأشياء بلا علاج علة كل شيء صنعه ولا علة له ، فهو واحد في الذات والصفات والأفعال[٥٨١] " ولن يتأتى للإنسان أن يدرك هذه النظرية التوحيدية وهذا الإقرار والخضوع للواحد الأوحد إلا بالتقرب إليه ليلج ملكوت رحمته وينال عفوه ، والسبيل المؤدي إلى بلوغ هذه الغاية لن يتحقق إلا عن طريق الأنبياء والرسل هداة العقول والبشر وهو محور الحديث في الباب الموالي .

"في النبوة والرسالة " هو العنوان الذي اختاره الأمير لبابه الثاني والذي فصله إلى نقطتين ، فالمحور الأول يختص باثبات الرسالة على العموم والتي لن يهتدي إليها البشر إلا عن طريق العقل سبيل الإيمان والإقرار وركيزته في ذلك العلم ، ومع ذلك يبقى هذا النهج لوحده قاصرا عن إدراك الكل ولذلك كانت رحمة الله بعباده واسعة حين أرسل إليهم الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين حتى لا يكون للناس عذر ولا مبرر بعد الرسل فالرسالة من هذا المنظور ضرورة ربانية وتأكيداً لوجوده تعالى وإقراراً بوحدانيته وتنزيها له عما سواه وهي تبصرة وذكرى لكل عبدمنيب "فالعقل لايهتدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة إلا بواسطة الرسل كما لا يهتدى إلى الأدوية للصحة إلا بواسطة الأطباء فحاجة الخلق إلى الرسل كحاجتهم إلى الأطباء[٥٨٢] . "

ثم يتحدث الأمير عن علامات الرسول والنبي عارضا بعض الآراء مبينا أن الإيمان بهم والإقرار برسالتهم لايكون متوقفا بالضرورة بمشاهدتهم أو معاصرتهم "بل يثبت ذلك إلينا متواترا يفيد اليقين مثل المشاهدة . . . . حصول العلم بالتواتر ضروري لا

يحتاج إلى نظر(٥٨٣)" . ويخص الأمير بعض الأنبياء بالذكر كسيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام مستعينا في ذلك ببعض الآثار التي تواترت في عصره مبينا أوصافهما والأمم التي أرسلا إليها سارداً بعض القصص والأخبار التي تقف شاهداً على صدق رسالتيهما(٥٨٤) . ولعل القصد من وراء ذلك هو ان عبدالقادر المؤمن يريد ان يصل إلى فكرة اساسية مردها ان كل الأديان تصدر من نبع واحد وتسعى إلى غاية واحدة وهي الإقرار بوحدانية الله وعبادته والرضى بما جرت به الأقدار وهي الأمانة التي أنيطت بهؤلاء الرسل لتبليغها إلى الناس حتى يعبدوا الله حق عبادة فلأجلها خلقوا (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الطور آية ٥٤ ، مدللا على ذلك– وكعادته – بكثير من الأحاديث النبوية الشريفة وبعض المأثور، محاولا تخريجها بين الحين والآخر، وقد نهج الأمير هذا السبيل ليثبت على أن رسالات هؤلاء الرسل هي تكليف بإبلاغ الدعوة إلى الله، إلا أن رسالاتهم تتناسخ وتكون رسالة الإسلام ناسخة للجميع فقد "كان شرع عيسى غير شرع موسى عليهما السلام ولا يخل ذلك بكون محمد(ص) مصدقا للتوراة والإنجيل لأن النسخ بيان وتخصيص في الأزمان، وما زال النسخ يتعاقب في الشرائع إلى أن تم بناء قصر الرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم فانغلق باب النسخ بعده لأنه بعث لتتميم مكارم الأخلاق(٥٨٥) " .

ومن الطبيعي أن يتناول الأمير بالحديث رسالة الإسلام وصاحبها محمد عليه الصلاة والسلام باعتبار لا رسالة بعدها ولا دين (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) "آل عمران آية ٨٤" ويخصص لها حيزا كبيرا مستعرضا سيرة الرسول وصفاته وعلامات رسالته والنبوءات والإشارات السابقة الدالة

عليها سواء "ما ترادفت به الأخبار وتواترت عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكنائس من صفة وصفات أمته واسمه وعلامته وذكر الخاتم الذي بين كتفيه(٥٨٦) " .

وبما أن آية الرسول المعجزة ، فما انفك الأمير يشير إلى هذه المعجزة المتمثلة في القرآن الكريم هذا الكتاب الجامع الشامل لأحكام الدين والدنيا فيه أنباء السابقين ، قمة الفصاحة والإعجاز البياني والعلمي ، مستعرضا بإسهاب جوانب الموضوع حتى وإن كان الأمير يكرر -كما أسلفنا القول - بعض المواقف والأراء التي جاءت في مؤلفه ذكرى العاقل وهو يسعى من وراء ذلك إلى تأكيد صحة ما يذهب إليه معتبراً أن رسالات الأنبياء السابقين لمحمد (ص) محددة وتختلف باختلاف الزمان والمكان أي أن كل رسالة كانت خاصة وفي زمن خاص لمجتمع خاص أما الإسلام فهو عام وكافة للجميع لا يتحدد بتلك المقاييس الزمانية والمكانية ، ومحمد رسول الله ونبي الجميع ليصل في نهاية حديثه إلى إقرارتلك الحقيقة الأزلية الخالدة إن " من كانت حكمته عملية فموسوي ، وإن حكمته علمية فعيسوي ، وإن كانت جامعة بينهما فمحمدي فقد انختمت به النبوة بالضرورة(٥٨٧) " .

وكان الباب الثالث مخصصا للحديث عن بيان ما في شرع الإسلام من الوفاء والغدر وما يلحق ذلك من الصدق والكذب حيث راح عبدالقادر يبرز مآثر الإسلام دين الخلق الفاضل والشيم السامية وأن الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام ما بعث إلا متمماً لمكارم الأخلاق ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، معددا هذه الخلال الكريمة التي يحث عليها ديننا الحنيف ففيها سعادة الإنسان في الدارين ، ذلك ان الإسلام . "دين الصدق والوفاء والإحسان والإيثار والاقتصاد في الأمور والاشتغال بعيب النفس عن عيوب

الناس والإنصاف من نفسك وإنفاق المال لصيانة العرض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين وإماطة الأذى عن الناس وإفشاء السلام وإكرام الجار والتواضع والتعاون على الخير والصبر[٥٨٨] " وتلك لعمري قيم لو تحلى بها الناس لما ظهر الفساد في البر والبحر ولتحقق السلام والعدل والمحبة في هذا العالم المتصارع، وطبعا كان الأمير يصدر في هذا من تعاليم القرآن وهدي السيرة المحمدية العطرة ومن نفس جبلت على محبة الغير والتحلي بالمكارم.

ويحاول عبدالقادر ان يرجع فضائل هذه الأخلاق كلها إلى أربعة أصول أو مصادر هي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل وباقي فروعها[٥٨٩] "

ويضرب لذلك كثيرا من القصص والأمثال من تاريخنا العربي الإسلامي المجيد التي تذهب شاهدة على ما كان يتحلى به السلف الصالح من اخلاق سجل التاريخ مواقفهم بأحرف من نور ضمنت لهم الشهرة والذيوع وما ذلك بالأمر الغريب على خير أمة أخرجت للناس.

ولا يغفل الأمير - وهو في هذا الموقف - أن يخصص حيزا كبيرا للحديث. في شيم الوفاء بالعهد وصدق الوعد وعن أخلاقيات الحرب وحسن معاملة الأسرى والالتزام بالعهود والمواثيق وكلمة الشرف ولعل مرد ذلك كون الأمير رجلاً مجاهداً مقاتلاً ذاق مرارة الأسر وذله والخيانة والغدر، فلا ينبئك في مثل هذا إلا خبير تجرع مرارة الظلم وألم الوحشة والغربة ولكنه شهم عفو سمح كريم لأن دينه وشرعه يدعو إلى دفع السيئة بالحسنة والعفو والتسامح والترفع عن الدنيا أسوة بجده "عليه الصلاة والسلام".

والقارئ لهذا المؤلف يجد أن الأمير أشبه بمشرع وداعية ومحببا لهذه الفضائل

بحيث تراه يبدأ حديثه في كل فقرة بأسلوب الدعوة والالتزام والأمر والنهي " ومنها أنه يلزم المسلمين . . . ومنها انه إذا نهى الإمام"[٥٩٠] دون أن يغفل دوما الارتداد إلى ذلك المعين الذي لا ينضب من موروثه الديني والحضاري يستقي منه أدلته التي تثبت أن أمته -حتى في جاهليتها- كانت أمة الوفاء وحفظ العهود ، فجاهليتنا بهذا المنظور أفضل وأكرم من حضارتهم المزيفة . " فالأمة العربية أكثر وأشد جميع الأمم في ذلك، لأنهم في جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية وأخلاق مرضية وأفعال كريمة وهمم عظيمة وعقول راجحة وآراء ناجحة وشرف صميم وأنفة من كل خلق ذميم ، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون فيهم النبوءة[٥٩١] " .

وهكذا يستحضر الأمير في هذا كل ما أوتي من حجة وبينة ليثبت لظالميه أنهم ماقدروا الرجل حق قدره مستحضرا نماذج ومختارات من مفخرة العرب (الشعر) الذي يدعو ويحث ويحبب كل جميل وخلق وحسن فضيلة[٥٩٢] خاتما حديثه ببيت لبيد الشهير في مدح سيد العالمين :

وما حملت من ناقة فوق رحلها

أبر وأوفى ذمة من محمد .

وتبقى الإشارة في آخر هذا الحديث إلى أن المصنف يخلو من فهرس لموضوعات الكتاب وبالتالي يجد القارئ صعوبة في الوصول إلى مراده .

٣ - مذكرات الأمير عبدالقادر:

أما مذكرات الأمير عبدالقادر فهي عبارة عن" عمل يلتقي فيه التحرير والإملاء الشخصي للأمير مع الإنشاء الجماعي الذي تم إنجازه تحت إشراف الفقيه السيد مصطفى بن

التهامي صهر الأمير وخليفته وصديقه المقرب والمحبب إليه[٥٩٣] " ولذلك فهو شهادة صادقة لها قيمتها التاريخية " لأنها مكتوبة بأيدي شهود عيان عاشوا الأحداث وصنعوها بأيديهم واعطوها تفسيرها من داخل الواقع الذي التحم بأنفسهم ايما التحام[٥٩٤] " .

وسواء دونت هذه المذكرات بقلم الأمير أو كانت من إملائه فالمهم في هذا كما يذكر د . ابو القاسم سعد الله : " ان النموذج كان بموافقة الأمير نفسه وتحت نظره[٥٩٥] " وهو ما يؤكده مصطفى بن التهامي في قوله : "فلما قرأ مولانا أيده الله مكتوبه واستوعب معانيه كلها . كلفني – اعلى الله مقامه وأعاد علينا وعليه عوائد بره بصالح الحال والمآل – بأن أجمع ذلك بحسب ما طلب كاتب المكتوب ، فأجبته بالموافقة واثقا بإعانة المالك وسالكا صحة المسالك ومرتجيا نفعا دنيويا مآله الصالح الديني بحول الله وقوته[٥٩٦]" .

ولعل الدافع الأساسي وراء كتابة هذه المذكرات هو تلبية الأمير ونزولا عند رغبة بعض المترددين عليه "من المثقفين والمستشرقين ودعاة الماسونية طمعا في معرفة نوازعه ومواقفه إزاء الحرية والأديان والإنسان والفلسفة والمرأة ونظم الحكم ونحو ذلك من اهتمامات هذه الفئة[٥٩٧] " .

وهذا ما أشار إليه الأمير صراحة في بداية مذكراته في قوله " وبعد فإن بعض أساقفة النصارى طلب كتابا مضمنه تاريخ ما جرى بيننا وبينهم بالقطر الجزائري من مصالحة ومكافحة ببيان سبب كل واحد من الأمرين ونزيده مع ذلك التعريف بالمجاهد الإمام الأعظم الأعدل الأكرم وهذا هو الغرض الآكد منه[٥٩٨] " وقد أورد الأمير نص الرسالة كاملة لصاحبها عبدالله القبطان فلان[٥٩٩] .

أما عن تاريخ ومكان كتابة هذه السيرة فإن المخطوط كما يذكر المحققون لايوجد فيه نص صريح ينبئ عن تاريخ ومكان الشروع في تحريرها والانتهاء منها "ولكن المرجح هو أن الأمير حرر سيرته في بو PEAU أوعلى الأقل شرع في تحريرها هناك "و ذلك سنة ١٨٤٨ (٦٠٠) .

وقد أشرفت على تحقيق المخطوط وتقديمه بهذه الصورة العلمية المرتبة فرقة (الأمير عبدالقادر) للبحث العلمي المؤلفة من السادة الأساتذة الدكتور محمد الصغير بناني والدكتور محفوظ السماتي والدكتور محمد الصالح الجون وقد قام بمراجعة التحقيق في طبعته الثانية الأستاذ محمد الهادي حساني وأخرج أحاديثها الأستاذ عبدالمجيد بيرم وقامت بنشره شركة دار الأمة في إخراج جميل يحمل الغلاف صورة الأمير عبدالقادر بالألوان وتحته " مذكرات الأمير عبدالقادر " .

وقد قسمت هذه المذكرات أو الرسالة كما أشار كاتبها إلى مقدمة وسبعة فصول وخاتمة جاءت مرتبة على النحو التالي :

في المخطوط:	في الكتاب
المقدمة من ص ١ إلى ٦	المقدمة: من ص ٣٣ إلى ٤٤
الفصل الأول: من ص ٦ إلى ٢٠	الفصل الأول: من ص ٤٤ إلى ٦٣
الفصل الثاني: من ص ٢٠ إلى ٣٦	الفصل الثاني: من ص ٦٣ إلى ٨٤
الفصل الثالث: من ص ٣٦ إلى ٤٨	الفصل الثالث: من ص ٨٤ إلى ١٠٤
الفصل الرابع: من ص ٤٨ إلى ١٢٨	الفصل الرابع: من ص ١٠٤ الى ٢٠٩
الفصل الخامس: من ص ١٢٨ إلى ١٧٥	الفصل الخامس: من ص ٢٠٩ الى ٢٥٨

الفصل السادس: من ص ١٧٥ إلى ٢٠٠	**الفصل السادس: من ص ٢٥٨ الى ٢٨٤**
الفصل السابع: من ص ٢٠٠ إلى ٢٢٢	**الفصل السابع: من ص ٢٨٤ الى ٣٠٧**
الخاتمة: من ص ٢٢٢ إلى ٢٢٦	**الخاتمة: من ص ٣٠٨ إلى ٣١٥**

أمافارق الصفحات فقد كانت بمثابة تصدير بقلم الدكتورأبو القاسم سعد الله وتقديم ، للدكتور عبدالمجيد مزيان وزير الثقافة سابقا إلى جانب مقدمة المحققين ونماذج من المخطوط مع ذكر أهم المراجع المتعددة في إنجاز هذا العمل ، وفي نهاية هذا الكتاب فهرس للأماكن وآخر للقبائل والشعوب وأخيرا فهرس الموضوعات وقد أخذت هذه مايقارب من اثنتين وستين صفحة . وهكذا بلغ عدد صفحات الكتاب **٢٩٢** صفحة من الحجم العادي .

ففي مقدمة الكتاب سرد الأمير الأسباب والدوافع التي كانت وراء انجاز هذا العمل مستعرضا المبررات الشرعية والمنهجية مؤكدا على أن ما قام به " أن لم يكن فيه نفع ديني أو دنيوي فلا ضرر فيه من جانبها ، فإن الكلام المحتوي على حكمة أو مثل أو حكاية يقوي النفس وينشطها بالتشويق اليما وراء ذلك لا سيما إذا ذكر ذلك في المقدمة التي تقدم امام المقصود للانتفاع بها فيه للارتباط لها به[٦٠١] " وبذلك يدرك الأمير أن حسن الاستهلال محبب إلى النفس ومثيرإلى الشوق والبحث فيدفعها حتما إلى الانكباب على العمل وتقبله دون كلل أو ملل وهو ما جسده الأمير فعلا في بداية حديثه حين ينقل قارئه أو بالأحرى سائله من لوحة إلى اخرى مستهديا بأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبعض صحابته وأقوال بعض العلماء والفقهاء والفلاسفة مستعرضا بعضا من القصص التراثي للتدليل على أحكامه وتدعيم حججه بالعبرة تارة وبالتذكير اخرى متحدثا عن النبوة وحاجة الإنسان إليها لهدايته إلى سواء

السبيل مؤكدا على وجوب الوفاء بالعهد والحكم بالعدل لأنه ذاق مرارة الخيانة والظلم فلا يحدثك مثل الأمير صدقا إلا من عاش هذه المآسي وشرب كأس مرارتها حتى الثمالة ، وتكاد هذه المواقف تتكرر عنده في كل مؤلفاته ولا يزال الأمير يرددها ولا يمل تكرارها كلما سنحت الفرصة لذلك ليشعر فرنسا بفداحة جرمها فقد انبرى بالقلم يذود به عن حياض الدين وشرف العرب وشمائل الإسلام ينشد الإنسان الكامل الذي يراه متجليا في" تبليغه الهدي والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ويعمل ويعلمه غيره فينتفع ينفع[٦٠٢] " وخير الناس من ادرك هذه الحقيقة فوعاها .

أما الفصل الأول ففي بيان نسب الأمير عبدالقادر ونشأته ومراحل تعلمه وتعداد أسماء شيوخه والإشادة بتلك الأرومة الكريمة التي ينحدر منهاو السبل التي ملكها في بلوغه " الذروة الشامخة وشام المرتبة الباذخة[٦٠٣] " مبينا ومفتخرا بمذهبه المالكي وتبحره في العلوم الدينية والدنيوية مما جعله يتبوأ مكانا عليا وسط قومه وبين أترابه حتى " انتهت إليه رئاسة الشورى وسياسة القربى من الأقارب والأباعد واستشرفت لمحبته الأرجاء والأقطار . . . ولو تتبعنا ما وصف به هو ووالده وسلفه وما عد من ثناء الناس في القديم والحديث لملأ الأرض وفات الطول والعرض وضاقت عن فحواه الطروس وتهلهلت بالعجز عن العبداالجروس[٦٠٤] " .

أما الفصل الثاني وهو تكملة للحديث عن ذلك النسب والحسب الشريف الذي تنحدر منه أسرة الأمير والذي يرجع إلى سيد الخلق محمد (ص) مفصلا الحديث عن نسب الرسول وأجداده وقبيلة قريش " فنسبه (ص) أشرف الأنساب وسببه أفضل الأسباب وبيته في قريش أوسط بيوتها المرامة وأعرق معدنها الكريمة ، فشماؤهم في المجد الصميم وشركائهم إلى ذلك المقام الكريم فسؤدد البطحاء عليهم مقصور والعيون إليهم أياً سلكوا

أمور[٦٠٥] " . كما يتحدث الأمير في هذا الفصل عن العرب العاربة والمستعربة من الشعوب العدنانية والقبائل القحطانية من البطون والأفخاذ منتصرا لقومه وجنسه العربي القح المجيد مستشهدا على هذا الشرف وهذا الامتياز بما صدر عن رسول الله (ص) من أحاديث شريفة في فضل العرب على غيرهم بل إنه عليه السلام جعل محبة العرب من محبته نفسه" فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض فببغضي أبغضهم[٦٠٦] " بل إنه كره العرب وبغضهم آية من آيات المنافق في قوله (ص) "لا يبغض العرب "إلا منافق[٦٠٧] " لما للعرب من فضل في حمل الرسالة وهداية الناس فالقرآن نزل بلسانهم والرسول منهم والكعبة في بلدهم فأي فضل يسمو على هذا ، مدللا على هذه الحقائق في تأكيد شرف هذه السلالة بكثير من المآثر وجلائل الأعمال والأخلاق التي صدرت عن السلف الصالح فبوأت هذه الأمة تلك المكانة التي كانت تستأثر بها دون الأمم الأخرى .

وكان الفصل الثالث مخصصا للحديث عن النبي والرسول ومعنى النبوة والرسالة وما يتعلق بذلك من أحكام وشروط ، ومن تفضيل بعض الرسل عن بعض وتخصيص كل رسول بآية أو معجزة ويذهب في تفسير ذلك والاستدلال على أقواله بما ورد في آي الذكر الحكيم شارحا تارة ومفسراً أخرى مشفعاً كلامه ببعض ما تواتر عن الرسول (ص) في هذا الموضوع وبعض أقوال العلماء والمفسرين والفقهاء كالسيوطي وابن حجر الهيثمي ، ويكاد حديث الأمير يتكرر كل مرة عن موضوع النبوة فقد سبق له أن عرض هذا في مؤلفه ذكر العاقل ، والمقراض الحاد ، ويحاول الأمير أن يربط دائما قارئه بموضوعه حين يستعرض جملة من الأحداث والقصص التي لها علاقة بما هو مقبل عليه إدراكا من الأمير بأن النفس تميل دوما إلى القص والسرد عبرة وتسلية وإن كان الأمير

يسميها في مذكراته تارة بالحكاية وأخرى بالطريفة واللطيفة والفائدة وفيها يتبع الموضوع بكل دقائقه كما فعل مثلا حين تحدث عن بعض الأنبياء والرسل كهود وصالح ولوط وداوود وغيرهم عليهم صلوات الله(٦٠٨) .

و يكاد يكون الفصل الرابع تتمة أو تكملة للحديث الذي بدأه الأمير في فصله الأول الذي خصصه لذكر نسبه وسيرته وشيوخه وفيه يعيد استحضار تلك المحن والمآسي التي ألمت بعبدالقادر وما تعرض له من الأهوال والشدائد في سبيل مبادئه وعقيدته درءا عن حياض الدين وإعلاء لكلمة الجهاد التي أفنى من أجلها زهرة شبابه ، واصفاً ما جرى بينه وبين أعدائه من منازلات ووقائع كانت له الغلبة فيها تارة ، ولفرنسا وخصومه الغلبة تارة أخرى ، واصفاً ذلك بكل صدق وأمانة إيمانا من الأمير بأن الزمن لا يبقي على حدثانه وأن الله يداول أيامه بين عباده .

وينتقل الأمير للحديث عن رحلاته وسياحته العلمية والدينية فلا يدع أمرا إلا وعرض له بالوصف والتعليق مسجلا كل لحظاتها وما استشعره عند كل موقف ، فأنصت إليه مثلاً وهو يصف بكل دقة ويرسم إطلالة الركب على مكة مهد الرسالة يقول : " إلى أن دخلنا بلاد الله الحرام الفجر بمقدار ساعة وعاينا قبلة كعبة صلاتنا وابتدأنا بسند طواف القدوم باستلام الركن اليمني والحجر الأسود والناس بين داع وقارئ وملب وخاشع وقانت وساجد وراكع خاشع وخاضع وجالس ينظر لتلك وساع بين الصفا والمروة بهرولة الرمل المتعاهد(٦٠٩) " ولم يغفل الأمير كعادته في هذا الفصل أن يستشهد بما يتأتى له من القول المأثور نثراً أو شعراً تأكيداً لمذهبه في الحرب والسلام والوفاء بالعهد وشرف الكلمة تأسياً بدينه الحنيف الذي يحث على ذلك ورداً على أولئك الذين اتهموه بالخيانة والخداع " ويحسبون الخدعة علينا وحاشا الله أن نخدع

وشرعنا لا يأذن لنا فيه[٦١٠] " .

كما نجد ذكراً لمعاهدات الأمير مع فرنسا في هذا الفصل بشروطها وبنودها وذكراً لانتصارات الأمير وهزائمه بعد أن ولاه جموع المسلمين إمارة البلاد والعباد والجهاد بعد دخول الجيوش الغازية أرض الجزائر وأغلب هذه الوقائع والأحداث نجدها أيضا مفصلة في مؤلف نجله الأمير محمد "تحفة الزائر " . وهكذا يعيد الأمير كل مرة إلى الارتداد إلى مفاخر قومه إلى ذلك الإرث العظيم يفاخر به خصومه ويغالب به أمجادهم ، فهو بالنسبة له معين لا ينضب وحوادث تقف شاهدة على عظمة أمته التي وهنت وضعفت ولكن الأمر عند الأمير لا يعدو أن يكون سحابة صيف وهذا ما حاول الأمير أن يؤكده في الفصل الخامس من هذه المذكرات بحيث نجده قد حشد كماً هائلاً من الأخبار والحوادث التاريخية التي التي تبرز مآثر وأيام العرب في الزمن الأول وسجاياهم وخصالهم في الحرب والسلم " ليعلم الواقف على هذا التأليف أن شرف العرب أمر شهير النواصي يعترف به المنصف والغريب والمعاند والقاصي[٦١١] " ولذلك راح الأمير يذكر ويعدد المناقب التاريخية لتأصيل هذه الحقائق فيتحدث عن فضائل مكة وتاريخ بنائها[٦١٢] وما جرى فيها من أحداث كتدفق ماء زمزم ونزول العمالقة وانهدام البيت وقصة إعادة بنائه وزوال المماليك بظهور الإسلام والنبوءات المشيرة به إلى جانب بعض القصص التي رأى الأمير أن لها علاقة بهذا المجد التليد مستحضراً في كل هذا ميزة العرب " شعرهم " يدبج به أحاديثه .

فالأمير عبدالقادر إنساني في التوجه لم يكن متزمتاً ولا متطرفاً صاحب فكر منفتح وروح متسامحة يؤمن بحق الإنسان في الحياة مهما كان جنسه أو لونه لذلك آثر أن يتحدث في الفصل السادس من مذكراته عن الروم القيصرية فوفاها حقها بكل موضوعية وحدد مناقبها وإسهاماتها في بناء صرح الحضارة الإنسانية مثنياً على

إخلاص الحواريين لنبيهم عيسى عليه السلام معدداً فضائل النصارى من خلال آي القرآن الكريم "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وإنهم لا يستكبرون "المائدة آية ٨٢ . وقوله : " وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين " المائدة آية ٨٣ ، مستشهدا في المقام نفسه على مدى تحبيب الإنجيل المسلمين للنصارى ويضرب لذلك مثلا في قصة النجاشي وما جرى لأوائل المهاجرين للحبشة حين خاطبهم بقوله " ما تجاوز عيسى ما قلت بمقدار هذا العود . . . . اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي آمنون به من سبكم عزم ، من سبكم عزم ، من سبكم عزم ، فما أحب أن جبل دبرا من ذهب واني آذيت أحداً منكم(٦١٣) " مدليا بشهادة على كرم أخلاقهم وطهر سرائرهم " ولقد سايرناهم سنين واختبرنا أحوالهم فيها بكثير من الخصال الجميلة لا سيما وصفه تعالى لهم بأنهم لا يستكبرون ، فإن عدم الكبر مستمر بينهم إلى الآن(٦١٤) " ولعل مرد نبل أخلاق الأمير وإقراره بهذا يعود أساساً إلى صفاء قلبه ودماثة خلقه فهو يرى الكل بعين الطيبة وجميل الخلق على أن معاشرته إياهم في حربه وسجنه ومجادلاته تبرز ربما هذه الحقيقة التي تنأى عن التملق . ذلك أن الأمير كما هو معروف لا يخاف في الحق لومة لائم " نعم شاهدنا ممن رأينا من كثير لهم الأدب والاعتراف والثبات والإنصاف ومعرفة الأفضل والمتفضل ومنازل الرجال وإعطائهم حقهم من تعظيم وتوقير وما يبلغنا عن مجالسهم في محادثتهم عنا إلا ما يقر العين(٦١٥) " وتلك هي روح التسامح والعفو والصفح برغم كل المآسي التي لحقته من بعض هؤلاء وكعادة الأمير فهو ينتقل في كل فصل من موضوع إلى آخر ليوفيه حقه فعرض بالحديث للمسيح وعودته إلى الأرض

كما عدد فضائل مريم العذراء طارقاً كل ما له علاقة بالنصارى وكأنه يثبت لمعاصريه منهم على أنه يعلم من تاريخهم وسيرهم وأخبارهم ما قد يجهله هؤلاء أنفسهم فيقيم عليهم الحجة والبينة ليعلموا أي رجل هو عبدالقادر العربي المسلم .

أما الفصل السابع فأفرده الأمير لما اجتمع نسبه من هذه الأجناس وغيرها كالروم والعرب والنبط فما هذه الأجناس إلا أصلاً واحداً ثم تفرقت بهم السبل بعد ذلك لتنفرد كل أمة بميزة وخاصية تدل عليها بين غيرها ، وينطلق الأمير في ذلك من كثير من الأحكام والأدلة العقلية والتاريخية مؤكداً أن هذه الخصومات والعداوات لا مبرر لها أصلاً والأصل هو التراحم والتواصل ، ومنه فإنه لا يمكن لأحد أن ينكر هذه الصلات والوشائج التي تربط بني الإنسان جميعا ، ويضرب لذلك أمثلة فمنبتهم واحد ودماؤهم اختلطت فللعرب مثلا " مصاهرة مع النبط من جهة مارية القبطية التي أهداها المقوقس لنبينا عليه السلام فأتت معه بإبراهيم ومات قبل أمد الرضاع فقال : "إن له مرضعاً في الجنة " وقال " لو عاش ابراهيم لم يعط الجزية قبطي[٦١٦] " ولعل الأمير كان يأمل من خلال هذا كسر تلك الحواجز النفسية والدينية والعرقية التي كثيرا ما كانت معوقات في سبيل الحق والسلام والوئام والأخوة الإنسانية فالكل من آدم وآدم من تراب :

العرب والروم وفارس فاعلمن
ولد سام فيهن الخير كن
القبط والبربر والسودان
ولد حام ثبت البرهان[٦١٧]

و في تراثنا الإسلامي كثير من القصص والشواهد التي يرجع إليها عبدالقادر

للتدليل على مذهبه الإنساني ونظرته إلى غيره دون استعلاء فقد روى " أن اعرابيا جاء معاوية فقال له : " سألتك بالرحم الذي بيني وبينك إلا ما رفدتني ، فقال : أنت من عبدمناف ؟ قال لا ، قال : أنت من قريش ؟ قال : لا ، قال : أنت من العرب؟ قال : لا ، قال : أي رحم بيني وبينك ، قال : رحم آدم ، قال : رحم آدم فجوة لأكونن أول من وصلها" فأعطاه[٦١٨]" .

كما عرض الأمير في هذا الفصل لبعض القصص التراثية القديمة المستوحاة من مصدره الأساسي ومن موروث الأمم القديمة كقصة "ياجوج وماجوج[٦١٩] " وقصة النمرود مع سيدنا ابراهيم الخليل[٦٢٠] وأصحاب الأخدود[٦٢١] معدداً صفات وأخلاق ومآثر بعض الملوك المشهورين عارضا لسير بعض الأنبياء مفرداً قسطاً من هذه الصفحات للتغني بحب الوطن والحنين والشوق إليه . ذاك أن حب الوطن من الإيمان كما جاء في المأثور ، فالكريم "يحن إلى وطنه كما يحن النجيب إلى عطره[٦٢٢] " . مستحضرا مختارات من الشعر العربي التي تصور هذا الحب وهذا الحنين وتشد الآصرة[٦٢٣] .

وينهي الأمير هذه المذكرات بخاتمة عدد فيها أسماء الشهور العربية ، تأكيدا لانتمائه وتعلقا بتراثه ، مفصلا القول عن مزايا وخصائص كل شهر من هذه الأشهر ، فهو يذكر مثلا : أن محرم سمي بهذا الاسم " لتحريم القتال فيه ، ثم صفر لخلو مكة من أهلها فيه . . . ثم الربيعان ارتباع الناس فيهما أي لإقامتهم في الربيع زمن المطر ، ثم جماديان لأن الماء يجمد عليها في زمن البرد[٦٢٤]" . دون أن يغفل –طبعا– ذكرى أسماء بقية الشهور عند العجم خاتما حديثه بالتطرق إلى علامات قيام الساعة وأشراطها[٦٢٥] .

وتبقى هذه المذكرات مصدراً تاريخياً هاماً لاستكشاف بعض الجوانب الخفية في

حياة الأمير لما تحمله من حقائق فهذا المخطوط يعد بحق " تحفة من أهم التحف لأنه نسخة فريدة ولأنه ذو صفات خاصة وله تاريخ خاص . . . فكل جملة تاريخية في هذا المخطوط لها قيمتها الخاصة لأنها مكتوبة بأيدي شهود عيان عاشوا الأحداث وصنعوها بأيديهم وأعطوها تفسيرها من داخل الواقع الذي التحم بأنفسهم أيما التحام، ومهما تكلم الأمير عن نفسه بعفة وتواضع، أو تكلم عنه خليفته ببعض الإعجاب، فإن أسلوب الكتابة يبقى أسلوباً مباشراً ميزته الأولى الصدق الأمانة وبساطة التعبير"(٦٢٦) .

٤ - المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد:

يجمع باحثو ودارسو حياة الأمير عبدالقادر وآثاره على أن كتاب " المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد" هو أهم مصنف ألفه الأمير سواء من ناحية الحجم أو الموضوعات التي يبحثها حيث أودع فيه زبدة تجاربه وبين فيه بوضوح مذهبه الروحي والصوفي والفلسفي في الوصول إلى الحقيقة التي ينشدها" وحصيلة تأملاته حيث أقدم فيه على تناول القضايا العويصة في تاريخ الفكر الإسلامي . . . . وبث فيه آراءه الإصلاحية بثاً دقيقاً آملاً متفائلاً بتحقيق رجائه الودود المنشود في الإصلاح لأن المواقف أمثلة لما يراه ويريه غيره في مجالسه لا سيما الخاصة منها لخلصائه ومريديه(٦٢٧).

والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات يبلغ عدد صفحاتها مجتمعة ١٤١٦ ص تضم ٣٧٢ موقفا وقد طبع المواقف لأول مرة سنة ١٣٢٩هـ -١٩١١م وأعيد طبعه ثانية في عام ١٣٦٢هـ-١٩٦٦م عن دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر وهي طبعة منقحة " بوبت ورتبت بالاستناد إلى النسخة الأم الأصلية المكتوبة بخط المرحوم السيد الأمير عبدالقادر الجزائري وقد قوبلت على نسخة عالم الشام الكبير المرحوم الشيخ

عبدالرزاق البيطار المحلاة هوامشها بتقييدات وملاحظات هامة بخط المرحوم الأمير المؤلف، كما قام بمراجعتها والوقوف على أصلها وتصحيحها لجنة من أكابر وأفاضل علماء دمشق"[٦٢٨] مما يعطى هذه النسخة قيمة علمية من حيث دقة التحقيق وصحة ما جاء فيها نسبة للأمير إلا أن عيب هذه النسخة يكمن في عدم وجود فهرس في كل جزء على حده مما يضطر القارئ إلى العودة إلى فهرس الجزء الثالث في سبيل تحديد الموقف أو الصفحة التي يريدها.

أما عن اختيار الأمير لهذا العنوان " المواقف" فإننا نجد أن الأستاذ بوعبدالله غلام الله في دراسته لهذا الكتاب يذكر أن الأمير يشير دائما إلى مصادره " وما كان يلقى إليه في المنام أو اليقظة وهو قائم في الصلاة وما أخذه عن رسول الله مباشرة أو ما تلقاه من الشيخ محيي الدين بن عربي يقظة أومناما ولكنه لم يذكر من أين أخذ هذا العنوان الذي وضعه في كتابه الضخم في التصوف والاجتهاد"[٦٢٩] على أن بعض الباحثين يرجع تسمية المؤلف بالمواقف إلى أن الأمير أراد أن يتشبه بغيره من أعلام التصوف " الذين ألفوا كتباً بهذا العنوان ومنهم محمد عبدالجبار النفري[٦٣٠] المتوفي سنة ٣٥٤هـ - ٩٦٥م وبن قضيب البان عبدالقادر بن محمد المتوفي سنة ١٠٤٠هـ -١٦٣٠م صاحب كتاب المواقف الإلهية على نسق الفتوحات المكية "[٦٣١]

ألف الأمير كتابه بدمشق وكان تأليفه هذه الموسوعة الجامعة حصيلة لثقافة الأمير الصوفية كما جاء استجابة لطلب بعض جلسائه من العلماء الذين التمسوا من الأمير أن يدون لهم ما يلقيه في دروسه وما يتكلم به في مجالسه والكتاب خلاصة اعتكاف وانكباب على مدى العقدين الأخيرين من حياته على القراءة والتأمل " لموسوعة ابن

عربي الصوفية وهي الفتوحات المكية وقراءة فصوص الحكم وكل كتب محيى الدين بن عربي وكان جادا في هذه الفترة المقدرة بقرابة عشرين سنة في تأليف كتابه الضخم الموسوم بالمواقف . . . . ويعد الأمير أخلص تلامذة بن عربي وأشدهم تمسكا وعملا بمذهبه ونظرياته"(٦٣٢)

يستهل الأمير كتابه بفاتحة تنبئ على أنه لم " يكن شاكاً ولا حائراً بمعنى عدم الاهتداء إلى طريق الصواب وإنما ه يفتعل الشك فقط أو على الأصح يثير الحيرة من حيث هي إشكال تعجز أمامها التفسيرات العقلية المعتمدة في مناهج المتكلمين والفلاسفة لأنها تفسيرات متناقضة فيما تقترحه من حلول"(٦٣٣)

ولذلك فهو يؤكد أن عمله هذا ما هو إلا " نفثات روحية وإلقاءات سبوحية بعلوم وهبية وأسرار غيبية من وراء طور العقول وظواهر النقول خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر في الكتاب قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا إذا لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها تركوها في زوايا أماكنها إلى أن يبلغوا أشدهم ويستخرجوا كنزهم(٦٣٤)"

والأمير أودع في سفره هذه الأسرار والعلوم والإلقاءات التي لم يكتسبها علما ولم يقرأها في كتاب وإنما هي هبة ومنة من الله تعالى" فهي من قبيل العلم الموهوب لا صلة له فيها بالاكتساب ولم يتلقها من كتاب ، يقدمها في تصنيف عسى الله أن ينفع به إخوانه في طريق الرحمن(٦٣٥) ثم يعمد الأمير بعد هذا إلى شرح وتبيان مذهبه بوضوح في كتابه حتى لا تؤول أقواله وتفهم بغير ما يقصد إليها فيقول " وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم ولا الحكيم المعلم ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسول المرسلة وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والسادات

والعارفين "[٦٣٦] وهو ما يؤكده الأمير في أول موقف من مواقفه حين يقول " أهل طريقتنا رضي الله عنهم ما ادعوا الإتيان بشيء في الدين جديد وإنما ادعوا الفهم الجديد في الدين التليد، وساعدهم الخبر المروي أنه لا يكمن فقه الرجل حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة [٦٣٧] بل نرى الأمير يحذرنا من أولئك الغلاة الذين " يصيرون حينئذ حلولية أو اتحادية أو اباحية أو ما شاء الله من الضلالات فهم مع هذا يتخيلون أن ما هم عليه هو طريق الله تعالى وأنه أسنى ما يتحف الله به من اصطفاه من عباده فقنعوا بكلمات من الحقائق يتمشدقون بها في المجالس ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، حبطت أعمالهم فلا يقيم لهم الحق تعالى يوم القيامة وزناً، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، فلا يرفعون بالأوامر والنواهي الشرعية رأسا، يستهينون بالأعمال الصالحات وأنواع القربات ولا يناجون الحق بكلامه في الصلاة والتهجد في الليالي المظلمات، فالحذر الحذر إخواني ممن هذه صفاتهم والنجاء النجاء ممن هذه سماتهم[٦٣٨] ولذلك فإن الأمير " وأمثاله من العارفين لم يدعوا إلى الإتيان بشيء جديد في الدين وإنما كان غرضهم الوصول لفهم جديد للدين التليد استنادا إلى الشريعة واجتهادات الذين سبقوهم من المتصوفة التابعين للسنة[٦٣٩]

وقد استمد الأمير مادة كتابه أساسا من القرآن الكريم ومن أحاديث الرسول(ص) وبعض أقوال ومآثر القوم الصوفية، ويعكف الأمير على شرحها أو تفسيرها والتعليق عليها وابداء رأيه فيها والرد على الأسئلة التي كانت توجه إليه فيخصص لكل مسألة موقفا من المواقف .

والملاحظ أن هذه المواقف تتباين وتختلف، فهي تارة قصيرة لا تتعدى بضعة أسطر وفي أحيان أخرى يفرد الأمير صفحات للحديث عن موقف معين .

وحقيق علي أن أعترف أن دراسة المواقف ليست بالأمر السهل لأنها تتطلب تفرغا تاما ووقتا طويلا حتى يتمكن الباحث من الوصول إلى الدلالات الحقيقية العميقة وفهم هذه المواقف وآراء الأمير التي لم تكن منفصلة عن موروثه الثقافي الإسلامي ذلك أن " الأمير عبدالقادر رحمه الله كان كثير المطالعة للكتب فقد مارس التصنيف غير مرة تشهد آثاره على أنه كان يقتبس من كتب غيره ككل الناس لأن من يؤلف كتابا يفسر فيه قضية بعينها علمية أو أدبية أو شيئا آخر، فهو يحتاج إلى عناصر تدخل في بناء مشروعه وفي أغلب الأحيان لا يجدها كلها عنده"[٦٤٠] .

ومع هذا سنحاول أن نتتبع الأمير في كل جزء لإعطاء صورة أو قل وصفاً لكل مجلد من هذه المجلدات وذلك على الرغم من صعوباتها .

فالمجلد الأول تبلغ عدد صفحاته ٤٨٠ صفحة يضم ٢١٥ موقفا تبدأ بالموقف الأول " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة – الأحزاب آية ٢١ وتنتهي بالموقف ٢١٥ " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون– العنكبوت الآية ٢٩ ، وتختلف مواقف الجزء الأول طولاً وقصراً فمن أقصر المواقف الموقف ٨٤ص ١٦٣ – الموقف ٧ ص٣٨ الموقف ٦ ص ٣٨ أما أطول المواقف في هذا الجزء فهو الموقف ٢٠٩ ص٤٥٧ والموقف ٨٩ ص ١٨٠ والموقف ٨٦ ص ١٦٧ أما بقية المواقف الأخرى فصفحاتها متقاربة .

ومادة هذه المواقف لا تخرج عن تفسير لآيات من الذكر الحكيم وذلك ما طغى على أغلب مواقف الجزء الأول كما تعرض الأمير إلى شرح بعض الأحاديث النبوية كالموقف ٩ ص٤٢ والموقف ٢٢ص ٦٥ كما نجد مواقف لتفسير بعض الأقوال أو الآراء وخاصة لابن عربي شارحا ومعلقا ومنتصرا لشيخه إمام العارفين كما يسميه الأمير، من

مثل الموقف ٢٥ص٧٠ والموقف ٤٨ ص ١٠١ والموقف ٥٧ ص ١٥ على أن هناك قسماً رابعاً في المواقف لا هي بالآية ولا بالحديث ولا بالقول المأثور يأتي به الأمير في موقف صوفي ثم يقوم بعرضه وتفسيره كما في الموقف ٧٦ ص ٣٨ والموقف ١٧ ص ٥٦ والموقف ٣٠ ص ٧٥ وغيرها .

والمتصفح لهذه المواقف يجد أن الأمير يوغل في تفسيرها بأسلوب طافح بالرؤى والصور والتخيلات على منوال السالكين المستعذبين للألم وركوب الخطر غايتهم في ذلك الوصول إلى الواحد الأحد والحقيقة فهي الطمأنينة والسكون بعد التعب والعناء في مسامات التاريخ وفضاءات التصوف الإسلامي وكأن الإنسان يبدأ من الزمن الراهن ثم يعود رويداً رويداً مسافراً في الأزمنة الغابرة في رحلة إيمانية ، وهذا ما حصل مع الأمير وغيره من المتصوفة الذين لا يتهيأ لأحدهم هذا " إلا لمن حصل التجارب الروحية والعنيفة نصيباً موفوراً ثم راح يجتر الماضي وقد أحاله إلى تسليم في الابتهالات تسري فيها شائعة الألم الكليل بل العليل وهذا كله لا يتحقق إلا في سن متأخرة تماما[٦٤١] " .

ومواقف الأمير مختلفة في أسلوبها فبعضها ميسر الفهم لا يتطلب عناء ولا مشقة في فهم معانيه وبعضها الآخر لا يأتي إدراكه إلا بصعوبة كبيرة ولا تفهم رموزه واشاراته إلا لأهل الصنعة ممن يمتلكون هذا الفيض الصوفي .

ففي الموقف ١٣٣ مثلا والذي ينبري فيه الأمير لشرح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " نرى الأمير يلجأ إلى تبسيط الحديث ويتدرج في شرحه بلغة سهلة بسيطة ويبين دلالته ومعانيه فيتناوله جزءا جزءا متدرجا فيرى أن الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون فرضا على فئة دون أخرى أو شخص دون آخر ، ولذلك فقد أتاح الله لكل واحد الوسيلة التي تمكنه من أداء هذا الواجب الذي تستقيم به حياة الأمة كل حسب اختصاصه وقدراته يقول الأمير " اعلم أن التغيير باليد هو للسلطان والحكام الذين جعل لهم ذلك ، والتغيير باللسان هو للعلماء الذين عرفوا بالعلم والتظاهر به بين العوام والتغيير بالقلب هو لعامة المؤمنين العارفين بالمنكر[٦٤٢] " . ذلك أن الأمير يؤمن بهذه الاستعدادات والفروق ولكل طبقة وسيلتها ومنهجها في ردع المنكر وأهله ، فالحاكم بيده الوسائل التي تمكنه من تحقيق ذلك ولكنه لن يستطيع أن يستخدمها دون وجه شرعي فتكون فتاوى العلماء هي الرخص التي تفسح الطريق أمام السلطان لمحاربة الفساد ، والعلماء أكاليل الهداية وقدوة الناس فيكون حينئذ الإجماع ويتحقق شرع الله في أرضه ليعم الأمن والسلم والخير . وهكذا نجد أن الأمير يقسم هذه التكاليف فلا يبقي هذا الوجه الشرعي منوط بفئة دون أخرى ، وكعادة الأمير دائما فإنه يستشهد بما يراه موافقاً ومتمماً لقوله معززاً لحجته فيورد من أقوال السلف وخاصة مما أثر عن إمام العارفين وغيره من علماء الإسلام ، وذلك أن الأمير لا يصدر في أحكامه وتعليل آرائه من عدم ، وإنما يحاول دائما ربطها بأصولها ومصادرها وهي لا تخرج عن القواعد الثلاث : القرآن- الحديث -والأثر الصالح ، ويتصاعد مستوى الخطاب فإذا نحن أمام أسلوب ومقام يختلف تماما عن سابقه فيراعي فيه مقتضى الحال وما يتطلبه تفسيره لبعض الآيات من فهم خاص تغلب عليه تلك النزعة الصوفية .

وفي الموقف ٨٣ يورد الأمير قوله تعالى : " وأما بنعمة ربك فحدث " فيؤكد على أن هذه الآية ألقيت عليه إلقاءً غيبياً مراراً عديدة كما تلقى نصف القرآن وأكثره بهذه

الطريقة" فإن الله تعالى قد عودني في أنه مهما أراد أن يأمرني أو ينهاني أو يبشرني أو يحذرني أو يعلمني علماً أو يفتيني في أمر يردني إلي فأرجع بالآية قرير العين ملآن اليدين ثم يلهمني ما أراد بالآية وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا وجهة، ولقد تلقيت، والمنة لله تعالى، نحو النصف من القرآن بهذا الطريق وأرجو من كرم الله تعالى أن لا أموت حتى أستظهر القرآن كله[٦٤٣] ".

يبدأ الأمير في تفسير الآية معتبرا أن أعظم نعمة وأفضل منة فاء الله بها على عبده هي نعمة العلم الذي يوصل صاحبه إلى معرفة الله والإقرار بوحدانيته والإيمان بالرسل والأنبياء وما جاؤوا به من أحكام وسنن ظاهرة وغيبية والرضا بالقدر خيره وشره وخير السبل إلى هذا هو العلم وحده، ومن هنا كانت ولا شك نعمة من أعظم النعم إن لم تكن أعظمها على الإطلاق وما دونها " من النعم مجاز بالنسبة إليها[٦٤٤] " ولذا كان العلماء أو العارفون هم السباقين إلى تعظيم الله والشكر له والثناء عليه كل حسب طريقته وكل حسب استعداده لأن العلم نفسه متفاوت بين الناس وادراكهم له يتوقف بحسب إمكاناتهم " إذ ما كل علم يصلح لكل الناس ولا كل الناس يصلح لكل علم بل لكل علم أهل، لهم استعداد لقبوله وهمة والتفات إلى تحصيله[٦٤٥] " والتعبير عن الشكر عند الأمير صفة محببة فإن الله إذا أنعم على عبده أحب أن يرى اثر نعمته عليه وهذا الأثر هو الإقرار بالشكر" فإذا كانت النعمة مما يظهر بالفعل أظهرها بالفعل وإن كانت مما يظهر بالقول أظهر بالقول والتحدث عنها"[٦٤٦] ثم ينتقل الأمير من موقف جزئي إلى آخر فيضمنها الآيات والآحاديث مفسراً تارة ومبدياً رأيه أخرى وذلك ديدنه في أغلب المواقف تقريبا في نزعة أسلوبية يغلب عليها الرمز الصوفي الذي لا تكاد تتضح معانيه في كثير من الأحيان .

أما المجلد الثاني فيحمل العنوان نفسه ويشمل ٨٢ موقفا ويبدأ من ص ٤٨١ والموقف ٢١٦ وينتهي ص ٩٦٢ وبالموقف ٢٩٨ الذي لم يكتمل في هذا الجزء وهي طريقة السلف في التدوين .

والمواقف في المجلد الثاني لا تختلف في طريقة عرضها وتحليلها عما جاء به الأمير في المجلد الأول فهي كسابقتها شرح وتفسير وتحليل وتأويل لآيات من الذكر الحكيم وأحاديث شريفة وبعض الأقوال المأثورة عن الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم، ولعل الملاحظة التي يمكن تسجيلها هو طول الموقف ٢٤٨ الذي يشمل زهاء ١٧٥ ص، من ٥٦٥إلى ٧٤٣ قسمه عبدالقادر إلى حوإلى ٩٠ عنواناً وهي أشبه بكتاب مستقل ولذلك أشار الأمير على قارئه إن " شاء فليجعل هذا الموقف رسالة مستقلة يسميها بغية الطالب على ترتيب التجلي بكليات المراتب"[٦٤٧] .

ففي الموقف ٢٣٣ وفي قوله تعالى " وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم"- الشورى آية ٣٠ يتصدى الأمير لشرح وتفسير هذه الآية ولكنه قبل أن يبدأ في ذلك نراه يدرج تحتها بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تعالج الموضوع نفسه ويسير في السياق نفسه من مثل " وورد في الخبر «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» يُبتلَى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبدحتى يتركه يمشي على وجه الأرض وما عليه خطيئة[٦٤٨] " .

وينبه عبدالقادر وهو يمضي في تفسير الموقف أنه ليس هناك اختلاف ولا تعارض فيما بين الآية وهذه الأحاديث " لأن الآية واردة في مسمى المصيبة حقيقة وهي لا تكفر بها خطيئة ولا ترفع بها درجة والأحاديث واردة في مسمى المصيبة مجازا بحسب

الظاهر وهو المسمى ابتلاء واختباراً وتمحيصاً وبهذه الأسامي ورد في الكتاب والسنة بكثرة"[٦٤٩] ويرى عبدالقادر أن هذه المصائب وهذا الابتلاء نفسه ليس بدرجة واحدة ولا ينزل بفئة واحدة بنفس المستوى والحدة، ولذلك فإن الله جعل الثواب علة تحملها والصبر عليها بحسب درجتها ووعد الصابرين، ويرى عبدالقادر أن ما يحل بالإنسان من آلام على ثلاثة أنواع " مصيبة وهو ما يصحبه التسخط والاعتراض وهو خاص بالكفار وبعض ضعفة الإيمان، وابتلاء وتمحيص واختبار وهو الذي يصحبه الصبر وعدم التسخط وهو لأهل الإيمان الكامل[٦٥٠] ". فالمقربون إلى الله دائما ليسوا بمنأى عن الابتلاء حتى ولو كانوا رسلا وأنبياء والكملة من ورثتهم لأن الذي " يحل بالكفار وضعفة الإيمان فهو مصيبة، وما يصيب خاصة المؤمنين فهو تكفير سيئات كما ورد في الأخبار الصحيحة، وما يصيب خاصة الخاصة كالأنبياء والصالحين الأمثل فالأمثل فهو ترقى درجات ونعم خفيات[٦٥١] "ولذلك كان الثواب عظيما والأجر بغير حساب " فما يحل بالأنبياء والأمثل فالأمثل ظاهره محنة، وباطنه منحة، وهو تعالى قادر أن يرفعهم لدرجات الكمال من غير ابتلاء، ولكن حكمته اقتضت هذا، فلا يسأل عما يفعل[٦٥٢] " ولذلك فكل بلية تلحق المؤمن فهي نعمة وقد ورد في الصحيح " عجبت للمؤمن أن الله لم يقض له قضاء إلا كان خيرا له – رواه الإمام أحمد– وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال: ما أصابتني مصيبة إلا رأيت الله فيها على ثلاث نعم: أحدها كونها لم تكن في ديني، ثانيها: أنها لم تكن أكبر فإنه ما من مصيبة إلا عند الله ماهو أعظم منها وثالثها ما وعد الله من الأجر[٦٥٣] " وتلك لعمري أقصى درجات الإيمان وحسن الظن بالله الذي لا يخيب من ترجاه ولا يذل من والاه .

وهكذا يمضي الأمير في مواقفه يحلل ويفسر ويستعرض ما في جعبته من الشواهد

من الموروث ليعيش الموقف روحاً وثقافة وإيماناً بإشارات إلهية وتجليات روحية يرتقي الدرجات الصوفية فتحتجب عنده لغة الكلام وتنفتح أمامه الأبواب ويتنفس له صبح العناية الإلهية فإذا هو يحقق رجاءه.

وفي الموقف ٢٦٨ ص ٨٠٧ يتناول الأمير قوله تعالى " فلا تسئلن ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين " هود آية ٤٦ . فيذهب في تفسيره تفسيراً ينم عن إدراك حقيقي وفهم لمعاني القرآن الكريم من حيث هو توجيه رباني للبشرية فيه خيرهم إذا ما تدبروا آياته وفهموا معانيه، فالإنسان في رأي الأمير كثيرا ما تخدعه مظاهر الأشياء فتصرفه عن جوهرها وبالتالي تكون قسمته ضئزى من الخير والنفع، وإذا ما استبان الأمر وتحققت الخسارة يلجأ هذا الإنسان الضعيف الهلوع الجزوع إلى بارئه يدعوه خوفاً وتضرعاً لأن" الحق تعالى أمر عباده أن يسألوه ما هم محتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم وأخبر سيد السادات: أن «الدعاء مخ العبادة» كما أخبر «أنه تعالى يحب الملحين في الدعاء[٦٥٤] " .

فالإنسان في رأي الأمير يدعو الله فيما يعتقد أنه خير وصلاح له والاختيار إليه – سبحانه وتعالى– فيما هو الأصلح والأنفع ويستشهد الأمير على صحة هذا بقوله: " . . . . أبو بكر سأل الله العافية ومات مسموماً. . . . عمر سأل الله العافية ومات مطعوناً . . . . عثمان سأل الله العافية ومات مذبوحاً. . . . علي سأل الله العافية ومات مقتولاً، فهؤلاء سألوا الله العافية من حيث يعلمها هو تعالى عافية لا من حيث يعلمونها هم عافية فأجاب الحق – تعالى– سؤالهم بالعافية[٦٥٥] " .

ومن هنا فإن الإنسان كثيرا ما يستعيذ بالله من أشياء يعتقد أنها شر ويرجو الله

أشياء يحسب انها خير وربما يكون العكس ، فرب ضارة نافعة ورب نافعة ضارة ، ومن هنا لا يكون الدعاء في نظر الأمير عبادة " إلا مع التفويض للحق تعالى العالم بعواقب الأشياء وبواطنها فالعالم الحاضر مع الحق تعالى لا يسأله شيئا خاصاً معيناً على القطع أنه خير له إلا إذا أعلمه الحق تعالى بخيريته وأطلعه على عينه الثابتة . . . . فإنه العالم على الإطلاق بما هو الخير والمصلحة"[٦٥٦] .

ويستشهد عبدالقادر بآيات صريحة في هذا من مثل قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) -البقرة ٢١٦- ولذلك يدعو الأمير الإنسان إلى تفويض أمره إلى الله ويحسن الظن به فتخلص نيته والله ألطف بعبده من نفسه" فلا يسأل السعادة والخير فيما يتخيله ويظنه من أسبابها على القطع والجزم ولا يستعيذ من الشر والشقاء فيما يظنه من الأسباب فإن من أسمائه تعالى اللطيف وهو الذي يخفى الأشياء في أضدادها كما أخفى ليوسف عليه الصلاة والسلام الملك في الرق والسجن وأنواع من الشر والبلايا ظاهرا فقال لذلك (إن ربي لطيف بما يشاء) - يوسف آية ١٠٠ - [٦٥٧].

أما المجلد الثالث وهو الأخير في هذا المصنف الضخم فيبدأ من صفحة ٩٦٣ إلى ١٤١٦ ويبدأ الموقف الأول منه ٢٩٩ في الصفحة ٧٩٩ ويضم هذا المجلد ٧٣ موقفا يشتمل على آيات قرآنية وأحاديث نبوية وشرح لبعض المأثور وينتهى بقصيدة أميرية في التصوف أنشدها الأمير في مدح شيخه الصوفي وقد عرضنا لها بالدراسة في فصل الأمير الشاعرعلى أننا نلاحظ أن هناك اختلافا كبيرا بينها وبين القصيدة التي وردت في الديوان .

وينتهي هذا المجلد بفهرس عام للأجزاء الثلاثة فيها أرقام الصفحات وعدد المواقف

وهو الأمر الذي يضطر القارئ في بحثه عن موقف أن يعود إلى المجلد الثالث وتتراوح المواقف طولا وقصرا أيضا في هذا المجلد فمن المواقف الطويلة موقف ٣٥٦ ص ١١٩٧ والموقف ٣٥٥ ص ١١٦١ وهناك بعض المواقف التي لا تتجاوز الصفحة كالموقف ١٣٠ ص ٩٨١ والموقف ٣٠٦ ص ٩٩١ .

ففي الموقف ٣٤٤ قال تعالى «ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها» الشورى آية ٢٠ وقال " ومن كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد" الإسراء آية ١٨ ، وورد في بعض الأحاديث الربانية أنه تعالى يقول (يادنيا من خدمك فاتعبيه ومن خدمني فاتبعيه) حيث يذهب عبدالقادر في تفسير وشرح هذا الموقف على أنه لا اختلاف بين الآيتين والحديث والمراد بهما أن الدنيا شاغلة الكثير عن خدمة الله تعالى إلا من رحم ربك وهم قليل ، فهذه الدنيا بزينتها وبهرجها وزخرفها كثيرا ما تقود صاحبها إلى الهلاك والويل إذا انقاد وراءها وجعلها في قلبه لا في يده كما يقول الأمير .

صحيح أن الله خلق الإنسان ليستعمر الأرض وليعيش فيها دون إفراط ولا تفريط فلا ينسى نصيبه من الحياة وزينتها التي أخرجها لعباده وفي الوقت نفسه لا يترك هذه النفس الأمارة بالسوء دون لجام يكبح جماحها ويوجهها وينبهها ساعة الغفلة والنسيان ، فكثيرا ما ينعم الله على عباده نعماً تكون عليهم نقمة وعذابا" فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا" التوبة ص٥٥ لأنهم لم يشكروا ولم يحمدوا وظنوا أن أموالهم مانعتهم من الله كما حصل مع قارون . لذلك يدعو الأمير إلى الأخذ بالدنيا من جانبها الشرعي والاستعداد دوما للرحيل " والتصرف فيها تصرف المستخلف لا تصرف المالك"[٦٥٨] فهذا سيدنا سليمان الذي سخر له الله كل شيء في الدنيا "هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب" ص آية ٣٩ ، لم يأمن جانبها

وكان دوما يتذكر الآخرة لأنه يعلم أنها دار لهو ولعب وتفاخر، والدنيا نفسها دار شقاء تتعب من خدمها، فيمسي عبدها وعبد الدرهم والشهوة وتسعى وتتبع من ينصرف عنها" إذ انبساط الدنيا واقبالها على من خدمها ورغب فيها عقوبة من الله تعالى لخادم الدنيا(٦٥٩) " فالعاقل من أدرك هذا قبل فوات الأوان فجعل لنفسه من دنياه حظا يتزود منها لسفر طويل وليس المراد بهذا في رأي عبدالقادر الزهد والانقطاع التام والإعراض عن الدنيا بل التوسط في الأمور وهي شريعة المؤمن في الحياة ولا ريب.

وفي الموقف ١٣٠ ص ١٠١٦ يتناول الأمير قوله تعالى: " إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر " العنكبوت آية ٤٥، بالشرح والتفسير فيرى بأن الله تعالى فرض هذا الركن على المسلمين وألزمهم به، بل وجعل الحد بين المؤمن والكافر الصلاة، ذلك لأنها الرباط الوحيد الذي يظل يصل العبد بخالقه، فهي عبادة ومناجاة وذكر ودعاء وخلوة ورياضة وفي هذه الآيات للعبد ثلاث بشارات من الله سبحانه وتعالى " الأولى أنها تنهي فاعلها عن الفحشاء وهو كل ما نهى الشارع عنه وعن المنكر وهو ما لا يعرف في شريعة ولا سنة قولاً أوفعلاً والمعروف ضده(٦٦٠) " فالعبد حين يكبر فقد ولج ملكوت الله فينصرف عن الدنيا والأهل ليبدأ في التلاوة والركوع والسجود والتسبيح والتكبير والتحميد فتجتمع له فيها " المشاهدة والمناجاة فما فيها محل للاشتغال بالفحشاء والمنكر ظاهرا وباطنا ولذكر الله فيها وهو القرآن أكبر من جميع ما اشتملت عليه(٦٦١) " .

وأما البشارة الثانية للمؤمن فيها فإن " عاقبة المصلي لا تكون إلا خيرا ولا يموت إلا على توبة ولو كان في سبيل مكروه، ويستحضر الأمير هنا بعضا من موروثه ليتكئ عليه فيقول " ففي الصحيح أن فتى من الأنصار كان يحضر الصلوات الخمس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولايدع شيئا من الفواحش إلا ركبه فوصل لرسول الله

صلى الله عليه وسلم فقال : ستنهاه صلاته • فكان كما قال . تـاب وحسنت توبته[٦٦٢] " . وذلك لحسن العبادة وصدق أداء الركن فغلب جانب الخير على هذه النفس وكان النصر في الأخير للخير .

وأما البشارة الثالثة وهي " أكبر " حين يذكر الخالق عبده ويقبل عليه مع الرضى والقبول فيتعهده برحمته مصداقاً لما جاء في " الصحاح " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ، يقول العبد ، الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله : حمدني عبدي ، فيقول العبد ، الرحمان الرحيم ، فيقول الله : أثنى علي عبدي ، فيقول العبد ، مالك يوم الدين ، فيقول الله : مجدني عبدي ، وفي روايـــة " فوض إليَّ عبدي " ، فيقول العبد ، إياك نستعين ، فيقول الله : هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل[٦٦٣] " .

فأي فضل وأي منة بعد هذا ، حين يذكر الله هذا المصلي فيما عنده من الأخيار والأبرار ويحاوره حوارا كله خير وكله بشارة فما يكاد ينتهي من فرضه خشوعا وقنوتا حتى تكون له قدم صدق عند ملك المقتدر .

وخلاصة القول أن هذه المواقف بما تحمل من تراث يعبق أصالة يرنو إلى التجديد تستحق لوحدها تفرغاً تاماً واستعداداً كلياً لفهمها على الصورة التي يجب أن تفهم بها .

ب - رسائله ومراسلاته:

١ - رسائلـــه الإخوانيـــة:

لا شك أن نتاج الأمير ككل نتاج أدبي " يتصل اتصـالاً وثيقا بتكوينه الثقافي والعلمي ، وبالبيئة الفكرية التي نشأ فيها كما يتأثر في بعض جوانبه بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي عاشه سواء أثناء مقاومته الجبارة أو بعدها ، لذا فدراسة نتاج الأمير

الأدبي تقتضي مراعاة هذه التأثيرات كلها والتعرف على مدى أهميتها "[٦٦٤]، هذا بالإضافة إلى أن التعرض إلى هذا الأمر -مهما كان بسيطا في نظر بعض الناس شعرا كان أم نثرا - سيلقي حتما بعض الأضواء على نفسيته ويطلعنا على أمور هامة خفيت من شخصيته، ناهيك على أن هذه الآثار مرآة صادقة لثقافته وثقافة العصر الذي عاشه، ومن هنا فإن دراسة هذه الرسائل بالإضافة إلى شعره، قد تكتسب بعض الأهمية من هذه الناحية، بل وتساعدنا على إيجاد بعض الأجوبة للتساؤلات التي قد تخطر على بال دارسي حياة الأمير وثقافته وهي بلا ريب كثيرة ومتعددة.

فعبدالقادر كثيراً ماستعان بالرسائل لتقوم مقام بعض الفنون النثرية الأخرى كالخطابة مثلا في الدعوة للجهاد وتوضيح بعض الأمور السياسية والدينية وتوعية الشعب، ووضعه أمام الصورة الحقيقية لهذا الصراع بينه وبين عدوه، ذلك "لأن فن كتابة الرسائل يتشابه مع الخطابة فنياً، فهو يتفق معها كذلك في الغرض الأساسي، فكما كان الغرض الأساسي في بداية ظهورها، فقد نشأ فن الكتابة الديوانية لرعاية أحوال الأمة الإسلامية ومصالحها، إذ كان يستخدم في تسجيل شؤون الدولة الرسمية إبان الحرب والسلم، وهذا يتعلق بمصالح الأمة وأحكام الشريعة"[٦٦٥]. وقد تعددت أغراض مراسلات الأمير الإخوانية على أنها انصبت حول نقاط رئيسية ثابتة تدور حول:

- الدعوة إلى الجهاد والحث على مقاومة العدو، وهي المراسلات التي كان يبعثها الأمير إلى خلفائه وقواد جيشه ورؤساء بعض القبائل.

- طلب الدعم والتأييد والعون باسم الأخوة الإسلامية من العثمانيين شاكراً فضلهم في بعضهاً، ومهنئا في أخرى.

- التشاور وتبادل الآراء مع سلطان المغرب قبل استسلام هذا الأخير ورضوخه

للشروط الفرنسية .

- توضيح موقفه وموقف الإسلام من أحداث فتنة دمشق في رسالته إلى المجاهد الإمام محمد شامل . [٦٦٦]

وسنحاول أن نتعرض- بإذن الله -إلى بعض هذه الرسائل التي اخترناها كنماذج للتدليل على ما كانت عليه علاقة الأمير الأخوية مع هؤلاء ، ولإبراز بعض الملامح الفنية التي تضمنتها هذه المراسلات حتى يكون حديثنا عن هذا الجانب متمماً لحديثنا عن الأمير الشاعر .

والحقيقة أننا لم نتبع في دراستنا لهذه الرسائل الجانب التاريخي من حيث ترتيبها ، وإن كانت كل رسالة تدل على الفترة الزمنية التي كتبت فيها لأن الهدف من هذه الدراسة هو الجانب الأدبي والفني في أسلوب عبدالقادر .

فالرسالة التي بين أيدينا وهي الأولى التي نستهل بها هذه الدراسة وجهها الأمير لأهل فجيج في ١٧ شوال ١٢٥١ الموافق لـ ٥ فبراير ١٨٣٦م ، وقد كان الغرض الأساسي من هذه الرسالة أو النداء- إن صح القول- هو طلب العون وتأييد وتلبية نداء الجهاد في سبيل الله والوطن ، وعلى الرغم من أن هذه الرسالة لم تجد آذانا صاغية لدى أهل فجيج بالسرعة التي كان يرجوها الأمير ولم يلبوا نداءه في حينه ، إلا أنها كانت محاولة من عبدالقادر لبعث الحمية الوطنية في أفراد هذه القبيلة ومثيلاتها .

وصدق حدس الأمير وظنه ففي سنة ١٨٤٦ عندما لجأ الأمير- بعد أن خانه أتباعه- إلى أهل فجيج حيث استقبلوه أحر استقبال وبالغوا في إكرام وفادته .

يستهل عبدالقادر رسالته بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، ثم

يتوجه بالحديث إلى أشراف هذه القبيلة وأعيانها وعلمائها بقوله : "أصلحكم الله حالاً واستقبالاً ، وسدد رأيكم ووفقكم لإمارات العصمة جلالاً وجمالاً ، وسلاماً على محافلكم السامية ، يعم مرابعكم الناهية ويتحفها بتحفة الكرامة الباهية ورحمة الله وبركاته ما ترقت الطوالع بأضوائها زاهية . (٦٦٧)

وبعد هذا السلام المدبج الذي ولاريب سيلقى قبولا في نفوس أفراد هذه القبيلة لما تضمنه من مشاعر صادقة وعواطف حارة ، يخلص الأمير إلى موضوع رسالته آملا أن تجد كلماته صدى محموداً وقبولاً حسناً عند هؤلاء ، على الرغم من أن وباء الطاعون قد نزل بهذه القبائل على غرة وفتك بخلق كثير منهم - إلا أن ذلك لم يثن عبدالقادر عن محاولته عله يجد آذاناً صاغية ونفوساً ملبية لهذا النداء المقدس وخاصة أن العدو المتربص بالوطن وأهله أشد -فتكًا وأقوى دماراً - من الطاعون نفسه ، فالغيرة الدينية والوطنية دفعتا القائد الأمير إلى توضيح أبعادالقضية وتجلية الأمر أمام جميع أفراد الأمة حتى يوضع كل فرد فيها أمام مسؤولياته . يقول الأمير في هذا الصدد : " أما بعد فإن الغيرة الإسلامية تحق لأمثالكم والاعتياضات الأنفية تجب على أقوالكم وأفعالكم وكيف لا والعدو الكافر - أذله الله - جال في بلاد المسلمين وصال ، وسعى في خراب مدنهم وقصورهم بمساجدها المعدة للغدو والآصال ، وحدت شوكته على القريب والقاصي وتضافرت جيوشه على إجلاء المطيع منهم والعاصي ، وأجمع عزمه وكيده في جميع بره ، وفاض على ضوء الإسلام ظلام ليله حتى كاد يخفى جدول فجره(٦٦٨) .

ويعرض الأمير بعد هذا الوصف لحال البلاد ، للحديث عن جهاده وتصديه لمقارعة جحافل الظلم والعدوان على الرغم من إمكاناته البسيطة ، إلا أنه لم يتوان ولو

للحظة واحدة في الدفاع عن الوطن والشرف والدين، هذا الدين الذي ارتكز عليه عبدالقادر وارتضاه سبيلا لدعوة هذه القبيلة باعتبار أن العدو كافر داس على كل مقومات هذا الشعب ودنس مساجد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه بالغدو والآصال، فأمست محاربته أمراً واجباً، وفرضاً مقدساً على كل مسلم قادر غيور على ملته وشرفه وعقيدته، ليضرب الأمير المثل والقدوة وليعلم الجميع أنه لم يدع إلى هذا الأمر إلا وكان على رأسه . " وكم اشتغلنا بمدافعته مراراً، وتداولنا معه في الحروب سراً وجهاراً إلى أن انكسرت الرماح، وتدنست بنادق الرماح، وقضت الصناديد نحوبها، وتعمدت الفرسان نصبها ولغوبها، ولازلنا على ذلك التدافع والتناول إلى أن تنفرد السليفة وتنعدم دور المناصب المنيفة غير أننا خشينا تفاقم الأمر وتزايده من قطر إلى قطر فنود من صلاح رأيكم الناجحة وسداد إشارتكم الصالحة أن تزيدوا في اخوانكم القوة السادّة وتنشروا أسرهم باسترسال المادة . "(٦٦٩)

وعلى هذه الوتيرة يمضي الأمير في استعراض الأحداث أمام هذه القبيلة لتهيئة الجو، حتى اذا ما بدأت تباشير القبول والإجابة يلوحان خلص الأمير عبدالقادر إلى هدفه الرئيسي من هذه الرسالة .

ويلجأ الأمير إلى التركيز على الجانب العقائدي والديني فأثرى رسالته بآيات من الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التي تدعو كلها وتحث على التعاون والتكاتف والأخوة والجهاد، ولاريب أن وقعها على نفوس أفراد القبيلة سيكون ذا أثر، خاصة إذا علمنا أن مثل هذه القبائل لم تكن تعترف بغير الدين رابطاً بينها وبين بقية أفراد المجتمع الجزائري الآخر، ذلك أن فكرة القومية أو الوطنية لم يكن لها أي مفهوم ولم تتبلور فكرتها في أذهان هؤلاء، وبالتالي فإن الاعتماد على الجانب الديني من طرف الأمير

يدل على ذكاء هذا الأخير ومدى سعة أفقه ودرايته بالأحداث "فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، والمسلمون كالجسد الواحد يتألم الجميع بتألم البعض، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه، والمسلم أخو المسلم، وتعاونوا على البر والتقوى، إنما المؤمنون إخوة، ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض[٦٧٠]، وهذا الواجب لكم في إعطاء كل ذي حق حقه والأمور الآدمية وأما مدافعة الكفار أخزاهم الله في المضابرة في الرباط، ونيل إحدى الحسنيين . الأجر والغنيمة والنعيم المقيم الذى لا يخطر على قلب بشر فلا يخفى على كريم علمكم ماورد في ذلك من الآيات القرآنية والأقوال النبوية"[٦٧١] . وبعد هذه الشحنة من الحمية الإسلامية التي بثها الأمير في نفوس هؤلاء بعثاً للهمم وشحذاً للعزائم، يميل عبدالقادر فيثني على هؤلاء الأبطال ويذكرهم أن ما دفعه إلى مكاتبتهم هو إيمانه القوي بشمائلهم الكريمة وشجاعتهم النادرة وما يعرفه عنهم من نخوة ومروءة ونجدة على مرالعصور فلا غرو إذن أن يراسلهم ويمنيّ النفس بتحقيق الرجاء المعقود عليهم" ونجدتكم وسياستكم في تدبير صنايعكم المحكمة مع غلظتكم على الكفار وشدتكم في ثبات الصفوف الحربية معلومة عندنا بالضرورة حسبما دونت خصالكم الحميدة، وأفعالكم الرشيدة في تاريخ وهران ووقائعها"[٦٧٢] .

وكعادة الأمير القائد الذي يخطط ويدبر لكل أمر ويعلم متى ومن يخاطب، فإنه يخص أشراف القوم ويدعوهم لـلقائه أملا ورغبة في النظام والاستعداد الحقيقي لمواجهة عدو مسلح، ذلك أن عبدالقادر يدرك أن قيادة مثل هذه القبائل في يد رؤسائها فمتى استجاب هؤلاء، فقد تحقق الأمل المرغوب، ولإضفاء نوع من التخصيص

والتقدير لسادة العشيرة فيسهل الوصول إلى الهدف بأقصرالسبل، يقول الأمير . " نرغب في حمد سراريكم أن تجمعوا جموعكم وتكونوا في قصد إعانتنا رجالاً وركبانا لتتم لنا المزية، ديناً ودنيا، وتحظوا في دار المقامة بالحظوة العليا، ويكون ابتداء قدمكم ان شاء الله عقب عيد الأضحى أول أبرير بعد أن يقدم إلينا أعيانكم لنستأشرهم في الكيفية والهيئة التي يحصل المراد منا"[٦٧٣]. ويؤكد عبدالقادر أن دعوته هذه لاتخرج عن إطار الدعوة الكبرى لتوحيد المسلمين وتعزيز الروابط بينهم زيادة في قوتهم وهيبتهم لمواجهة العدو المتربص بديار المسلمين، لا يريد من ذلك جزاء ولاشكورا، فالأمانة والمسؤولية تفرضان عليه الدعوة إلى التلاحم والتعاون والتكاتف بين إخوة الدين والوطن الواحد حتى يبرىء ذمته أمام الله وأمام رعيته التي اختارته طواعية أميراً وقائداً لمسيرة الجهاد والبناء . وحرصا من عبدالقادر على توخي كل أسباب التوفيق والنجاح فإنه يحث أهل فجيج ـ في حالة استجابتهم لدعوته ـ أن يأخذوا بكل أسباب الحيطة والاستعداد اللازم وأن يهيئوا أنفسهم ليوم عظيم لا ينفع فيه المرء الا صدقه وصبره، فوجب الحذر والسعي لتوفير كل الإمكانات المادية والبشرية، ذلك أن العدو ليس بالأمر الهين، وأن حربه ليست موقعة فيها المنتصر والمهزوم، بل هي صراع طويل شاق والبقاء فيه للأقوى، يقول الأمير: " وفي موافقتكم استصراخناواجابتكم دعانا اتساق هيكل نظم المسلمين وصرورتهم على كلمة واحدة كذات متحدة، فإن تكلفتم برام المطلوب فحبذا المرغوب، وأشرعوا في التأهب والتهيؤ بإقامة الكراع والسلاح والأخبية وما يعينكم من الاعتقادات الإيمانية، ولا يتخلف أحد من صناديدكم من الفرسان والعساكر، وإن اكتفيتم بنظر المكتوب ولم تجيبوا داعي الله فهذا الواجب في حقنا وحسابنا جميعا على الله، والله المستعان وعليه التكلان، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا

محمد وآله وسلم(٦٧٤) ".

أما النموذج الثاني فهو رسالة بعثها الأمير عبدالقادر إلى السلطان عبدالمجيد مؤرخة في مستغانم- شوال ١٢٥٧هـ/ ديسمبر ١٨٤١م -، يصور فيها حال البلاد والعباد للخليفة العثماني باعتباره يمثل الوحدة الإسلامية ويطلب منه المدد والعون دفاعا عن الدين والشرف المداس، آملا أن تجد رسالته آذانا صاغية لدى الباب العالي فيسارع بمد يد العون والمساعدة.

يستهل الأمير رسالته إلى الخليفة العثماني- بعد البسملة والصلاة على الرسول- بالثناء على السلطان رمز اتحاد المسلمين واجتماعهم بقوله" إلى سلطان سلاطين الإسلام وحامي بيضة أمة محمد(ص) طود الملوك الشامخ وركنهم الثابت الراسخ السلطان عبدالمجيد خان، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته(٦٧٥)

وبعد هذه المقدمة التي أثنى فيها الأمير عبدالقادر على الخليفة، وكال له من الأوصاف والألقاب المحببة للنفس والتي جعلها الأمير غاية أو مطية للدخول إلى الغرض من رسالته المتمثل في طلب المساعدة، على أن عبدالقادر فضل قبل هذا أن يعطي صورة حقيقية لما جرى على أرض الجزائر من صراع بين قوى الشر والكفر وبين الشعب المسلم الذي ارتضى عبدالقادر أميراً له، بعد أن خلت الساحة من رجل كفء يقود مسيرة الجهاد لمواجهة العدو وخاصة لما رفض السلطان المغربي عبدالرحمن الثالث العرض الذي تقدم به الأهالي للانضواء تحت سلطانه بعد معارضة فرنسا لهذا الاقتراح الذي يتعارض واطماعها في الجزائر.

يقول الأمير" إننا نخبر سيدنا ونقص عليه من أخبارنا وإن كنا نعلم أن علمه محيط

بما هو أبعد من أنفارنا وذلك أن الينشارية[٦٧٦] الذين كانوا بالجزائر، لما خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين والدك المرحوم، عاقبهم الله بسوء فعلهم وسلط عليهم من لا يرحمهم العدو الكافر الغشوم، فبدد شملهم واجتث أصلهم وملك القرى والمدائن واستولى على الأموال والذخائر والخزائن . . . فعند ذلك استغاثت الناس بالسلطان الشريف سيدنا عبدالرحمان سلطان مراكش، فبعث إلى الوطن ابن عمه مع جيش كثير فما جعل الله فيهم نفعا ولا جاهدوا ولا غنوا عن المسلمين دفعا، وانقلبوا من حيث جاؤوا ورجعوا من حيث فادوا، فلما رأى الكافر ذاك زاد في قوته وشدته، وتكالب على المسلمين القريبين من حصونه واحتاج الناس اذ ذاك إلى من يضبط جهادهم ويقوم بجميع أمورهم، فاجتمع أعيان الوطن وطلبوا ذلك من الوالد . . . فأشار الي لما سبق لي من الشقاوة في أم الكتاب، هنالك امتثلت أمره وإن كان مراً، إذ لم أعص له مدة عمري أمراً وشمرت على ساعد الجد والاجتهاد وبذلت للمسلمين نصحي في جمع الكلمة والجهاد وصيرت من وجهتي وجهتين فتارة يجمع الكلمة، وردع البغاة، وآونة للدفع عن المسلمين وقمع الكفار العتاة[٦٧٧] .

وعلى هذا المنوال يواصل عبدالقادر عرض الأحداث بدقة وتسلسل للسلطان العثماني مع وصف تحليلي لكل صغيرة وكبيرة لأحوال البلاد، فذكر نقض المعاهدات من العدو واستئناف الجهاد الذي بلغ درجة قصوى من العنف والشدة والتدمير، هلك من جرائه النسل والحرث، تدور رحاه بين طرفين ينعدم التكافؤ بينهما اطلاقا، جند يفتقر إلى السلاح، والتدريب والخبرة ويفتقر إلى العتاد والعدد، وجيش عصري بما تعنيه هذه الكلمة، الا أن ذلك لم يثبط من عزيمة القائد وجنده فقاوموا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ولم يعدموا وسيلة الا التمسوها لمقارعة جحافل العدوان: " وإن جيش

الكفار المقابل يناهز المائة ألف، سلاح تام وصواعق ومدافع تصير الواحد ضعيفاً، وإنه إذا جمع قوته وقصد بعض المواضع فلا نقدر أن نرده إذ ليس لنا قوة بارود أو سلاح ولا مدافع مثل ماعنده لكي يذيقه المسلمون شديد النكال وعظيم القتال . . ومع ذلك ما ضعفوا ولا استكانوا ولا حزنوا مع الضعف الذي لا يحتاج إلى شاهد من قلة المال والسلاح الذي يعلمه الغائب والشاهد، لقد نفدت في سبيل الله أموالهم وفنيت في سبيل الجهاد رجالهم والكافر لقوته إذا خذلت له جملة جدد أخرى وإذا هلك له جيش استخلف بالآخرة وإذا احتاج لشيء أمده به سلطانه"[٦٧٨] . وهكذا نرى عبدالقادر بحنكة الدبلوماسي وصدق الجندي الوفي والتزام القائد المسؤول يضع هذا التقرير المفصل إن صح القول أمام خليفة المسلمين ليحمل كل فرد مسؤوليته أمام الله، فتراه يشرح ويفصل الأمور للسلطان العثماني حتى تكون الصورة واضحة أمامه آملاً أن يلبي الخليفة هذه الصرخة والاستغاثة المنبعثة من غرب بلاد الإسلام التي يعيث فيها العدو فسادا والمسلمون في خلافاتهم ونزاعاتهم منشغلون . ويضيف عبدالقادر موضحا الموقف وكيف أن الأحداث تسارع متكاثفة ومجتمعة ضده، فيخبر الخليفة عن خذلان إخوانه له في الدين والجوار وكيف هان عليهم فأسلموه ومن معه إلى عدو لا يرحم، ولم تشفع لديهم صلة الرحم ولا المصير المهين الذي ينتظر هذا الشعب، فقد أمسى الأمير بين فكي كماشة: عدو لا يرحم وأخ جاهل متخاذل جبان غدر بإخوانه ابتغاء مرضاة الكافر يقول الأمير: " ونحن أسلمنا إخواننا المسلمون وتركونا أسارى في يد العدو فهم لنا ظالمون وتبرأ منا من كان قريبا لنا من الملوك ومنعونا شراء ما نتقوى به على الكافر خوفا منه ومنعونا حتى السلوك . طلبنا منهم الإعانة بالرجال فلم يقبلوا واستعناهم بالأموال فلم يفعلوا، وطلبنا منهم السلف فكان عين المحال، ، ومنعوا رعاياهم من إعانتنا بكل وجه وحال، فما نفعنا قريب ولا مجاور ولا دافع عنا ذو سيف

ولا محاور كأن المسلمين ليسوا بجسد واحد[٦٧٩] . وبعد هذا العرض المؤسف والمحزن لما آل اليه حال الأمير وشعبه وهم يصارعون الأعداء من كل جانب زاد مرارته ظلم ذوي القربى لأنه أتاه من حيث لم يكن يحتسب ، فبدل أن يكون هؤلاء الإخوة يدا واحدة في السراء والضراء تراهم شيعاً متفرقة ، ذهبت ريحهم ووهنت قوتهم تحسبهم واحداً وقلوبهم شتى أمام أعدائهم الذين حفزهم هذا المصير المخزي الذي صار اليه حال المسلمين في المضي قدما في طغيانهم وعداوتهم ، وكأني بالأمير من خلال العرض الوافي يأمل أن يجد عند الخليفة ما افتقده عند جيرانه من عون ومدد ، فيحقق أمل الشعب فيه لأنه لم يبق لهم من أمل سواه فليبادر بما أفاء الله عليه إنقاذا لرعيته من هذا المصير المشؤوم : " فالمسلمون بهذا القطر لا ينظرون من غيرك افراج ولا لهم ملجأ يلجؤون إليه غير حصنك العالي الأدراج فأبصارهم لإعانتك وإمدادك طامعة وقلوبهم بمحبتك وذكرك طافحة ، فإن قيل : مال ، عندك المال الوافر وإن قيل ، جيش ، عندك العسكر البحر ، وإني وحياتك السعيدة لولا خوفي على المسلمين من العدو مالزمت سكوناً ولا هدوءاً حتى أقف بين يديك وأقص من أخبار المسلمين بهذا القطر عليك ، فإنهم قد غلقت عليم الأبواب وتقطعت بهم الحبال والاسباب[٦٨٠] . ويختتم عبدالقادر رسالته وهو يؤمل النفس بقرب الفرج ودنو ساعة الخلاص حين تأتيه نجدات السلطان – الذي لم يبق له الأمير عذرا – ليرفع البلاء عن هذا الشعب ليستعيد قوته ليواجه عدوه نداً للند ، داعياً للخليفة بالتوفيق والسداد ، وأن يكون عند حسن ظن أبناء الجزائر لأنه مسؤول منهم بحكم سلطانه على المسلمين معتذراً عن عدم قدرته على ارسال هدية تليق بالسلطان لظروف الجهاد ، فكل الإمكانات قد سخرت لهذا الهدف المقدس ، وأن هديته الحقيقية للسلطان العثماني هي استعادة هذه القطعة من الوطن الإسلامي وعودتها إلى حظيرة الإسلام ، يقول عبدالقادر : " فإنك ألغيت المدرار ، والبحر الزخار ،

وحضرتكم حضرة إغاثة اللهفاء وزوال الظمأ ومشاهدة طلعتكم تزيل العناء والغم، وإنا من عيالك، والله سائلك عنا، فأزل ما أثقل الظهر منا وعنا، ومرادنا نبعث لحضرة سيدنا هدية مع من يقوم مقامنا في تقبيل يدك الكريمة، ولكن من كثرة الحروب لم يتيسر لنا ذاك، والله المسؤول في تبليغ مرادنا فيما هناك". [٦٨١]

ومن الرسائل التي تبادلها عبدالقادر مع حكام بني عثمان، رسالته إلى الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا طالبا العون والمساعدة مصوراً ما آل إليه حال البلاد والعباد تحت نير الاستعمار الفرنسي البغيض، ذلك أن عبدالقادر لم يخرج -فيما ذهب إليه- من طلب الإعانة لأنه يرى أن هذا الأمر واجب يفرضه الدين والشرع على المسلم نحو أخيه المسلم.

يفتتح عبدالقادر رسالته بعد التحية والثناء على خصال الصدر الأعظم بقوله: «إن هذا الكتاب من خديم حضرتكم المجاهدين بوطن الجزائر، التي صار لغرباء الكفر وأذياله جزائر، ولم تتفقده أسياده وحماته، وتغافلت عنه أنصاره وفرسانه وكماته، فهم أسرى العدو الكافر أسراً، يفعل فيهم ما يشاء ويحملهم أغلالاً وإصرا»[٦٨٢].

ثم يعرج الأمير بعد هذا العتاب الأخوي لحكام المسلمين ورعاياهم لمواقفهم التي لم ترق إلى مستوى الحدث، فإخوانهم في الدين يقتلون ويعذبون ويشردون من ديارهم انتهكت أعراضهم وديست كرامتهم، وإخوانهم في الدين يتابعون فصول هذه المأساة ولم يحركوا ساكنا ولم يهتز لهم أدنى شعور بل الأدهى، والأمر من ذلك أن بعضا منهم - سامحهم الله - كانوا عونا على إخوانهم فحرموهم المال وصادروا لهم السلاح وضيقوا عليهم الخناق فكان ظلم ذوي القربى أشد مرارة من ظلم العدو نفسه، وليس لهؤلاء عذر في هذا، وعلى الرغم من ذلك فإن أبناء هذا الوطن الشرفاء لم

ييأسوا ولم يحزنوا لأنهم يدركون أن الأوضاع ستتغير، وأن إخوانهم في الدين سينصرونهم ولو بعد حين، ولم يقطعوا بوادر الأمل وليست هذه الرسالة إلا دليلا على ذلك، يقول الأمير: " وإنا قد كاتبنا سيدنا فخر الزمان[٦٨٣] والمكان وسيد ملوك يكون أو كان، وطلبنا منه المدد بالعدة والعدد، وأخبرناه بأحوالنا وسردنا عليه بعض أهوالنا، فكن لنا بوجه الله ورسوله معينا واسقنا من زلالك ماء معيناً وأزل لهفاتنا وارحم ضعفنا"[٦٨٤] .

ويوضح عبدالقادر أنه ليس في حاجة إلى الجند والفرسان – فهم عنده من الكفاية مايزيد لأن كل فرد من هذا الشعب مجاهد مقاتل – ولكن تعوزه الذخيرة والعدة لينازل أعداءه بنفس الإمكانات فلا يفل الحديد إلا الحديد – والحمد لله– فهذا المطلب البسيط ليس بالمستحيل والصعب، وحين تلبي الخلافة هذا الرجاء فسيرى المسلمون من أفعال مجاهدي الجزائر ما تقر به أعينهم وتنشرح لهم صدورهم، فالصراع الدائر في الجزائر ليس صراعا بين شعب وشعب أو من أجل قطعة أرض وامتيازات، ولكنه صراع أزلي بين عقيدة وعقيدة، وبالتالي فقد حق العون ولزمت المساعدة، وكيف لا ؟ وأبناء هذه البلاد هم جزء من الخلافة الإسلامية الجامعة ومسؤولية مساعدتهم والدفاع عنهم موكولة لأولي الأمر فيها، لأنهم سيسألون يوما عما فرطوا في هذا الأمر، فكل راع مسؤول عن رعيته كما ورد في الأثر، يقول عبدالقادر: " فإن العساكر وافرة والجزائر عامرة، ونحن من عيالكم فتعلقنا بأذيالكم فأدركونا قبل فوات الأوان بمددكم قبل الوفاة وصلوا فيها بفضلكم رحم الإسلام وراعوا فينا وجه النبي عليه الصلاة والسلام، فإنه ليس للمسلمين غير حصنكم يلجؤون إليه وأنتم المكلفون بالإسلام، وليس هنا

أحد لك تتكلون في هذا الأمر عليه[٦٨٥]والله سائلكم عن أمثالنا الضعفاء، وأنتم ملجأ الهاربين سلفاً وخلفاً وإن أكف خدامكم المجاهدين لاستمطار فضلكم، وحاشى وجودكم وكرمكم أن ترجع بالحرمان مردودة .[٦٨٦]

ويعتذر عبدالقادر مرة أخرى للصدر الأعظم في ختام رسالته عن عدم قدرته على إرسال هدية تليق بالمقام لظروف الحرب التي تتطلب كل جهد ومال، ولكن أمله في بلوغ مرامه كبير: " ومرادنا أن نبعث هدية لحضرتكم العلية ونبعث من يقوم مقامنا في تقبيل يدكم الكريمة الندية، ومن ترادف الحروب علينا لم يتيسر لنا ذلك، والله المرغوب في تبليغ مرادنا فيما هنالك"[٦٨٧]

أما رسائله إلى دايات تونس فقد كانت تدور أساسا حول علاقات المهاجرين الجزائريين بالسلطات التونسية، ورجاء الأمير بأن يتواصوا بهم خيراً باسم الأخوة والدين، خاصة وأن هؤلاء المهاجرين قد أخرجوا من ديارهم وسلبت أموالهم فلم يبق لهم من حطام الدنيا شيء، فروا بدينهم إلى إخوانهم علهم يجدون عندهم ما يعوضهم عما فقدوه، ولذلك سعى الأمير – مستخدماً جاهه العريض وسمعته الطيبة– في خدمة أبناء الجزائر الذين فضلوا الاغتراب عن كراهية . فكان الأمير يتدخل لدى رجال الدولة من أجل طمأنة الجزائريين الذين أموا البلاد التونسية فيقبل حكام تونس وساطته ويستجيبون لطلباته ويفسحون المجال أمام إخوانه المهاجرين بما جبلت عليه قلوب التونسيين من حب وأخوة ورحمة.

ففي إحدى رسائله يخاطب الوزير " مصطفى خزندار" في شأن قرابة له من جهة

الأم هاجروا إلى تونس آملا أن تمنحهم السلطات التونسية أرضًا زراعية يعيشون منها، فيلجأ عبدالقادر إلى ديباجة رسالته بأفخم الألقاب وأسمى المراتب داعيا للوزير بدوام العز ولتونس بالخير واليسر.

يقول الأمير بعد حمد الله والصلاة على رسوله: " السيادة العلية أدام الله توفيقها، وجعل العزة والإقبال على الدوام رفيقها، ولا حط لها من المجد رواقاً، ولا أذوى لها دوحة ولا أوراقاً، سيادة السيد مصطفى خزندار[٦٨٨] ".

ويلج الأمير إلى غرضه الأساسي بعد هذه المقدمة وبدعوة الوزير إلى إكرام وفادة هؤلاء المهاجرين واعتبارهم من جملة مواطني البلاد التونسية لأن الأمير كان يرى أن بلاد المسلمين وطن للجميع، وللجميع الحق في العيش في أي بقعة تظللها راية الإسلام: " فإن لي قرابة من جهة الأم هاجروا إلى تونس وهم من الأشراف والعلماء الفقراء فنطلب من سيادتكم أن تشملهم رحمتكم وعنايتكم كما هي عاداتكم وتنظرون لهم أرضا يعيشون بزراعتها ويستقرون بها كسائر الرعايا ولكم الأجر والشكر من الداعي بالخير ولسائر أمراء الملة المحمدية[٦٨٩] . "

وهكذا لم يستطرد الأمير كثيرا في رسالته هذه كما عهدناه من قبل، فقد أحسن التصرف وجعل لكل مقام مقال، ذلك أن الهدف الاساسي من رسالته كان محددا وهو الاهتمام بالجزائريين المهاجرين إلى تونس، وقد لعبت هذه الرسالة وغيرها دورا في تسهيل فرص العيش الكريم للجزائريين في تونس لما كان يحظى به الأمير من حب وتقدير من طرف الجميع لماضيه المشرف وحاضره النبيل الزاخر بالأعمال الجليلة التي

جعلها الأمير مطية لا لتحقيق أغراض شخصية ، بل لخدمة أبناء وطنه في جميع الأقطار التي هاجروا إليها فراراً من العدو وبطشه .

وفي رسالة أخرى بعث بها إلى الوزير «مصطفى» حاثاً فيها هذا الأخير أن يستوصي خيراً بإخوانه شاكراً له أفعاله ومواقفه ، حيث يستهل عبدالقادر رسالته بمدح صاحب الفضل فيبلغه أحر السلام ويكيل له أفضل النعوت والأوصاف فيستقي من جمال الطبيعة الأخاذة أجمل ما فيها ليشكل منها لوحة فنية يشع كل لون فيها بأسمى معاني الأخوة والمودة والمحبة .

يقول الأمير : " ماروض مفتر المباسم ، معطر الرياح والنواسم ، فداعب الربيع غصونه بروداً مخضرة ، وجعل إشراقه للشمس ضره ، وأزاهيره تتيه على كل الكواكب ، وتختال في خلع الغمائم السواكب ، بأبهى من إهداء سلام ، وتحيات عظام ورفع أدعية ، وبث أثنية[٦٩٠] " .

ثم يصف الأمير مراسله بأنه أفضل وأكفأ من تحمل أعباء مسؤولية الوزارة وشؤون الدولة ، فكان لها الرجل المناسب ، ساس الأمور بحكمة واقتدار جعلت الرعية تتحدث عن مواقفه الكريمة ، فعم الأمن والخير والرخاء في عهده ربوع البلاد التونسية لأن الله أراد بهذه الأمة خيراً ، فلقد أمروها خيارها : " إلى حضرة سيادة من سبق في مضمار الوزارة الحلبة ، وفرع من الإمارة الهضبة ، ورفع الراية ، وبلغ من الإحسان الغاية ، فطارت مفاخره كل مطار ، وتغنى بها راكب الفلك وهادي القطار ، سعادة الوزير الأكبر والأمير الأشهر السيد مصطفى لا برحت الأيام بوجوده باسمة ، ورياح إقباله بالمسرة ناسمة[٦٩١] " .

ويفصح عبدالقادر بعد المقدمة عن الباعث الذي دفعه لتسطير هذه الرسالة وهو السعي دوما للمحافظة على الروابط الأخوية التي تجمعه وصاحبه والتي تزداد قوة ورسوخاً ممثلة في هذا الترحيب بالجزائريين النازحين إلى تونس والقيام بأمورهم أحسن قيام، حتى بلغت هذه المكارم مسامع الأمير فأثنى - كما سبق - على صاحبها شاكراً وده وعطفه مبيناً أن هذا العمل ليس بغريب عن الوزير مصطفى الذي اشتهر بمثل هذه المواقف الكريمة، مما شجع عبدالقادر على المضي قدما في طلب المزيد من الإحسان لإخوانه: " فالباعث على تسطيرها، والحامل على وشيها وتحضيرها، المحافظة على المودة والوفاء بحيث لا يكدر من شرابها ما راق وصفا. . . . هذا وألسنة الأقارب والمهاجرين كافة بطرفكم لم تزل تلهج بخصالكم الحميدة، ومزاياكم العديدة التي جل قدرها، وسار مسيرة الشمس ذكرها، ولما تكرر ثناؤهم عليكم بالغيب إرسالا، كما هب صبا أوشمالا، وجب علينا أن نعلمكم بمكانهم من الانقطاع بجهتكم والتحيز إلى فئتكم وأن أذكرك بأحوالهم تذكرة حسنة لتعاملهم بمقتضاها المعاملة المستحسنة جريا على ما ألفوه من خصالكم وإحسانكم وإبقاءً لما تعودوه من إجمالكم وامتنانكم[٦٩٢] ".

وينهي عبدالقادر رسالته واصفاً هذا الموقف من صديقه الوزير بأنه من صميم ديننا الحنيف الذي يدعو إلى الأخوة والمحبة والتعاون، وهي بلا ريب من الأعمال المحببة إلى الله، ويرجو رجاءه أن ينال هذا الكريم جزاءه عند ربه بأحسن مما يأمل ويدعو له بالخير واليمن بقوله: " ولا شك أن هذا -عند الله تعالى- من الأعمال الصالحة السنية، والمساعي الناجحة البهية، وسيادتكم أبقاكم الله الموثوق بوفائه وشرفه، المسكون على برج أمنه وطرفه، ولن أزال العالم بحقكم ومقداركم المقيم على الدعاء لكم في أوقات الإجابة والأماكن المستطابة. ودمتم[٦٩٣] ".

وقد كانت علاقات الأمير بالسلطات التونسية جيدة، ولذا تعدت مثل هذه الرسائل إلى أمور أخرى، فمثلا حين أنجز الوزير خير الدين باشا تأليف " أقوم المسالك " بعث بنسخة منه إلى الأمير، فأجاب شاكراً مهنئاً: " ورد علينا من حضرتكم كتاب سني يشتمل على خطاب لذيذ شهي، فاستدعى شكري وحمدي، واستخلص من صفاء المودة ما عندي، عرفتمونا فيه من خير سلامتكم ما نرجو له الدوام وندعو له بالحفظ من حوادث الأيام[٦٩٤] ". ثم يستطرد في وصف هذا المؤلف وكتابه، فيرى فيه الكمال والجودة لما أورده فيه صاحبه من المعلومات الجديدة العقلية والنقلية والأخبار النادرة التي تروي سير الأقدمين، فكان كتابه جامعاً مانعاً لما قبله، فلا ريب إذن أن يتخذه الأمير – على ما عرف عنه من حب للكتب – أنيساً وصاحباً يعتز بصداقته فأغناه عما سواه من التآليف الأخرى لقيمته: " وقد اطلعنا على " أقوم المسالك " فرأينا فيه ما بهر العقول وأدى الأفكار إلى الذهول من قضايا المعقول والمنقول، فاتفقت القلوب على تفضيله، واختلفت الألسنة في تمثيله، أما نحن فقد تركنا التشبيه، وقلنا ما له في فنه مثيل ولا شبيه، فقد أرانا من الرجال بقايا، وفي الزوايا خبايا، كتاب تنفس الدهر به تنفس الروض في الأسحار، وتبسم عن ثغور النور والأزهار، كتاب يزري بتاج تراجم الأعيان وكأنه مرآة انعكست فيه رسوم أخبار الملوك وأفاضل الزمان، فاتخذته موقع ناظري ومنتعش خاطري"[٦٩٥]. ويضيف عبدالقادر متحدثا عن هذا الكتاب وقيمته التي لا تخفى إلا على جاهل أو معاند، فصاحبه مشهود له بالباع الطويل في مختلف العلوم مما أهله إلى التصدى إلى قضايا هامة وخطيرة بكل ثقة وموضوعية، فتراه يجادل ويحاور ويدلل بالحجة والآية البينة، همه الوحيد توضيح القضايا وتصحيح المفاهيم فكانت أفكاره وردوده كأساً دهاقا، وكيف لا وهو يدافع عن ذمار الدين ويقطع عنه كل دابر شر يسعي لتشويهه مؤكدا أن هذا دستور أزلي وشرعاً أبدي صالحا لكل عصر

ومصر، وإذا كانت هناك سلبيات أو أخطاء فمرجعها إلى المسلمين أنفسهم وليس لعقيدتهم فهي منهم ومن أخطائهم وانحرافهم عن الصراط القويم براء، وبذلك وجب الشكر وحق المديح لهذا الوزير وأمثاله الذين يندر أن يجود الزمان بأمثالهم: " وبالجملة فقد أبنتم في هذا التأليف من كلامكم العالي المنيف: ما يجب على كل عاقل أن يتخذه سميراً ويجعله على كل كلام أميرا – فقلد ابتدرت– أيها الوزير الخطير إلى إحراز المعاني وسبقت وحزت قصب السبق في مضمارها وفزت فلله درك ودر ما ألحت وما قربت من فنون المعارف وبعدت ثم إنك حميت ضمار الشرع المحمدي، وعضدته وقطعت عنه ضرر الملحدين وخضدته، ولذلك بما قررتموه من أن الشريعة الطاهرة لائقة لكل زمان، صالحة للحكم بها في كل أوان، وذكرتم أن بعض من خالف الحكم المحمدي فتأخر، نسبت جنايته إليه، وما احتشم ولا تبصر، ولم يعلم ذلك المخذول أنه إنما أتي من قبل مخالفته، وأصيب في عين بصيرته من جهة إساءته: [٦٩٦]

والشمس إن تخفى على ذي مقلة

نصف النهار فذاك تحقيق العمى

وفي رسالة تالية لحكام تونس والتي أرسلها عبدالقادر للوزير خزندار بالنيابة عن كل المهاجرين رافعاً أكف الشكر والامتنان للحكومة التونسية على حسن وفادتها ورعايتها للجزائريين في تونس آملا أن تكون هذه الخطوة دافعاً لتمتين أواصر الأخوة والمحبة بين الأمير وهؤلاء .

يستهل عبدالقادر رسالته كعادته بعبارات تنم عن مودة وأخوة وما يحمله عبدالقادر من مشاعر صداقة للوزير الذي حاز بجوده وعلمه وكرمه أفضل أنواع المكارم وأسمى درجات المراتب التي لا يبلغها إلا القليل من الناس .

ثم يخلص الأمير إلى الغرض من رسالته موضحاً للوزير أنه وعلى الرغم من أن اللقاء قد تعذر بينهما فإن رسالته هذه " تقوم مقامه وتفيد مرامه في التعبير عن خالص وده والأنباء على استمرار كريم عهده[٦٩٧] " ولا ريب أن في هذا إشارة ودلالة على أهمية الكتابة في حياة الفرد وهي نظرة من الأمير العالم الذي جرب الأداتين: السيف والقلم فأعطى لكل جانب حقه، بل إنه كثيرا ما يرجح مرتبة القلم ويفضلها على السيف ويعتبر كليهما سلاحا فتاكا ذا حدين لا يؤمن جانبهما .

ويستطرد عبدالقادر متحدثا في رسالته عن الباعث إلى تسطيرها وهو الذكر العطر الذي يتناقله الجزائريون عن معاملة إخوانهم لهم في تونس " ولما ورد علينا أقاربنا السيد" أحمد المكي" وإخوته راجعين من وجهتهم الحجازية إلى المواطن التونسية، انتهزنا الفرصة فأصحبناهم كتابنا هذا قياماً بواجب صدق العهد، واحتفالاً بمقتضيات الود . . . . وقد ورد علينا كتاب من عوض ولدنا السيد مصطفى بن السيد محمد الصغير العقبي مخبراً بما تفضلت عليه الدولة الفخيمة الصادقية بواسطة علم همتكم السنية المصطفوية من أنها ملكت له الأرض التي كانت أحسنت إليه باستغلالها[٦٩٨] " .

ويعترف الأمير بأن صديقه الوزير بصنيعه هذا قد ملك السبق والفضل فأصبح عبدالقادر له من الممنونين الشاكرين لهذا المعروف، - والكريم إذا أكرمته ملكته -، ضف إلى ذلك أن هذا العمل لا يقوم به إلا كل مسلم شريف كريم جواد يستهدى تراث الأجداد، وسيرهم في معاملاته وتصرفاته، ويعيد بذلك صفحة مشرقة من تاريخ الإسلام ونعني بها حسن استقبال أنصار رسول الله لمهاجري مكة وإيثارهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة، فكأن التاريخ يعيد نفسه في هذا، ولذلك لم يجد الأمير إلا الدعاء للوزير بالخير والفلاح والابتهال إلى الله أن يجعله ذخراً وعوناً

لإخوانه المسلمين، يقول: " فبخ. بخ ذاك مال رابح وعمل صالح، فصرنا بسببه ألى جنابكم العالي من الممنونين ولحسن صنيعكم من الشاكرين، وكيف وقد تخلقتم بأخلاق الأنصار ووصفتم بما وصفوا به من الإيثار وحب المهاجرين، فنسال أن يمتع المسلمين بطول بقائكم ويوالي أسباب دوام عزكم وارتقائكم بمنه وفضله[٦٩٩] ".

ومن الرسائل الاخوانية التي تبادلها الأمير عبدالقادر مع بعض الشخصيات الإسلامية، رسالته التي رد بها على الشيخ شامل الداغستاني، حيث كانت تربط بين الرجلين صداقة عظيمة إذ جمعت بينهما صفات كثيرة من علم وثقافة وجهاد وبطولة وإيمان بالله فقد أسس كل واحد في وطنه دولة قوية، ووحدا صفوف الشعب ونظما الجيش وكانا محل الاحترام والتقدير من الصديق والعدو، وعلى الرغم من الحرب الضروس والشجاعة النادرة التي أبدياها، إلا أنهما اضطرا إلى إيقاف القتال تحت ظروف قاسية، فنفيا وسجنا " وقد اشتهر الرجلان في العالم الإسلامي كله بالمواقف الشريفة والبسالة الرفيعة والسيرة الحميدة[٧٠٠] ".

كتب الشيخ شامل رسالة إلى الأمير[٧٠١] بعد أحداث " الفتنة الطائفية في الشام[٧٠٢] "شاكراً مواقفه النبيلة الشجاعة حين تصدى لحماية مسيحيي الشام وأنقذ الآلاف منهم بدافع الدين والإنسانية، فأجابه الأمير برسالة بين له فيها أن ما قام به لا يعدو كونه امتثالاً لتعاليم الإسلام الداعية إلى حماية أهل الكتاب والتواصي بهم خيراً وإلى التسامح والرحمة، ونبذ الظلم والعنف والعدوان مهما كان مصدره ودافعه، فالإسلام دين رحمة وسلام وأمن وأمان.

يفتتح عبدالقادر رسالته بعد حمد الله والصلاة على رسوله- بعبارات تنم عن تواضع شديد نابع من أخلاقه السامية- فيخاطب صديقه شامل بكلمات تعبق محبة

وأخوة في الله ويدعو لنفسه وله بأفضل ما ورد في الأثر بقوله : " إنه من الفقير إلى مولاه الغني عبدالقادر بن محيي الدين الحسيني الأخ في الله - تعالى- والمحب من أجله الإمام شامل كان الله لنا ولكم في المقام والرحيل[٧٠٣] " .

ويؤكد عبدالقادر لصديقه أن ما قام به من أعمال ، وما اتخذه من مواقف أثناء حصول فتنة الشام لا يخرج عن كونه امتثالا لأوامر الشريعة السمحاء والمروءة والأخلاق الإنسانية ذلك أن الدين الحنيف يدعو إلى مكارم الأخلاق والنهي عن المنكر وإغاثة الملهوف ، فالإسلام جامع للمحامد ، موجب للمحبة والألفة ، كاره للظلم والعدوان والبغي ، وما جاء الإسلام إلا متمماً لما جاءت به الملل الأخرى ، وفي هذا يقول عبدالقادر : " والذي بلغكم عنا ، ورضيتم به منا من حماية أهل الذمة والعهد ، والذب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد هو - كما في كريم علمكم- مقتضى الشريعة السنية والمروءة الإنسانية ، فإن شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق فهي مشتملة على جميع المحامد ، الموجبة للإئتلاف اشتمال جميع الأطواق على الأعناق ، والبغي في كل الملل مذموم ، ومرتعه وخيم ، ومرتكبه ملوم ، ولكن :

يُقضَى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن[٧٠٤]

ويوضح الأمير- بكل ألم وحسرة - أن السبب في حصول هذا الأمر مرده إلى ابتعاد المسلمين عن مبادئ دينهم الحنيف ، والميل عن سواء السبيل حتى ظن الذين يجهلون الإسلام أن هذا الدين شعاره القسوة والشدة وسفك الدماء ، والإسلام بعيد عن هذا بعد السماء عن الأرض فجنى هؤلاء السفهاء على دينهم فلوثوه ولطخوا صفحاته المشرقة بأعمالهم الطائشة ، ولكن ما العمل؟ فقد اشتد البأس وعم الشر فلم

تبق إلا الاستعانة بالصبر الجميل وطلب العون والهداية من الله، يقول الأمير: " فإنا لله وإنا إليه راجعون على فقد أهل الدين وقلة الناصر للحق والمعين، حتى صار يظن من لا علم لـه أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة، فصبر جميل والله المستعان(٧٠٥) ".

وتمنى عبدالقادر في رسالته لشامل أن تأذن له السلطات الروسية بالسفر والهجرة إلى الحجاز، خاصة وأنه قد بلغ من الكبر عتيا، زارعاً في نفس الشيخ الأمل الذي لم يفقده الأمير نفسه في يوم من الايام، راجياً له نهاية سعيدة لأسره كالتي آل إليها حال الأمير، مؤكداً له أن الإمبراطور الروسي سيحقق له هذا الأمل - إن شاء الله - لما عرف عنه من خصال كريمة على أن الرجاء الحقيقي بيد الله فله مقاليد الأمور، ولا ييأس من رحمة الله إلا الكافرون، والشيخ شامل مؤمن محتسب، يقول الأمير: " ومنذ زمان بلغنا وصولكم عند ملك روسيا وأنه فعل معكم ماهو أهله من الإحسان وأنزلكم من الإكرام أرفع منزل ومكان، وسمعنا أنكم طلبتم تسريحكم إلى الحرمين الشرفين، فنسأل الله أن يجيب مطلوبكم وينيلكم مرغوبكم . . . . وامبراطور روسيا من أعظم ملوك الارض شأناً وأحرصهم على تخليد المفاخر في بطون الدفاتر، فنرجو لكم من حضرته الفخيمة حصول الأرب بلا نصب ولا تعب، كما فعل معنا الإمبراطور نابليون الثالث، فإنه فعل معنا من سني الأفعال ما لم يخطر لأحد في بال، والمرجو- في الحقيقة- هو الله المعبود ولا معبود سواه(٧٠٦) ".

ومن رسائل الأمير كذلك كتابه الذي بعثه إلى علماء المغرب الأقصى أثناء جهاده وإنشاء إمارته الفتية التي تستلزم الحزم والثبات، لذلك كان الأمير" يعاقب من يقع في

أيدي ضبط الثغور من أشقياء المتنصرة كالدوائر والزمالة والبرجية وغيرهم . . . ممن يواصل العدو ويتسلل إلى تجمعاته بما اختلسه من المسلمين من عروض وماشية بما دون القتل إلا من تحقق ضرره للمسلمين ، فكان يأمر بقتله ، ثم بدا له أن يستفتي المحققين من علماء مصر وفاس في شأنهم وفي شأن مانعي الزكاة والإعانة التي افترضها للقيام بأمر الجهاد وغير ذلك مما اضطره الحال إلى السؤال عنه تأكيدا لحجته وتوطيدا لمحجته[٧٠٧] " .

واستطاع الأمير حقا عن طريق هذه الرسالة البليغة أن يبلغ أمره إلى هؤلاء العلماء بأسلوب ينم عن شخصية عالمة بما فيها من بحث عن الحقيقة وتواضع لأهل العلم وأعلامه وهي صفة ظلت ملازمة لعبدالقادر طوال حياته - كما أشرنا سابقا- .

استهل عبدالقادر رسالته بالدعاء لهؤلاء العلماء العاملين بالحفظ والرعاية ليظلوا دوما أكاليل الهداية تنير للناس سواء السبيل بعلمهم واجتهادهم ، وذلك أن علماء الأمة هم قادتها وخلفاء وورثة الأنبياء فيها فوجبت الطاعة والاحترام .

ثم يلج الأمير إلى غرضه الأساسي لرسالته ، فيبين لهؤلاء العلماء ويصور لهم الحالة التي آل إليها الوضع في الإمارة من جراء تصرفات بعض القبائل والرعية المنافية لتعاليم الإسلام ، والتي تهدد أمن واستقرار الإمارة الفتية وتقف حجر عثرة أمام أداء رسالة الأمير في الدفاع عن ذرى الدين والوطن حماية للأنفس والأعراض التي استباحها العدو تساعده في عمله هذا بعض العناصر العميلة التي ارتضت لنفسها سبيل الخيانة والغدر ، فكانت على الأمير أشد خطورة وأذى من العدو نفسه ، فلا يجد أماها إلا الصبر وكم حاول أن يتبين ويكتشف هذه العناصر الخائنة ولكن -وللأسف الشديد- كان الفشل دوما حليفه ، فالجميع ينكر وينفي علاقته بفرنسا رغم ثبوت الأدلة فيخاطب

هؤلاء العلماء بكل حسرة حيث يقول : " جوابكم أبقاكم الله في ما عظم به الخطب واشتد به الكرب في وطن الجزائر الذي صار لغربان الكفر مجازر، وذلك أن عدو الدين يحاول ملك المسلمين واسترقاقهم آونة بالسيف وتارة بشبكات السياسة، ومن المسلمين من يداخلهم ويتابعهم ويجلب لهم المواشي وجياد الخيل وغيرها من أنواع الكراع، ولا يخلو أمرهم من دلالتهم على عورات المسلمين، ومن القبائل من يفعل ذلك، فإذا طولبوا بتعيين المرتكبين منهم جعجعوا وتمالؤوا على الكذب والإنكار مع أنهم يعرفون منهم العين والأثر، فما حكم الله في الفريقين أنفسهم وأموالهم(٧٠٨) " .

أما النقطة الثانية التي يستفتي فيها عبدالقادر علماء فاس فهي لا تقل خطورة عن سابقتها لتأثيرها السلبي على حركة الجهاد المقدس الذي يخوضه الأمير وجنده، حيث يؤكد الامير أن بعض القبائل والأفراد الذين تتوافر فيهم جميع الشروط يتخلفون عن تلبية نداء الجهاد دون عذر حين يدعوهم داعي الأمير للاستنفار، فمنهم من يتخلف ويتثاقل، ومنهم من يجاهر بالرفض وعصيان الأوامر ناسين أن العدو يستهدفهم جميعا، وأن البلاء سيعمهم إن آجلا أو عاجلا يقول الأمير: " وما حكم فيمن يتخلف عن المدافعة إذا استنفر الإمام أو نائبه الناس للدفاع عن الدين والوطن فهل يعاقبون على ذلك وبأي شيء يكون عقابهم؟ولا يتأتى بغير قتالهم وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم(٧٠٩)" .

ويمضي عبدالقادر في عرض أسئلته التي تفوح كلماتها مرارة وأسى لما انحدرت إليه نفوس بعض المسلمين بلغ بهم الأمر إلى أن امتنعوا عن أداء فرض من فرائض الإسلام وركنا من أركانه وهي الزكاة التي فرضها الله على أمته رحمة بهم وسبيلا للتعاون والتكاتف على الرغم من وجوبها شرعاً على هذه القبائل التي تدعي الفقر

والعوز . وهنا يتساءل الأمير عن مصير إمارته وجيشه إذا امتنع المسلمون عن تطبيق هذا الركن باعتباره المورد الأساسي لتمويل خزانة الدولة التي تفتقر إلى كل مقومات ودعائم الدولة الحقيقية فهي في طور النشوء تواجه عدواً يملك من الإمكانات ما يجعله يتجرأ على مهاجمة البلاد.

وأمام هذا الأمر يطلب عبدالقادر من هؤلاء العلماء حكم الله في هذه القضية بكل تفاصيلها وجزئياتها حتى يرى أمره على ضوء هذه الفتوى : " وما حكم الله فيمن يمتنع عن دفع الزكاة كلاً أو بعضاً لدعوى عدم وجوب نصابها عنده مع تحقق وجوده في الحال؟ فهل يصدق في دعواه مع ضعف الدين في هذا الزمن أن يكون للاجتهاد فيه مجال؟ ومن أين يرتزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد لثغورهم من إغارة العدو ولابيت مال موجود منظم الآن ، والذي يجمع من الزكاة لا يفي بقوتهم فضلا عن كسوتهم وسلاحهم وخيلهم ولوازم مؤونتهم ، فهل يترك الأمر فيستبيح العدو الوطن؟ أم يكونوا ممن يلزمهم على جماعة المسلمين ؟ وإذا كان فهل على العموم ؟ أم على الأغنياء فقط؟ وهل يعد مانع المعونة باغياً أم لا ؟ وما حكم أموال البغاة وهو القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا ؟[٧١٠] .

ويختتم الأمير رسالته بدعوة هؤلاء العلماء الأفاضل إلى الإجابة عن أسئلته التي يتوقف عليها كيان الشعب ومصير الأمة ، ولهم في كل ذلك جزاء الله لأنهم بذلك يسهمون لا محالة في فصل الأمر في أخطر القضايا التي تواجه عبدالقادر الأمير وإمارته ، وتفسح السبيل أمامه لتطبيق شرع الله في أرضه على هؤلاء المارقين المفسدين الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، يقول عبدالقادر : " أجيبوا أبقاكم الله -عما ذكرنا وعما يناسب المقام والحال- مأجورين والسلام عليكم بدءاً وعوداً[٧١١] " .

٢ - مراسلاته الأخرى :

وإلى جانب رسائل الأمير الاخوانية التي تبادلها مع إخوته في الدين والمصير من رعايا وقبائل وحكام وشخصيات، نجد له مراسلات عديدة مع بعض الحكام والشخصيات الغربية الأوربية تباينت مضامينها فهي تارة مراسلات سياسية تتعلق بشؤون الحرب والمعاهدات، وتارة أخرى تخص بعض القضايا التي تمس علاقات الأمير وإمارته مع بعض هذه الدول، من طلب للعون والعتاد، والتدخل لدى فرنسا لوقف عدوانها، وثالثة تدور حول بعض الأمور والمسائل الفكرية التي كانت تجري بين الأمير وبعض علماء الغرب، فهي أشبه ما تكون بالمحاورات أو المناظرات، يرد فيها عبدالقادر على استفسارات وأسئلة علماء وحكام فرنسا بشأن بعض القضايا والمعاملات في الإسلام . و الحقيقة أن الدارس لهذه الرسائل يكتشف أن عبدالقادر مفاوض قدير ودبلوماسي محنك من الطراز الأول، خاصة وأنه تصدى لمسائل تمس وطنه أو عقيدته، ولذلك فهو يسخر كل مايملك من براهين وأدلة وحكمة ويعطي كل مقام ما يلزمه من صنوف الكلام، لأنه يعلم أن هذه المراسلات جزء من جهاده ودفاعه عن الدين والأمة، ولافرق عنده بين أن يجابه عدوه بسلاحه فيوظف السيف مقام السيف ويستخدم القلم في مجاله الخاص به، ومن هنا ذهب عبدالقادر يخوض هذا المجال بثقة واقتدار كبيرين، يدافع عن آرائه ويرد على الأقاويل والافتراءات ويدحض حجج خصومه بما اكتسبه من ثقافة عالية وموروث ضخم، فنراه يعود في حديثه عن مسائل الدين إلى الكتب المقدسة ليرد بها عن سائليه "والحق أن ردود عبدالقادر كأس دهاق من المعارف، مزاجها فروسية الفكر وطفولة الصدق، بصرف النظر عما سوف يعده خطأ في مقاييسه وأيا ما قيل فان عبدالقادر واجه الاصطلاء بتلك الظاهرة

الحضارية متى تتجلى فيه المباريات الفكرية والسياسية والحضارية، ووقف منها موقفاً رائداً وممهداً وأجال النظر، والتمس الدليل المعقول والتعليل المقبول لكل ما يقول دون توقف أو خوف كأنه - بل لأنه - مازال في ميدان حرب عوان بين ثقافتين جد متصارعتين[٧١٢] "

وقد اخترنا نماذج من هذه الرسائل لدراستها وتحليلها حتى نقف على ما كان يتمتع به الأمير عبدالقادر من شخصية قوية وحنكة سياسية " ومذهب قوي في أدب الحوار، وأدب النقد، وأدب الخصومة والمعارضة[٧١٣]" . وسيتبين لنا ذلك جليا من خلال استقراء واستعراض هذه النماذج موضوعياً وفنياً. وقد دارت رسائل الأمير- هنا- حول نقاط محددة تخص رد الأسرى والفارين من الطرفين، والمفاوضات من أجل إبرام المعاهدات وما يترتب عليها مع التأكيد على الالتزام بالعهود والمواثيق .

ففيما يخص الأسرى الفرنسيين، وانضواء بعض رعايا الأمير تحت لواء العدو، فقد تبادل الأمير الرسائل مع قواد فرنسا وخاصة الجنرال ديميشال الذي نال نصيب الأسد من مراسلات الأمير لوجوده على رأس القوة المعتدية أثناء هذه الفترة .

ففي النموذج الأول وهو عبارة عن رسالة وجهها عبدالقادر إلى الجنرال جواباً على رسالة هذا الأخير بشأن افتداء بعض الأسرى الفرنسيين الذين وقعوا في أيدي جند الأمير وبعض القبائل التي فضلت حياة الخزي والذل واستساغت طعمه بما فيه من مرارة، نرى الأمير يختلف في صياغتها عما عهدناه في رسائله السابقة، فلا مجال للعبارات الأخوية ولا للثناء والمديح والود، وإنما التزم فيها أسلوباً يكشف عن دبلوماسية رجل دولة لها من السيادة والكرامة ما يجعله يخاطب غيره على قدم المساواة . وقد أورد صاحب تحفة الزائر رسائل كثيرة كانت متبادلة بين الأمير وبعض هذه

الشخصيات الأوربية ، اقتطفنا منها بعض النماذج لدراستها وبيان مدى اختلافها عن رسائله الإخوانية السابقة .

ففي رسالته الأولى المشار اليها والتي تخلو من عبارات المجاملة والتحيات والتي يستهلها بقوله : "من عبدالقادر بن محي الدين إلى الجنرال دي ميشيل(٧١٤) " يدخل الأمير مباشرة في الحديث عن هدفه الرئيسي من رسالته والخاص بموضوع الأسرى الفرنسيين ، فيؤكد له بأن كتابه المتضمن رغبته فى الحصول على إطلاق سراح الجنود المعتقلين قد بلغه وأن هؤلاء الأسرى لا خوف عليهم لأنهم يعاملون معاملة حسنة تطبيقا لتعاليم الدين الاسلامي الذي يأمر بالإحسان إليهم ، مضيفاً بأن هذا الموضوع ليس من الأهمية الكبرى بالنسبة له ، ولكن ظروف الحرب فرضت عليه أن لايردهم إلا بفدية مناسبة تعين عبدالقادر على متطلبات الجهاد ، ويدعو الجنرال إلى المساهمة في إطلاق سراح جنده إذا رغب في ذلك بإبداء النية الصادقة : "أما بعد : فقد وصلنا كتابكم المتضمن أفضل النصائح فقدرناها قدرها وعلمنا أنكم تحثوننا في كتبكم الثلاثة على الإفساح عن الأسرى وتندبون حظهم ، مع أننا نعتني بشأنهم غاية الاعتناء ، والإفساح عنهم ليس له أهمية لدينا غير أن الحالة التي نحن بها لا تسمح لنا أن نردهم بدون فدية فإذا رغبتم في الاتفاق أقبل تسليم الأسرى إليكم عند المعاهدة بيننا(٧١٥) . "

على أنه يوضح له نقطة هامة وهي أنه وتطبيقا لشريعة الاسلام فلن يكـــــون البادئ بالصلح ، ولكنه لن يرفضه اذا عرض عليه مصداقا لقوله تعالى : " وإن جنحـوا للسلم فاجنح لها – سورة الأنفال آية ٦١" ، على أن يكون هذا السلم أو الصلح مبنيـا على شروط محترمة تكفل لكل طرف حقه وكرامته ، فيدعوه إلى عرض شروطه حتـى يرى الأمير رأيه فيها ، وهكذا يوضح عبدالقادر لعدوه أنه ليس بأقل منه حكمة وقدرة

وحنكة وتعامل مع الأحداث بقدر المستوى : " على أن ديننا يمنعنا عن طلب الصلح ويسمح لنا بقبوله إذا عرض علينا ، وان الثقة التي منحتونا إياها في تحاريركم حملتنا على أن نبدأكم بالمخابرة وأن المفاوضة التي تطلبونها تقتضي أن تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم ، ولا يحصل الاتفاق الا اذا عرفتموني شروطكم وما تطلبونه مني ، وأنا أعرفكم بمثلها ، والله المعين[٧١٦] " . وبعد هذا العرض يبين عبدالقادر للجنرال ما يدحض حجته بالأدلة التاريخية رداً على مزاعمه الكاذبة موضحاً له أن القوة الإسلامية التي استخف بها هذا الأخير أمثاله واستضعفوها ، هي التي لقنت هذا الغرب الأوروبى دروساً فى البطولة والشجاعة والتضحية ، وإن كان في شك من هذا فليرجع إلى كتب التاريخ يتصفحها فسيجد الخبر اليقين ، وما الضعف الذي يعانيه المسلمون الآن إلا سحابة صيف ستنقشع بعد حين ، إذ كيف تضعف أمة وتهان وقوتها مستمدة من ربها الذي وصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس ، صحيح أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء وأن الحرب سجال فيقتل المسلم ويُقتل ، وفي شهادته حياة وكرامة فلا غرو إذن أن يتنافس المسلمون في طلب هذه الشهادة ثقة في الله ونصره ، وما أعده لهم من النعيم والكرامة ، واذا كان غيرهم يتسابق لنيل زخرف الدنيا ومتاعها فإن أسمى ما في حياة المسلم رفع لواء الجهاد ودك صفوف الأعداء يطربون لعزف سنابك الخيل وتهزهم طبول النفير وطلقات الجهاد وهي الموسيقى التي يعشق سماعها المجاهد وتنتشي بألحانها أذناه .

وهكذا أوضح الأمير القائد لخصمه أنه أمام شعب لايعرف الخوف والهلع إلى نفسه سبيلا على الرغم من قلة عدده وعدته ، فعزاؤه الوحيد هو إيمانه بقضيته وثقته في الله ونصره ليعلم الجنرال وأمثاله أن قبول عبدالقادر للصلح كان من منطلق قوة الرغبة

في السلام وحقنا للدماء : " وكيف تفاخروني بقوة فرنسا ولاتقدرون القوة الإسلامية مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على قوة الإسلام وانتصاراتهم على أعدائهم ونحن-وإن كنا ضعفاء على زعمكم -فقوتنا بالله الذي لا إله الا هو ولا شريك له، ولا ندعي بأن الظفر مكتوب لنا دائما، بل نعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا، غير أن الموت مسر لنا وليس لنا ثقة إلا بالله وحده لا شريك له، لا بعدد عدة، وان دوي الرصاص وصهيل الخيل والحرب لآذاننا من الصوت الرخيم فاذا صممتم على عقد صلات اجابية دائمة بيننا وبينكم فأفيدونا حتى نرسل اليكم رجلين من كبار قومنا مأذونين بالمفاوضة معكم، تتم أمانيكم بمعونة الله[٧١٧] "

ويبين الأمير للجنرال أنه وجنده يعتبرون أرض الاسلام كلها وطناً لهم يعيشون فيها أعزة كراماً، فاذا ما أكرهوا يوما على ترك البلاد فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون، لأنهم سيجدون المأوى والملاذ في ديار إخوتهم فلن يضاروا أبدا .

ويكرر تحذيره للجنرال من سوء تقديره لقوة المسلمين لأن في ذلك إفراطاً في الغرور، ويحوله إلى دفاتر الماضي المجيد للمسلمين الذين ملكوا البر والبحر، وما الحضارة والتقدم الذي ترفل فيهما أوروبا حالياً إلا ثمار جهود ذلك السلف الصالح وأن مايراه الجنرال الآن من ضعف وانحطاط ماهي إلا كبوة ينهض بعدها المسلم جباراً عظيماً يعيد أمجاد الماضي التليد .

وإمعانا في إبراز الأمير لقوته فإنه يخبر خصمه بأنه كان مشغولا، فلم يتسن له الرد على كتابه ولا نظنها إلا وسيلة متعمدة من الأمير لاتخرج عن كونها إحدى وسائل الحرب والتأثير في العدو : "ولاتظنوا بأننا نأسف اذا اضطررنا إلى ترك البلاد، لأننا نعلم جميعا أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده، وقد سلمنا الأرض وراثتها فحيث ما كنا نجد أمتنا، وقد ظهر لنا من مضمون كتابكم أنكم تحتقرون قوة العرب مع

دوام استعدادهم للقتال وسابقتهم للنزال في كل زمان ومكان، وإذا فتحتم التواريخ ما أجروه في آسيا وجهات الشام من الجراءة والثبات والإقدام والفتحات التي أظهرها الله على أيديهم، وإني أعتذر لعدم جوابي على كتابكم السابق بأني كنت مشغولا في الوقت الذي استلمته[٧١٨] . "

اما الرسالة الثانية والتي تدور حول نفس العرض فإن عبدالقادر ينهج فيها نفس السبيل الذي رأيناه فى رسالته الأولى، فلا مقدمات طويلة ولا ألفاظ وتراكيب تنم عن مودة وأخوة وإنما يلج فيها مباشرة للحديث عن الموضوع الأساسي فيخبر الجنرال دى ميشال بأنه تلقى رسائله العديدة بشأن هؤلاء الأسرى الذين رماهم سوء حظهم بين يدي قوات الأمير، والذي يلهث قائدهم أملا في إطلاق أسرهم مفتخراً – أي الأمير – بكونه لم يتصرف تصرف هذا القائد لأنه كان يقطع الرجاء والأمل في عودة أي مجاهد وقع أسيراً، بل يحتسبه عند ربه من الشهداء، غير أن الشيءالذي يتألم له عبدالقادرهو ذلك العذاب النفسي والجسدي الذي يتعرض لهما أسراه حين يقعون في أيدي أعدائهم، يقول في هذا: "بعد التحية، وصلني كتابك الذي أظهرت فيه رغبتك في الحصول على إطلاق الأسرى الذين أوقعتهم الأقدار الربانية بين يدي، وقد فهمت جميع ما تضمنته رسائلك وما اشتملت عليه من تكرار الطلب، ومن المعلوم عندكم أن جميع الأسرى الذين أوقعوا في يدي معسكركم في ميادين الحرب لم أتعرض لهم ولا لمن كان قبلكم في إطلاقهم، ولا أتعبت أفكاركم بمراسلة قط، لأن حكمهم عندي حكم الأموات، وموتهم أعتبره حياة لهم، غير أني كنت أتألم عليهم شفقة ورحمة[٧١٩] . "

ويرد عبدالقادر على الجنرال وهو يحاوره– بأن ما ذكره هذا الأخير – من أن هؤلاء الأسرى قد وقعوا في يد جيش الأمير وهم يدافعون عن أحد العرب كتبرير أو حجة كافية لإطلاق أسرهم، لايغني عنهم عند الأمير شيئا، فقد ضعف الطالب

والمطلوب، لأنهم بعملهم هذا قد حموا عميلاً لهم وذنباً من أذنابهم ارتضى لنفسه خدمة عدوه، فالأمير ومن معه بريئون منه ومن أمثاله، فقتال العدو وعملائه أمر واحد عند المجاهدين فلا يشفع للعربي جنسه إذا حاد عن سواء السبيل، فلا أمانة لمن لا دين له، وهؤلاء باعوا دينهم بدنياهم فحبطت أعمالهم، فلا يقيم لهم الأمير وشعبه يوماً وزناً، يقول الأمير: " وقولكم أن هؤلاء الأسرى الذين تطلبون إطلاق سراحهم، ما كان خروجهم لأمر يتعلق بكم، بل كانوا يحمون عربيا من انتقام أبناء وطنه وهذا لا أعتبره وسيلةلإطلاقهم فإن المحافظ والمحافظ عليه كلاهما أعداء لنا، وانتهاز الفرصة في الإنتقام منهم غاية مقصودي وسائر العرب الذين عندكم أوغاد وأراذل يجهلون واجباتهم الدينية(٧٢٠) ".

ويلمح الأمير لقائد جيش العدو، قصر نظره وفساد تفكيره حين يؤكد له أن ماحسبه فخرا حين أطلق بعض الأسارى من العرب لا يساوي شيئا عنده، لأن الأمير يعلم بحنكته السياسية وخبرته أن ما أقدم عليه العدو لا يعدو كونه إلا مناورة، فما الأسرى الذين يتبجح الجينرال بفك أسرهم إلا عملاؤه وأتباعه الذين يدورون في فلكه باعوا ضمائرهم وشرفهم وملتهم بعرض الدنيا الزائل، فكانوا عونا للعدو على إخوانهم، وعلى الرغم من هذا فقد كانوا قليلا ما ينجون ويفلتون من بطش فرنسا، تأكيداً من عبدالقادر على أن العدو لا يؤمن جانبه البتة فهو لا يعرف غير مصالحه وامتيازاته، مستعد للتضحية بكل شيء في سبيل أهدافه حتى ولو كانت الضحية أقرب الناس إليه، فمثل هذه الأمور ليست بالخافية على الأمير لتعلم فرنسا أنها أمام رجل حرب وسياسة وأن كيدها سيرد إلى نحرها ولو بعد حين .

ويضيف عبدالقادر أن مثل هذا المعروف الذي يتشدق به العدو، لو كان مع غير هؤلاء العملاء الخونة لكان وقعه حسناً عند الأمير وشعبه ولاعتبره جميلا أو مبادرة

تكشف عن حسن نوايا فرنسا تساهم في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين، ولكنه كان معروفا في غير أهله وبالتالي فالأمير ليس مسؤولا عن هؤلاء الرعاع الذين انتسبوا إلى العرب قولاً لا عملاً فلا فضل لفرنسا في شيء وإن أرادت الفخر حقا فما عليها إلا أن تخرج من قلاعها وحصونها، وعند التقاء الجمعان سيظهر من يستحق الفخر حقا كتحد صارخ من عبدالقادر لعدوه، وفي هذا يقول: " هذا وإني رأيتك تفتخر بأنك أطلقت الأسرى من "العزابة والزمالة" من غير شروط، مع أنك لو راجعت نفسك وأفكارك لوجدت أن رحمتك إنما كانت لأناس استظلوا بظلكم، واحتموا بحماكم، يملأون أسواقكم ذخائر ويكونون عيونا لكم على المسلمين، ويخدمونكم بكامل الصدق، ومع ذلك فإن عسكركم قد سلبوهم كل ما يملكونه، فلو كان هذا المعروف الذي تحججتم به مع غير هؤلاء كالحشم وبني عامر مثلا، لكان يحق لكم الافتخار وكنتم تستحقون الشكر، وعلى كل حال فمتى خرجتم من وهران على مسافة يوم أو يومين يظهر للعيان من يستحق الفخر منا[٧٢١] "

وفي رسالة الأمير التالية التي بعثها إلى نفس الجنرال الفرنسي تتجلى الأصالة الثورية تتحدى الأعداء بأمجادها التليدة ووفائها الأبدي، فإذا كان لوجوه الأعداء أن تتغير ولمعاهداتهم أن تنقض فإن مبادئ وإصرار الأمير لا يمسهما تبديل أو تغيير فيواجه الجنرال بما تكره نفسه ويحذره من أن يتهور ويتمادى في غروره مستخفا بقدرة الأمير وأمته على مواجهة العدوان، وماهذا الضعف الذي تعانيه الأمة الإسلامية الا ظرفاً عرضياً سيزول بعد حين وسيرى الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون.

بعث الامير إلى الجنرال يقول: " الحمد لله وحده، من ناصر الدين عبدالقادر بن محيي الدين إلى المارشال بيجو، أما بعد: "فإن كانت دولة فرنسا ليس عندها من

الأرض ما يكفي رعاياها وأرسلتكم لتغصبوا أرضينا، وتبذلوا في ذلك نفوسكم وأموالكم فنحن نتخلى لها عن مافي أيدينا الآن من السواحل ونبقى معها في حال جيران ينتفع بعضهم من بعض، وأن أبت إلا أن تستولي على جميع وطننا فنحن نبذل وسعنا في مرافعتها وحماية أرضنا منها إلى أن يقضي الله بيننا وبينها بما شاء فإن البلاد بلاده والعبيد عبيده(٢٢٢) ".

فعبدالقادر من خلال هذه المقدمة يدرك النوايا البعيدة لعدوه في الاستعمار والاستيطان، وأن هذا العدو لن يرضى ولن يقنع بما حصل عليه من امتيازات عن طريق القوة أو المعاهدات بل سيسعى حتما لتوسيع رقعة احتلاله، ومن هنا فالأمير وشعبه لن يقف موقف المتفرج وسيدافع عن أرضه وحرمته وسيترك الحكم للسيف حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.

ثم يوضح عبدالقادر أن هذه الحرب التي تقع مسؤوليتها كاملة على فرنسا ليست بالسهولة التي كانت تظنها هذه الأخيرة وستصيبها نارها قبل الأمير فتزهق أرواح وتبدد أموال، وستواجه القوة الغازية من المقاومة والصمود ما يجعلها تندم على اليوم الذي فكرت فيه الإقدام على هذه المغامرة الوقحة.

ومادامت فرنسا هي البادئة بالعدوان، فلا جناح على الأمير إذن أن يقاومها دفاعا عن حق أمته وشعبه في البقاء والحياة، وأن يلتمس جميع السبل المتاحة لردع الظالمين تنفيذاً لأوامر الدين والشرع.

وهكذا يحمل عبدالقادر فرنسا كامل المسؤولية، وكل النتائج المترتبة عن هذه الحرب، مؤكداً على أن الشعارات التي ظلت فرنسا تتشدق بها من أخوة وعدل وحرية ماهي إلا ذر للرماد في الأعين يسخرها المستعمر لتحقيق مآربه وبلوغ أمله، وإنه مستعد

أن يضرب بهذه المبادئ عرض الحائط ويدوس عليها إذا ماتعارضت لحظة مع مصالحه : " ولا يخفى عليك أيها الحاكم - أن مهاجمتكم بلادنا ، كما أنها سبب لإتلاف الكثير من جنودكم وذخائركم فكذلك نحن ، وهذا الشيء لا يرضى به عاقل ، فضلاً عن فاضل ودولتكم تدعي أنها أول دولة في العلم تحب الإنصاف وتستعمله وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به ، ففعلها هذا يكذب دعواها ويبطل مدعاها[٧٢٣] " .

ويضيف عبدالقادر لائماً هذا القائد وأمثاله من القادة لموقفهم السلبي من هذا العدوان الذي يتعرض له الشعب الجزائري ويدعوه إلى اتخاذ موقف حازم وشريف من هذه الحرب ، والوقوف ضدها لأنها حرب ظالمة لاتبقي ولا تذر ، ثم ما الفائدة المرجوة منها؟ ومن أين ستعوض الخسائر البشرية والمادية ، والكل في غنى عن مثل هذه الأمور إيمانا من عبدالقادر بحتمية التعايش السلمي بين الأمم ورداً على أولئك الذين يتهمون العرب والمسلمين بأنهم دعاة حرب ودم .

ثم يعرض الأمير بالجنرال وبسخرية لاذعة حين يدعوه إلى حمل تراب الجزائر وحجارتها وشحنها إلى فرنسا كتعويض عن خسائرها في هذه الحرب فلا شيء لدى عبدالقادر تستطيع فرنسا أن تغنمه كبديل عما فقدته في عدوانها .

ويحذر عبدالقادر فرنسا من أفعال وتصرفات جيشها الذي يسعى فسادا في الأرض بغير حق وينهب الديار والأموال وهو يحسب أن مثل هذه الأعمال ستجبر الأهالي على الرضوخ والاستسلام ، ولكن هيهات أن يخضع شعب آلى على نفسه أن يسلك درب الجهاد ولن يرده أو يثنيه عما وقر في نفسه أي تهديد ، فالجنرال وأمثاله قد علموا عن هذا الشعب شيئا وغابت عنهم أشياء ، ولم يدركوا بعد أن لهذا الشعب وسائله الخاصة التي يواجه بها مثل هذه الأعمال الإجرامية ليرد كيد العدو إلى نحره ، فالخير كثير والمخزون يسير ، وما يتلفه العدو منه كمن أخذ قدح ماء من البحر مدعيا أنه أنقص منه ، يقول الأمير : " وأنتم وغيركم من رجالها نراكم - دائما تساعدونها على

الاعتداء والاغتصاب . . . ولو كان عندكم أدنى نظر سديد ما وافقتموها على إتلاف جنودها في الحرب ومواسم الأمراض المختلفة التي لا تذر ولا تبقي ، فياهل ترى (بأي شيء تعرضون ما تخسره بلادكم من الرجال والأموال والكراع ؟ فإن كان يرضيها منكم أن تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر أو من تراب الأرض التي اغتصبتموها فافعلوا (إني أراك -أيهاالحاكم - تبذل جهدك في تعطيل مراسمنا لنقل الحبوب عندنا ، ظنا منكم أن ذلك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد إليكم ، والحال أن هذا ليس بشئ عندهم ، فإن هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والأشربة مثلكم ، بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ويقيم أودهم كيف ما كان ، على أنه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبعة سنين آتية ، وما تأخذونه أنتم من ذلك فهو جزء من جملة أجزاء ، ولا أراكم في هذا الأمر إلا كمن ملأ قدحه من البحر معتقدا أنه ينقصه[٧٢٤] " .

وبثقة في النفس واعتزاز كبيرين يوضح عبدالقادر لهذا القائد أن حربه لن تنقطع وأن غصن الجهاد لن يذوي ويذبل وسترى فرنسا من آيات البطولة والشجاعة ما يجعلها تعمل لكل تصرف ألف حساب ، ولن يترك المجاهدون عدوهم ينعم بالراحة التي كان يأملها ، فهم وراءه ليذيقوه وبال أمره ، لأن في الجهاد حياة لهؤلاء الناس ، فقد تربوا عليه ورضعوه مع لبن أمهاتهم يسري في نفوسهم سريان الدم في العروق ، وهذا الجهاد عند العرب عفوي لاتكلف فيه ، يعرف فيه المجاهد متى يكر ويفر ، ومتى يهاجم وينسحب يباغت عدوه أين وأنى شاء ، بيده المبادرة ، عكس جيش العدو الذي دفعت فرنسا في سبيل إعداده وتدريبه الأموال الطائلة ، ولكن حين ينجلي النقع ويشتعل لهيب المعركة تراه يتراجع متقهقرا يجر قتلاه وجرحاه بكل خيبة وحسرة ، فلم ينفعه تدريبه ولا سلاحه ، يولي الأدبار بخزي وعار لأنه مدفوع إلى هذه المعركة دفعا يفتقد الإيمان بقضيته وعدالة حربه .

أما المجاهد فإن استنفر للجهاد فذلك يوم المنى، يسير عليه، مستبشرا بلقاء ربه يمني نفسه بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وأي فوز أعظم من هذا، ففرحته بالجهاد لا تعادلها إلا فرحة العريس ليلة عرسه.

ويؤكد الأمير لخصومه أن هؤلاء العرب لا يملون يوما الجهاد وقراع جحافل الظلم ولو امتدت الحرب لسنين طوال لأنهم مؤمنون إيمانا راسخا بعدالة قضيتهم مدركون أن الله معهم يؤيدهم بنصره لأنهم جنده وحزبه، «ألا إن حزب الله هم الغالبون»، يقول الأمير: " وبالجملة فنحن لا نترك قتالكم مادمتم في طغيانكم تعمهون، وفي سبيل اعتدائكم تمشون، والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها فنحن أهلها من المهد إلى اللحد، وحروبنا - كما علمتم- لا نرجع فيها إلى قانون يحصرها بل نحن مخيرون مطلقون نصرفها كيف شئنا، وأما أنتم فقد بذلتم أموالكم، وأفنيتم قوة شبابكم في تعلم طرقها القولية، وعند اشتباك الصفوف وتعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف. ومما علم من كتب التاريخ القديمة، أن العرب يبتهجون في معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه، فلا يخطر في بالكم أنهم يضجرون منها أو يتركونها من ذات أنفسهم، ما دامت الأقدار الإلهية مساعدة لهم، فإن حكمت عليهم من غير ذلك فمن المعلوم أن الأرض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه[٧٢٥]".

ولم تقتصر رسائل الأمير على الفرنسيين فحسب، بل راسل حكام وملوك العالم الأخرين يدعو لقضيته ويطلب العون والمدد سالكا جميع الطرق وملتمسا كل الأسباب التي من شأنها أن تساهم في تدعيم موقفه ونصرة لجهاده العادل.

من هذه الرسائل، تلك التي أرسلها إلى الملكة ايزابيلا الثانية ISABEL II ملكة اسبانيا يوضح لها فيها أنها تعلم بلا ريب، ما يقترفه العدو الفرنسي في الجزائر من

جرائم، وبظروف إمارته الفتية التي تقود الجهاد على الرغم من عدم تكافؤ الفرص واختلال ميزان القوى بينها وبين فرنسا، ولذلك فهو يبدي رغبته ورجاءه في أن تتوسط هذه الملكة - لمكانتها ونفوذها - بينه وبين عدوه لإبرام معاهدة سلام تتوقف معها الحرب ونزيف الدم بين الطرفين. استهل الأمير رسالته بعد التحية بعبارة من (ملك المسلمين) ليظهر للعاهلة الإسبانية أنه لا يقل عنها شأنا ولا مرتبة فهو سلطان البلاد وحاكمها مفوضا من شعبه للتحدث باسمه وربط علاقات التعاون والود مع بقية الشعوب الأخرى، ثم يعرج للحديث عن فحوى رسالته فيذكر هذه الملكة أنها ليست في حاجة لمن يروي لها أخبار الجزائر وجهاد أبنائها ضد العدوان الفرنسي لأن الاسبان وملكتهم يعلمون جيدا الحالة التي عليها الأمير، فقد مروا بنفس الظروف وهم أدرى بالأمور من غيرهم، خاصة وأن هذا الصراع قد طال وأصبح قضية حياة أو موت للشعب الجزائري. يقول الأمير: " من ملك المسلمين عبدالقادر بن محيي الدين، إلى جلاله ملكة اسبانيا: من المسلم به لدى جميع الناس أن الإسبان أمة قوية وقديرة مشهورة بأعمالها الكبيرة، منذ أزمنة بعيدة، وبناء على وضعيتهم هذه بمقدورهم ملاحظة مقاومتنا ضد الفرنسيين، والوضعية التي أنزلونا إليها، وإذن ليس من الفائدة إطلاقا أن نحكي ونقص لجلالتكم تفاصيل هذه المقاومة، وما حدث ومضى منذ عدة سنوات بينهم وبيننا لأننا لا نشك بأنكم على علم بذلك مثلنا(٧٢٦) ".

ويتابع الأمير حديثه إلى الملكة ملفتاً انتباهها إلى بعض الأمور المحببة والمستحسنة التي ما انفك الناس - وخاصة كرامهم - يستنونها لغيرهم ويدعون إليها، فقد سجل التاريخ أعمالا جليلة قام بها عظماء لا زال الناس ينهجون بذكرها ويتخذونها قدوة تتمثل في السعي دوماً للصلح بين الشعوب والأمم لأن الصلح سيد الأحكام. ولن يتصدى للقيام بمثل هذا العمل إلا كرام الرجال، فتحقيق السلام وحسن الجوار والتعايش السلمي من أنبل المهام وأسماها والتي يسعي الجميع لبلوغها حفظا للأنفس

والأموال، لأن الجنوح للصلح والسلام هو الخير كل الخير، وكأن عبدالقادر يعلم أن مثل هذه الحقائق غير خافية على العائلة الإسبانية ولكنه يوردها لتدعم دعوته وتشجع هذه الأخيرة على التدخل لدى فرنسا لتحقيق المصالحة بينها وبين الأمير، وبذلك تضع اسمها في سجل الخالدين وتنال الفضل وتحوز من المنافع الأدبية والمادية لها لشعبها وأن جميلها هذا لن يذهب سدى وسيقدر لها عبدالقادر هذا الفضل ويثيبها على عملها بما تحبه نفسها وترضاه.

ويأمل الأمير في ختام رسالته أن تلقى دعوته قبولاً حسناً من الملكة فتصدر أوامرها إلى ممثلها في(مليلية) أن ييسر السبل أمام ممثلي عبدالقادر لتبقى أواصر التواصل بينه وبين إسبانيا قوية لما فيه خير الشعبين . يقول الأمير: " لقدجرت العادة بين الملوك منذ العصور القديمة أن يصلح الخلافات التي تنشب بين إخوانهم ويمنع الحرب بينهم كذلك، وهكذا إذن إذا اقتضيتم بهذا المثل الجميل وعملتم بحيث نعود إلى مملكتنا القديمة سنأذن لكم ونتعهد بأننا لا ننكر جميل مثل هذه الفوائد، ولكم أن تستفيدوا منا فيما تريدون، ونتمنى بشوق وحرارة أن تجيبونا عن هذه الرسالة، وفي نفس الوقت ترسلون أوامركم إلى الكولونيل حاكم (مليلية) بحيث كل مرة يحضر احد من طرفنا إلى هذه القلعة برسائل ولمعالجة مثل هذا الأمل يأذن له بالدخول[٧٢٧] ".

ولم يعدم الأمير أية وسيلة للاتصال بدول العالم – لعرض قضيته والتعريف بكفاح شعبه، وفضح ممارسات العدو وجرائمه لكسب تأييد الرأي العام وتعاطفه معه – إلا واستغلها في هذا المجال، ومن ذلك رسائله مع الحكومة البريطانية التي كان عبدالقادر يدرك تنافسها وصراعها مع فرنسا على مناطق النفوذ والسيطرة على المناطق الاستراتيجية في العالم، فحاول استغلال هذه النقطة لصالحه بأن عرض في بعض رسائله امتيازات لبريطانيا في مقابل تدخلها لدى فرنسا لوقف عدوانها وطلب العون والمساعدة، وذلك " بمنحها ميناء (تنس) وغيره لاستثماره مقابل حصوله على الأسلحة

والذخائر الحربية[٧٢٨] " . وقد بدأت هذه الاتصالات والمكاتبات بين الأمير عبدالقادر والحكومة الإنجليزية عن طريق قنصل هذه الأخيرة في طنجة " السيد دريموند هاي " الذي كتب إليه الامير رسالة يوضح فيها جوانب الصراع بينه وبين فرنسا ، وكيف أن العدو استباح أرضه وأتلف الحرث والنسل على الرغم من المعاهدات والمواثيق التي عقدت بين الأمير عبدالقادر وفرنسا . والتي لم يقم الاستعمار لها أي وزن أو اعتبار ، فهو ينتهز أية فرصة لنقضها مادامت تتعارض ومصالحه ، وهو ما يتنافى والأخلاقيات القتالية عند المسلمين الذين أمروا أن يوفوا بعهدهم إذا عاهدوا ، وظن العدو هذا الوفاء والالتزام بالعهود والمواثيق نتيجة ضعف وهوان فخرج بجيشه تسول له نفسه المساس بعبدالقادر ، وزين لهم الشيطان سوء فعلتهم واعتقدوا أنهم بمفاجأتهم هذه سيلحقون الهزيمة بالمسلمين ، ومكروا ويمكر الله والله خير الماكرين فذاقوا وبال أمرهم وكانت العاقبة عليهم فتفرقت جموعهم تجر أذيال الخيبة والهزيمة والعار ، وما كان الأمير ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . يقول الأمير : " لا يخفى عليك أننا كنا قد تعاقدنا مع جنس الفرنصيص تعاقدا وثيقا ، وتعاهدنا في الصلح والمهادنة على شروط منا ومنهم ووفينا لهم بجميع ما اشترطوه ، وبقينا على تمام الكلمة نحواً من السنة ثم ابتدأوا التخليط والتلبيس ، فخادعونا مراراً بنقض الميثاق ، ولم تختلف كلمتنا معهم في شيء إلى أن أدى بهم عملهم وطغيانهم لجمع جيوشهم وقوة حروبهم ، وخرجوا كفرانا غير مظهرين الشر ووكيلنا عندهم ، وقنصلهم عندنا وجيوشنا متفرقة ، بحيث شرع في نهب الحب ولما علمنا منه قصد الشر خرجنا بمن حضر من جنودنا ولاقيناه ، فنصرنا الله عليه وصار به ما بلغك من الخذلان والذل والقتال لما أتى به من الغدر والمخادعة[٧٢٩] " .

ويؤكد عبدالقادر على أن الدافع الذي جعله يراسل الإنجليز هو ما بلغه عنهم من وفاء للعهود وحباً للصدق وبعداً عن الغدر والخداع وأن قدوتهم في ملكهم الذي إذا

أعطى وعداً أنجزه وإذا عاهد وفّى، وبالتالي فلا يخشى عبدالقادر التعامل معهم فيعرض عليهم بعض الامتيازات، يتفق عليها، وتضمن للطرفين مصالح تعود على الشعبين بالخير والنفع أساسها الاحترام والتعاون توطيدا لأواصر الود والألفة وعياً من الأمير بأن مثل هذه العروض تسيل لعاب الإنجليز وتدفعهم حتماً إلى اتخاذ مواقف منافسة لفرنسا تكون في صالح عبدالقادر: " ومضمون ما في المكتوب أنكم إذا أردتم المزية الطاهرة التي تفوزون بها على الأجناس وتمتازون بها عن غيركم، تلاقوننا في أي مرسى تريدونها من مراسي الجزائر، ونلتزم لكم من جانب البر أفضل ما التزمنا قبل الفرنصيص، وننزلكم في منزلة أعلى من منزلهم لكونهم خادعين، وأنتم لم تبلغنا عنكم خدعة، ولا شك أنكم لو أردتم منا هذا يحصل من المودة والألفة بيننا وبينكم مايسركم ويقويكم ويرفعكم على سائر الأجناس[٧٣٠] ".

وإلى جانب هذه الرسائل مع الفرنسيين والإنجليز، فقد كانت لعبدالقادر اتصالات أخرى مع ملك إيطاليا وحكومتها وكبار رجال الدولة فيها، وقد اخترت أحد النماذج من بين رسائل كثيرة كانت متبادلة بين الأمير والإيطاليين وهو عبارة عن رسالة تهنئة وتعزية بعثها عبدالقادر إلى الملك" همبرت" ملك أيطاليا معزيا في وفاة والده ومهنئاً بجلوسه على العرش .

يستهل عبدالقادر رسالته- بعد الديباجة- مبيناً لهذا الملك أن الإنسان لا حول ولا قوة له أمام قضاء الله وحكمته، وأن هذا الدهر لا يبقي على حدثانه، والدنيا بين إقبال وإدبار، تأخذ بيد ما منحته بأخرى، وبالتالي فلا يغتر بطيب العيش إنسان، لأن هذه هي نواميس الحياة والقاعدة العامة فيها، فحق على الإنسان أن يكون دوما مهيئاً ومستعداً لهذه التقلبات والتغيرات ويتكيف معها بحسب أحوالها. وبعد هذه العبارات التي تنم عن حكمة بالغة وخبرة واسعة بالحياة وشؤونها أرادها الأمير أن تكون توطئة لرسالته تبعث الصبر وتزرع الأمان في نفس العاهل الإيطالي ينتقل للحديث عن هذا

النبأ الفاجع ولكن بأسلوب حكيم استطاع من خلاله أن يغلب جانب التفاؤل والتهنئة على الجانب المأساوي المحزن، وأن يجعل الملك الجديد يهنأ بمنصبه ويستبشر خيرا، فيبين له الأمير أن وفاة والده كانت مؤثرة، ولكن عزاء الجميع هو أنه قد خلف من بعده من يملأ فراغه ويكمل مشوار أعماله الفاضلة الجليلة، ولذا فلا مكان للحزن والأسى داعياً له بالتوفيق والسداد، يقول: " ولا يخفى أن الأقدار الإلهية من شأنها أنها تختلف بين مكروه ومحبوب وتتصرف بين مسلوب وموهوب، وكثيرا ما أخذت بيد ثم ردته بأخرى، وأحزنت بكرة ثم أحدثت بالعشية سرورا أو بشرى، هذا وإن – حكم الله تعالى– بموت عظيم إيطاليا وملكها والدكم وإفضاء أمر الملك إليكم قد جمع بين ما يوجب الأسف والتعزية، وما يوجب المسرة والتهنئة، ولا شك أن – الله تعالى– أسا بكم حادث الكلم، وسد –بشخصكم العظيم –عظيم الثلم، ورد النفوس بعد – انزعاجها – إلى محالها، والآمال إلى قحط رحالها فلذلك ترى النفوس إلى التهنئة أميل منها إلى التعزية، إذ الموت لا بد منه وسهم لا محيد لكل مخلوق عنه، فالله يصلح بكم البلاد والعباد ويوفقكم إلى سبيل الرشد والسداد[٧٣١] ."

ويلفت عبدالقادر نظر الملك الإيطالي إلى أنه أصبح رمزاً لدولته، وأسرته فعليه أن يكون القدوة والمثل في تصرفاته ومعاملته وأن يسعى إلى تهوين هذا المصاب الجلل الذي ألم بالأوساط الملكية فيبدي من الشجاعة والصبر ما يليق بعظيم مثله لينهج غيره نهجه، فتهون المصيبة ويخف الخطب بفقد الملك الراحل وبالتالي يستطيع أداء مهامه على أكمل صورة، وأن لا يفتح للحزن والأسى قلبه حتى لا يصدأ أو يشغلانه عما أوكل إليه من جلائل الأعمال ويتفرغ لما فيه صالح البلاد والعباد مع رجاء الأمير أن يتقبل عزاءه وتهانيه: " ثم لا يخفى أن عيون العائلة الملوكية ترمقكم في هذه الحال لتسلك على سبيلكم وتأخذ بصبركم وتحملكم فينبغي لكم استعمال الوسائط اللازمة في تهوين ما نزل بها حتى تتفرغ إلى القيام بأعباء ما أسداه إليكم

الباري- تعالى- من الملك العظيم ثم أرجو قبول مااشتملت عليه هذا النميقة الودادية من التعزية والتهنئة(٧٣٢).

ولم تقتصر مكاتبات الأمير على هذه الجوانب فحسب بل نراه يستجيب لسائليه الذين دعوه إلى توضيح بعض القضايا والأمور التي تتعلق بعادات العرب والمسلمين وتقاليدهم في الزواج، ومعاملتهم للمرأة ومقارنة حال المرأة العربية بالأجنبية فقد رد الأمير على كل هذه الأسئلة موضحاً ومصححاً جملة من المفاهيم الخاطئة التي كانت ترسخ في أذهان الغربيين مستعينا في ذلك كله بالتوراة والإنجيل والشواهد الواقعية الحية.

وربما كانت هذه المسائل التي عالجها الأمير في ردوده موضحا فيها رأي الشرع، مجلياً حقائقها البعيدة عن الزيف والمسخ والتشويه" أول ماكتب من هذا القبيل بعد حدوث الاحتكاك بين المسلمين والأوربيين وتكوين هؤلاء صورة سطحية مشوبة بكثير من الخطأ والضلال عن المرأة المسلمة والنظم التي تخضع لها، ومكانها في المجتمع وقد صدروا بها عن مشاهدات خاطئة في بعض ماصارت إليه في العصور المتأخرة وفي البيئات المختلفة وتأثروا فيها بما هو كامل فيهم من عصبية على المسلمين، ومادفعت هذه العصبية من ازدراء وكراهية فعندهم- كما تعبر عنه هذه الأسئلة- أن الرجل لا يملك أن يرى خطيبته، وأن المهر الذي يقدمه لزوجته يجعل منها صورة من صور الملكية، ويجعلها بمثابة الأشياء التي تُشترى، ولا تشاركه في شيء من مهامه، وليس لها أن تدخل المسجد أو تنال شيئا من التأديب، إلى غير ذلك ما تصوروه فيها ووهموه من بعض أمورها، ورأوه في بعض النظم الإسلامية الخاصة بها كالطلاق وتعدد الزوجات"(٧٣٣).

وقد تصدى عبدالقادر محاولا تصحيح مثل هذه الصور الخاطئة المحرفة العالقة بأذهان الغربيين خاصتهم وعامتهم مجلياً وجه الحق والصواب في هذا الأمر" دون أن

ينفعل بموقف رجال الدين المسيحي منه، فقد كانت الروح العلمية هي الغالبة عليه، والنظرة الموضوعية هي الموجهة له، فلا محل للتعصب خاصة وأنه لا يضع الإسلام من الأديان الأخرى موضع الخصومة، فهو ليس إلا امتدادا للفكرة الدينية في اليهودية والمسيحية[٧٣٤] ".

وقد أوردت رسالتين ردا من الأمير على سؤالين لنتبين من خلالهما ما كان يتمتع به عبدالقادر من قدرة فائقة على الحوار والمناظرة ومامتلكه من ثقافة واطلاع، وما كان يتميز به من أدب النقاش والحوار.

ففي رسالته الأولى التي رد بها على الجنرال (دوماس، DUMAS) عن سؤاله التالي الذي يظهر" أن غيرةالمسلمين زائدة حتى أن نساءهن لا يخرجن إلا متلحفات، ولا يظهرن إلا لأصدقاء أزواجهن وأقاربهن كابن العم وابن الخال مثلا، ونحن عندنا النساء يخرجن باديات الوجوه وبحضورهن مع الأحباب والأقارب يتم البسط ويحصل السرور وبذلك يعشن مع أزواجهن في دعة وهناء فكيف الأمر عندكم؟ وما الأفضل؟ عاداتنا أم عاداتكم"[٧٣٥] ؟. وينبري الأمير راداً على رسائله بثقة عالية واعتزاز بالنفس وبروح علمية وحجج وبينات من الموروث والمعارف بل تراه يسوق أمثلته من عادات الغرب ليرد بها على خصومه وليبين لهم ذلك الفرق بين حياة المسلمين وحياتهم.

يخبر الأمير هذا الجنرال السائل أن الغيرة عند المسلمين ليست بالصورة والمبالغة التي يتصورها هؤلاء، وإنما هي وسط، وإذا كانت كذلك فهي ممدوحة محمودة، فغيرة الرجل على أهله وشرفه وعرضه أمر موجب ولازم ولا يتوافر إلا في كرام الرجال وأشرافهم، لأنها سبب لحفظ الأنساب ودرء الشك والريب حماية للمجتمع وصونا لحقوق أفراده، ولذلك فلا غرو أن جعلها الله في الإنسان إكرام له ولآدميته، ويدلل الأمير على ذلك بأقوال الحكماء والأمثلة السائرة تأكيدا لما يذهب إليه يقول في هذا: "

إن غيرة المسلمين ليست بزائدة وإنما هي في ميزان الوسط ، والغيرة إذا كانت كذلك فهي محمودة ممدوحة ، وهي أن لا يتغافل الرجل عن مبادئ الأمور التي يخاف عاقبتها ، ولا يبالغ في إساءة الظن بزوجته ، ويراقب حركاتها وسكناتها ، أو يتجسس عليها فإن هذا ليس من مكارم الأخلاق . . . . والغيرة الممدوحة لا تكون إلا في أشراف الناس وأعلاهم همة ، لأن الله – تعالى– جعل الغيرة في الإنسان سببا لحفظ الإنسان ، قال الحكماء : كل أمة كانت الغيرة في رجالها كانت الصيانة في نسائها ، والغيرة في القلب مثل القوة في البدن تدفع المرض وتقاومه ، فإذا ذهبت القوة كان الهلاك ، وإذا ذهبت الغيرة كان الفساد ، رأى بعض العرب امرأته أكلت بعض تفاحة ورمت بباقيها إلى خادمها فضربها ، وأكثر الحيوانات غيرة حمار الوحش ، فإنه إذا رأى الولد ذكرا قطع آلته وأنثييه[٧٣٦] "

وفيما يخص خروج المرأة المسلمة محجبة فإن الأمير يبين رأي الدين والشرع في هذا الموضوع فيؤكد على أن الإسلام قد أباح للمرأة أن تخرج وتضرب في الأرض محتشمة محترمة لا يبدو من زينتها إلا ما أمر الله أن يظهر حتى ولو كانت ذات حسن وجمال ، ولذلك أجاز الإسلام للرجل أن يرى من المرأة– حتى ولو كانت أجنبية– الوجه واليدين إن كانت نيته سليمة وقصده شريفاً ويحرم عليه مادون ذلك .

ويضيف عبدالقادر أنه حين تغيرت الأحوال وابتعد الناس عن الصراط القويم وكثر الفساد وانحلت الأخلاق أصبح لزاما على كرام الناس أن يأمروا بناتهم ونساءهم وما ملكت أيمانهم أن يضربن على وجوههن ولا يبدين زينتهن اتقاء الفتنة وامتثالا لأوامر الشرع ودفعاً للشرور والآثام ويدلل الأمير على ذلك بأن خليفة رسول الله صلى الله عيه وسلم – عمر الفاروق– كان إذا رأى امرأة ملتحفة أمرها أن تكشف عن وجهها ، وإن ألفاها جميلة أمرها أن تغطيه وإن كانت غير ذلك أمرها أن تكشف عنه لأنه لاخوف عليها وعلى المجتمع من ذلك ، يقول الأمير : " إعلم أن المرأة يجوز لها في

الشرع أن تخرج لقضاء حوائجها بادية الوجه واليدين ولو كانت شابة جميلة، ويجوز للرجل أن يرى من المرأة الأجنبية الوجه واليدين إلا إذا قصد برؤيتها الشهوة واللذة فيحرم عليه ذلك، ولما كثر الفساد وقلت المروءة وكثرت الفاحشة صار أشراف الناس وأهل الديانة يأمرون نساءهم بتغطية وجوههن دائما، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى إمرأة متلحفة متغطية وجهها، يأمرها بكشف وجهها، فإن رآها جميلة، قال لها: غطي وجهك، وإن رآها قبيحة، قال لها اكشفى عن وجهك"[٧٣٧] .

وبخصوص قول السائل "ولا يظهرن لأصدقاء أزواجهن ولا لأقاربهم ولا لأقاربهن " فان الأمير يوضح أن نساء العرب قديما كن لا يتحرجن من التحدث للرجال والجلوس إليهن، ولا يعتبر ذلك عار أو انتقاصاً من المرأة . فلما جاء الإسلام نهى عن ذلك لما فيه من مضرة وخطورة على حياة الأسرة والمجتمع، بل ان رسول الله (ص) ينهي عن اطالة النظر للمرأة لأنها توطئة للفساد، وهاهو سيدنا عيسى رسولنا ورسول السائل ينهي كذلك عما نهى عنه رسول الإسلام، ويعتبر النظرة خطوة أولى إلى الحريق والشرر، وهذا دليل على أن مثل هذا الأمر لم يأت به الاسلام فقط، وانما هو تكملة لما جاءت به الديانات الأخرى .

ويستطرد الأمير في إيراد بعض الأقوال المؤيدة لإجاباته من حكم وأمثال وعبر وأشعار زيادة في الايضاح وتأكيداً لما ذهب إليه في هذا الأمر .

يقول عبدالقادر: " اعلم أن العرب كانوا في الجاهلية يتحدث الرجال منهم مع النساء ويجتمعون معهن، حضر أزواجهن أو غابوا، وليس عندهم في ذلك عيب أو عار، إلى أن جاء الإسلام فمنع ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لاتتبع النظرة فإن مبدأ الزنا معاودة النظر "، وقال عيسى بن مريم "إياكم والنظر، فإنه يزرع في القلب الشهوة، وأول العشق النظر، وأول الحريق الشرر."، وقال حكيم لصياد رآه

يتكلم مع امرأة : ياصياد الوحوش !! احذر أن تصيدك هذه المرأة " . وقال بعض الحكماء : النظر إلى المرأة سهم ، والكلام سهم . ومعلوم أن النساء لحم !! يشتهيه كل رجل ، وإذا دعا الرجل المرأة إلى نفسه ، فالغالب عليها الإجابة ، لاسيما إذا كان الرجل شاباً جميلاً صاحب مال ، فخصهن الله بالحجاب وقطع الكلام معهن وأمر بمباعدة أجسادهن عن أجساد الرجال . وفي المثل ثلاثة لاتؤمن على ثلاثة : شاب على امرأة ، وامرأة على سر ، وفقير على مال ، وقال بعض الشعراء :

لاتأمنن على النساء ولو أخاً

ما في الرجال على النساء أمين(٧٣٨)

ويتصدى الأمير لقول الجنرال السائل حين يتباهى بقوله " إن النساء عندنا يخرجن باديات الوجوه ويحضرن المحافل مع أزواجهن . "فيبين له أن محبة العرب للنساء لا تفوقها محبة واحترامهم لها يفوق كل وصف ، وأن العربي اذا وقعت عيناه على ذات حسن وجمال ، فإنها تأسر قلبه لأنه مطبوع على الحسن وكل ما هو جميل ، فان كان صالحاً فاضلاً ظل يصارع نوازع النفس ويكبت جماحها إلى أن يغلبها ، وان كان من ذوي النفوس الضعيفة وتمكن منه العشق نسي مصالحه وأهمل عمله ، وظل قلبه ونفسه معلقين بها فيحصل له من جراء ذلك ضرر .

ومن هنا فإن الإسلام بشريعته القويمة السمحاء نهى أن تتزين المرأة لغير بعلها ، وإن فعلت ذلك ومرت على قوم فرأوا جمالها أو اشتموا من ريحها طيباً – على حد قول الرسول عليه الصلاة والسلام – فهي زانية آثمة لأنها مدعاة للفتنة والفساد ، ناهيك أن هذا الاختلاط له من المضار مادعا الشرع إلى تحريمه والنهي عنه مصداقا لقوله تبارك وتعالى "وقرن في بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى " ، حفاظاً على كرامة المرأة ، ودرءاً للفساد والمعاصي والفتن التي تنجز عن هذا الاختلاط وهي كثيرة بلاريب .

ولهذا بين عبدالقادر لسائله وهو يحاوره أن المسلمين أهل المروءة والدين كانوا يجتنبون مثل هذه الشبهات ويبعدون نساءهم وحرائرهم عن مجامع الرجال بل وينهونهن حتى عن مخالطة بنات جنسهن اللائي لايؤمن جانبهن ، ويسوق الأمير لذلك قصصاً وأمثالاً وعبراً كاستحسان الرسول (ص) لجواب ابنته فاطمة حين سألها عليه السلام عن أي شيء فيه خير للمرأة فقالت : هو أن لايراها الرجال ولاتراهم ، ولا ريب أن هذا الجواب قد أثلج قلب الرسول وسره فقبلها ما بين عينيها .

ويختم عبدالقادر هذه الرسالة موضحا للجنرال دوماس أن معشر الإفرنج الغربيين قد تعودوا على ربط علاقات بين الرجل والمرأة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ورضوا بالاختلاط نمطا لعيشهم ، ولذلك خبت نيران الغيرة في قلوبهم ، وماتت الحمية والنخوة في نفوسهم وذوى غصن المحبة الذي جعل أساسا للربط والتآلف بين الرجل والمرأة ، ففقدت الحياة عندهم حلاوتها ووهجها ، وأصبح الأوربي يعيش حياة روتينية ، فلا جديد يبعث الدفء والحرارة فيها ، ففقد بذلك الإحساس بمثل هذه الأمور التي وإن كانت ليست بذات قيمة عند الغربيين إلا أنها عماد حياة الانسان وعنوان آدميته وبفقدانها فقد أمثال هؤلاء نعمة من أجل النعم ، يقول الأمير : " وقولكم النساء عندنا يخرجن باديات الوجوه ، ويحضرن المحافل مع أزواجهن[٧٣٩] . " فاعلم أن محبة العرب للنساء شيء عظيم ، وما أظن جنساً في الدنيا يحب النساء كمحبة العرب لهن ، فلا يمكن أن يرى الرجل المرأة الجميلة ويبقى قلبه مستريحاً أبداً ، فإذا كان يخاف الله وصاحب مروءة فإنه يبقى مع نفسه في قتال دائم ، ويحصل له تعب عظيم ، وإذا كان لا يخاف الله ولا مروءة له ، فإنه يبقى مشغول الفكر . . . . فيبقى حيران ويضيع مصالحه كلها – وعندنا في الشرع إذا لبست المرأة الثياب الجميلة ومرت على الرجال لينظروا إليها فإنها : زانية آثمة ، لأنها تشوش أفكار الرجال بسبب نظرهم إليها ، وذلك يؤدي إلى حصول المعصية في الرجال ، وكذلك المرأة إذا حضرت مجالس الرجال ربما يكون

زوجها قبيح المنظر أو شيخاً، وترى شاباً جميلاً فإن قلبها يتعلق به، وكذلك إذا حضرت مواضع الرقص والغناء مع الرجال فإن ذلك يفسدها ويحرك شهوتها . . . . قال بعض الحكماء: ليس بشيء أضر على النساء من الخروج، وليس شيء خيراً لهن من البيوت، والغالب أن المرأة إذا خرجت إلى مجامع الرجال والنساء، ومحافل الزهولاترجع سالمة القلب، وأقل مفسدة في ذلك أن ترى المرأة غيرها لابسة حليا وثيابا أحسن مما عندها، فتسخط على زوجها، وتكره عيشتها عنده، فلهذا كان المسلمون يجنبون نساءهم سماع الغناء من الرجال، وحضور اللعب والرقص والنظر إلى الرجال الأجانب وسماع حكاياتهم . . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة الزهراء (رضي الله عنها): " أي شيء خير للمرأة ؟ فقالت: هو أن لايراها الرجال ولا تراهم " فقبل ما بين عينيها استحساناً لكلامها، ولكن – أنتم معشر الافرنج – لما كنتم حين ينشأ الرجل منكم إلى أن يشيب يجتمع مع النساء ويجالسهم ليلاً ونهارا في البيوت والأسواق ومواضع اللعب وفي الطريق والنساء كذلك ضعفت محبة الرجال للنساء، وقلت الشهوة لأن الشهوة إنما تثور بقوة الإحساس واللمس، بالنظر والإحساس، إنما يقوى بالأمر الغريب الجديد، فأما الذي دام النظر مدة فإنه يضعف الحي عن تمام إدراكه فلا تثور به الشهوة فأنتم–مع الاجتماع الدائم –في راحة من العشق[٧٤٠] ".

أما الرسالة الثانية وهي رد من الأمير على الأسئلة المتعلقة بظاهرة الطلاق التي يراها الجنرال السائل ظاهرة متفشية عند المسلمين حين يذكر: " أن الطلاق عند المسلمين كثير وعندنا لا يكون أبدا ونحن نلومهم على ذلك لما فيه من الضرر على النساء وعلى الأولاد أيضا لكونهم يقعون في يد من لا يرحمهم كوالدتهم[٧٤١] ". فإنما نرى عبدالقادر يبين لسائله ما خفي عنه في هذا المجال مصححاً له سوء مااعتقده في المسلمين – بروح علمية بعيدة عن التعصب معززة بالبراهين والأدلة – دفاعا عن الإسلام وما

علق به من شوائب وسوء فهم تأكيداً على أن الاسلام لم يأت البتة بما يضر الناس فهو رحمة، دين يسر لا عسر صالح لكل عصر ومصر.

فالله سبحانه وتعالى لم يفرض ولم يوجب الطلاق لتعذيب عباده وظلمهم وزيادة معاناتهم لأنه أرحم بهم من أنفسهم ولكنه أحله وبشروط لحكمة يراها تعالى، فمن المتعارف عليه أن الزواج شركة حياة وشركة عمر وسفر طويل وما دام الإنسان مجبولاً على إخفاء عيوبه ومداراتها عن غيره حتى أقرب الناس إليه، فإن هذا الأمر سينكشف بالمعاشرة وحينها تبدأ المشاكل في الظهور على مسرح الحياة الزوجية، فإن وفق الزوجان في تقويمها وإصلاحها وتجاوزها فذاك هو الخير كل الخير، وان فشلا فقد أباح الله لهما الفراق بالمعروف والاحسان فلا ضرر ولا ضرار. وهكذا جعل الله الطلاق مخرجاً وشرف الرجل وأكرمه بأن جعله بيده نظير قيامه على شؤون الأسرة بلا تعسف مصداقاً لقوله تعالى " الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم " النساء آية ٣٣، ولكنه أباح وأذن للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا استحالت معه الحياة.

فالطلاق كما يوضح الأمير لسائله لم يكن بدعاً في الإسلام بل إن الشرائع التي سبقته أشارت إليه فوردت في شأنه بعض النصوص في التوراة والانجيل استشهد بها عبدالقادر لتأكيد ما ذهب اليه، يقول الأمير: " الغالب خفاء بعض عيوب الزوجين من الرجل والمرأة إما في الخلقة أو الطبيعة فإذا ازدوج الرجل والمرأة وتعاشرا أو اطلعا على ما كان خفياً معيباً، ربما تظهر بعض العيوب لأحد الزوجين، فجعل الله الطلاق راحة للذي يحب الفراق منهما، فجعل الله الطلاق بيد الرجل لشرفه، وأذن الله للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها اذا اتصل بها من جهته ضرر.

والطلاق مباح في الأديان القديمة، ففي التوراة في الإصحاح الحادي والعشرين

في سفر الخروج : " اذا استقبح سيدها زواجها فليطلقها " وفي سفر الأحبار في الإصحاح : " إذا طلقت بنت الكاهن ولم يكن لها أولاد رجعت إلى بيت والدها تأكل من القدس"فعلم أن الطلاق ليس خاصا بالمسلمين[٧٤٢] . "

ثم ينبري عبدالقادر موضحا ما خفي من هذه القضية التي يجهلها السائل أو يتجاهلها موضحا أوجهها المختلفة من منافع ومضار، فمضارها على الرغم مما فيها من أمور سلبية مكروهة إلا أنها مباحة اذا لم تتعد آثارها حدود الشرع، ومادعا الله في قوله : " فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف " الطلاق آية ٢ ، ولذلك نرى الرسول عليه الصلاة والسلام يحذر المسلمين من الطلاق ويدعوهم إلى اجتنابه في أحاديث كثيرة، بل جعله أبغض الحلال إلى الله، وإن عرش الرحمان يهتز له، لأن الله يريد لعبيده حياة طيبة هانئة وعشرة دائمة وألفة متبادلة وذرية صالحة، ولن يتأتى ذلك إلا بالزواج السليم، وإنما أجاز الفراق والطلاق رحمة منه لعباده، فإذا لم يكن وفاق ففراق، فكثيرا ما يضطر الطبيب إذا أصيب أحد مرضاه بمرض خبيث إلى اللجوء إلى بتر العضو المصاب والتضحية به حفاظا على حياة مريضه على الرغم من فداحة الأمر وأثره على الإنسان، فهكذا إذن جعل الطلاق لراحة الإنسان وسعادته، وما كان الله ليعذب الناس بما شرعه، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكمته إلا بعد أن يتبين لهم بالدلالة الغرض من هذا الأمر.

ويضيف عبدالقادر في ختام رده على أن الشرع قد أولى المتضرر من الطلاق من الاهتمام والرعاية ما يكفل له حقه سواء الزوجة أو الأولاد، فجعل نفقتهم على والدهم حتى يبلغ أولادهم أشدهم وأوكل حضانتهم للأم لأنها أرحم الناس بهم تخفيفا على الجميع، وما الله بظلام للعبيد ولكن أكثرهم لأنفسهم ظالمون، يقول الأمير : " وفي الطلاق منافع وأضرار، أما المنافع كما ذكرنا، وأما الأضرارفكما ذكرتم، وهو مباح اذا لم يحصل منه إيذاء للمرأة بالباطل، وعلى كل حال فانه لا يخلو من

الفصل الرابع

الأبعاد الفنية في شعر الأمير عبدالقادر الجزائري

الأبعاد الفنية في
شعر الأمير عبد القادر الجزائري

أ - اللغـــة الشعريـــة:

إن لغة الأدب تختلف عن لغة العلم ولغة الحياة اليومية اختلافا واضحا فهي سياق أو تعبير، لا ألفاظ مفردة، " بما تحمله من انفعالات ومشاعر ودلالات إيحائية للألفاظ، ولذا قالوا إن لهذه اللغة المثيرة ألفاظا خاصة بها لا ينبغي للشاعر أن يتجاوزها إلى غيرها من الألفاظ التي تغلب على الكتاب والفلاسفة والمؤرخين، إلا في القليل النادر، وبحيث تأتي عفو الخاطر وعلى سبيل التندر والتظرف[٧٤٤] " ذلك أن " لغة الشعر لغة العاطفة، ولغة النثر لغةالعقل[٧٤٥] "، ولا ريب أن لغة العقل تختلف عن لغة العاطفة.

ومن هنا فقد أولاها الدارسون والنقاد أهمية كبيرة لمكانتها في العالم الأدبي باعتبارها العنصر الأساسي في كل عمل إبداعي يستخدم الكلمة أداة للتعبير، " فالنقد نفسه لا يتعلق في التجربة الشعورية في العمل الأدبي إلا حين تأخذ صورتها اللفظية، لأن الوصول إليها قبل ظهورها في هذه الصورة محال، ولأن الحكم عليها لا يتأتى إلا باستعراض الصورة النقدية التي وردت فيها وبيان ما تنقله هذه الصورة إلينا من حقائق ومشاعر[٧٤٦] ".

ولهذا كان من أولويات الشعر، حسن استثمار خصائص اللغة لأنها مادة العمل الشعري، فكانت بذلك علاقة تجربة الشاعر بلغته أوثق من علاقة القاص أو مؤلف المسرحية، وذلك لأن الشاعر يعتمد على ما في قوة التعبير من إيحاء بالمعاني في لغته التصويرية الخاصة[٧٤٧].

ومن هنا ذهب النقاد إلى اعتبار الشعر " استكشافا دائما لعالم الكلمة واستكشافا دائما للوجود، عن طريق الكلمة، والشاعر يتعامل مع ذاته ومع الوجود من خلال اللغة، وأسلوب تعامله معها يعبر عن مدى مقدرته على الخلق واشتقاق أبعاد جديدة للألفاظ والتراكيب معا . . . . ومن ثم فإن الشعر هو الوسيلة الوحيدة لغنى اللغة وغنى الحياة على السواء، والشعر الذي لايحقق هذه الغاية الحيوية لا يمكن أن يسمى شعرا بحق"(٧٤٨).

ولهذا تفاوت الأدباء والشعراء وتمايزوا في تعاملهم مع اللغة، فمنهم المجيد ومنهم العادي ومنهم دون ذلك" لأن التعبير الأدبي في أبسط صوره صنعة لغوية يختلف فيها الأدباء اختلافا بينا، فقد يكون بعضهم مقتصدا كأحمد حسن الزيات، أو مسرفا كطه حسين، أو أن يكون هادئا كإبراهيم ناجي، أو صاخبا مثل محمود حسن اسماعيل، أو مكثفا معقدا كالرافعي، أو سهلاً رشيقا كنزار قباني وليس ذلك لأنه راجع إلى طبيعة الأديب، بل إنه راجع إلى طريقته في فهم اللغة وفي إحساسه بها في استعماله كل حيلها من البساطة الكاملة، إلى المعاضلة المعقدة(٧٤٩)."

ونظرا لهذه الأهمية التى تكتسبها اللغة ودورها في الحكم على العمل الأدبي ارتأينا أن نقف عند هذا الجانب في شعر الأمير عبدالقادر الجزائري لنكتشف أهم الخصائص التى تميزت بها لغة شعره.

إن إعجاب شاعرنا بالنماذج العربية القديمة جعله يحتذي الأساليب البيانية المشهورة، فاقتصر على التراكيب الجاهزة، ذلك أنه اتخذ من الشعر القديم أنموذجا يحاكيه، كما هو الشأن في شعر هذه الفترة، ولعل مرد ذلك إلى اعتزازه بتراثه العربي الأصيل" فنراه يستخدم تراكيب متنوعة من بيئة أجداده العرب من مثل قوله: تجلى النقع – ظهر جرد بل، ثار النقع، وكما استشهد بقادة المسلمين الذين ملأت أمجادهم وبطولاتهم الدنيا كلها نحو قوله: ولا كل كرار علياً – ولا كل من يدعى بعمرو إذن عمرو"، (٧٥٠) فأغلب تراكيبه وألفاظه مستقاة من الموروث الشعري القديم، كقوله مثلا في هذه الأبيات: (٧٥١)

ونــحن سـقـيـنــا الـبـيض في كل مـعـرك

دمـاء الـعـدا والـسـمـر أسـعـرت الجـوى

وأشــقـــر تحــتي كـلـَّـمَـتْه رمــاحــهـــم

ثــمــانٍ ولـم يـشك الجـوى بل ومــالــتـوى

ومـــازلت أرمـــيـــهم بـــكل مـــهـــنــــــد

وكل جـــواد هـــمّه الــكـــر لا الـــشـــــوى

فأنت تلاحظ استعمال الأمير لهذه الألفاظ التى تنقلك مباشرة إلى عنترة أو أحد أبطال الجاهلية الفرسان ، فهو يتحدث عن البيض ، والسمر ، والأشقر والجوى ، والكر إلى آخره من الألفاظ القديمة وهو في وسط معركة تهز أرضها أصوات المدافع وطلقات البارود ، ولكن التقليد غلب عليه فلم يستطع التخلص من هذا الموروث .

وفي غزله يرتد الأمير إلى هذا القاموس الجاهز ليسعفه بألفاظه وتراكيبه الجاهزة في بناء أبياته ، فكأننا أمام عاشق بدوى يستعرض أمام محبوبته شجاعته وبطولته في المعارك لتشفع له بالوصال : (٧٥٢)

ومن عـجب صـبـري لـكل كـريـهـــــة

وحـمـلـى أثـقـالا تجل عن الـعـــــد

ولـست أهـاب الـبـيض كلا، ولا الـقـنـا

بـيـوم تـصـيـر الـهـام لـلـبيض كـالـغـمـد

ولا هـالـني زحف الـصـفـوف وصـوتـهـا

بـيـوم يـشـيـب الـطـفل فـيـه، مع المـرد

وقـد كـلـفـتـني الـلـيل أرعى نجـومـه

إذا نـامه المـرتـاع، بـالـبـعـد والـصـد

إن الأمير في هذه الأبيات قد ابتعد عن لغة عصره كل الابتعاد ، فجاءت ألفاظه

تبعاً لذلك مشتملة على مفردات معقدة أو غريبة أو بائدة إن صح لنا القول في عصر قد يلجئ القارئ أحيانا للعودة إلى القواميس والمعاجم بحثا عن معنى هذه اللفظة أو تلك .

ثم تأمل كذلك هذه الأبيات التي يصور لنا فيها حاله وما يقاسيه من عذاب البعد والفراق : [٧٥٣]

لم يبق يوم البين والهجر الذي
خُلقا لتعذيب الأحبة مسعفا
إلا صبابته وجسماً قد غدا
ملقى كشنٍّ بالفلا لن يخصفا
بمحاجر من حاجر أقذاء،قد
طردت ضيوف الطيف جاءت طوفا
ماإن تألق برق سلع والحمى
حتى تفيض النفس منه تأسفا

فعلى الرغم من أن الشاعر نظم أبياته وهو في الأسر ، إلا أنه لم ينس مثل الشعراء الأقدمين ذكر أماكن معلومة كحاجر ، وسلع ، ثم تأمل هذه الألفاظ القوية التي ترقى فوق مستوى عصره كالبين ، والشن ، والخصف ، وأقذاء وهى مستقاة من موروثه اللغوي ، ألفاظ غالباً ما تكون غريبة ، أي أنها مجهولة في أذهان أفراد هذه الفترة ، مفقودة من ألسنتهم معزولة عن حياتهم ، فإذا ماجاء بها الشاعر" فقدت وهجها الأصيل وغدت مجرد رصف لألفاظ مكدسة في الكتب والمعاجم ، عديمة التاريخ والظلال والإيحاء والأضواء " . [٧٥٤]

فكان الأجدر بالشاعر وهو يكتب لجمهور القراء أن يلتفت إلى هذا الجمهور المتلقي الذي يهمه أن يفهم عنه ، ويقتنع بآرائه ، ويتقبل صوره ، ومن ثم فلا بد أن يكون واضحا في ألفاظه ، يتوخى البساطة فيها ، وهذا ما عاناه رمضان حمود بقوله : " لا يسمى الشاعر شاعرا عندي إلا إذا خاطب الناس باللغة التى يفهمونها بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة الباسقة ، لا يكلمونا في القرن العشرين بلغة

امرئ القيس وطرفة والمهلهل الجاهليين الغابرين ."[٧٥٥]

فعبدالقادر من خلال النماذج السابقة وغيرها – كثير في شعره –قد خرج عن المعجم الشعري الذي كان مستعملاً في عصره ولم يساير طبيعة المرحلة، وربما دافعه في ذلك الارتفاع عن المستوى العام باستعمال لغة قوية راقية مستقاة من تراثنا العربي الأصيل .

ويبتعد الأمير أحياناً عن اللغة الشعرية بنزعته المباشرة التقريرية التي لا تلمس فيها أية ملامح فنية ، ، يقول في معرض مدحه السلطان عبدالحميد العثماني[٧٥٦] : "

وأشكر الله إذ لم ينصرم أجلي
حتى وصلت بأهل الدين إيصالا
وامتد عمري إلى أن نلت من سندي
خليفة الله أفياء وأظلالا
فالله أكرمني حقا، وأسعدني
وحط عنيَ أوزاراً وأثقالا
أسكن فؤداي، وقرَّ الآن في جسدي
فقد وصلت بحزب الله أحبالا
وعش هنيئاً فأنت اليوم آمَنُ من
حمام مكة إحراماً وإحلالا

فاللغة المستخدمة في هذه الأبيات لا تثير فينا أي إحساس ، لأن ألفاظها وتراكيبها تفتقد التصوير والإيحاء اللذان هما من أسس اللغة الشعرية . وقد كان في إمكان الشاعر أن يشيع بعض الجمال في تضاعيف لغته باستخدامه المحسنات المعنوية ، لكنه فضل عليها المحسنات اللفظية " فأمست جملة من الحقائق والتقريرات يسوقها الشاعر في لغة نثرية باهتة ، فهو يشكر الله بأن أمد في عمره حتى نال وصال الخليفة ، ويعد هذا كرماً ، فقد أزيح عن ثاقله الهم وسكن فؤاده ، فعاش هنيئاً آمناً من حمام مكة .

ومن ذلك قوله أيضا ، يتشوق إلى ابنه : [٧٥٧]

بــنيَّ لــئن دعــاك الــشــوق يــومــــا
وحــنت لــلــقــا مــنــا الــقــلــــوبُ
ورمْتَ بــــأن تــــنـــال مــــنيً ووصـلاً
يــصح بــعــيــده الــقــلب الــكــئــيــب
فـــإني مــنك أولى بـــاشـــتـــيـــــاق
ونـــاري في الـــفـــؤاد لــــهـــا لـــهـــيب
وإن أخـــفي اشـــتـــيـــاقي في فـــؤادي
فـــإن الـــشـــوق يـــكـــتـــمه الأريــب

فهذه الأبيات من الشعر الذاتي نزلت بها النزعة التقريرية لتصبح اللغة أقرب إلى النثر منها إلى الشعر ، ومن المفروض أن يكون الموقف كافيا لتفجير الجانب الجمالي في اللغة يسعفها في ذلك خيال ، يدفع الشاعر إلى استخدام لغة تصويرية ، لكن الأمر لا يعد كونه " ألفاظا وصفية مباشرة تقف عند المعنى المعجمي المحدد للفظ تهدف إلى ايصال الفكرة أولا ، وقبل شيء"[٧٥٨] وهو ما يجعل القارئ يمر على الأبيات دون أن تثير فيه أدنى عاطفة أو يشد فيه انتباهه تعبيرمدهش .

ومما يثير الدهشة والحيرة عندنا ، أن الشاعر ينحدر بمستوى لغته من كلمات يحتار المتلقي في إيجاد معانيها ، إلى ألفاظ دارجة تتداولها الألسن فمن ذلك قوله في استهجان الخدود المشروطة :[٧٥٩]

ومـــادح شـــرط الخــد في الـــســـود صـــادق
وأمـــا بـــخــد الــبــيض، فــالــقــبح عــمــدتي
أمــا يــخــتــشي من أن يــكــون مــخــــــدداً
ويــــدخل في من حــــاز أفـــظع قـــولـــــةِ

فكلمة يختشي كلمة عامية ومعناها يستحي .

ويبدو تقليد الأمير أيضا للموروث صياغة ومحتوى في هذين المثالين فحين يصف

عبدالقادر الخمر الإلهية فإنه يستخدم كلمات سبق لابن الفارض أن عبر بها في الغرض نفسه، فاذا قال ابن الفارض: [٧٦٠]

ولـو نـظـر الـنـدمـان خـتْم إنـائـهـــا

لأسـكـرهـم من دونـهـا ذلك الخـتـمُ

يقول الأمير[٧٦١]:

فـلـو نـظـر الأملاك خـتْم إنـائـهـا

تـخـلّـوا عن الأملاك طـوعـا ولاقـهـر

واذا قال ابن الفارض[٧٦٢]:

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً

ومن لم يمت سكراً بـهـا فـاته الحـزم

يقول الأمير[٧٦٣]:

ولا غـبن في الـدنـيـا ولا من رزيـئـة

سوى رجل عن نـيـلـهـا حـظه نـزر

وفي عصر عبدالقادر كثرت الحاجة " إلى التملؤ وتذوق المفردات للاستمتاع بالسياق في اعدادها ودلالاتها وأنواعها، ونحو ذلك مما يدل على لغوية الشاعر عن نحويته وبلاغته، بينما يترك الحكم على الشاعرية لتفاوت أذواق المتذوقين والنقاد والفنيين[٧٦٤].

ففي قصيدته «ذات خلخال» حشد الأمير لوناً من الجناس يسمى" التعطف" وهو أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف، وقد تأتى لعبدالقادر أن ينظم ثمانية عشر بيتا كل بيت يحمل معنى مختلفا لكلمة " الخال" مما يدل على تبحره اللغوي، يقول في مطلع هذه القصيدة: [٧٦٥]

خـلـيـليَّ وافت مـنـكم ذات خـلـخـال

تـتـيه عـلى شـمس الـظـهـيـرة بـالخـال

تـمـيس فـتـزري بـالـغـصـون تـمـايلا

تـروح وتـغـدو في بـرود من الخـال

لـهـا مـنـطق حـلـو به سـحـر بـابـل

رخـيم الحـواشي وهـو أمـضى من الخـال

مـوشـحـة من طـرزكم بـبـدائع

مـحـجـبـة عن كل ذي فـطـنـة خـال

وليس من بين معاني الخال في هذه القصيدة مثلا العزب الذي في لسان العرب، ولا من لا أنيس له، ولا التوهم، ولا البعيد الضخم، ولا شدة المحاسبة في المال، ولا الكفن" ولعل هذا الإختيار يفصح عن شخصية عبدالقادر، فهي على التوالي: الشامة - البرد اليماني -السيف -خالى البال-ماء السحاب -حلي النساء-أخو الأم -الشجاع -صاحب الفرس -من الخلو- البخل -المنزل الحسن -الجبل الضخم -المطر-الملازم للشيء - الأمير -رقيق القلب- الرجل السمح.

ولم تسلم لغة الشعر عند عبدالقادر أيضا من الركاكة والضعف والضرورات الثقيلة التى ظهرت في عصره من مثل قوله: (٧٦٦)

يـارب أيـد بـروح الـقـدس مـلـجـأنـا

عـبـد المجـيـد ولا تـبـقـيه حـيـرانـا

أحـيـا الجـهـاد لـنـا من بـعـد مـا درست

وضـاعف المـال، أنـواعـاً وألـوانـا

ففي قوله (لا تبقيه) استخدم لا الناهية ولم يجزم الفعل المضارع بعدها، كما أنه استخدم في البيت الثاني كلمة(درست) وحذف فاعلها للإيجاز وتقدير الكلام درست معالمه وهذا الحذف ثقيل.

وفي المقابل نجد للأمير بعض القصائد التى لعبت اللغة فيها دوراً هاماً في إضفاء

مسحة فنية جمالية ، لغة تتميز بايحائية تصويرية تبرز الذات في كل لفظة من ألفاظها ، ومن ذلك قصيدته " أرضى بطيف خيال" التي يصور فيها الشاعر لواعج نفسه وهموم قلبه وما يعانيه من ألم البعد والفراق عن أحبابه وأهله وقد أوردناها على نفس النمط السابق أي من الشعر الذاتي لنبين الفرق بين القصيدتين من حيث اللغة الشعرية : (٧٦٧)

أحباب قلبيَ كم بيني وبينكم
من أبحر وصْفها قد دق عن حد
تحار فيها القطاوالعيُّ يدركها
حتى الجهات تخفى عن القصد
ماكنت ادري بأن الدهر يبعدكم
عني ويتركني من بعدكم وحدي
قد خانني الصبر مأجدى بمنفعة
سيل المدامع قد سالت على خدي
هل الغزال الذي أهواه يسعدني
بالقرب من بعد ما أبدى من الصد
إني وإن كنت مني نافراً فلقد
أرضى بطيف خيال منك لا يجدي

فليست الكلمات أو الألفاظ في بساطتها أو جلالها هي المحك ، وانما الجمال يبدو في تلك الطاقة والعاطفة والحركة التي يسبغها الشاعر عليها فهي التي تحدد قيمتها ، فكلمة ، "القطا" مثلا تدل على طائر معين ولكن الشاعر أورد هذه الكلمة ليصور لنا البعد الذي يفصله عن أحبابه حتى ليحار مثل هذا الطائر- برغم سرعته - في كيفية قطع هذه المسافة فما أدراك بالإنسان الضعيف أوشاعرنا العاجز .

وهكذا نرى أن اغلب ألفاظ الأمير لغة مستمدة من التراث الأدبي القديم يستقيها الشاعر من ذلك المعين الثقافي ، وقد كان في إمكان الأمير " أن يبعث الحياة في اللفظة

القديمة بإدخالها في الجملة الشعرية بتوظيفها توظيفا فنيا، ذلك " أن الشاعر الأصيل والمبدع معاً، هو الذي يستثمر اللغة أيا كانت ألفاظها ومفرداتها قديمة أم حديثة، ومقياس البراعة والإجادة لا يتعلق بالمفردات اللغوية في حد ذاتها، بقدر مايتعلق بالجملة الشعرية وبجو القصيدة ككل[٧٦٨] "، وفي هذا يذكر د. محمد مندور أن" القبح والابتذال لا يمكن أن يكون في اللفظ وإنما يكونان في الفكرة أو الخاطرة أو الإحساس، وما اللفظ إلا وعاء والأشياء بمحتوياتها لا بأوعيتها، إن العبرة ليست بفردات اللغة بل بجملها أو تراكيبها، وطرائق التعبير فيها واللفظ العادي قد يكتسب قوة شاعرية بارزة إذا أدخل في جملة أو تركيب شعري أو صورة بيانية[٧٦٩]. "

وعلى الرغم من النزعة الظاهرة في الأمثلة السابقة في استخدام لغة تقريرية مباشرة، وهو ماجعلنا نفتقد من خلالها الصورة والإيحاء والرمز فتحولت الأبيات إلى قطع نثرية لولا تميزها بالوزن والقافية، إلا أن لها جانباً إيجابياً تمثل في سلامة هذه اللغة من الأخطاء النحوية إلا نادراً، مع جزالة اللفظ ومتانة التركيب، ولم يستخدمها الأمير الشاعر ابتغاء التفاصح والتعالي، ولكنها بديلاً عن لغة عامية لا تستحق استخداماً في العمل الفني.

والأسلوب هو إطار الفكرة وهو القالب الذي يصب فيه الأديب أفكاره" وقديما قال بوفون BOUFFON أن الأسلوب هو الرجل نفسه).

وكذلك عرف فلوبير FLUPPEUR الأسلوب بأن طريقة الكتابة الخاصة في رؤية الاشياء ويستطيع فلوبير أن يستبدل بالرؤية الشعور، أو التفكير، فيقول: إن الأسلوب هو طريقة الكاتب الخاصة في التفكير والشعور، والطريقة الخاصة في الشعور والرؤية تفرض طريقة خاصة في استخدام اللغة، فالأسلوب الصادق إذن يجب أن يكون قريبا إذا كنا نفهم من عبارة الأسلوب الصادق تعبيرا لغويا كافيا كل الكفاية عن طريق الكاتب في الشعور[٧٧٠].

فالتعبير عن فكرة معينة يحتاج إلى أسلوب خاص ، وهذا ما سنحاول أن نتبينه عند عبدالقادر .

إن أول ما يواجهنا ونحن نتصفح ديوان الشاعر تعليق المحقق على أسلوب شاعرنا ، حين ذكر : " أن أسلوب الأمير في عرض الفكر واضح ، نقي ، مشرق إذا قيس إلى مكان في زمانه من أساليب الكلام عند الذروة حتما ، مع أنه كان بعيدا عن مركز النهضة الحديثة ، فمتى كان يجد الوقت الكافي لينظم الشعر أو لينسخ الرسائل ، أو ليؤلف الكتب؟ وكيف أتيح له أن يتخلص من أساليب القرون الوسطى وركاكتها ، وتهالكها ، وترديها" . (٧٧١)

وسواء كان المحقق مصيبا في حكمه أم لا ، إلا أن الشيء الملفت للنظر هو ذلك التقليد في الأساليب والصيغ ، تبعاً للتقيد في الموضوعات والمعاني ، التي تناولها الشعراء السابقون ، لأن شكل القصيدة عند عبدالقادر هو الشكل التقليدي القديم مما جعله يبلغ أحيانا درجة كبيرة في تقليده للقدماء في الأسلوب والمعنى فنجده مثلا يضمن أحدى قصائده ببيتين لأبى نواس في الخمر حين يقول : (٧٧٢)

إذا زمــزم الحــادي بــذكـر صــفــاتــهـــــــا

وصــرَّح مــا كــنَّى ونــادى: نــأى الــصـبـــرُ

"وقــال اسـقــني خـمــراً وقل لي: هي الخـمـر

ولا تـسـقـني سـراً إذا أمـكن الجـهـــر"(٧٧٣)

وصـــرِّحْ بمن تـــهـوى ودعــنيَ في الــكــنـى

فلا خـــيـــر في الـــلــذات من دونـــهــا ســتــر

تـرى سائـقـيـهـا كيف هـامت عـقـولـهــــم

ونـــازلـــهم بـــسطٌ وخـــامـــرهم سُـكْـــــــــر

ومن ذلك أيضا تضمينه لبيت حكيم المعرة أبي العلاء في قصيدته"ما في البداوة من

عيب " حين قال مفتخرا : [٧٧٤]

قـال الألى قـد مـضـوا قـولا يـصـدّقه
نـقل وعـقل ومـا لـلـحق من غـيَـرِ

"الحـسن يـظـهـر في بـيـتـين رونـقه
بـيت من الـشِّـعـر أو بـيت من الـشَّـعـر[٧٧٥]

أنـعـامـنـا إن أتت عـنـد الـعـشيِّ تـخلْ
أصـواتـهـا كـدويِّ الـرعـد بـالـسـحـر

وقوله : [٧٧٦]

الحـمـد لـله الـذي قـد خـصَّـنـي
بـصـفـات كل الـنـاس لا الـنـسـنـاس

الجـود والـعـلـم الـنـفـيس وإنـنـي
لأنـا الـصـبـور لـدى اشـتـداد الـبـاس

وأسلوبه في الدعاء يدور حول التضرع والابتهال لله برسوله الكريم وآله وصحبه الأخيار الأبرار، السابقين الأولين في الإسلام، والنماذج كثيرة في شعر عبدالقادر، وسنكتفي بهذه الأمثلة، يقول الأمير[٧٧٧] :

أيـا سـامع الـشـكـوى ويـا دافع الـبلا
ويـا مـنـقـذ الـغـرقى ويـا واسع الـبِـرِّ

تجـهْتُ لـكم وجـهي بـأكـرم شـافـع
محـمـد المبـعـوث لـلـعـبـد والحـر

لـتـرسل لي عـنـد الـوفـاة مـبـشـراً
بـرضـوانك الأوفى وفـوزيَ في الحـشـر

ومنه كذلك يدعو لجنده الأبطال ويمدحهم لشجاعتهم ووفائهم[٧٧٨] :

يـارب إنك في الجـهـاد أقـمـتـهـم

فـبـكل خـيـر عـنـهم، فـتـفـضـل

يـارب يـارب الـبـرايـا زدهـم

صـبـراً ونـصـراً دائـمـا بـتـكـمّل

وافـتح لـهم مـولاي فـتـحـاً بـيـنـاً

واغـفـر وسـامح يـاإلـهي عـجِّـل

يـارب يـا مـولاي وأبـقـهمُ قـذىً

في عـين من هـو كـافـر بـالمـرسل

وتجـاوزنْ مـولاي عن هـفـواتـهم

والـطفْ بـهم في كل أمـر مـنـزل

إلى أن يقول :

مـتـوسلاً مـولايَ فـي ذا كـلـه

مـتـشـفـعـاً بـشـفـيع كل مـكـمِّـل

وجـهت وجـهي في الأمـور جـمـيـعـهـا

لمحـمـدٍ غـيث الـنـدى المـسـتـرسـل

صـلى عـلـيه الـله، مـا سحَّ الحـيـا

والآل مـا سـيف سـطـا في الجـحـفل

وقوله أيضا مقلدا سابقيه أسلوبا ومعنى وهو يمدح السلطان عبدالحميد ويدعو له بالنصر على أعدائه : (٧٧٩)

الـراكـبـون عـتـاق الخـيل ضـامـرة

تـخـالـهـا في مـجـال الحـرب عـقـبـانـا

فهو يستمد بيته من قول أبي البقاء الرندي في مرثيته الأندلس ، حين قال : (٧٨٠)

يـاراكـبـين عـتـاق الخـيل ضـامـرة

كـأنـهـا في مـجـال الـسـبق عـقـبـانـا

وعلى نفس النهج من التقليد يستخدم الشاعر ايضا اسلوب القسم الجاهلي لتأكيد معنى بيته جريا على العادة القديمة للشعراء وتمسكا بتقاليدهم الفنية[٧٨١] :

وذا وأبـــيك الـــفـــخـــر لا فـــخـــر من غـــدا

وقـــد مـــلك الـــدنـــيـــا وســـاعـــده الـــنـــصـــر

ويتضح أيضا الأسلوب الديني في شعر عبدالقادر وخاصة من القرآن الكريم نظراً لثقافة الشاعر الدينية وتكوينه الصوفي، فهو يلجأ كثيرا إلى هذا النبع يستقي منه معانيه وأساليبه يضمنها شعره، كقوله مثلا يفتخر بنسبه النبوي الشريف[٧٨٢] :

وكـــان لـــنـــا دوام الـــدهـــر ذكـــــــــرٌ

بـــذا نـــطق الـــكـــتـــاب ولا يـــــــزال

إشارة إلى قوله تعالى" إن الله وملا ئكته يصلون على النبي، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما. -سورة الأحزاب، آية ٥٥" وقوله أيضا يصور مفاجأته بتاج الإمارة كمفاجأة الله لموسى عليه السلام بالنبوة: [٧٨٣]

لـــذاك عـــروس المـــلك كـــانت خـــطـــيـــبـــتي

كـــفـــجـــأة مـــوسى بـــالـــنـــبـــوة في طـــوى

اشارة إلى قوله تعالى: " هل أتاك حديث موسى، إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى، إذهب إلى فرعون إنه طغى-سورةالنازعات، آيات ١٤ - ١٥ - ١٦"

ومنه وقوله كذلك يصف نفسه وصحبه الصوفية وتميزهم عن غيرهم من الناس بما أنعم الله عليهم:

فـــقل لمـــلـــوك الأرض أنـــتم وشـــأنـــكـــم

فـقـسـمـتـكم ضـيـزى وقـسـمـتـنـا كـثْـرُ

فـنـحـن بـضـوء الـشـمس والـغـيـر في دجى

وأعـــيـــنـــهم عـــميٌ وآذانـــهم وقـــر

لا غــرو في هــذا، وقــد قــال ربــنــــــا:

تــراهم عــيــون يــنــظــرون ولابــصــر[٧٨٤]

ففي البيت الأول إشارة إلى قوله تعالى: «تلك إذن قسمة ضيزى» سورة النجم، آية ٢١" وفي البيت الثاني إشارة إلى قوله تعالى: إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا- سورة الكهف، آية ٥٦" أما البيت الثالث فيشير فيه عبدالقادر إلى قول المولى تبارك وتعالى: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون - سورة الأعراف آية، ١٧٩ "

كما يبدو جلياً أسلوب التوسل والدعاء في شعر الأمير عبدالقادر جريا على شاكلة شعراء عصره" فقد جرت العادة في القرون المتوسطة أن يبتدىء الشاعر قصيدته بحمد الله ويختمها بالصلاة على الرسول[٧٨٥] ومن ذلك قوله: [٧٨٦]

الـحـمـد لـلـه تـعـظـيـمـاً وإجـــــلالا

مـا أقـبـل الـيـسـر بـعـد الـعـسـر إقـبـالا

فأنت تلاحظ هذا التضرع والابتهال الصادق للمولى بدعوات كلها محببة للنفس المؤمنة، أما توسله بالصحب والآل، فمنه قوله[٧٨٧]:

وجــهت وجــهي أنــلــني مــا دعــوتُ به

بــأهــل بــدر حــمــاة الــدين أركــانــــا

إني تــوســلــت يــا رب الأنـــام بــهــم

أرجــوك فــضلاً وغــفــرانــاً وإحــســانــا

أعــني الألى صــرَّح الــحــفَّــاظ ذكــرهــم

بــإســمــهم تــاركــاً من خــلــفــهم بــانــا

بــقــطــبــهم أحــمــد المخــتــار من مــضــرٍ

وســيــد الخــلق أملاكــاً وإنــســانـــا

ويعرج في بقية أبيات القصيدة على ذكر أسماء ثلاثة وثلاثين صحابياً كريما لكل واحد منهم مقام معلوم في الجهاد والصبر ونصرة الدين، ويختم قصيدته بالصلاة على الرسول:

ثم الصلاة على المختار سيدنا

ما صارت الشيب يوم الحرب شبانا

وإلى جانب هذا نلاحظ تأثر الشاعر بالعلوم والمعارف التي سادت عصره وأثرها في أسلوبه الشعري، فهي كثيراً ما ترد مضمنة في أبياته مؤثرة في أسلوبه، سواء كانت نحواً أو فقهاً أو علوماً أخرى، وبالتالي فهو لم يخرج " من فلك شعراء عصره، فلكل زمن تقاليده ومقاييسه والشعر -كما نعلم- مرآة عصره فلا نطالب الشاعر أن يسبق الزمن[٧٨٨] " ومما لاشك فيه أن شعر الأمير قد اتصل اتصالاً وثيقاً بتكوينه الثقافي والعلمي، والبيئة الفكرية التي عاش فيها، فلا غرابة إذن أن يستخدم عبدالقادر هذا الأسلوب الشائع في عصره.

فهو مثلا حين يريد أن يصور شوقه وما يقاسيه من بعد لم يجد إلا صورة تقطيع الأوزان ليعبر بها عن ذلك، يقول[٧٨٩]:

وفي بعدنا شوق يقطّع مهجتي

كتقطيع بيت الشعر للنظم ميزانا

أما تأثره بالألفاظ الفقهية فنلمسه في قوله: [٧٩٠]

شرع المحبة قاض في حكومته

لصرم خلٍّ من الأشجان يرتاح

ومنه أيضا ما يشير الى ذلك: [٧٩١]

بفرضٍ وتعصيبٍ غدا إرثه له

هو البدر بين الأوليا وهم الزهر

فباستخدامه لكلمات (الفرض والتعصيب) يبدو أثر علم الفقه وعلم المواريث في شعره.

أما علم النحو فيبدو أثره جلياً في شعر عبدالقادر وأسلوبه، ففي عصره كما يذكر د. محمد السيد الوزير: " كان النحو والصرف لازمة للشعر، فلا نكاد نسمع عن واحد يشعر دون أن ينحو، ولا تسمح له موازين النقاد أن يدرج في عداد الشعراء ما لم يستوف هذا الشرط. . . . . . . وإذا ما رأى شاعر - وهذا نادر - أن يثور على عادة الشعراء إزاء كثرة وضيق القيود، فقد كان من المناسب أن يضمِّن ثورته شاهدا على اقتداره وعلى تمكنه مما هو ثائر عليه[٧٩٢].

وهكذا راح عبدالقادر يجاري شعراء عصره فمن أمثلة استخدامه النحو قوله في السلطان عبدالمجيد يمدحه:

قد كنت مضمر خفض ثم أكسبني

رفعاً وقد عمَّني جوداً وأفضالا[٧٩٣]

وبالإضافة بعد القطع عرَّفني

وحطَّ عنيَ تصغيراً وإعلالا

فالأمير يشير إلى الظرف المقطوع إذ يبنى على الضم كقولك: من قبل ومن بعد، فإذا أضفت الظرف جر مع الإضافة كقولك: من قبل الأمر ومن بعده " ومع هذا التعسف في الإشارة إلى ستة أبواب في النحو والصرف في بيتين اثنين، فإنه أرق حاشية وأيسر تناولا مما شاع مثله في عصره شيوعاً سمجاً[٧٩٤] "

ومنه قوله كذلك[٧٩٥]:

وجئت بـ " لولا " فاعلاً لجوابها

على أنها في النحو قد قيل تمنع

وإن كنت لسَّاعاً فكن خير حية

وكن نحلة ترياقها السم يدفع

وهنا إشارة من الأمير الى أن مابعد " لولا " يرفع على أنه مبتدأ لا فاعل.

أما تأثره بعلوم عصره وأثرها في أسلوبه ولغته الشعرية فنراه مثلا في قوله يمدح شيخه الصوفي محمد الفاسي[٧٩٦] :

فـقـبَّـلـت من أقـدامه وبـسـاطـه

وقـال:لك الـبـشـرى بـذا قـضـي الأمـر

وألـقى عـلى صـفـري بـإكـسـيـر سـره

فـقـيل لـه: هـذا هـو الـذهب الـتـبـر

ويعلق محقق الديوان على ذلك بقوله : "الاكسير روح المادة يعتقدون أنها إذا مازجت النحاس انقلب الى ذهب إبريز ، وقد صرف علماء القرون الوسطى جهودهم لتحقيق هذه الفكرة ولجأوا إلى علم الكيمياء يستجدونه ، قال ابن سينا في ذلك :

خـذ الـفـرار والـطـلـقـا

وشـيـئـا يـشـبه الـبـرقـا

فـإن أحـكَـمْـتَـهـمـا سـحـقـاً

مـلـكْتَ الـغـرب والـشـرقـا

فالفرار هو الزئبق ، والطلق حجر معروف ، أما هذا الشيء الذي يشبه البرق فهو السر المجهول الذي جهد علم الكيمياء لمعرفته خلال قرون طويلة فأخفق ، والأمير الشاعر يؤمن بهذه الفكرة إيمانا لا تردد فيه[٧٩٧] " .

ب - الصـورة الشعريـة:

يقول رسكين : " كل من الشاعر والمصور يلتقط كل ما رأى وما سمع طول حياته ولا يفوتهما منظر حتى ولو كان أدق طيات الملابس ، أو حفيف أوراق الشجر ، ثم يخزنانها ثم يهيج الخيال فيستخرج منها صورا وآراء متناسبة متسقة في الأوقات الملائمة[٧٩٨] . "

وكما اعتبرنا الإيقاع الموسيقي أهم فارق بين فن الشعر وفن النثر ، فإن هناك فارقاً هاماً يميز لغة الشعر عن مثيلاتها النثرية ونقصد به الصور .

ولأهميتها في العمل الإبداعي الشعري كانت محط عناية واهتمام الباحثين قدامى ومحدثين على السواء.

ويعزو د. محمد ناصر استخدام هذا المصطلح النقدي"صورة" الى اتصال الثقافة العربية الحديثة واحتكاكها وتأثرها بالثقافة الغربية، فالصورة "فيما نحسب ترجمة للمصطلح النقدي الغربي IMAGE ولعل هذا الموقف هو الذي يفسر لنا اعتماد النقاد العرب المحدثين على تعريفات النقاد الغربيين للصورة[٧٩٩].

فمن التعريفات التي أوردتها دائرة المعارف (لاروس) عن الصورة الأدبية "أنها أسلوب يجعل الفكرة تبرز بكيفية أكثر حساسية وأكثر شاعرية تمنح الشيء الموصوف أو المتكلم عنه أشكالاً وملامح مستعارة من أشياء أخرى تكون مع الشيء الموصوف علاقات التشابه والتقارب من أي وجه من الوجوه[٨٠٠].

وما الفن في حقيقته إلا إبداء لمجموعة من الصور التي تعبر عن قدرة الفنان على رؤية الواقع، وأن يكتشف فيه الحقائق الخافية التي تتبدى من خلال الصور، فيتيح للآخرين أن يروها في أثره الفني بعد أن كان محجوباً عنهم، وعلى هذا يتفاوت الفنانون فيما بينهم إبداعاً وإصابة وإجادة.

والشاعر أو الفنان يرى في الطبيعة المنبع المعين الذي يمده بمكونات الصور "ولكنه لا ينقلها إلينا في تكوينها وعلاقاتها الموضوعية، إنه يدخل معها في جدل، فيرى فيها ما تريه من نفسها جانباً يتوحد معها بإدراك حقيقة كونية وشخصية معا....... والصورة الشعرية ليست تعبيراً منتقى، قصد به أن يدل على فكرة مجردة حدد الشاعر معالمها سلفاً، ثم راح يتأمل تفاصيل الطبيعة من حوله ليختار أكثرها مناسبة لتصوير فكرته، ولكنها انبثاق تلقائي حر يفرض نفسه على الشاعر كتعبير وحيد عن لحظة نفسية انفعالية تريد أن تتجسد في حالة من الانسجام مع الطبيعة من حيث هي مصدرها البعيد الأنوار.......... ومن ثم فإن الصور ليست أداة

لتجسيد شعور أو فكر سابق، بل هي الشعور والفكر ذاته، لقد وجدا بها ولم يجدا من خلالها[٨٠١].

فالصورة بهذا المعنى ليست تسجيلاً فوتوغرافيا للطبيعة أو محاكاة لها، فصحيح أن الشاعر "يتغلغل من خلال أحاسيسه في الطبيعة فيقع على المشهد أو الحركة الخفية[٨٠٢] " فهو في خلقه وإبداعه لاينشئ من العدم، بل إن أهم ميزة في الشاعر أو الفنان الحقيقي الأصيل هو حسن استثمار ما في الطبيعة من صور، وما في عقله من أفكار، وما في خياله من قدرة، فيخضع ما استقاه من صور الطبيعة لتشكيله فتأتي "صورة لفكرته هو وليست صورة لذاتها، ولذلك ولأن الصورة ليست تسجيلاً فوتوغرافياً للأشياء، فإننا نجد الصورة ربطاً بين عوالم الحس المختلفة[٨٠٣] " ولهذا فإن الإبداع والخلق " ليس معناهما أن نخرج من العدم، بل الإبداع والأصالة أن تتفتح في مادة موجودة روحاً لم تكن من قبل. "[٨٠٤]

و ليس يكفي الشاعر أو الفنان أن يتأمل ويمعن النظر فيها، فهو دائما يسعى إلى فهمها، يجلى حقائقها الجوهرية، لا أن يعددها ويحصي أشكالها وألوانها.

و من هنا نستطيع القول أن الصورة " تشكيل لغوي، يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية، وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية، أو يقدمها الشاعر أحيانا كثيرة في صور حسية[٨٠٥]. "

و على هذا فإن جمال الصورة ليس في مطابقتها للواقع والطبيعة ولن تصير دليلاً على عبقرية أصيلة إلا بقدر ما تكون محكمة بشعور طاغ أو أفكار مفصلة أو صور آثارها ذلك الشعور أو حينما يكون لها تأثير[٨٠٦] " ذلك لأن الغرض " إنما يراد بها التعبير

عن موقع الأشياء من الوجدان، وإن قدرة الشاعر هي أن تصرفنا عن ظواهر الموصوفات إلى وقع الموصوفات في النفس والخاطر، لأن شعوره يصدر من داخل نفسه وخاطره، ويمتلئ به وعيه ولا يصدر عن تلفيقات الظواهر والأشكال(٨٠٧)."

و ما دمنا نتحدث عن الصورة، فإن المقام يفرض علينا أن نتعرض لعنصر هام في مجال تكوين وتشكيل الصور ونعني به الخيال، ذلك أنه "لما كان الشاعر لا يخضع لمنطق الأشياء المركبة في الواقع الخارجي، بل يعتمد على الإلهام والأحلام، وينظر إلى العالم ببصيرته لا ببصره، برؤياه لا برؤيته، في هذه الحالة يغيب الشاعر ويبعد، ينتقل بخياله من رؤيا تتضمن صورا مجددة تعكس مجاهيل سحيقة في النفس البشرية، لم تستطع اللغة بتركيبها المنطقي الوصول إلى ذلك(٨٠٨)".

فالشاعر بخياله يرقى ويسمو في نظرته إلى العالم الخارجي، فإن الأشياء التي تبدو لنا بسيطة ولا نولي لها اهتماما يراها الشاعر بنظرة أخرى، فتتولد لديه علاقات جديدة بين الأشياء يضفي عليها من خياله ومشاعره لمسة جمالية ويلبسها ثوباً زاهياً فتجد لها في نفوسنا قبولاً حسنا.

فالشاعر مهما أجاد لغة، وموسيقى، فصوره لن تستطيع أن تنهض بدون الخيال حتى وإن برزت في العمل الإبداعي فهي باهتة مبتذلة تفتقر إلى الدفء والحيوية والحركة، لأن الخيال "موهبة تنفذ بروح الأديب الى أسرار الوجود، واكتناه الحقائق المستكنة وراء مظاهر الأشياء، وتجعله يحلق طويلاً في أجواء وعوالم جديدة مليئة بالرؤى الجذابة، والصور الخلابة، والموسيقى الساحرة. وهذه الموهبة تتباين قوة وضعفاً، واتساعاً وغنى وفقراً لدى الفنانين بحسب قدرتهم على استيعاب أسرار الحياة وهتك حجب المادة، والوصول إلى ينابيع الإلهام وقدرة نفوسهم على التولد والتفاعل مع الحياة وانعكاس إشعاعاتها(٨٠٩).

وعلى قدر قوة الخيال عند الفنان – ومدى حسن استخدامه في العمل الفني–

تتفاوت الأعمال الفنية، فالصورة الواحدة يمكن لكثير من الشعراء تجسيدها في عمل فني، ولكنها تتمايز من شاعر الى آخر بحسب قوة الخيال وملكته، فالمسألة ليست خلقاً وسبقاً في عرضها، ولكن في حسن الابتكار وقدرة كل مبدع في كيفية إبرازها بالصورة المطلوبة وإلا لما أصبح للعمل الفني أي مغزى.

فالفنان لا يقدم مجموعة من الصور والموضوعات التي يربط بين جزئياتها فكر مجرد، وخيال سطحي، خال من العاطفة والإثارة، بل عليه أن يتحد مع الطبيعة الخارجية عن طريق اتحاد ذاته أو روحه بهذا العالم الخارجي، وهذا الاتحاد بين الذات الإنسانية والموضوع الخارجي هو ثمرة طبيعية لما نسميه بالرؤيا والخيال، فيتلون العمل الفني بلون فكر الفنان وروحه وعاطفته، فتمسي الأشياء أو العالم الخارجي أكثر قابلية للتغير واكتساب دلالات جديدة لم تكن ترى من قبل ويعيش الشاعر أو الفنان مع هذا الموضوع بخياله، فيشكله صوراً جديدة ويعيد ربط علاقاته فتبرز الصورة في لوحة مخالفة لما ألفناه تماماً.

فالخيال إذن هو تلك العلاقة الحية النامية التي تنشأ بين لفظة وأخرى في الشعر الجميل والتي تختلف عنها في النثر، فإذا كان الوزن والموسيقى من العناصر الجوهرية التي لا تنفصل عن العناصر الأخرى المكونة للقصيدة، بالإضافة إلى كونهما يمثلان التوازن بين الشعور واللاشعور، وبين العاطفة العقل والإحساس بهما، والقدرة على توليد هذا الإحساس، إنما يكون بفضل الخيال وحده. وبفضله تتحقق تلك الوحدة المطلوبة بين أجزاء العمل الفني فهو يحفظ ويعدل الانفعالات والصور والأفكار وعن طريقه " ينشط الشاعر النفس الإنسانية بأكملها بجميع ما فيها من ملكات، مع الاحتفاظ بالنسب بين الملكات كل وفق مكانها وقيمتها وهو ينشر نغماً معيناً في الأشياء أو روحا توحد بينها، فتصهر الأشياء بعضها بالبعض الآخر، وهذه القوة (الخيال) تدفعها إلى العمل أو الإرادة والفهم ويظلان يمسكان بزمامها بلا وهن ولكن بأسلوب رقيق غير ملحوظ وبحزم ولين معا، وتكشف لنا قوة الخيال عن ذاتها في خلق التوازن أو التوفيق

بين الصفات المتضادة ، فهي التي توفق بين المتشابه والمختلف ، بين المجرد والمحسوس ، بين الفكرة والصورة ، بين الفردي والعام ، وهي التي تجمع بين الإحساس بالجدة ، والرؤية المباشرة والموضوعات القديمة المألوفة بين حالة غير عادية من الإنفعال ، ودرجة عالية من النظام ، بين الحكم المتيقظ أبدا ، وضبط النفس المتواصل ، والحماس البالغ ، والانفعال العميق ، وبينما هي تمزج الطبيعي بالمصنوع ، وتنغم بينهما كأنها لاتزال تخضع للطبيعة والأسلوب للموضوع إعجابنا بالشاعر لتعاطفنا مع الشاعر ذاته(٨١٠) . "

ولذلك فكثير ما يكون الخيال مقياسا للحكم على مدى نجاح الفنان في مدى نقله لتجربته الفنية إلى الغير وتوصيلها توصيلا كاملا يشعر هذا الأخير بأنه يعيش نفس الصورة أو الإحساس الذي يعتري الفنان ، فهو الذي "يحدد مجال الصورة الشعرية بما يمكن أن يضيفه عليها من قدرة تستطيع بها أن تتشكل أساسا ، ثم تستطيع أن تترابط وتنصهر مع الصور الجزئية الأخرى في سبيل تكوين الصورة الكلية مما يوسع من دائرة العمل الأدبي وما يكمن فيه من رؤى ومواقف شعورية(٨١١) . "

فالفنان المبدع لا وجود للواقع أمامه في خياله ، فكل ما في الطبيعة يمكن تحطيم عناصره وإعادة تشكيلها أو تركيبها بصورة أو بأخرى على حسب قدرة كل فنان وإبداعه ، حتى أننا نتعجب حين تواجهنا صورة فنية كانت تعايشنا دوما ، ولكننا لا نلحظها فتمر جزئياتها أمام أعيننا ، ولا نلقي لها بالاً واهتماماً ، بل إن الملامح الجمالية فيها تكون مغشاة أمام أعيننا حتى إذا ما تصدى لها الفنان برزت هذه الخصائص الجمالية أمامنا ، فانظر قول عنترة مثلاً يصف حركة ذباب . (٨١٢)

وخلا الذباب بها فليس ببارح
غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه
قدح المكبّ على الزناد الأجذم

فهذه الحشرة الضعيفة - أتفه مخلوقات الله- من أن ينظر إليها الإنسان ولكن خيال الشاعر استطاع أن يصور لنا هذا الذباب وهو مكب في حركته ويبرزه في صورة جميلة توحي بإحساس فني راق وبخيال واسع الآفاق فيه صورة نادرة لا تتاح إلا لذي الباع الطويل والخيال الخصب المبدع.

ولنعد لشاعرنا عبدالقادر لنرى مقدرته على الإبداع والابتكار في هذا الجانب ونعني به تشكيل الصور.

إن أول ما يواجهنا هو أن صوره الشعرية من الناحية الشكلية لا تختلف كثيرا عن صورة القدامى فأغلبها تشبيهات واستعارات، ذلك أن النقاد القدامى رأوا فيه جانبا من شرف الكلام، وفيه تكون الفتنة والبراعة، فجعلوه أبين دليل على شاعرية الشاعر ومقياسا تعرف به البلاغة، كما أوصوا أن يطلب الشاعر الحدق فيه لكي يملك زمام الممارسة والتدرب على فنون البيان[٨١٣]. وقد عرف هذا الأمر أيضا حتى عند مدرسة الإحياء العربية عند شوقي وحافظ والريحاني " فإنهم لم يكادوا يختلفون عن طبيعة الصور القديمة من حيث اعتمادها على الأطراف الواضحة والحدود الظاهرة[٨١٤] ".

فالصور عند الأمير كانت غايتها الوصول إلى الحقيقة، ولتوضيح الفكرة أو الشعور وسنتبين ذلك من خلال بعض النماذج الشعرية لنعرف قدرة الشاعر ومدى سعة أفق خياله في هذا المجال. ففي قصيدته" بين البدو والحضر" التى يصور فيها الشاعر جمال الصحراء وميزاتها الخلقية والروحية نراه يستعرض الصور الواحدة تلو الأخرى التي تفتقر الى عنصر المفاجأة والابتكار، ذلك أن الأمير، على ما نحسبه لم يوظف ملكة الخيال توظيفا جيدا لتسعفه باللمحات الفنية، وإنما اعتمد على ذلك الموروث الذي يختزن آلاف الصور المشابهة والتي استقاها من الشعر من خلال تعامله الكثير معه، يقول في وصف الصحراء[٨١٥]:

أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيا

بساط رمل به الحصباء كالدررِ

أو جـلْت في روضـة قـد راق مـنـظـرهـا

بـكل لـون جـمـيل شـيِّقٍ عـطـر

أنـعـامـنـا إن أتت عـنـد الـعـشيّ تـخَلْ

أصـواتـهـا كـدويِّ الـرعـد بـالـسـحـر

سـفـائن الـبـر بل أنجى لـراكـبـهـا

سـفـائن الـبـحـر كم فـيـهـا من الخـطـر

وهذه الحسية التي تبدو في هذه الصور الطبيعية من مطر وليل ونجوم ورعد وبحر لا يثير فينا أي إحساس فالتراب كالمسك، والخيام صفت كالأنجم، والأنعام في أصواتها تخالها الرعد، وهي مبالغة مشينة من الأمير، والإبل أضمن ركوبا وسلامة من سفن البحر، عبارات وتشابيه جامدة لا إثارة فيها ولا حركة، صور متقطعة مكدسة أخضعها الشاعر لتخدم الفكرة العامة للقصيدة وهي تفضيل البادية على الحاضرة دون الاهتمام بالجانب الشعوري، معتمداً على صور سابقة في الذهن وليدة معايشة الشاعر لموروث الأدب القديم.

قد يكون للشاعر العذر في هذا، ومرده اعتزازه بالبادية وأهلها، فهي جزء من التراث خاصة وأن القصيدة كانت رداً وحكماً لسؤال بعض جنيرالات فرنسا، وبطبيعة الأمر كن لابد للأمير أن يستحضر وهو يعلل رأيه جميع الصور والمناظر الجميلة ليدلل بها على حكمه في الانتصار لأهل البدو: [٨١٦]

مـا في الـبـداوة من عـيب تـذم بـه

إلا المـروءة والإحـسـان بـالـبـدر

من لم يمت عـنـدنـا بـالـطـعن عـاش مـدى

فـنـحن أطـول خـلـق الـلـه في الـعـمـر

ورغم هذا الإعجاب بالبادية والانحياز لأهلها، إلا أن الأمير في صوره كان بعيداً

عن الإحساس النفسي والشعور الفياض، همه الوحيد رصد الصور خارجيا ونحسب أن مردها إلى بناء القصيدة ككل" فقد كان العمل الشعري مبنياً أساساً على وحدة البيت، ومن شأن بناء العمل على وحدة البيت أن يؤثر تأثيراً واضحاً في الصورة فتنفصل حيث يجب أن تتواصل وتنقطع انقطاعاً مفاجئاً حين ينتظر المتلقي منها التلاحم والاستمرارية". [٨١٧]

ويمضي الشاعر على نفس المنوال في إيراد صوره الحسية وذلك في قصيدته (جنات دمر) فهو لم يعل فيها عن المادي الجامد، وكل ما هناك أنه يضع بين يديك صوراً مجردة جامدة كون جزئياتها من موروث سابق، فهذه رياض زاهرة، ذات مياه جارية، كماء الكوثر، جداول تشبه الحياة في التواءاتها ذات نسيم عليل طيب تشدو على أفنانها الأطيار بأصوات رخيمة إلى غيرها من الصور المعتادة في وصف الطبيعة[٨١٨]:

عج بي فديتك في أباطح دمَّرٍ
ذات الرياض الزاهرات النضَّرِ
ذات المياه الجاريات على الصفا
فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالأراقم جريها
سبحانه من خالق، ومصوِّر
ذات النسيم الطيب العطر الذي
يغنيك عن زبد ومسك أذفر
والطير في أدواحها مترنم
برخيم صوت فاق نغمة مزهر

فهذه النزعة الحسية في التصوير والوقوف عند حدود الشكل للصور والاهتمام المنصب على المظهر الخارجي، جعل الصورة موسومة بالجفاف والجمود، لا نجد في

الأبيات إلا حشداً من المشاهد الطبيعية العادية التى لم تثر فينا أدنى إحساس أو انفعال والمفروض أن تكون صور الشاعر أكثر التصاقا به وأدل على إحساسه تجاه الطبيعة " فهي عاطفة الشاعر نحو مسقط رأسه ومرابع الذكريات مما نستبعد معها أن يلحقها الزيف أو يشوبها الانفعال(٨١٩) . " فعبدالقادر لم يربط بين شعوره وذاته وبين عالمه الخارجي بذلك الخيط السحري ولم يعتمد في تشكيل هذه الصور على التكامل والتداعي النفسي والخيال ، فأمست أبياته جامدة ينعدم فيها التواصل والربط وكأننا بالشاعر – وقد طغت عليه النزعة التقليدية – . قد انفصل في صوره عن ذاته بتلمسها من الخارج فقط ، ولم يحاول الغوص في أعماقها فكان عمله" أشبه بعمل الآلة الفوتوغرافية التي تجسم المنظر ، ولكن لا تبعث فيه الحركة تنقله إلى الرائي بأمانة ودقة ولكنها لا تنفخ فيها الروح ، ونحسب أن مرد هذا الموقف يعود إلى طغيان النزعة الغيرية على الشعراء وإهمالهم لذواتهم وأحاسيسهم في العمل الشعري بصفة عامة"(٨٢٠).

والحقيقة فإن للأمير الشاعر بعض القصائد والمقطوعات التي ينحو فيها منحى مغايراً لما سبق ، فنراه يذيب ذاته مع الشيء الموصوف ، فيسقط عليه مشاعره وأحاسيسه وهذا ما نلا حظه في " الناعورة العاشقة" التي استطاع عبدالقادر أن يجسد فيها صورة زاخرة بالحركة والإيحاء ، فيناجي هذه الناعورة وكأنها كائن حي يشارك الأمير ما يعانيه من ألم وعذاب فاستحالت أمام الشاعر إلى رفيق يحاوره ويبثه شكواه ، فترد الناعورة على مثل قول الأمير وكأنها تعيش نفس المعاناة ، وصور الأمير هنا غاية في الجمال وهو يناجى هذه الناعورة وكأنها وليد يحنو على ثدي أمه يلقمه تارة ويبعد عنه أخرى ، وهو بين الصد والفوز يرفع رأسه بالبكاء فحاله كصب يتمايل أصابه وجد من حبيب جفاه فلم يجد إلا الالتفات مرة والانحناء أخرى ، يبحث عن هذا الحبيب كل ذلك في جو حزين كئيب استطاع عبدالقادر أن ينقله إلينا فشاركناه ماهو فيه فأصبحت الصورة بهذا جزءا من شخصية الأمير وشعوره وفكره ، يقول(٨٢١) :

وناعورة ناشدتها عن حنينها

حــنــين الحــوار والــدمــوع تــســيل

فــقــالــت وأبــدت عــذرهــا بمــقــالــهــا

ولـــلــصــدق آيـــات عــلــيه دلــيــل

ألــست تــراني ألــقم الــثــدي لحــظــة

وأدفع عــنــه،والــبلاء طــويــل

وحــالي كــحــال الــعــشق بــات مــحــالــفــاً

يــدور بــدار الحب وهــو ذلــيــل

يــطــأطئ حــزنــاً رأسه بــتــذلــل

ويــرفع أخــرى والــعــويل عــويــل

ويتحدث الأمير عن عذاب الأسر وألم الفراق، فيحس المتلقي – حقاً مع الأبيات –معاناة الشاعر ويشاركه ما يقاسيه، لقد أصبح الأمير في حالة يرثى لها، تملكه الشوق والحنين إلى الأهل والأحبة الذين فارقوه وابتعدوا عنه، فلم يجد أحسن من هذه الصورة التى عبرت بكل صدق عن هذه الحالة، لقد شبه عبدالقادر نفسه وحيدا بقربة صغيرة مثقوبة في صحراء قاحلة، فربط عبدالقادر بين حياة الصحراء وما تتطلبه من ماء وبين هذه القربة التي يظن المرء التائه في الفلاة الصحراء حين يلمحها أنه قد نجا ولكنه حين يدركها يصدم، فهي خرقاء جافة تبشر بالويل والهلاك لمن انعدم معه الماء، إمعان من الشاعر في وصف حاله البائس، فما عسى أن ينتظر منه وهو في هذه الحالة البائسة، فلم تعد لحياته معنى بعد فراق من يهوى، حتى زفرات قلبه اشبه بالحجرات الملتهبة تتأجج في صوره فتستحيل إلى دموع مدرارة تذرفها أعين حرمت حتى من رؤية أطياف الأحباب، فهما لا تغمضان من شدة ما أصابها وكأنهما أصيبتا بقذى فلا يرتد له جفن، وهي صور من الأمير لا نعدمها معبرة عن حالته، يقول: [٨٢٢]

لم يــبق يــوم الــبــين والــهــجــر الــذي

خــلــقــا لــتــعــذيب الأحــبــة مــســعــفــا

إلا صــبــابــتــه وجــســمــا قــد غــدى

مــلــقى كـشن بــالــفلا لن يــخــصــفــــــا

زفـــرات قـــلـــبي جـــمـــر نـــار أجـــجـــت

مـــنه دمـــوع الـــعـــين، فـــاضت ذرفـــــا

بمـــحـــاجـــر من حـــاجـــر أقـــذاء قـــــد

طـردت ضـــيـوف الـطــيف، جــاءت طــوَّفــا

وحين ننتقل إلى دراسة الصور الشعرية في بقية أغراض الديوان ، فإننا نجد الأمير يجيد تارة ويسف أخرى ، يبدع حينا ويقلد أحيانا ، ففي شعره الغزلي مثلا نجد أن شاعرنا متأثر إلى أبعد الحدود - في تشكيل صوره بالقدامى- في صورهم واخيلتهم يحاكيهم فيها ، فحبيبه كغصن البان في قده ووجهه كالبدر والشمس ضياء ، وأسنانه كالدر بياضا ، وليله طويل لا ينجلي يبيته مهموماً لا يهجع فيه إلا نادراً ، يقاسي البعد والنوى يطلب الوصال ، فيجد النفور والصد إلى غيرها من الصور المستهلكة التي أشبعها الأقدمون إيراداً وذكراً .

يقول الأمير متغزلا : (٨٢٣)

هــيــفــاء يــبــدو لــنــا من وجــهــهــا قــمـــــر

من ســحب فــاحــمــهــا بــانت بــتــلــوين

تــرمي بــألحــاظــهــا عن قــوس حــاجــبــهــا

تــصــيــبـني ثم تــســبــيــني وتــكــويــنـــي

وقــد بــدت لي طــلــوع الــشــمس مــســفـرة

فــطــال تـــرداد عـــيــنـي بـــين شـــمـــســـين

وقوله : (٨٢٤)

ألا من مـــنـــصـــفي من ظـــبي قـــفـــرٍ

لـــقـــد أضـــحـت مـــراتـــعـه فـــــــؤادي

ومـــاذا ؟ غـــيـــر أنَّ لـه جـــمــــــالاً

تــمــلَّك مــهــجـتي مــلك الـــســـــواد

فــإن رضــيتْ عــليَّ أرتْ مــحــيًّــا
بــشــوشــاً بــالملاحــة ظل بــــادي

فعبدالقادر لم يبتعد عن الجوانب المادية الحسية فحبيبه ظبي الصحارى حسن القد، مليح الوجه يتدلل ويتيه حسنا وجمالا، وكلها صور مادية – على الرغم من غزل الأمير العفيف– لا يربط بينها خيال وثاب، ولا إحساس متدفق فكأننا أمام نحات يرسم تمثالا جامدا. صور جمالية باهتة مردها إلى خيال الشاعر المقصر، وبالتالي " ظلت حبيبة الشاعر كحبيبة القدماء من حيث الصفات الجسدية، والنعومة والغنى، وروائح العطر، فالزمان وتعاقب الدهور والآثار المختلفة التى جاءت بها الأيام لم تغير شيئا من صورتها ومن أوصافها ومن غناها وبشرتها، وطيب حديثها، وبقيت – كالقديمات من الحبيبات – في حل وترحال، تتخذ الإبل مطية، والهودج مجلسا، والكلة ستارا على الرغم من تباين بيئات كل من القدماء وهؤلاء واختلاف ثقافاتهم وأنماط عيشتهم". [٨٢٥]

ومادام الليل والعاشق الصب شريكين متلازمين فإن شاعرنا في غزله يشكو لياليه الطوال بالصور المعهودة التقليدية فهي بطيئة الحركة ثقيلة تحمل معها هموم الأيام وآلام البعد والشوق، يخشى قدومها مرة ويستحث لقاءها أخرى عله يفوز بطيف الحبيب يبيت ليله سهرانا وحيدا يجتر آلامه ويبث أحزانه النجوم والكواكب، وهي على العموم صور لم يكن للأمير شرف السبق إليها ولكنها من موروثه الشعري.

يقول الأمير: [٧٢٦]

وقــد كــلــفــتــني الــلــيل أرعى نجــومــه
إذا نــامه المــرتــاع بــالــبــعــد والــصــد

ومنه: [٨٢٧]

أحب الــلــيــالي كي افــوز بــطــيــفــهــــا
وأرجـــو المـــنى بل قـــد أقـــول: أنـــال

أكــلِّف جــفــني الــنــوم عــلِّــي أن أرى
مــثــالاً لــهــا يــســري ولــيس مــثــــال

وقوله كذلك : (٨٢٨)

أود بـــأن أرى ظـــبي الــصــحــــاري
وأرقب طـــيـــفه والــلــيل ســـــــار

ويقول ايضا : (٨٢٩)

وحــتى مــتى أرعى الــنــجــوم مــســامــرا
لــهــا ودمــوع الــعــين ثم تــفـــــور؟
أبــيت كــأني بــالــســمــاك مــوكـــــل
وعـــيــنــيَ حـــيث الجــدي دار، تــــدور

وهكذا دواليك مع هذه النماذج التي لم تحد عن نهج القدامى في شكواهم الليل حينا والاشتياق إليه حينا آخر، وهي صورة مكررة مستهلكة لم يأت فيها عبدالقادر بجديد.

وإذا انتقلنا إلى غرض الفخر والحماسة فإننا نجد الأمير في صوره يتمثل عنترة والمتنبي وأبا فراس الحمداني، فهو دوما بين قعقعة السلاح، وغبار الخيل يدك صفوف أعدائه وينزل بهم الهلاك والثبور، بروح لا تعرف الخوف والتراجع على ظهر جواد صبور كفارسه، يسائل محبوبته لتأكيد هذه المواقف البطولية ويتخذه مطية للإفاضة في فخرياته والانتشاء بتعداد خلاله الكريمة. فعبدالقادر وحبيبته يضعانك لا شعورا أمام صورة أدبية وينقلانك إلى فارس بني عبس وعشيقته"(٨٣٠)

يقول الأمير : (٨٣١)

تــســائــلــني أم الــبــنــين وإنــهــــــــا
لأعــلــم من تحت الــســمــاء بــأحــوالــي
ألــم تــعــلــمي يــاربــة الخــدر أنــنـــــي

أجـلّي هـمـوم الـقـوم في يـوم تجـوالي

وبي تـتـقي يـوم الـطـعـان فـــوارس

تـخـالـيـنـهم في الحـرب، أمـثـال أشـبـال

إذا مـا اشـتكت خـيـلي الجـراح تحـمـحـماً

أقـول لـهـا صـبـراً كـصـبـري وإجـمـالي

فالمتلقي يحس وكأنه أمام بطل من أبطال الفروسية العربية قديما، في عصر كانت الكلمة فيه للبندقية والمدفع اللذين لم يرد ذكرهما في شعر الأمير، وما ذاك إلا تشبثاً بهذا الماضي وتعلقاً بالتراث، وكأننا بالفارس لا تكتمل صورته المثلى والتامة إلا بالسيف والرمح والخيل، ولكنه التقليد الذي طغى على الشاعر فلم يستطع الحيد عنه.

حقيقة أن عبدالقادر صادق في فخره، حيث ينقلنا إلى واقع حقيقي عاشه الأمير روحاً وجسداً، فلم يتخيل معاركه كغيره من الشعراء، فكان المفروض أن تأتي صوره أكثر تعبيراً وإيحاء.

يقول الأمير: (٨٣٢)

ونـحن سـقـيـنـا الـبـيض في كل مـعـركٍ

دمـاء الـعـدا والـسـمـر أسـعـرت الجـوى

ألم تـر في خـنق الـنـطـاح نـطـاحـنـــا

غـداة الـتـقـيـنـا كم شجـاع لـهم لـــوى

وكم هـامـة ذاك الـنـهـار قـددتـهـــا

بـحد حـسامي والـقنا طعـنه شـــوى

وأشـقـر تحـتي كـلـمـته رمـاحـهـــم

ثـمـان ولم يـشكُ الجـوى بل ومـا الـتـــوى

فنحن لا نشك في صدق عاطفة الشاعر ذلك لأنه " حين يفتخر يتحدث عن هواجس صحيحة وأفكارا لا تصنّع فيها ولا تكلف، فالفخر منه وإليه، وهو أولى به،

والبطولة جزء من شخصيته، لذلك كان شعره صادقا كل الصدق صحيحا كل الصحة"[٨٣٣] ومع أننا نتفق في هذا، إلا أن الاختلاف ينصب حول نوعية الصور الواردة في هذه الأبيات، هل تعبر حقا عن إحساس شاعر يحارب عدوا يمتلك البارود والعربة، أم هو يقاتل قبائل تعودت حرب الكر والفر والمبارزة وعموما فإن مجيء هذه الصور مرجعها إلى ذلك الاعتزاز الكبير بهذه المواقف البطولية، فأراد أن يبعثها من جديد ويجسدها في الواقع.

وقد سبق أن بينا أثر القرآن وبعض العلوم الأخرى في ثقافة الأمير المستقاة من القرآن فجاء تقليده له لغة وأسلوبا وصورة، وقد تأتي صوره هنا تشابهها موضوعيا، أو يخيل للشاعر أنها كذلك.

فمثلا حين يريد أن يصور كيف فوجئ بالإمارة واختص بها دون غيره لم يجد أحسن من اقتباس الصورة التي أنبأ الله فيها موسى حين فوجئ بكلمة من ربه يحمله فيها الرسالة والنبوة في قوله: "هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى إذهب إلى فرعون إنه طغى -سورة النازعات-آيات ١٤ - ١٥ - ١٦".

يقول الأمير[٨٣٤]:

لذاك عروس الملك كنت خطيبتي

كفجأة موسى بالنبوة في طوى

وفي معرض مدحه لشيخه الصوفي محمد الفاسي، لم يجد عبدالقادر أحسن من وصف القرآن للرسول عليه السلام فهو رحيم عفو حريص على المؤمنين، وشيخ الأمير أقرب إلى هذه الصورة بما حباه الله من علم وأخلاق وعبادة. يقول الأمير:

حريص على هدي الخلائق جاهدٌ

رحيم بهم، بر، خبير له القدر

أليست الصورة هنا استيحاء مباشر من القرآن الكريم حيث يصف المولى -تبارك

وتعالي – نبيه الكريم بقوله : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم– سورة التوبة آية ٨ إلى ١٢" . ولا يفتأ الأمير يستقي صوره من هذا المعين الذي لا ينضب ، فحين يريد أن يصور سعادته وحضوره بقصيدة امتدح بها لم يجد أفضل من صور القرآن الكريم التي تصور عودة البصر إلى يعقوب والد يوسف عليهم السلام بعد أن كف بصره بكاء على ابنه ، وهل من فرحة أعظم وأجل من عودة النور إلى العينين ففرحة شاعرنا موازية لفرحة يعقوب عليه السلام .

يقول الشاعر(٨٣٥) :

يـــايـــوسف رد لـي من قـــربـــكم نـــظـــراً
كـــردّه بـــقـــمـــيص أنت مـــهـــديـــهـــا
أتت مـــهـــنـــئـــة فـــلـــيـــهن مـــهـــديـــهـــا
جـــلت تـــراكـــيـــبـــهـــا، دقت مـــعـــانـــيـــهـــا

وقد يستمد الأمير أو يقتبس آيات من القرآن بنصها الكامل ليستعين بها في تشكيل صوره الشعرية ، فهو هنا مثلا يتحدث عن الخمر الإلهية وأهلها من الصوفية ، وكيف أن هؤلاء يعيشون في عالم آخر روحاني بعيد عن هذا العالم المحسوس المادي الذي يخوض الناس فيه وكأنهم في ظلمات ، بينما غيرهم من أهل الطريقة نورهم يسعى بين أيديهم ومن خلفهم .

يقول الأمير : (٨٣٦)

فـنـحن بـضـوء الـشـمس والـغـيـر في دجى
وأعـــيـــنـــهـم عـــميٌ وآذانـــهم وقْـــــرُ
ولا غـــرو في هـــذا، وقـــد قـــال ربـــنـــــا
تـــراهم عـــيـــون يـــنـــظـــرون،ولا بـــصـــر

فالصورة في البيتين استيحاء صريح واضح من قوله تعالى : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من

الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، وأولئك هم الغافلون- سورة الأعراف آية ١٧٨".

وقد حفل شعره الصوفي بصورة شعرية ترقى للمستوى ، ولعل مرد ذلك يرجع إلى صدق معايشة الشاعرلتجاربه ، واعتماد الشعر الصوفي على كثرة الإيحاءات والرموز والإشارة فهو " لم يأخذ من الشعر التقليدي سوى القوالب الموسيقية ، بينما تميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزي الذي يوحي بالفكرة ولا يصرح بها ، فالشعر الصوفي ليس شعراً خطابياً كمعظم الشعر العربي التقليدي ، إنما هو شعر أقرب إلى الرومنسية ، حيث الهيام والوجد والحب[٨٣٧] ".

وربما جاز لنا أن نقول أن الرمز الصوفي لم يكن غاية فنية ، وإنما هو وسيلة وهو يختلف إختلافا بيناً واضحاً على الطريقة الرمزية في الشعر الحديث ، وذلك لأن الرمزية في الشعر الحديث تنشد الموسيقية ، ولا تحفل بالفكرة أو المظهر ، وفوق هذا كله فهناك اعتبار آخر استدعى الرمز في الشعر الصوفي وهذا الاعتبار نجم عن الحالات النفسية التي تنشأ عن الأحوال والمواجيد وتقتصر مادة الألفاظ على تصويرها تصويراً دقيقاً كل الدقة ، فيعمد الصوفي إلى الرمز والإشارة ليعبر عن فيضه الباطني ، ويبدع لنفسه مصطلحات خاصة لا يدركها إلا الصوفي[٨٣٨].

ففي قصيدته أستاذي الصوفي " نجد الأمير قد وفق إلى حد بعيد في رسم صور تعبر بكل قوة ودقة عن معاناته وعذابه : [٨٣٩]

أمسعود جاء السعد والخير واليسر

وولت جيوش النحس ليس لها ذكرُ

ليالي صدود وانقطاع وجفوة

وهجران سادات فلا ذُكِر الهجر

فأيامها أضحت قتاماً ودجنة

لياليَ لا نجم يضيء ولا بدر

فـراشـيَ فـيــهــا حــشــوه الــهـمُّ والــضــنــى

فلا الــتــذّ لي جــنــبٌ ولا الــتــذ لــي ظــهــــر

فالأبيات ذات خيال خصب دفاق استعمل فيها الأمير الاستعارة المكنية، فقد شبه النحس بالعدو فأضفى عليه الحياة وبعث فيه الحركة، ثم جعل لذلك العدو جيوشا تسعى لمحاربة الشاعر ليبرز شدة تزاحم الهموم عليه، بل وليشعرنا بذلك الجو النفسي القلق الذي يعيشه الأمير، فلاالأيام رحمته ولا الليالي أراحته، جفا النوم عينيه، فكأن فراشه حشي بالهمّ والضنى فأينما يولي جنبه يدركه الألم فيتلوى، صورة معبرة ورسمٌ صادق لمعذب يبيت ليله متقلباً في فراشه يرنو بعينيه للسماء، قد جفاه النوم، وأعياه السهر فاستطاع الشاعر أن ينقل إلينا هذا المشهد بل واستطاع أن يضعنا لا شعوريا في هذا الجو المؤلم لنشاركه بعض الذي هو فيه.

وينتقل الأمير إلى وصف شيخه فإذا هو بشوش هشوش ومع ما في هاتين الكلمتين من زخرف لفظي، إلا أن الشاعر استعملها من باب الكتابة للدلالة على بهاء طلعة الشيخ وإشراقة وجهه ودوام ابتسامته، ثم يعمد إلى تشبيه لا يخلو من الطرافة حين يصف أسنان شيخه المتلألئة بحبات المزن حين تفتر شفتاه عن ابتسامة ساحرة رغم بلوغه من الكبر عتيا: [٨٤٠]

هـشـوش بـشـوش يـلـقى بـالـرحب صـادقـاً

وعـن مــثـل حب المــزن تــلــقــاه يــفــتــر

و لا يجد عبدالقادر صورة أجمل من هذه ليعبر لنا من خلالها عن فرحتــه وسعادته بلقاء هذا الشيخ الجليل، فمن شدة شوقه شمر عن ذيلي الإزار، فالعرب كانت تعبر عن النشاط بقولها مجازا (شمر فلان عن ساعد الجد) وعن الاستعداد للسفر بقولها (شمر فلان إزاره)" وهنا نلمس تأثر الشاعر بهذا التعبير وهذه الصور، فقوله: (طار بي جناح اشتياق) فيه خفة الرمزية الحديثة ودقة أدائها.

و يلجأ الأمير إلى المجاز للاستعانة به في تشكيل صوره كالاستعارة المكنية في هذا البيت، فقد شبه الدهر بوحش مفترس -قبل أن يتعرف على شيخه- يبدي نواجذه ليفتك

بالأمير، صورة توحي بالقوة والبطش وما كان يعيشه الشاعر من خوف وقلق وحيرة: [٨٤١]

عـــيـــاذي ملاذي عـــمـــدتي ثم عـــدتي

وكـــهـــفي إذا أبـــدى نـــواجـــذه الـــدهـــر

و لئن كشفت النماذج السابقة قدرة الشاعر على إبداع صوره ومدى مقدرته على تشكيلها في إطار حي جميل يوحي بالفكـرة فـإن مرد ذلك إلى الاندمـاج الكلي للأمير وصدق إحساسه وشعوره، ومعايشته الحقة.

و سنزيدك بعضاً من النماذج من قصيدته (مسكين لم يذق طعم الهوى) التي يصف فيها عشقه وهيامه بالصوفية ومدى تعلقه بهم:

عـــرفت في حـــبـــهم دهـــرا ألم تـــرنـــي

في بـــحـــرهم ســـفـن حــقـــاً ومـــــلاح

مـــاذا عـــلى من رأى يـــومـــا جـــمـــالـــهـــم

أنْ لـــيس تـــبـــدو له شـــمس وإصـــبـــــاح

جـــبـــال مـــكـــة لـــو شـــامت مـــحـــاســـنـــهـــم

حـــنـــوا ومن شـــوقـــهم نـــاحـــوا وقـــد صـــاحـــوا

شـــهـب الـــدراري مـــدى الأيـــام ســـابـــحـــة

لـــو أبـــصـــرتْـــهم لمـــا جـــاؤوا ولا راحـــــوا [٨٤٢]

فقد صور عبدالقادر أهل الطريقة ببحر لجي خاض عبابه بروح ملاح ماهر يعرف أسرار وأعماق هذا اليم، ورغم خطورته فإن شاعرنا أبحر فيه لأنه السبيل الأقوم والصراط المستقيم لمن أراد أن يحيا الحياة الحقة الكريمة. فجمال هؤلاء الصوفية حين يتبدى للبرية يغطي طلعة الشمس البهية، وإسفار الصبح المنير، حتى الجماد إن رأى هذا الجمال تفجر حنينا وشوقا لهؤلاء فناح وصاح يطلب اللقاء والنظر وشبيه بذلك الأفلاك والأجرام لو أبصرت حسن هؤلاء لتوقفت عن الدوران مبالغة من عبدالقادر في رسم صورة الصوفية.

و شاعرنا نظر إلى موصوفاته نظرة عاطفية فاستخدم التشخيص ليضفي جوا من الحركة والحياة على هذه الأشياء، نظرة فيها خيال أحسن الشاعر استخدامه فتأمل

وانعطف إلى خفاياها، فجاءت صوره تعبيرا عن موقع هذه الأشياء من الوجدان، وهنا تبدو مقدرة الشاعر المبدع حين " يصرفنا عن ظواهر الموصوفات إلى وقع الموصوفات في النفس والخاطر لأن شعوره يصدر من داخل نفسه ويمتلىء به وعيه ولا يصدر عن تلفيقات الظواهر والأشكال. [٨٤٣]

ج - الموسيقــى:

كان النقاد العرب القدامى يدركون جيدا مالموسيقى الشعر من أهمية بالغة في العمل الإبداعي، ولذلك تواتر تعريفهم للشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، لأن الموسيقى في العمل الفني تعد أهم العناصر التي يرتكز عليها " ذلك أن العلاقة بين الموسيقى والشعر علاقة ترجع إلى طبيعة الشعر نفسه الذي نشأ مرتبطاً بالغناء ومن ثم فإنهما يصدران عن نبع واحد وهو الشعور بالوزن والإيقاع. [٨٤٤]

و ليس معنى هذا أن الوزن والإيقاع تناسب نغمي أو صوتي فحسب، وإلا لما أصبح للشعر قيمته الفنية، ولغدا مجرد أصوات وأنغام، فالموسيقى في الشعر ترتبط بالعمل الفني شكلاً ومضموناً فهي " جزء لا يتجزأ من الإنتاج الشعري وليس قالبا خارجياً – وحسب – يصب فيه. [٨٤٥]

فالموسيقى في الشعر تمثل ركيزة هامة فيه، إلى جانب الأخيلة والصور، فهي "ليست تطريباً فحسب بل هي وسيلة من وسائل التعبير والإيحاء، لاتقل أهمية عن التعبير اللفظي بل لعلها تفوقه، ذلك لأن موسيقى الشعر هي التي تخلق الجو وهي التي توحي بالظلال الفكرية والعاطفية لكل معنى، وتكون تلك الظلال أكثر فاعلية في النفس من المعنى المجرد، بحيث يعتبر ضعف الموسيقى في الشعر انتقاصا شديدا من قدرته على التعبير والإيحاء. [٨٤٦]

و من هنا فإن هذه العلاقة بين الموسيقى والشعر هي أحد العناصر الفنية الهامة التي يقوم عليها هذا الفن القولي " وبدونها يصبح فناً أعرج مبتور الساقين[٨٤٧]. "

–الموسيقى الخارجية: إذا ما عاودنا استقراء شعر الأمير في هذا الجانب، فإن أبرز

ما يلفت نظرنا له، هو محافظته الشديدة على القصيدة العمودية، أو الشكل التقليدي من وزن وقافية ونهجه سنن الأقدمين في بناء موسيقى شعره، فقد كان الموروث بالنسبة له القدوة والنموذج الأمثل "لأنه جمع بين الفكرة والإيقاع. [٨٤٨]

و قبل أن نحاول تحليل الأوزان المستعملة في شعر عبدالقادر، لابد وأن نبدي ملاحظة وهي أن القصيدة الواحدة عنده كثيرا ما تشتمل على أكثر من غرض، فلا تكاد تخلص له قصيدة في غرض حسب تقسيمها، دون مشاركة بقية الأغراض الأخرى للشعر منها إلا قليلا، "فهو مثلا حين يتغزل في مدينة " تلمسان " غزل الشاعر مفتون، بينما هو يفخر باستعادتها من أيدي الفرنسيين ويتحدث في طيف النبي محمد أو أحد شيوخه المقربين وزيارته له ليلا، حديثه عن طيف حبيبته زوجاً أو جارية، ويشف توسله إلى النبي وتعلقه به شفافية السبب والهيام بالحبيب[٨٤٩]. " وبالتالي فإننا لا نستطيع أن نقرر الغرض الذي لاءمه الوزن على اعتبار حالة الشاعر كما يذكر ابراهيم أنيس " في الفرح غيرها في الحزن، واليأس ونبضات قلبه حين يمتلكه السرور سريعة، يكثر عددها في الدقيقة ولكنها بطيئة حين يستولي عليها الهم والجزع، ولابد أن تتغير نغمة الإنشاد تبعا للحالة النفسية، فهي عند الفرح والسرور متلهفة مرتفعة، وهي في اليأس والحزن بطيئة حاسمة"[٨٥٠]. ومن خلال استعراضنا لديوان عبدالقادر كان ترتيب البحور الشعرية من ناحية استخدامها في قصائده ومقطوعاته مرتبة على النحو التالي:

١- الطويل = ٣٠ قصيدة ومقطوعة.

٢- البسيط = ١٠ قصائد ومقطوعات

٣- الكامل = ٩

٤- الوافر= ٨

٥- الرمل = ٢ - ٦- مجزوء الرمل = ٢

٧- المتقارب = ٢

ولعل خصائص هذه البحور هي التى جعلتها تستأثر بالاستعمال في شعر الأمير، "فالطويل مثلا يصلح لغالبية الموضوعات والأغراض، وهو أكثر البحور صلاحا لتلك التى تتعلق بالحروب والأغراض الجليلة الشأن كمواقف المفاخرة، ذلك لكثرة

مقاطعه[٨٥١] ولذلك فقد نال نصيب الأسد بين بقية البحور عند شاعرنا، فاستخدمه في أغراض الفخر والغزل والتصوف."

يقول مفتخرا بنسبه النبوي الشريف وسلالته الطاهرة المجيدة التي يحرص الأمير دوماً على ذكرها في أشعاره[٧٥٢]:

أبونا رسول الله خير الورى طراً
فمن في الورى يبغي يطاولنا قدرا
وحسبي بهذا الفخر من كل منصب
عن رتبةٍ تسمو وبيضاء أو صفرا
ومن رام إذلالاً لنا قلت حسبنا
إله الورى والجد.. أنعم به ذخرا

وفي قصيدته الغزلية " فراقك نار" التي يتغزل فيها الشاعر بأم البنين ويتشوق إليها، يصور الأمير حالته البائسة في صورة قاتمة تفوح ألماً وحزناً، وتتصاعد أناته وزفراته، مع إيقاع هذا البحر، فيقول: [٨٥٣]

أقول لمحبوب تخلَّف من بعدي
عليلاً بأوجاع الفراق وبالبعد
أما أنت حقاً لو رأيت صبابتي
لهان عليك الأمر من شدة الوجد
وقلت أرى المسكين عذَّبه النوى
وأنحله - حقاً - إلى منتهى الحد

وننتقل من الطويل إلى البحر الوافر، وقد احتل المرتبة الثانية من ناحية استخدامه في شعر عبدالقادر، فاستمع إليه وهو يفتخر بعد أن انتصر الشاعر وجنده على أربعة جيوش فرنسية مصورا بطولته وشجاعته وإقدامه أمام الأعداء، وقوته وقدرته على تحمل الشدائد والأهوال وصبره على المكاره: [٨٥٤]

لنا في كل مكرمة مجال
ومن فوق السماك لنا رجالُ

ركـــبـــنـــا لـــلـــمـــكـــارم كل هـــــــــول
وخـــضـــنـــا أبـــحـــراً ولـــهـــا زجـــــــال
رفـــعـــنـــا ثـــوبـــنـــا عن كل لـــــــــوم
وأقـــوال تـــصـــدقـــهـــا الـــفِـــعـــال
ورثـــنـــا ســـؤدداً لـــلـــعُـــرْب يـــبـــقـــى
ومـــا تـــبـــقى الـــســـمـــاء ولا الجـــبـــال

فاختيار الأمير لهذا البحر الذي يتميز إيقاعه بالحركة والتدفق ورنة قوية لملائمة روح الفخر والحماسة كان مقصوداً، فالأبيات تشع حماسة وحركة من ركوب ومصارعة الأهوال وخوض البحار.

ويتغزل الأمير فيصف لنا حاله وهو يهيم على وجهه في كل مكان بحثا عن حبيب القلب بعد أن أفناه الوجد، فراح يجوب الديار والأماكن عله يعثر على ضالته مستخدماً الوافر بقوله: (٨٥٥)

ألا قل لـــلـــتـــي ســـلـــبت فـــــــؤادي
وأبـــقـــتـــنـــي أهـــيـــم بـــكـــــل واد
تـــركتِ الـــصب مـــلـــتـــهـــبـــاً حـــشـــاه
حـــلـــيف شـــجىً يـــجـــوب بـــكل نـــاد
ومـــا لـي في الـــلـــذائـــذ من نـــصـــيب
تـــودع مـــنـــه مـــســـلـــوب الـــرقـــــاد

أما البسيط فقد جاء ثالث البحور استخداما عند شاعرنا وطرق من خلاله أغراض الفخر والوصف والغزل والتصوف، ومنه قوله يصف جمال البادية(٨٥٦):

لـو كـنـت تـعـلـم مـا في الـبـدو تـعـذرنـــي
لـــكنْ جـــهـــلـتَ وكم في الجـــهل من ضـــررِ
أوكـنـت أصـبـحـت في الـصـحـراء مـرتـقـيـا
بـــســـاط رمل بـه الحـــصـــبـــاء كـــالـــدرر

أو جـلـت في روضـة قـد راق مـنـظـرهـا
بـكل لـون جـمـيل شـيق عـطـر
رأيت في كل وجه من بـسـائـطـهـا
سـربـاً من الـوحش يـرعى أطـيب الـشـجـر

أما الكامل فقد خصه الأمير بتسع قصائد ومقطوعات (٢ قصائد-٣ مقطوعات) ومادام هذا البحر يتسم بطابع الجد وهو بعيد عن الهدوء والتأمل " وينسجم مع العاطفة القوية والنشاط والحركة، سواء أكانت فرحة قوية الاهتزاز أم كانت حزناً شديد الجلجلة"[٨٥٧] فقد استطاع عبدالقادر من خلاله أن يصور بطولة وشجاعة جنده وسرعة انقضاضهم على أعدائهم مستخدما كلمات ذات وقع قوي على الأذن توحي بالقوة، كالضنك، والضيق، والقارع، والبارع، يقول:[٨٥٨]

الـنـازلـون بـكل ضـنـكٍ ضـيـقٍ
رغـمـاً عـلـى الأعـدا بـغـيـر تـهـوّلِ
كم نـافـسـوا، كم سـارعـوا، كم سـابـقـوا
من سـابق لـفـضـائل وتـفـضُّـل
كم شـردوا، كم بـددوا، وتـعـودوا
تـشـتـيت كل كـتـيـبـة بـالـصـيـقـل
مـامـنـهم إلا شـجـاع قـارع
أو بـارع في كل فـعـل مـحـفـل

كما استخدم عبدالقادر البحور الأخرى كالمتقارب (قصيدة ومقطوعة) إلى جانب بحر الرمل ومجزوئه.

ولم يخل شعر الأمير من بعض عيوب الوزن كالزحافات واضطراب الأوزان

كقصيدته في التصوف " مسكين لم يذق طعم الهوى" التي اختل فيها الوزن كثيرا واضطرب، والتي يقول فيها: [٨٥٩]

أوقـــات وصـــلـــكم عـــيـــد وأفـــــــراح

يـــامن هـم الـــروح لـي والـــروح والـــراح

ولـــيس في طـــاقـــتي الـــرؤيـــا لـــغـــيـــرهم

ولـــو قـــلَـــتْـــني الـــورى في ذاك أوشـــاحـــوا

وقوله كذلك: [٨٦٠]

فـــإن رضـــيتْ عـــلـــيـــا أرتْ مـــحـــيًّـــــــا

بـــشـــوشـــاً بـــالملاحـــة ظلَّ بـــــــــــاد

فحق كلمة(باد) النصب لأنها خبر لـ (ظل)، ولكن الشاعر أوردها هكذا ليستقيم الوزن.

ومن قوله كذلك: [٨٦١]

يـــارب ايـــد بـــروح الـــقـــدس مـــلـــجـــأنـــــا

عـــبـــد المجـــيـــد ولا تـــبـــقـــيه حـــيـــرانـــــــــا

فلا الناهية لم تجزم هنا وهذه ضرورة من أشنع الضرائر وأثقلها على أن. د. محمد السيد الوزير يعلل هذا الموقف من الأمير بقوله: " ولقد كان في استطاعة عبدالقادر أن يقول: (ولا تتركه حيران) دون أن يختل الوزن وربما كان في حسبانه الصوفي في أن الله لا يؤمر ولا ينهى فقال: " ولا تبقيه حيران" دون أن يجري على الفعل ما تتطلبه لا الناهية من الجزم فكانت " تبقيه" أجمل للوزن من " تتركه" مرفوعة[٨٦٢] وإلى جانب هذا فللأمير عيوب أخرى تتعلق بالقافية، كالإيطاء مثلا وهو تكرار كلمة معينة في أ بيات القصيدة تحمل نفس المعنى نجده في قول الأمير[٨٦٣]:

فـــأيـــامـــهـــا اضـــحـت قـــتـــامـــا ودجـــنـــة

لـــــيـــــالي لا نجم يـــــضيء ولا بـــــدر

وقوله في نفس القصيدة بعد عدة أبيات :

وقـــال فـــإني مـــنـــذ اعـــداد حـــجـــة

لمنـتـظـر لـقـيـاك يـاأيـهـا الـبـــدر[٨٦٤]

وكذلك في البيت التاسع والثامن عشر في كلمة " ذخر " في نفس القصيدة وقوله كذلك في قصيدته آمن من حمام مكة[٨٦٥] :

الحـمـد لـله تـعـظـيـمـاً وإجـــــلالا

مـا أقـبل الـيـسـر بـعـد الـعـسـر إقـبـالا

فقد كرر نفس الكلمة بمعناها السابق في بيت آخر من القصيدة يقول : [٨٦٦]

فـالمـسـلـمـون بـأرض الـغـرب شـاخـصـة

أبـصـارهـم نـحـوه يـرجـون إقـبـــالا

كما وردت في قوله أيضا[٨٦٧] :

أهـدي مـديـحي وحـمـدي مـا حـيـيت له

أفـادني نـعـمـاً جـلّتْ وإقـبـــــالا

وقد جاءت هذه العيوب على الرغم من غنى لغة الضاد بالمفردات والترادف الذي يعطي للشاعر المتمكن من لغته حرية في اختيار الكلمات المناسبة ، والأغرب من هذا أن محقق الديوان يورد للأمير قصيدة مختلة القوافي والأوزان ، فنراه يقول : " وقد تركتها كما هي لأمانة النقل ولتصوير حالة الشاعر في حال شطحاته الصوفية وغيبوبته[٨٦٨] عن الوجود إلى اللاوجود يقول الأمير : [٨٦٩]

أردد طـــــرفي في الـــــرســـــوم فلا أرى

من به كـــــانت رســـــومـــــا وآثـــــارا

وأســـألـــهـــا عـــنه فـكل أجـابـنـــــي

بـــأنه مـــاراه يـــومـــــا، ولا أدري

فـقـلـت لـهم هـذا عـجـيب فـإنــنـــي

مـا أبـصـرته إلا بـكم مـتـظـاهـــرا

عـرفـته مـنـكم ثم زاد في عـرفـانـنـا

بـأنـني إيـاه. ولـكن مـنـكـــرا

عـجـبت له كـيف اخـتـفى بـظـهـوره؟

فـعـيـني حـجـابه الـظـهـور ولا أنـفـــرا

ألا فـاعـجـبـوا من ظـاهـر في بـطـونه

ومن بـــاطن لا زال بـــاد وظـــاهـــرا

فأنت تلاحظ هذا الاختلال في الوزن والقافية وكثرة الزحفات والضرائر فلا نغم يوحد أبياتها، ولا موسيقى متجانسة تطرب لسماعها الآذان فكل ما هناك رصف لكلمات تفتقر إلى أبسط قواعد الفن الشعري، فهي أقرب إلى النثر منها إلى الشعر، ولسنا ندري هل اطلع عليها الشاعر وراجعها بعد صحوته من غيبوبته الصوفية أم لا .

والجدول التالي يبين عدد الأبيات مع كل وزن :

البحر	عدد القصائد والمقطوعات	عدد الأبيات
١-الطويل	**٣٠**	**٣٨٤**
٢-البسيط	**١٠**	**١٩١**
٣- الكامل	**٩**	**١٢٤**
٤-الوافر	**٨**	**٨١**
٥-الرمل	**٢**	**٣**
٦- مجزؤ الرمل	**٣**	**١١**
٧-المتقارب	**٢**	**١٤**
	٦٤ قصيدة ومقطوعة	**٣٨ بيتا**

وإذا أضفنا قصيدة " هو الباطن والظاهر " وهي مختلة الوزن والقافية إلى مجموع هذه المقطوعات والقصائد الموزونة، يصبح عدد قصائد الديوان ٥٦ ما بين قصيدة

ومقطوعة، ويصبح العدد الإجمالي للأبيات ٦٣٨ بيتا.

-الموسيقى الداخلية: وترتبط بالحالة الشعورية للشاعر، وبانفعاله ومن ثم فإن تكرار الشاعر مثلا لحرف بعينه قد يكون له مغزى نفسي، فقد يرجع ذلك إلى " صورة الحرف أو شكله أو إلى صوته، وما يوحي به هذا الصوت في نفس الشاعر من دلالات نفسية معينة تعكس شعورا يسيطر عليه وهو بصدد ممارسته لتجربته الفنية في هذه القصيدة أو تلك"(٨٧٠) يقول الأمير: (٨٧١)

أبى القلب أن ينسى المعاهد من برسا
وحبي لها بين الجوانح قد أرسى
أكلفه سلوانها وهو مغرم
فهيهات أن نسلو وهيهات أن ينسى
تباعدتُ عنها ويح قلبيَ بعدها
وخلفتها والقلب خلفي بها أمسى

فاستعمال الأمير لحرف (السين) " وهو من حروف الصفير التى تنسل هاربة من بين الأسنان، والفم يكاد يكون مغلقاً، وهذه الظاهرة الصوتية تحدث لمن يحسون بشيء من الجهد والإرهاق البدني والنفسي الذي ينعكس على طريقة نطقهم للكلام واختيارهم بطريقة لا شعورية لبعض الحروف والأصوات التى تتلاءم وهذا الإحساس الذي ينتابهم". (٨٧٢)

وقد كان شاعرنا في حالة نفسية سيئة، فهو قد أكره على فراق هذه المدينة-بسبب كثرة زلازلها- بعد أن توطدت أواصر علاقته بها وبأهلها الطيبين، ففقد بالرحيل عنهم الصحب والإخوة والخلان، فأمسى غريبا وحيدا، يجتر ذكريات ماضٍ سعيد أثار في نفسه الشجن والحنين فكان حرف السين ملائما لهذا الانكسار النفسيٍ الذي يعيشه الشاعر معبرا عن هذا الإحساس الذي اعترى الأمير في هذا الوقف.

ومنه أيضا هذه الأبيات التى أنشدها الأمير متغزلا يصف فيها جمال محبوبه(٨٧٣):

تميس كالغصن إذا مر الشمال به
أو شارب ثمل من خمر دارين

تـــراه نـــشـــوان إذ دب الـــشـــمـــول بـــــه

يمـــيل من طـــرب مـــيل الـــريـــاحـــيـــن

هـيـفـاء يـبـدو لـنـا من وجـهـهـا قـمـــــر

من سـحب فـاحـمـهـا بـانت بـتـلـوين

إلى أن يقول: [٨٧٤]

وقـد بـدت لي طـلـوع الـشـمس مـسـفـرة

فـطـال تـرداد عـيـنى بـين شـمـسـين

ولـست أدري أسـكـرى من نـوافـجـهـا

أم تـلك أنـفـاس أحـبـابي تحـيـيـني

فالشاعر يبدو فرحا منتشيا بهذا الحبيب الذي ملك فؤاده بجماله الفتان، فأراد أن يعبر عن هذا الإحساس وهذه المشاعر الراقصة من خلال هذه الموسيقى، فالعبارات خفيفة معبرة، فحبيبه في سيره كغصن يحركه ريح الشمال فيغدو يتمايل ويتراقص نشوانا جذلا، بقدٍّ معتدل، ووجه كالبدر ضياء، بل قل الشمس في بهائها، فأسكرت انفاسها شاعرنا، فراح يتغنى بهذا الجمال الأخاذ يساعده في ذلك هذا الروي الذي يدغدغ القلب بالبهجة والسرور، كما توحي به هذه النغمة الموسيقية المحببة من هذه النون المكسورة: الرياحين- تلوين- تحييني.

ويظهر حسن الاختيار عند الأمير كذلك في هذه الأبيات التي يصور لنا فيها فرحته وسعادته وهو يطأ الأراضي المقدسة لملاقاة شيخه الصوفي، فأنت تشعر بفرحة الشاعر وحبوره، تشع من خلال ألفاظ الأبيات وبعض الكلمات فيها الموحية لذلك تتصاعد موسيقاها نغما يدل على سعادة الشاعر ولهفته وتشوقه وما يكتنفها من حبور ومسرة:

فـشـمـرت عن ذيـلـي الإطـار وطـاربي

جـنـاح اشـتـيـاق لـيس يـخـشى لـه كـسر [٨٧٥]

ومـا بـعـدتْ عن ذا المحب تـهـامـة

ولم يـثـنـه سـهل،هـنـاك ولا وعـــر

إلى أن أنخنا بالبطاح ركابنا
وحطت بها رحلي وتم لها البشر
بطاح بها البيت المعظم قبلة
فلا فخر إلا فوقه ذلك الفخر
بطاح بها الصيد الحلال محرم
ومن حلها حاشاه يبقى له وزر

وهكذا تبدو جلية غبطة الأمير وفرحته حين يكرر" لفظ بطاح " وما تحمله هذه من مدلول نفسي وموسيقي وكأننا به يريد أن يرسم أو ينقل لنا هذا الجو الروحي الذي يغمر النفس وهي تؤم هذه الأماكن المقدسة الطاهرة فتزهد النفس في حطام الدنيا ومتاعها وزخرفها، لتلج في هذا العالم الروحاني المتشبع بالنفحات الإلهية، فترجع غانمة راضية مرضية بهذه الزيارة وهذا المكسب الجليل، فكان حرف " الراء " بما فيه من تقوس وتثن أدق رسما، وأقدر تصويرا لهذه الحالة النفسية التي يمر بها الشاعر في هذا الموقف.

أما إذا كان الغرض يستوجب القوة والشدة والصرامة ويتطلب ألفاظا وتراكيب معينة تساير الموقف، فإن الجرس الموسيقي لهذه الكلمات يتغير ليعبر عن هذه الحالة فيحس القارئ وكأنها تقرع أسماعه بإيقاعها القوي فتملأ النفس بمعاني القوة والجزالة يقول الأمير:

وما كل شهمٍ يدعي السبق صادق
إذا سيق للميدان بان له الخسر
وعند تجلّي النقع يظهر من علا
على ظهر جردبل ومن تحته حمر
وما كل من يعلو الجواد بفارس
إذا ثار نقع الحرب والجو مغبر
فيحمي ذماراً يوم لاذوا حفيظة
وكل حماة الحي من خوفهم فرُّوا
وما كل سيف ذو الفقار بحده
ولا كل كرّار عليٌّ إذا كرُّوا
وما كل طير طار في الجو فاتكاً

الفصـل الخامس

الأبعاد الفنية في نثر الأمير عبدالقادر الجزائري

الأبعاد الفنية في نثر
الأمير عبدالقادر الجزائري

١ - الأبعاد الفنية في مؤلفاته:

العمل الأدبي فكرة ما، أو إحساس معين، يقوم الأديب بالتعبير عنه بالألفاظ والعبارات ولكل أديب أدواته ووسائله التي يبني عليها هذا التعبير، والتي تنبع من قدراته الفنية والنفسية، ومن تراثه الفكري والثقافي، وعلى توفيقه في استغلال تلك الوسائل والأدوات، يكون صدق العمل الأدبي ونجاحه، ذلك أن من الأدباء من يلتفت إلى نفسه ويثق فيها، ويحاول أن يفتح بها أو فيها آفاقاً من التفكير أو الشعور أو التحليل ليعرضها كما هي في أقوى أحوالها، أو أوضح خواصها دون تحرج أو تكلف، ثم يطوع أساليب اللغة لطريقة تفكيره وتصويره، فإذا به شيء جديد وشخصية ممتازة.

وعبدالقادر عاش خلال قرنين متوازيين، هما الثالث عشر الهجري، والتاسع عشر الميلادي، ورآهما وهما يتصارعان، ويكاد يغلب أوغلب بالفعل أحدهما الآخر فشارك بالفعل وبالقول في صراع موروث منذ زمن طويل بأثقاله العسكرية والثقافية فعاش أكثر من خمسة وسبعين حولا يدافع بكلتا يديه وأداتيه، إذ نشأ شاعراً فارساً وصار حاكماً عالماً، ولذلك جاء أدبه معبراً عن أصدق الانفعالات في حياة مقاتل موتور ومجاهد يقيم على الجهاد.

والحديث عن أسلوب عبدالقادر في التفكير والتعبير كليهما" سوف يتيح لنا فرصة الاستدلال على شخصيته ذلك أنه" يندر العثور على حاكم في ذلك العصر يكون قد

بلغ من ثقافة مجتمعه ما بلغه عبدالقادر من تراثه، فضلا عن أن يكون قد أضاف إلى ثقافة التراث هذه مزيداً جديداً من الإشباع والتجلية وحسن البيان"[٨٧٨] .

ومادام النثر فناً أدبياً كالشعر، فيه كما يذكر د. طه حسين" مظهر من مظاهر الجمال، وفيه قصد إلى التأثير في النفس في أي ناحية من أنحائها"[٨٧٩] .

فإن عبدالقادر قد سلك هذا السبيل إلى جانب فن الشعر ليعبر من خلاله " عن فكره وتحقيق غايته في الإصلاح العمراني، لأنه كما نعرف يهدف إلى تجلية جوانب التراث والمشاركة المستمرة في تنميته، وإلى توصيل التراث مصفى بارئاً من ركام المعميات والشبهات للقادرين على مواصلة السير إلى الكمال والتحقيق، وإلى إصلاح وسيلة المواصلة بتهذيبه للأسلوب اللغوي، وهو يعبر عن أعوص القضايا في عصره.

إذا كان من السهل الكتابة عن الأمير الشاعر لما في شعره من تقاطع عاطفي مع ما في وجداننا، ولما فيه من أنفاس شعراء تشابهت حياتهم وحياته كعنترة وأبي فراس وأبي الطيب ممن تشرب شعرهم وتشربنا مزنه معه" فشواهد أبي فراس مثلا جعلته ينزع من الأمير ثناءً فريداً لم يثن بمثله على أحد من الشعراء لأشياء عديدة جامعة بينهما في الحروب والمواقف الشخصية والشعر والأسر وتلك النزعة المتسامية على صروف الدهر وغلبة العدو وغدر من كان ينتظر منه الوفاء أو كان يعد به"[٨٨٠] .

والكتابة عن الأمير الناثر أمر في غاية الصعوبة لأنه يحتاج من الدارس إلى استقصاء المكونات الثقافية التي طبعت شخصيته وإنعام النظر فيها .

فالتكوين الثقافي عند الأمير متعدد الجوانب متنوع المشارب فهو إلى جانب تكوينه التقليدي المتمثل في حفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول وإلمامه بالفقه وأصوله واللغة وقد كان ملماً بفلسفة اليونان عامة والفلسفات الشرقية والإسلامية[٨٨١]

ولذلك جاءت ثقافة عبدالقادر " فعالة مؤثرة مثلما هي جامعة عامة شاملة وإن لها

خصائص وأهدافاً منشودة وموعودة ومدروسة ومراجع وشيوخاً، وإن بين أصحابها نوعاً من التفاهم الخاص واتفاقاً تواترا على نتائج كثيرة من لجوئهم حيناً أو ما يسمونه الكشف حينا آخر، ومع أن ثقافة الأم هذه لا تكاد تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها ولحقت أو حاولت أو طوفت بها فإنها ذات ملامح مميزة لا تجعلها تشبه كثيرا بغيرها"[٨٨٢] .

والتصدي لدراسة مؤلفات الأمير وكتبه " المواقف - المقراض الحاد، وذكرى العاقل، والمذكرات"، يتطلب فيما بحسب تفرغاً تاماً ودراسة أكاديمية جادة وذلك لثراء هذه المؤلفات وامتيازها بخصائص وأن تشترك مع غيرها وتنفرد عنها.

ولذلك فسنحاول أن نوضح هذه الخصائص العامة في كتبه على أن نفصل بعضها بصورة أوسع وأعمق في رسائله، وإن كان أسلوب عبدالقادر لا يكاد يختلف كثيراً في كتبه عن رسائله مع مراعاة الأمير دائما مقتضى الحال إلا أن هناك تشابهاً كبيراً بين أدواته الفنية في كل ما ألف عبدالقادر فالكتابة عنده تتباين من مؤلف إلى آخر بحسب الموضوع الذي يتناوله .

ففي (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) أو في (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) نجد الأمير ينزع إلى أسلوب يمكن أن نصطلح على تسميته " بالنثر العلمي المرسل" وهذا النوع من النثر هو الذي يترك فيه القلم على سجيته يمضي في التعبير عن الأفكار تعبيراً واضحاً دقيقاً مع التفصيل والشرح ومن منهج فكري واضح القسمات يعتمد على العقل بالدرجة الأولى، وعلى التحليل المنطقي والاستنتاج والعناية بالتسلسل والترتيب والتقسيم[٨٨٣] فهو مثلا حين يأتي لتعريف العقل يقول" اعلموا أن العقل منبع العلم وأساسه ومطلعه. . . . " ثم يعمد بعد ذلك إلى إيراد المعاني الدالة عليه وأقسامها . " واسم العقل يطلق على أربع معان بالاشتراك : الأول الوصف. . . . الثاني هي العلوم التى تخرج إلى الوجود. . . والثالث علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال . . . . . والرابع أن تنتهي قوة تلك الغريزة[٨٨٤] .

وهذا الأسلوب الذي يتخذ العقل دليلاً اعتمده عبدالقادر في مؤلفيه السابقين ولذلك فهو يخلو من العناصر الوجدانية من عواطف وأحاسيس وانفعالات كما يخلو من الخيال وما يقتضيه من تفنن في الصور وإبداع المشاهد لأن الغاية عند الأمير النفع والتثقيف والمجادلة بالحجة " تكملة للحوار الذي كان دائراً بينه وبين المتناظرين في باريس(٨٨٥) " وتجسيدا لطموحه المهدد في بلوغ الكمال والغاية المنشودة ولن يتحقق ذلك إلا بالعقل ، ومن هنا يبدو أسلوب عبدالقادر في مؤلفيه " أقرب مايكون إلى التوسيع فهو يبدأ بأصل عام ثم يأخذ في التفريع والتقسيم والبيان والمقابلة والمفاضلة والاختيار(٨٨٦) " .

وهو ينزع إليها لأنه " يدرك جيداً قيمة أن يعرف الأصل ثم تتدلى حسب تغيره إلى الفرع فذلك أعلى مقاماً عنده من أن تعرف الفرع ثم تترقى إلى الأصل"(٨٨٧) .

وانطلاقا من هذه الخاصية يلجأ عبدالقادر في عرض قضاياه إلى التحليل المنطقي ، فالقارئ الآكد للذهن يمكن أن يدرك كيف قابل الأمير بين كمال العقل بظهور خاصيته ونقصانه بخفاء تلك الخاصية لأن الضدين لا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد كما يقول المناطقة " وكمال كل شيء يكون بظهور خاصيته التى امتاز بها عن غيره ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية فبقدر ما تظهر تلك الخاصية يطلق عليه اسم الكامل وبحسب ما تستتر فيه يخص باسم الناقص"(٨٨٨) وقوله كذلك" وإن أقوال العلماء المتدينين متضادة متخالفة في الأكثر واختيار واحد منها واتباعه بلا دليل باطل ، لأنه ترجيح بلا مرجح فيكون معارضاً بمثله(٨٨٩) " .

ومن هنا فإنه بإمكان القارئ لمؤلفات الأمير عبدالقادر أن يستبدل الكثير من جمله بقضايا منطقية رياضية فقول الأمير " فالعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمر من الشجر(٨٩٠) " يمكن إعادة كتابته على شكل قضية منطقية على النحو التالي :

العقل = العلم

العلم = الثمر

وبالتالي فإن العقل = الثمر .

وقد لا يخفى على القارئ تركيز الأمير على بعض الموضوعات بعينها بل وتكرارها في مؤلفاته الأخرى كحديثه عن النبوة واختلاف الناس أو الحاحه على مبدأ الوفاء بالعهد والصدق وهذا اسلوب إيحاء وإيعاز لمحاوريه الذين نكثوا ما عاهدوا الله ثم الأمير عليه ونقضوا مواثيق أبرموها وغير خاف ما في هذا التكرار المتعمد من مقاصد .

ومن أهم الملاحظات التي يجب أن تسجل للأمير في هذا هي فصاحة اللغة وابتعاده عن ماكان سائداً في عصره على الأقل ، فالقارئ للمقراض الحاد أو ذكرى العاقل يلحظ أن الأمير يستخدم لغة عربية سليمة طوعها لأن تكون وعاء لكثير من المصطلحات والنظريات العلمية التي كانت سائدة في عصره مبتعداً عن السجع المتكلف الموشح بالبديعيات الذي كان يغلب على نظرائه في ذلك العهد فأسلوبه واضح فصيح يدل على المعاني بلا زخارف إلا في القليل النادر كالطباق الذي يعد ألصق بالمنطق إذ بالأضداد تتمايز الأشياء .

فألفاظ الأمير واسلوبه يشاكل الموضوع مشاكلة تامة بمعنى أنه إذا كان الموضوع فلسفيا وجدت الأمير يلجأ إلى الألفاظ التى تفي بالغرض ويفصح بدقة عن المعاني والأفكار الفلسفية التى يريد عرضها ، وإذا اختلف المضمون اختلف اللفظ عنده وهو ينبئ أن الأمير كان الى جانب اكتسابه كماً هائلاً من التراث الفكري والعلمي يملك معجماً لغوياً ثرياً للتعبير عن دقائق الأمور كما هو الشأن مثلا في قوله عن عجز البصر أحيانا في إدراك الشيء المرئي بقوله" ويرى المعدوم ساكناً وهو متحرك ، ويرى الثلج أبيض ولا بياض فيه أصلاً فإنه مركب من أجزاء شفافة اللون لها وهي الأجزاء المائية فلولا العقل لكان معتقداً صحة ما أدركه حسه مخطئاً خطأً فاحشاً ولهذا قال أفلاطون

وأرسطو وبطلموس وجالينوس : الحسيات غير يقينية بمعنى أن جزم العقل بالحسيات ليس بمجرد الحس بل لابد مع الإحساس من أمور تنضم الى الحس لا نعلم ما هي وحينئذ يجزم العقل بما جزم به من المحسوسات[٨٩١] " .

وقوله يتحدث عن القلب بأوردته وشرايينه " . . . فإنه بمجرد انفصاله عن الكبد ينقسم إلى عرقين أحدهما يسمى النازل يفارق الصاعد إلى أن يتوكأ على عصام القلب ثم يذهب إلى الرجلين والآخر يسمى الصاعد يذهب إلى أن يقارب في القلب وهذا ينقسم إلى قسمين أحدهما ينبت في الرئة والقلب وبعض الأضلاع والآخر يذهب إلى الصدر والرقبة واليدين والرأس والمقصود من أوردة اليدين الباسليق والقيقال وحبل الذراع والأكحل الأسيلم الأيمن والأسيلم الأيسر والرجلين والنسا والصافن[٨٩٢] " فانظر إلى هذه المصطلحات والكلمات وكيف تتبع الأمير الأمر وكأنه جراح بمبضعه يشرح ويعلم ، وتلك نزعة لازمته طول حياته .

ومن هنا استطاع الأمير في مؤلفيه أن يتناول هذه الموضوعات بأسلوب موسوعي مكنه من الحديث عن العقل بلغة الفلاسفة والمناطقة ، كما مكنه من الحديث عن الأفلاك والأجرام السماوية بلغة الفلكيين الجغرافيين وهو نفسه الذي مكنه من التعبير بدقة عن الإنسان وأعضائه وأجهزته بلغة الأطباء وعلماء الطبيعة ، وقل مثل ذلك في حديثه عن النبوة والرسل والأخلاق والإسلام .

والجمل عند الأمير في مؤلفاته تتفاوت حسب الموضوع ، فتارة تطول وأخرى تقصر ، وإن كان يغلب على مجملها الأسلوب الخبري ، لأنه في مجال عرض حقائق علمية لا في مجال تصويرها ، ولعل ما يؤكد ما نذهب إليه أن أكثر أدوات الربط استخداما من قبل الأمير (إما) التفصيلية التى تسهل عادة على الكاتب أن ينتقل من فكرة إلى فكرة وذلك لتوصيل ما يريده . وتتجلى ظاهرة الإطناب أيضا في كتابات الأمير لأنه عادة مايعرض الفكرة لا كما يراها هو بل كما جاءت في القرآن والحديث

والعلوم والتاريخ، وهذا ربما الشيء الذي جعل الأمير لا ينتبه في كثير من الأحيان لظاهرة التكرار في الموضوعات التي تتبدى واضحة في مؤلفاته.

ولعل الملاحظة التي يمكن للقارئ أن يخرج بها هو أن الأمير حتى وإن كانت الفصحى تغلب على جل لغة مؤلفاته إلا أنه يلجأ في أحيان كثيرة إلى توظيف بعض الأساليب والجمل العامية ولعل ذلك يتجلى بشكل واضح في مذكراته وهو الذي أشار إليه محققوها في قولهم: " ونشير هنا على سبيل المثال – لا على سبيل الحصر – أن بعض العبارات التي يصطدم بها القارئ وهي معدودة في أسلوب العصر ومصطلحاته[٨٩٣] " ولذلك فإن الأمير أراد أن يجاري هذا الأمر هو ورفاقه " فقد اجتهدوا في جعل أسلوبهم متقاربا مع أسلوب هؤلاء الأجانب الذين يمارسون العربية ببعض الصعوبة فاستعملوا مثلهم كلمات مثل (القوازيط: يعنى الصحف)(والقيرا : الحرب) (البنديرا: العلم) إلى غيرها من الألفاظ[٨٩٤] " .

وربما كان الأمير يسعى من وراء ذلك إلى " رغبة في الإفهام والفعالية[٨٩٥] " وتلك خاصية في الأمير في مراعاة الأحوال والمقامات ولذلك نجده في مؤلفه الضخم ينحو منحى مغايرا يستخدم الأسلوب السهل الممتنع حين يوغل في الرموز والإشارات واستخدام تلك المصطلحات الصوفية والدينية تجعل القارئ المتخصص في بعض الأحيان يقف عاجزاً عن إدراك مرامي الأمير ومقاصده وذلك لتشبع الأمير صوفياً بها مع أن فكرة المواقف صوفية " في الدرجة الأولى إلا أن النظام العسكري الذي عاشه فترة طويلة من حياته قد يكون بما يتضمنه من تدرج في المراتب أتاح له ايضا الفرصة لترسيخ فكرة هذا التصنيف التصاعدي"[٨٩٦] .

وحتى وإن كان الأمير في مقدمة المواقف قد عمد إلى أسلوب يجاري " أساليب أخرى كالمقام والمذهب الكلامي وأسلوب المتكلمين والحق أنه ليس كذلك تماما وإنما هو شبه ذلك فقط، ولهذا قال مرة عما يسميه بعضهم أسلوباً مقامياً في كلامه أنه شبه

مقامي .

والأمير كما يذكر د بناني حتى وإن لم يكن قد ألف في هذا الفن(المقامات) على ما يبدو " إلا أنه حاول بلا شك أن يجاري أسلوب المقامات ولو في مقدمة كتابه المواقف فقد راح فيها على غرار بطل المقامة يروى ارتجالا أمام جماعة من المستمعين في مقام يشهد له فيه بالبراعة والإبداع ، حادثة غريبة عاشها بالفعل منتحلا في روايتها أسلوب الكناية والسجع"(٨٩٧) يقول الأمير : " حضرت محاضرة من محاضرات الشرفا ، ومسامرة الظرفا ، في ناد من أندية من العرفاء . . . . وكان الحديث شجوناً وألواناً وفنوناً إلى أن تكلم عريف الجماعة ومقدم أهل البراعة فقال أحدثكم بحديث عنقاء مغرب فاشرأبوا لسماعه ومدوا أعناقهم وفرغوا قلوبهم وحدقوا أحداقهم فقال . (٨٩٨) " . . وهكذا" يمكن القول أن المواقف للأمير هي بمنزلة المقامات بالنسبة لأصحابها فهذه تروى قصة الوجود الاجتماعي وتحاول تقييده في مقامة تاريخية وتلك تعيش الوجود الصوفي في موقف من المواقف الأزلية أما ماعدا هذا فإن كلا من المقامة والموقف يهدفان إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال"(٨٩٩) .

والأمير في مواقفه لا يفتأ ينقلك على – عادة المعلم– دائما من موقف إلى موقف فيجمع الأدلة والشواهد ما أتيح له " سواء ما يأتيه عن طريق الذوق والكشف يسوق له الأدلة العقلية والنقلية أو كلتيهما للبرهنة على صحة ما يراه ، ولعل جل المواقف إن لم نقل كلها تسير على هذا النسق وتتبع هذه الوتيرة (٩٠٠) " .

وهو يعمد إلى تفصيل الموقف حتى ليأخذ منه في بعض الأحيان العشرات من الصفحات وذلك ليشرح " ما أجمل أو افتراض الفروض الممكنة القريبة منها والبعيدة ولذلك تكثر أدوات الفرض والاحتمال مثل : من – إذا– لو– ربما– ونحو – وعلى كل حال –"(٩٠١) .

والأمير في مواقفه يشعرك بعجز اللغة أحيانا عن استيعاب تلك الرموز والإشارات لحمل المعاني، ولذلك فالذوق عنده الأساس في الفهم والتوصيل ولما كان " الخطاب في النص الموقفي موجهة لنقل التجربة الصوفية من وضع مجازي خارج عن الزمان إلى حقيقة حاضرة تدعى الذوق لا زمان لها في المستقبل لأنها ذاتية غير قابلة للنقل والتحدد عبر التاريخ ولأنها، غير متناهية اللهم إلا بنهاية الدنيا وقيام الآخرة"[٩٠٢] .

فالذوق الصوفي عنده أعم وأتم من الذوق الأدبي لإدراكه كنه الأشياء مع أنه " يفاضل بين الذوق والعلم ويرجوهما معا"[٩٠٣] .

ومهما يكن فإن عبدالقادر في مواقفه حتى وإن تعرض إلى أدق وأخطر القضايا في تاريخ الفكر الديني والفلسفي والصوفي خاصة إلا أنه يحمل القارئ على إدراك حقائق أشياء كثيرة بالحجة والدليل " وبهذا يكون الأمير قد نقل التصوف من ذلك الموقف الفردي إلى موقف جماعي، ومن موقف طبقي إلى موقف شعبي، ومن الصفوة إلى الجماهير، ومن الذوق والكشف إلى الجهاد والاستشهاد"[٩٠٤] .

١ - الأبعاد الفنية في رسائله ومراسلاته:

والمتصفح لأسلوب عبدالقادر ولغته النثرية، سيلقى نفسه بلا ريب أمام أديب حاول- بقدر ما أتيح له- أن يستجيب على الأقل لأوامر ونواهي مصدر ثقافته الأول "وقد يقال الأول والأخير فهو يلتزم بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن عند مبارزة البيان لذي العداوة، فكيف بباب المدح في الشعر والمراسلات في النثر مع أهل المودة[٩٠٥] " .

ومن خلال الاستقراء المتأني لرسائل الأمير عبدالقادر، فإن ثمة خصائص فنية بارزة تبدو في أسلوبه ولغته.

فهناك مصدره الأساسي الذي لاشك في رجوعه إليه، ونصه عليه، واستقائه منه دون أن تبرد أشواقه، وإشادته به في كل مناسبة"، ودون أي مناسبة، ذلك هو القرآن

والسنة حتى ليصح أن يسمى " الأديب القرآني[٩٠٦] " ويتجلى ذلك واضحاً في نثره، حتى نرى الأمير عبدالقادر يعمد إلى هذين المصدرين مستعينا بهما في تحرير رسائله اقتباسا أو إيرادا باللفظ والمعنى" فالقرآن مصدره الدائم العام، فيه أصل كل العلوم دون استثناء إطلاقا، وقد أطال النظر فيه والإفادة منه، ونسبه كل فضل إليه، والثناء عليه وعلى مايليه في الأهمية، وهو الحديث النبوي، وعلى طريقة النبي في التفهيم أو مراعاته صلى الله عليه وسلم مقتضيات الأحوال[٩٠٧] " ومن ذلك ماورد في رسالته إلى أهل "فجيج" حيث رأينا عبدالقادر يلجأ إلى القرآن والحديث لتدعيم أقواله في الدعوة إلى الجهاد والحث على مقاومة الاستعمار، فيستقي من القرآن والسنة أفضل ماورد فيهما في هذا المجال، يقول: " . . . . . . فإن المؤمن للمؤمن كالبنبان المرصوص يشد بعضه بعضا، والمسلمون كالجسد الواحد يتألم الجميع بتألم البعض، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه، والمسلم أخو المسلم، وتعاونوا على البر والتقوى، إنما المؤمنون إخوة، يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض[٩٠٨] " ومن ذلك أيضا قول الأمير : " . . . . . . إلى أن جاء الإسلام فمنع ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" لا تتبع النظرة فإن مبدأ الزنا معاودة النظر[٩٠٩] " ومنه قوله وهو يحاج الجنرال دوماس في قضية الطلاق التي أثارها هذا الأخير زاعماً أنها متفشية في المسلمين " ففي الطلاق منافع وأضرار . . . . . وعلى كل حال فإنه لا يخلو من الأذى ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش"، وقال : " تزوجوا ولا تطلقوا فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات[٩١٠] " ورجوع عبدالقادر إلى القرآن والحديث يقتبس منهما مرده إلى أن عبدالقادر يرى فيهما مجالاً: " ميسراً للذكر والفهم لكل ذي استعداد ونظر، ولكل واحد- كما يرى الأمير- لأن يفهم ويلهم منه حسب طاقته، فلن نبلغ جميعا إلا ما يبلغه العصفور من البحر بنقرته، وليس لأي منا أن يقول هذا مراد الله لا زائد عليه، أو مراد رسوله لا غير، لأن معانيه متعددة وتأثيره باق، ولهذا امتنعت رواية القرآن والحديث بالمعنى عنده ليأخذ كل منهما حسب استعداده، إذ رويا بلفظهما[٩١١] " .

وإلى جانب القرآن والحديث، فإن عبدالقادر في رسائله يعمد إلى التراث يستقي منه ما يدلل به على أقواله وأفكاره، سواء أكان شعراً، أم حكماً، أم قصصاً خاصة أثناء ردوده على سائليه مما يدل على مدى تمكن الأمير وقوة اطلاعه على تراثه، وقدرته على الاستيعاب، بل ومقدرته على توظيف هذا الموروث وهو يحاور خصومه، وتتجلى براعة الأمير في مدى حسن اختياره لشواهده هذه التي أتى بها لتخدم غرضه وفكرته، فهو تارة يستشهد بالشعر وأخرى بقصص وحكم وأمثال، وثالثة بوقائع تاريخية ليدمغ بها حجج خصومه" لأنه كان يرى أن حسن الاختيار والاقتباس من التراث لا يعد كونه مجالاً من مجالات الصراع والمجالدة، لان اسم الجهاد عرف في ظروف أكثر خصوصية واتساقاً، فعرف منه عبدالقادر نوعين تعريفا مناسبا وسماها التسمية الوراثية، فكان منه الجهاد الأكبر وهو الصراع النفسي، والجهاد الأصغر وهو مدافعة العدو عن النفس والأرض والعرض والتراث بكل وسيلة[٩١٢] "، ومن هذا المنطلق زخرت رسائل الأمير وأثراها بمثل هذه الشواهد، من ذلك ماورد في رسالته إلى الأمير شامل، حيث نجد الأمير يضمن رسالته بعض الأبيات، كقوله: " . . . . . والبغي في كل الأمم مذموم ومرتعه وخيم ومرتكبه ملوم، ولكن:

يُقضَى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حَسَناً ما ليس بالحسن[٩١٣] "

ومنه أيضا قوله في رسالته إلى الجنرال دوماس، حيث أجابه على سؤاله المتعلق بقضايا الحجاب والسفور: " وقال حكيم لصياد رآه يتكلم مع امرأة ياصياد الوحوش: احذر أن تصيدك هذه المرأة، وقال بعض الحكماء: النظر إلى المرأة سهم والكلام معها سم. . . . وفي المثل ثلاثة لا تؤمن على ثلاثة:

شاب على امرأة، وامرأة على سر، وفقير على مال، وقال بعض الشعراء:

لا تأمنن على النساء ولو أخا

مافي الرجال على النساء أمين[٩١٤] "

بالإضافة الى ما سبق، فإن عبدالقادر في أسلوبه قد اعتمد على الإضافة المنتظمة للأدلة والشواهد والإحاطة بالعديد من المراجع الشرعية والأدبية والتاريخية والكتب المقدسة" تلك التى تعد معرفة ما فيها جزءاً ضرورياً لمثل هذه المناسبات في ثقافته التى ثقفها قبل نفيه، كما تعتمد على مشاهداته وخبراته ومقارناته بين المجتمع الغربي والمجتمع الشرقي، والإقرار بالفروق التي تعيب الشرقيين أو بعناصر معينة فيها، والتماس ما في المجتمع المتخلف من ذلك التقدم[٩١٥] ".

والحقيقة أن النظر والاستشهاد والاحتجاج بالكتب المقدسة إحدى اللوازم العلمية، والمهام الثقافية التي نهض بها كثير من علماء المسلمين، وفيما ينقله هؤلاء العلماء من تلك الكتب، وفي الموضوعات التي تناولها عبدالقادر وبالذات ما يشي بالوقوف موقفه، كما ينم عن الترجمة من لغة الى لغة، بل إن فيها ما يحفظ كثيرا مما عسى أن يكون قد ضاع من النصوص أو يرى - على الأقل - فرصة للمقارنة بين الترجمات المتعددة[٩١٦] "، وقد لجأ الأمير إلى هذه الكتب المقدسة في رسائله ليرد بنصوصها على خصومه إجلاءً للحقيقة، وقد أتيح له ذلك فيما يذكره د. طه الحاجري: " أثناء إقامته بفرنسا، وقد رأينا اتصاله ببعض رجال الدين المسيحي، ومنهم من كان يتصدى له وتبلغ به السذاجة أو قوة الاعتداد بنفسه إلى أن يطمع في صرفه عن دينه بتحويله الى المسيحية[٩١٧] "

ومن أمثلة استشهاد عبدالقادر بهذه النصوص من الكتب القديمة ما ورد في رسالته التى يتحدث فيها عن موضوع الطلاق في الإسلام، حيث يقول: " والطلاق مباح في الأديان القديمة، ففي التوراة في الإصحاح الحادي والعشرين في سفر الخروج: إذا استقبح سيدها زواجها فليطلقها " وفي سفر الأحبار في الإصحاح الثاني والعشرين: إذا طلقت بنت الكاهن ولم يكن لها أولاد رجعت إلى بيت والدها تأكل من القدس، فعلم من هذا أن الطلاق ليس خاصا بالمسلمين[٩١٨] " كما ضمن الأمير إلى جانب هذا بعض الأحاديث التى رويت عن رسول المسيحية سيدنا عيسى عليه السلام وذلك كمثل قوله: "

. . . . وقال عيسى بن مريم : إياكم والنظر فإنه يزرع في القلب الشهوة ، وأول العشق النظر ، وأول الحريق الشرر[٩١٩] . " وإن دلت هذه الاستشهادات على شيء فإنما تدل على ما كان يتمتع به عبدالقادر من ثقافة دينية عميقة ، واطلاع واسع على الأديان جعله يناظر ويرد على سائليه من النصارى بآياتهم ، وتلك لاريب الحجة التى مابعدها حجة .

ومن الملاحظ على أسلوب عبدالقادر كذلك ، إطالته للحوار والاسترسال وذلك لحرصه الشديد على الشرح من جهة وإصراره على التعليم والبيان ، فحين يتحدث مثلا عن قضية الحجاب والسفور ، نراه يعمد إلى القضية فيعرضها عرضا تاريخيا ، ويعطي كل مرحلة ما تستحقه من الشرح والإيضاح ، ويتدرج بعدها إلى التي تليها موضحا فيها رأي الدين والشرع ، وما أنزل بشأنها من الأحكام فلا يغادر صغيرة في الموضوع ولا كبيرة إلا وتعرض لها ، مدعماً أقواله بما أتيح له من الشواهد والأدلة ، حتى يكون لرده وجوابه الأثر المبتغى ، ونفس الشيء ينطبق على مراسلاته الأخرى ، ففي رسالته إلى الخليفة العثماني نرى عبدالقادر وكأنه مؤرخ يستعرض الأحداث التي عاشها في البلاد الواحدة تلو الأخرى من معارك ومعاهدات مسترسلاً شارحاً كل القضايا وملابساتهاحتى ليظن القارىء أن الأمر لايعدو كونه تقريراً وعرضاً تاريخياً لايمت لفن النثر بأية صلة وهكذا فإن المتصفح لما خلفه عبدالقادر في الجانب " يلحظ صفات الشرح والاستشهاد الأدبي والتاريخي ، والتثبت ، والاحتياط ، واستخدام أدوات وأساليب التوكيد والتشكيك وعزو الشواهد إلى مراجعها ، ومراجعة نفسه فيما يخطئ فيه ، فضلا عن مراجعة غيره[٩٢٠] " .

وفي أسلوب عبدالقادر نلاحظ سهولة العبارة ، ودقة اللفظة ، وتواتر الأفكار في نظام محكم مدروس ، يتجلى ذلك واضحا في رسائله السابقة حيث نجده يعمد دوما إلى السهل من التراكيب التي تخدم الأفكار والمعاني ، ويستتبع ذلك صراحة في الأسلوب ، ومواجهة وتحديد الأشياء بمسمياتها ، ويتصل بالأداء المتحرر عنده ، عزوفه

عن التنقليد، والغريب من الحديث، وإن كان أسلوبه قوياً جزلا لا إسفاف فيه ولا ركاكة، مما أضفى على تعبيره سهولة مألوفة، وبساطة واضحة دقيقة ملائمة للحال ومناسبة للمقام، ومن هنا تنوع أسلوب أديبنا، فلم يأت على نسق معين أو وتيرة واحدة، حيث اختلف من موقف إلى آخر بحسب الموضوع والعرض فهو قوي جزل يوحي بالعظمة والتحدي والقوة في رسائله مع عدوه، وهو أيضا هادئ مبشر يحمل أرق ما يقابله المرء من عبارات الإخاء والمودة والشعور الصادق.

يقول في إحدى رسائله الى الجنرال "دوماس": و"بالجملة فنحن لا نترك قتالكم مادمتم في طغيانكم تعمهون، وفي سبيل اعتدائكم تمشون، والحروب قد تربينا عليها، وتغذينا بلبانها، فنحن أهلها من المهد إلى اللحد، وحروبنا -كما علمتم- لا نرجع فيها إلى قانون يحرسها، بل نحن مخيرون مطلقون نصرفها كيفما شئنا، وأما أنتم فقد بذلتم أموالكم، وأفنيتم قوة شبابكم في تعلم طرقها القولية، وعند اشتباك الصفوف تعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف ومما علم من كتب التواريخ القديمة أن العرب يبتهجون في معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه، فلا يخطر في بالكم أنهم يضجرون منها أو يتركونها من ذات أنفسهم مادامت الأقدار الإلهية مساعدة لهم[٩٢١]".

ومن أمثلة أسلوبه الهادئ الرزين المشع مودة ورقة ماجاء في رسالته إلى الوزير التونسي "مصطفى خزنة دار حين يقول: "ما روض مفتر المباسم معطر الرياح والنواسم، فداعب الربيع غصونه بورود مخضرة، وجعل إشراقه للشمس ضرة . . . . فالباعث على تسطيرها، والحامل على وشيها أو تحبيرها المحافظة على المودة والوفاء، بحيث لا يكدر من شرابها ما راق وصفا . . . . . هذا وألسنة الأقارب المهاجرين كافة بطرفكم لم تزل تلهج بخصالكم الحميدة ومزاياكم العديدة، التي جل قدرها وسار مسير الشمس ذكرها ، ولما تكرر ثناؤهم عليكم بالغيب ارسالا، كما هب

صبا وشمالا ، ووجب علينا أن نعلمكم بمكانهم من الانقطاع لجهتكم ، والتحيز لفئتكم ، وأن أذكرك بأحوالهم تذكرة حسنة لتعاملوهم بمقتضاها المعاملة المستحسنة ، جرياً على ما ألفوه من أفضالكم وإحسانكم وإبقاء لما تعودوه من إجمالكم وامتنانكم[٩٢٢] . "

كما تميز أسلوب عبدالقادر بالتهكم اللاذع والسخرية ، وخاصة حين يتعلق الحديث بمسائل تمس الشرف الوطني ، وسيادة وكرامة الشعب حيث لا يتسامح عبدالقادر بشأنهما إطلاقا ، على الرغم مما عرف عنه من التزام وحزم وبعد عن الهزل والمزاح ، وأمثال ذلك ما جاء في رسالته رادا على الجنرال ديميشال مبينا له سوء تقديره ، وقاطعاً أمامه سبيل الطمع في الغنائم والأموال ، التي حسب الجينرال وجنده أنهم سيحصلون عليها حين ينهزم عبدالقادر وتحتل البلاد ، يقول : " . . . . وأنتم وغيركم من رجالها نراكم دائما تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب . . . . . ولو كان عنكم أدنى نظر سديد ماوافقتموها على إتلاف جنودها في الحرب ومواسم الأمراض المختلفة التي لاتذر ولاتبقى ، فياهل ترى ! بأي شيء تعوضون ما تخسره بلادكم من الأموال والرجال والكراع ؟ فإن كان يرضيها منكم أن تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر ، أو من تراب الأرض التي اغتصبتموها ، فافعلوا وإني أراك أيها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا ، ظنا منكم أن ذلك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد إليكم ، والحال أن هذا ليس شيء عندهم ، فإن هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والأشربة مثلكم ، بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ، ويقيم أودهم كيفما كان على أنه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية ، وما تأخذونه أنتم من ذلك وهو جزء من جملة أجزاء ولا أراكم في هذا الأمر إلا كمن ملأ قدحه من البحر معتقدا أنه ينقصه[٩٢٣] " .

وكثيرا ما يستخدم عبدالقادر المحسنات البديعية كالسجع وخلافه ، ولكنه " لا يتكلف الصور البيانية لغير البيان العلمي الموضوعي ، ولا يتوقف للمحسنات البديعية

وإنما هي التي تحط على روضة السطور فلا يجلئها عنه[٩٢٤] " . فلم ينهج في ذلك سبيل معاصريه من الكتاب الذين أسرفوا في استخدام هذه المحسنات ، فطغت على كتاباتهم وطمست المضمون ، وأمسى هم الكاتب الاهتمام بالشكل ولو على حساب المعنى فشردت الأفكار ، وأصاب الكتابة تكلفاً وركاكة ، وأدت بها إلى الضعف والإسفاف .

والسجع عند كاتبنا إنما أتى به لإضفاء مسحة فنية جمالية ، وليس على حساب المضمون والمعنى ، ومن ذلك قوله : أصلحكم الله حالا واستقبالا ، وسدد رأيكم لإمارة العصمة جلالاً ، وسلاماً على محافلكم السامية ، يعم مرابعكم الناهية ، ويتحفها بتحفة الكرامة الباهية[٩٢٥] " ومنه كذلك " من خديم حضرتكم بوطن الجزائر ، والتي صار لغرباء الكفر وأذياله جزائر ، ولم تتفقده أسياده وحماته ، وتغافلت عنه أنصاره وفرسانه وكماته ، فهم أسرى العدو الكافر أسرا ، يفعل فيهم ماشاء ويحملهم أغلالا وإصرا[٩٢٦] : "أما بعد فإن الغيرة الإسلامية تحق لأمثالكم ، والاعتياضات الأنفية يجب على أقوالكم وأفعالكم ، وكيف لا والعدو الكافر -أذلة الله - جال في بلاد المسلمين وصال ، وسعى في خراب مدنهم وقصورهم بمساجدها المعدة للغدو والآصال وحدت شوكته على القريب والقاصي ، وتظافرت جيوشه على الإجلاء المطيع منهم والعاصي ، وأجمع عزمه وكيده في جميع بره ، وفاض على ضوءالإسلام ضوء ليله حتى كاد يخفى جدول فجره[٩٢٧] "والأمثلة على هذا كثيرة في رسائله .

وإلى جانب هذا يمتاز أسلوب عبدالقادر في رسائله بالنبرة الخطابية والتقريرية المباشرة ، وخاصة تلك التي تتعلق بالحرب والدعوة للجهاد ، حيث يبدو فيها أشبه بخطيب ، فتراه يحث ، ويحض ، يحفز الهمم ، داعياً بقوة الكلمة إلى الثورة والنضال ومدافعة الظلم والعدوان ، محذراً ، أو مبشراً ، كما جاء في إحدى رسائله الى أهل فجيج : «وفي موافقتكم استصراخنا وإجابتكم دعانا ، اتساق هيكل نظم المسلمين وصرورتهم على كلمة واحدة ، كذات متحدة ، فإن تكلفتهم بمرام المطلوب ، فحبذا المرغوب ، وأشرعوا في التأهب والتهيؤ ، بإقامة الكراع والسلاح والأخبية ، وما يعينكم

من الاعتقادات الإيمانية ، لا يختلف أحد من صناديدكم من الفرسان والعساكر ، وإن اكتفيتم بنظر المكتوب ، ولم تجيبوا داعي الله ، فهذا الواجب في حقنا ، وحسابنا جميعا على الله ، والله المستعان وعليه التكلان . وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب"[٩٢٨] ويستخدم الأمير أسلوب الاستفهام للتحقق والدقة ، والرغبة في معرفة الفيصل بين الحقيقة والخطأ ، وما يفترضه الشرع على المسلم ، أو لتأكيد بعض الأمور الثابتة مستعملاً أدوات الاستفهام كـ(ما ، وهل ، وأي) وغيرها ، ومن ذلك ما جاء في رسالته إلى علماء المغرب مستفتياً عن بعض القضايا الدينية والدنيوية ، يقول الأمير : ". . . . . وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة إذا استنفر الإمام أو نائبه الناس للدفاع عن الدين والوطن؟ فهل يعاقبون على ذلك ؟ وبأي شيء يكون عقابهم؟ ولا يتأتى بغير قتالهم ، وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم؟ . . . . . وما حكم الله فيمن يمتنع عن دفع الزكاة كلاً أو بعضاً ، لدعوى عدم وجود نصابه عنده ، مع تحقق وجوده في الحال؟ فهل يصدق في دعواه مع ضعف الدين في هذا الزمن؟ أم يكون للاجتهاد فيه مجال؟ ومن أين يرتزق الجيش المدافع عن المسلمين ؟ . . . فهل يترك الأمر ويستبيح العدو الوطن؟ أم يكون ما يلزمهم أم لا؟ وما حكم أموال البغاة؟ وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا ؟[٩٢٩]" .

وهكذا يمضي الأمير في طرح تساؤلاته عن كل صغيرة وكبيرة بتسلسل وترتيب ، ولا يغفل من الأمور شيئا مهما كانت درجته ، لأنه يدرك جيدا أن الأجوبة التي سترد على تساؤلاته ، ستكون القاعدة الأساسية والسليمة في فرض وتطبيق حكم الله ، وبذلك لا يظلم الأمير خصومه نقيرا .

ويصدر أسلوب عبدالقادر" عن حوار داخلي نفسي ، قد يطول أمد هذا الحوار أويقصر ، ولكنه يحرص على تنظيمه وتسلسله ومنطقيته وحسن الحوار بين أجزائه وإفضاء تتابعه إلى النتائج التى يرجو تحقيقها ، ويسير لها سيرا منهجيا بليغا [٩٣٠] " .

وهو ما نلاحظه في رسائله، حيث يهيىء للقارئ الجو النفسي الملائم بما يضعه من مقدمات مناسبة لموضوعاته، وحسن التخلص إلى الغرض الأساسي المراد، التعرض له، فيتجاوب المتلقي معه، وينتقل به مرحلة إلى أخرى دون أن يشعر بتلك الحدود أو الفواصل الموجودة في العمل، بل يعايش الموضوع ويحياه نفسياً ووجدانياً، فتارة" يعلو النبض ويسرع الخطو وتقصر الجمل وتزدوج، ويشتد الإيقاع، ويبتعد عن الترصد الموضوعي أحيانا، ويلجأ إلى مواقف الخطابة والفروسية ولا يبقى من حيل الإقناع حينئذ إلا التأثير الفني المحض أو ما سبقه من أدلة موضوعية[٩٣١] " وتارة أخرى" تنكشف العاطفة ويجري البحر رهواً ويعود إلى قاعدته العامة في التعليم والترسل، فتمتد الأنفاس وتتبع خطوات الجمل ويسير نظم الكلام واني الخطوات واضح الطريق والمعالم[٩٣٢] ".

يقول في إحدى رسائله إلى ملك إيطاليا معزياً ومهنئاً: " ولا يخفى أن الأقدار الإلهية من شأنها أنها تختلف بين مكروه ومحبوب، وتتصرف بين مسلوب وموهوب وكثيرا ماأخذت بيد ثم ردته بأخرى، وأحزنت بكرة، ثم أحدثت بالعشي سرورا، أو بشرى هذا وإن حكم الله- تعالى- بموت عظيم إيتاليا وملكها والدكم، وإفضاء أمر الملك إليكم قد جمع بين ما يوجب الأسف والتعزية، وما يوجب المسرة والتهنئة، ولا شك أن الله - تعالى- أسى بكم حادث الكلم وسد- بشخصكم الكريم- عظيم الثلم ورد النفوس - بعد انزعاجها- إلى محالها والآمال إلى محط رحالها، فلذلك ترى النفوس إلى التهنئة أميل منها إلى التعزية، إذ الموت أمر لابد منه، وسهم لا محيد لكل مخلوق حي عنه، فالله يصلح بكم البلاد والعباد، ويوفقكم إلى سبيل الرشد والسداد."[٩٣٣] ولا ريب أن عبدالقادر استطاع من خلال هذه الرسالة أن يبلغ مرامه فعزى، وهنأ العاهل الجديد، دون أن يشعر هذا الأخير بفداحة الخسارة، عن طريق هذا المنهج الذي مزج فيه عبدالقادر بين أمرين متضادين ولكنه غلب جانب التهنئة، وجعل من الحزن أمراً عارضاً يزول حتماً بزوال سببه.

ويقوم أسلوب عبدالقادر كذلك على الحوار المنطقي المتسلسل إيثاراً للغير بالمعرفة، واشتياقاً للوصول للحقيقة، ولذلك ترد الأفكار عنده مرتبة ترتيباً حسناً

مقبولاً، كل فكرة تخدم التي سبقتها في الغرض الواحد، فهو ينتقل من فكرة إلى أخرى بطريقة تجعل المتلقى وكأنه أمام عرض سينمائي تتابع أحداثه، وفق نسق محدد ومنظم "وهوأن يبدأ بالأصل العام، ثم يأخذ في التدرج، والتقسيم والبيان، والمقابلة، والمفاضلة" ويبدو ذلك جليا في رسائله، كتلك التي بعث بها للخليفة العثماني، متعرضاً فيها لأحوال البلاد والعباد، طالباً العون والمدد، أو كتلك التي رد بها على سائله وهو يحاوره في موضوع الطلاق.

فالملاحظ على هاتين الرسالتين مثلا، تواتر الأفكار، وترتيبها الحسن وقدرة التصرف في الأسلوب الذي يتيح له التخلص من فكرة إلى أخرى، وتنظيمها في سباق الحديث بغية الإقناع والإمتاع.

ويستتبع ذلك وضوحاً في الفكرة لأن" الوضوح صفة عقلية قبل كل شيء، إذ يجب على الكاتب أن يكون فاهماً ما يريد أداءه فهماً دقيقاً جلياً، ثم يحرص على أدائه كما هو[٩٣٤] " وهذا ما انطبق على أسلوب عبدالقادر، حيث جعله متفهما لكل المسائل والقضايا، وحماه من التعصب والعناد والتزمت الذي يفرض على صاحبه قبول الأشياء والتسليم بها على علاتها، أو محجبة عن رؤية الحقيقة وإدراك المتشابه من الأمور، فمثلا وضوح فكرة الجهاد وعدم الخضوع للاستعمار دفعاه للحديث عن هذا الجانب بكل صدق، ولم يمنعه ذلك أن يصرح بما في نفسه تجاه عدو غاصب، حاول فرض همينته على البلاد، فقال موجهاً خطابه إلى أحد جنرالات فرنسا دون خوف أو وهن: " . . . مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على ثورة الإسلام، وانتصارهم على أعدائهم، نحن- وإن كنا ضعفاء على زعمكم - فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو لا شريك له، ولا ندعي بأن الظفر مكتوب لنا دائما، بل نعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا، غير أن الموت مسر لنا وليس لنا ثقة إلا بالله وحده لا شريك له، لا بعدد وعدة، وإن دوي الرصاص وصهيل الخيل والحرب، أحب لآذاننا من الصوت الرخيم، فإذا صممتم على عقد صلات ودادية دائمة بيننا فأخبرونا[٩٣٥]

وتبلغ الوضوح والصراحة عنده حداً جعله لا يخاف في الله لومه لائم، فيخاطب

الخليفة العثماني بنبرة صريحة صادقة، واضحة لا غموض فيها، ولا مداراة، مبينا له حق المسلمين على حكامهم، سواء رضي الخليفة على أسلوب عبدالقادر أم لا، فإن الأمير كان همه الوحيد إبلاغ رسالة شعبه إلى هذا الحاكم بأمانة واخلاص ليبرئ ذمته وليضع الخليفة أمام مسؤولياته كاملة، يقول الأمير: " . . . . ونحن أسلمنا إخواننا المسلمون، وتركونا أسارى في يد العدو، فهم لنا ظالمون، وتبرأ منا من كان قريبا لنا من الملوك ومنعونا شراء ما نتقوى به على الكافر خوفا منه، ومنعونا حتى السلوك، طلبنا منهم الإعانة بالرجال فلم يقبلوا، واستعناهم بالأموال فلم يفعلوا، وطلبنا منهم السلف فكان عين المحال. . . . . فما نفعنا قريب ولا مجاور، ولا دافع عنا ذو سيف، ولا محاور، فكأن المسلمين ليسوا بجسد واحد[٩٣٦]" .

ويضيف عبدالقادر : " . . . . فإن قيل مال، عندك المال الوفير، وإن قيل جيش عندك العساكر البحر، وإنا من عيالك، والله سائلك عنا، فأزل ما أثقل الظهر منا وعنا[٩٣٧] " وهكذا يتجلى الوضوح والصدق في أسلوبه لأنه كان مؤمنا بما يفعل وبما يقول، ويدعو إليه، فسيان عنده الخليفة أو المواطن حين يتعلق الأمر بمسائل تمس الوطن والدين والشرف، اقتناعا من عبدالقادر بأن تصرفاته هذه تنبع من إحساس صادق واقتناع تام " ومتى وصل إيمان المرء بفكرة إلى هذا الحد، التزم بها وثبت عليها، لا يفتأ يتحدث عنها، وفي نطاقها ولا يبرحها إلا ليوضحها، ويدلل عليها، كما أنه يحرص عليها ويتمسك بها، ويسعى إلى نشرها وتحقيقها في الواقع، مهما واجهته من عقبات، وكلفته من تضحيات[٩٣٨]

وهذا الوضوح والصدق في الأسلوب ليس مرده إلى بريق الكلمات وموسيقى العبارات وإنما هو كامل" في قوة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلولات، إنه في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حية والمعنى المفهوم إلى واقع ملموس، وفي هذا يكمن السر وفي شيء آخر في استمداد الكلمات من ضمائر الشعوب، ومن مشاعر الإنسان، ومن صرخات البشرية، ومن دماء المكافحين

الأحرار[٩٣٩] وبالإضافة إلى هذا يمتاز أسلوب عبدالقادر بالعمق والدقة ومعالجة القضايا بإعطائها كل ما تستحقه من الاهتمام ومن الشواهد والأدلة والغوص في أعماقها لتجلية جوانبها مهما كانت غير ذات الشأن.

فهو يتبع المواضيع التى يطرقها في رسائله سواء كانت سياسية، أم دينية ويوليها من الشرح والتحليل والتعليل للوصول إلى النتائج المرجوة، باعتبار أن العمق في الأعمال الأدبية" سمة فكرية يكونها الذكاء التقد وإمعان النظر، فالكاتب المتعمق لا يقف عند ظواهر الأشياء ودلالتها السطحية القريبة، إنما يتبعها في بواطنها وأعماقها، ويغوص في داخلها ليتعرف على بواعثها وحقائقها، وليصل فيها إلى أشياء، لا يصل إليها الإنسان العادي[٩٤٠]

وهكذا كان نهج عبدالقادر، فمثلا حين يتحدث عن ظاهرة الطلاق التى زعم أحد السائلين المسيحيين أنها متفشية في المجتمع الإسلامي، ويعيبه على ذلك، نرى عبدالقادر يتصدى لهذه المزاعم ويدمغ حجج سائليه بما أوتيه من علم وثقافة، وبأدلة دينية علمية وعقلية، ويتدرج في الموضوع من بدايته مرحلة تلوالأخرى، ويعطي كل منها ما تستحقه من اهتمام ودراسة، بل أنه يتوقف عند بعض الأمور التي يعتقد المرء أنها ليست بذات شأن، فيشرحها ويوضحها غايته من ذلك الإفهام والإقناع العلمي والموضوعي، البعيد عن كل تعصب فلا يملك السائل إزاءه إلا القبول والتسليم .

ويبرز العمق الفكري في معظم ما كتب عبدالقادر، سواء في مناقشاته أو ردوده، بتوضيح مفاهيم الأشياء، واستنباط الحجج والبراهين، أو في نظرته إلى المشاكل والأمور الاجتماعية أو في فهم الأمور والقضايا الدينية.

وهكذا أخضع عبدالقادر أسلوبه لنزعته التعليمية، ولطبيعة المنهج الذي سار عليه، مما تولد عنه عامل جديد، هومراعاة مقتضى الأحوال" ولهذا زاد أسلوبه الخاص في أدب الحوار وضوحاً، باستحضار واستشعار ضرورة أن تكون المجادلة- بحسب

ثقافته – بالتي هي أحسن، وبلين القول، وصدق الوعد ومن أجل شعوره بنهوضه للحوار دائما جاء أسلوبه كما يتبين حواراً متسلسلاً، خالياً من الغموض والإبهام والتعقيد والحاجة للشرح(٩٤١)

وعموما فإن أسلوب عبدالقادر نثر شاعر حرص من خلاله على أن يعلم أكثر من حرصه على أن يدع سجيته وأن يتكلف أساليب البيان، ولذلك كان أسلوبه شهادة أخرى على قدرة اللغة العربية على تناول مختلف القضايا والتعامل معها بلسان عربي مبين.

وحين ننتقل للحديث عن اللغة النثرية عند عبدالقادر، فإن أول ما يلاحظ قدرة أديبنا على أن تأتي لغته ملائمة للموضوع الذي يتناوله، والتزم في ذلك الفصحى ما استطاع إلى ذلك سبيلا لأن عبدالقادر كان يدرك أنه " إذا كان الحديث اليومي يتضمن النوع من الكلام، فلا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نعده فناً نثرياً، إلا إذا سمت لغته وألفاظه عن لغة العوام وألفاظهم، وحظي بلذة فنية خالصة في نفوس سامعية(٩٤٢).

وعلى الرغم من أن عبدالقادر كثير الالتفات إلى ما تعتقده العامة، وما يفعلونه أو يقولونه من عبارات دارجة، وأمثلة سائرة" ولكن الرجل يلتزم الفصحى، ويعيد كتابة ما ينقله عن العامة إلى عبارة صحيحة، ولا يستعين بغير الفصحى في نثره وشعره(٩٤٣).

وعبدالقادر كثير الاهتمام باللغة وما يجب أن تكون عليه، لأنها الوسيلة الوحيدة التي يستطيع عن طريقها أن يبلغ أفكاره، ويكشف بها عن تطلعاته وآماله فهو يعلم أن لكل مقام مقال ولكل مجلس وفئة لغتها الخاصة، فحاول أن يوفي كل ذي حق حقه "فأساسه الخاص للالتفات اللغوي في كل اتجاه ينطلق كالعادة من شاهد، وشاهده هنا قوله تعالى" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" وقوم كل رسول كما يقال ثلاثة : عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة، فلو خاطب الرسول العامة بلسان الخاصة لأفسدهم ونفرهم، وهكذا، إذ كل نوع لا يفهم إلا بلغته، ولا يفهم الفهم المقصود بالخطاب إلا منها(٩٤٤).

على أن ذلك لا يعني أن عبدالقادر قد نزل بلغته إلى مستوى ضعيف منحط ، ولكنه كان يدرك أنه يعلم ويشرح ويعظ ، وبالتالى فالمقام يفرض عليه أن تكون الأداة الموصلة لأفكاره مفهومة مقبولة من الجميع كما قال الجاحظ : " ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقها أن تصونها عما يفسدها ويهجنها . . . . . . وكن في ثلاث منازل : فإن أولى الثلاث ، أن يكون لفظك رشيقا عذباً وفخماً وسهلاً ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة ان كنت للعامة أردت[٩٤٥] .

ونلاحظ في لغة عبدالقادر سهولة مألوفة بسيطة واضحة دقيقة ، ملائمة للغرض الذي يتناوله ، تتباين من موقف إلى آخر ، فهي في الشدة غيرها في البساطة ، فحين يتحدث مثلا عن أمر الجهاد وما يستتبعه من ألفاظ القتال والثورة نجده يوظف كلمات وألفاظ من مثل : " صناديد- فرسان- عساكر-دوي الرصاص- صهيل الخيل" .

وحين يتعرض لمواضيع السياسة تبرز الألفاظ المختارة الدالة على ذلك مثل : الاتفاق - الإنصاف - المعاهدة - الصلح - المخابرة - الغدر - المفاوضة - الشروط . . . . وحين يتناول مواضيع دينية ، يوظف عبدالقادر كلمات وألفاظ لها دلالات في هذا المجال ، من ذلك : الغيرة - الشرع - الشهوة - اللذة - الحرام والحلال - الفاحشة- الإيمان- التقوى - الفساد - المعاصي - الحضانة - النفقة .

ولا يلجأ عبدالقادر في لغته إلى الغريب الحوشي من الكلام ، فألفاظه وعباراته سهلة ميسرة للفهم والتدبر ، ولا تحتاج من القارئ للبحث والتنقيب عن معالنيها ، وليست هذه البساطة والسهولة ضعفا ، وإنما هي وسيلة يتعمدها الأمير ، لإبلاغ وتوصيل ما يريده من أفكار ، وبذلك تعد لغة عبدالقادر إذا ما قورنت بلغة وأسلوب كتاب عصره حتما في الذرة .

وبعد هذا كله فإننا نرى في الأمير مؤلفا يجيد التأليف بما يتطلبه من ترتيب وتبويب

في الشكل والمعنى، والتزام منهج عام يدل على عقل منظم، ومنطقية سليمة" وذلك جانب واضح من جوانب شخصيته العلمية إذ رأينا من ملامح هذه الشخصية متمثلا في سعة المعرفة، والإحاطة بالثقافة الإسلامية والعربية وفي رحابه الأفق والموضوعية، وروح الحيدة ودقة الملاحظة، وكان ذلك – في أكبر الظن– مما جعله عند علماء الفرنسيين الذين عرفوه ممثلا للعالم الإسلامي العربي(٩٤٦).

خاتمـــــة:

. . . . وهكذا تنتهي هذه الرحلة العلمية الأدبية الصوفية الشيقة والشاقة مع عبدالقادر لنخرج منها بمجموعة من النتائج يمكن أن نجملها في النقاط التالية : – كشفت الدراسة أوحاولت على الأقل توضيح بعض المسائل المتعلقة بحياة الأمير عبدالقادر فصاحبته مذ كان صبياً الى أن أصبح أميراً وقائداً ومؤسس دولة ثم أسيراً في يد عدوه حتى حانت ساعة الخلاص فكانت هذه الصفحات رفيقته إلى استمبول ودمشق فالإسكندرية والقاهرة والحجاز فسجلت أعمال الأمير العلمية والفكرية والأدبية والصوفية ومواقفه الإنسانية ولم تبارح الدراسة وصاحبها الأمير إلا وهو مسجى في لحده بجوار إمام العارفين الشيخ محي الدين بن عربي سنة ١٨٨٣ .

– إن شعر الأمير كان امتداداً للشعر العربي التقليدي على الرغم مما بدا فيه من ضعف وتقليد . وقد تناول عبدالقادر كل الأغراض الشعرية التي كانت معروفة في عصره كالوصف والمدح والغزل ولاحظت الدراسة خلو ديوان الأمير من الهجاء وربما يعود ذلك الى تربيته الإسلامية وأخلاقه السامية التي نأت به عن القذف والشتم. والأمر نفسه بالنسبة لغرض الرثاء ذلك أن الأمير قضى زهرة شبابه على صهوات الخيل وتجرع المرارة والمحن فكان يعتبر الموت في سبيل المبدأ والشرف والدين حياة ما بعدها حياة فلا يستحق صاحبها أن يرثي ولذلك خلا شعره من صور المأساة بقتلاها وجرحاها.

وكان داعي الفخر عند الأمير أمرين : نسبه النبوي الشريف وأعماله الجليلة وشجاعته وأخلاقه . ولم يكن فخره وقفاً على نفسه فقط بل أشرك فيه قومه وجنده وهي سمة من سمات الفروسية الحقة التي كان يتصف بها الأمير.

– أما غزله فكان نتيجة لعاملين اثنين : أثر المرأة فى نفس الشاعر وخضوعه لسلطان الجمال وقد برئ غزله من الفحش والإباحية فنحا منحى عفيفا تحكمت فيه تربيته الإسلامية وأخلاقه الفاضلة . وكثيرا ما كان يجمع بين الفخر والغزل فى قصيدة واحدة يصور فيها عذابه وما يقاسيه وشدة صبره وقوة احتماله وكثيرا ما يشكو عبدالقادر لياليه فيحسن الشكوى محاولا أن يحيي ذلك التقليد الدارس فيجمع بين طرفي الفروسية السيف والحبيبة تشبها بفرسان العرب وسعى جهده لتحقيق هذه الغاية .

– أما الوصف عنده فيأتي تارة ضمن أغراض أخرى وتارة يفرد الأمير قصائد مستقلة له يتحدث فيها عن جمال الطبيعة وبعض الحواضر التي استقر بها الشاعر دهراً. وشعره فى هذا لم يبتعد عن الوصف الحسي التقريري المباشر مما أفقده الحركة والإيحاء والنماء وان كانت للأمير قصائد ومقطوعات نهجت نهجا وجدانيا الا أن الغلبة كانت للجانب الأول .

– وما دام الهجاء محظورا فى شعر عبدالقادر فقد جاء مدحه كثيرا غلبت عليه عفة اللسان وصدق العاطفة ونبل الإحساس فكان لا يجامل ولا ينافق يمدح المرء بما فيه ان كان يستحق المدح فعلا ولا يريد من ذلك جزاء ولا شكورا . وانصبت مدائحه حول ثلاث نقاط رئيسة : مدح صوفى ، مدح سياسي ، ثم مدح أدبي اختص به أفرادا وجماعات كان الأمير يراهم أحق بالتقريظ والثناء والشكر .

– أما شعره الديني فقد تناولت الدراسة فيه التصوف – المدائح النبوية –ثم الحجازيات . فتعرضت لكل جانب بالشرح والتحليل .

ففى شعره الصوفي جلا البحث مفهوم التصوف عند عبدالقادر ومراحله التى مر

بها والأشعار التي أنشدها فى المدح الصوفي والحب والخمرة الإلهيين . كما تعرضت الدراسة لبعض النظريات الصوفية كوحدة الوجود التي رأى البعض أن الأمير كان يؤمن بها إيمانا قويا . على أن الحقيقة لا تخرج عن كونها تقليدا من الأمير ونسجاً عن منوال الصوفية السابقين ، وآيتنا فى ذلك ما عرفناه عن عبدالقادر من التزام واضح وايمان مطلق بالكتاب والسنة والإجماع .

أما حجازياته ومدائحه فقد بين البحث الأسباب الدافعة إليها وهي فى مجملها أشعار اتصفت بصدق العاطفة والحنين الفياض الى مهد النبوة وان كانت تقليدية فى بنائها ومعانيها وأفكارها فلم تخرج عن دائرة سابقيه .

- كشفت الدراسة فى مجال النثر أن الأمير كان مؤلفا يجيد التأليف ملما بعلوم عصره وتراث أمته وآثار الأقدمين فكان معلماً محاوراً بالحجة وبالموعظة الحسنة وإن اختلفت مادة كتبه ، وكان سبيله فى كل هذا العقل والنقل والذوق يلتمس فى ذلك كل السبل وتجلى ذلك فى كتبه (ذكرى العاقل . المقراض الحادوالمواقف) .

أما رسائله بشقيها فقد تبادلها الأمير مع اخوته فى الدين والمصير وانصبت حول قضية الجهاد والدعوة إلى الوحدة والتآزر والأخوة أوضح فيها الأمير جوانب الصراع وصور حالة المسلمين وعجزهم عجز المرحلة التى يمرون بها وانعدام الشجاعة لدى حكامهم فى اتخاذ القرار المستقل ابتغاء مرضاة العدو وحرصا على المناصب والكراسي .

أما مراسلاته الأخرى بينه وبين بعض قواد فرنسا وبعض حكام أوربا فقد دارت كلها حول شؤون الحرب والمعاهدات ، والأسرى والدعوة إلى الوفاء بالعهود والمواثيق بينت مقدرته على التعامل مع الأحداث وحنكته السياسية والدبلوماسية الى جانب توضيحها لبعض النواحي الفكرية والدينية التي كان يحملها البعض خطأ عن الإسلام فانبرى عبدالقادر يرد بكلتا يديه على هؤلاء مجليا حقائقها السمحة الكريمة . مزيلا ما

علقت بها من شوائب وشبهات اتخذها خصوم الإسلام مطية وذريعة لمهاجمة المسلمين ، وبذلك فتح الأمير مجال المناظرات بين الغرب والشرق فكان له السبق فيها .

– بين البحث من خلال الدراسة الفنية لشعر الأمير أنه لم يضف شيئا جديدا لا في لغته وصوره وموسيقاه ، فقد سلك الشاعر نهجاً تقليدياً في هذا فجاء شعره تبعاً لذلك فلم نلحظ أي تجديد سواء في الموضوعات أو النواحي الفنية .

فيما يخص اللغة الشعرية عنده فقد اعتمدت على التراكيب والقوالب الجاهزة الموروثة فبعدت عن المعجم الشعري لعصره مما يضطر القارئ إلى العودة إلى القواميس بحثا عن شرح لهذه اللفظة أوتلك . كما غلبت عليها النزعة التقريرية المباشرة مما أفقدها التصوير والإيحاء الى جانب اعتماده على المصطلحات الفقهية والنحوية والعلمية في بناء شعره .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت لغة الأمير في الذروة بالقياس إلى شعر زمانه ، سمت ألفاظها وخلت من الغريب نسبيا ، بل إن بعض الأخطاء النحوية والعروضية لها ما يبررها حين يضطر إليها الشاعر حفاظا على الوزن والقافية . أما أسلوبه في شعره فجاء تقليدياً تبعاً للتقليد في الموضوعات فلم يخرج عن نطاق أسلوب عصره المتميز بالترسل والدعاء وإن كان راقياً في بعض أشعاره ضعيفاً منحطاً في أخرى .

كما تعرض البحث لموسيقى الشعر عنده فإذا هي تقليدية لشدة محافظة الشاعر على الشكل التقليدي القديم للقصيدة العربية واعتماده البحور الخليلية المعروفة فلم تسلم من العيوب خاصة تلك التي أنشدها في التصوف لانعدام حالة الوعي أو ما يسمى بالشطحات الصوفية . وقد وفق الشاعر في موسيقاه الداخلية أحيانا واستطاع خلق نغم يتلاءم مع حالته الشعورية لسبق عواطفه وحقيقة معاناته خاصة حين يتحدث عن الفراق وعذاب الأسر والحنين الى الأهل .

– أما صوره فأغلبها تقليدي مستهلك لم يكلف الشاعر نفسه كثيرا عناء الابتكار

والتجديد فاعتمد على حاستي السمع والبصر فافتقدت صوره – بذلك – الوهج والحركة والنماء والحياة ففتر فيها الإحساس والإثارة . وعلى الرغم من ذلك فإن للأمير أشعاراً لعب الخيال فيها دوراً هاماً خاصة تلك التي تحدث فيها عن مشاعر البين والشوق والمعاناة ومرد ذلك فيما نحسب إلى صدق معايشة الشاعر وتجاربه وانفعالاته إلى جانب اعتماد بعض أشعاره في التصوف على الإيحاء والرمز حيث يوحي بالفكرة ولا يصرح بها .

أما عن الخصائص الفنية في نثره فقد توصلت الدراسة إلى الكشف بأن الأمير يصدرفي بناء نثره وأسلوبه على مصدريه الأساسين : القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف سواء في مؤلفاته أو في رسائله . فلا يكاد يخلص له نص نثري من آية أو حديث يسوقه الأمير تدعيما لرأيه وحجة قوية للإقناع والإمتاع .

وإلى جانب هذا زخر نثر الأمير بالموروث من الشعر والحكم والأمثال واستعراض لأهم الكتب التي درَسها ودرَّسها وهو ينفرد بحسن استخدامها والإستشهاد بها مع براعة في الإقتباس توحي بما كان يتمتع به أديبنا من ثقافة واسعة واطلاع كبير في شتى العلوم الشرعية والأدبية والعلمية والفلسفية .

وبينت الدراسة مدى توفيق الأمير وحسن احتجاجه بهذه الأدلة بما فيها الكتب المقدسة التي دمغت حجج خصومه وردت افتراءاتهم . وإلى جانب ذلك تعددت خصائص الأمير الفنية في نثره فإذا هو يلجأ إلى إطالة الحوار والاسترسال في الموضوعات التي تتطلب ذلك ، تساعده ثروة لغوية سليمة فصيحة وحرص شديد منه على التعليم والإفادة وهو ما دعاه إلى انتقاء عباراته وألفاظه فإذا هي سهلة ميسرة للفهم – في الغالب – تمتاز بالدقة والابتعاد عن الغريب الصعب من القول في نسق مرتب الأفكار منتظم المعلومات مع إيراد الحجة والبينة في موضعها .

كما لاحظت الدراسة غلبة النبرة الخطابية في نثر الأمير - وخاصة رسائله - لأنها طريقة مخاطبة الغير والحديث إليهم والإجابة عما يسألون بأسلوب جميل موشى بالسجع وإن لم يتكلف فيه غالبا، وكثيرا ما يضمن أسلوبه التهكم والسخرية إن لزم الأمر ذلك . كما نلمس في نثر الأمير ميزة الوضوح لتقريب الفكرة وصدق مع النفس ومع الغير حيث برز ذلك جليا في مؤلفاته ورسائله أياً كان الموضوع .

تلكم هي أهم النتائج التي تمخضت عن هذه الدراسة التي حاولت أن تميط اللثام عن جوانب هامة من حياة وشخصية الأمير العالم المجاهد فاستعانت بما تيسر لها من أسانيد وسلكت في سبيل تحقيق الغاية كل السبل . فإن كان البحث قد بلغ مرامه المنشود فتلك - لعمري - الغاية التي كنا نبغي والفضل لله أولا وأخيرا وإن قصر به الجهد عن تحقيق ذلك فحسبه أنه حاول وعمل واجتهد .

ويبقى عبدالقادر مجالاً خصباً يغري الباحثين والدارسين لأننا -على يقين- أننا لم نقرأ الرجل بعد، وأن قراءتنا له لازالت قاصرة عن إدراك كل الحقائق المتعلقة بهذ الشخصية.

وما الكمال إلا لله عليه توكلت وإليه أنيب .

****

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ط ٣ – ١٩٦٥ .

إحسان حقي : الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، منشورات المكتب التجاري، بيروت ط ١– ١٩٦١ .

أحمد أمين : النقد الأدبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٧ .

أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤ .

هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية بالتعاون مع الإتحاد العربي للطباعة والنشر .

أحمد الشايب : الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط ٢– ١٩٥٧ .

أحمد عبدالسيد الصاوي : فن الاستعارة، دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٩ .

أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣ .

أديب حرب : التاريخ العسكري والإداري للأمير عبدالقادر الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٣ .

إسماعيل العربي : المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبدالقادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط٢– ١٩٨٦ .

العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبدالقادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٨ .

إيليا حاوي : فن الوصف، دار الشرق الجديد، بيروت ١٩٦٠ .

بكري شيخ أمين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣–١٩٨٠ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨ .

ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق : محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل بيروت، ط - ٤ ١٩٧٢ .

أبوالطيب المتنبي : الديوان، شرح أبي العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان، دار العودة، بيروت ١٩٧٨ .

أبوعبدالله الحسين بن أحمد الزوزني :

شرح المعلقات السبع، دار الجبل للنشر والتوزيع، بيروت، مكتبة المحتسب، عمان ط ٢-١٩٧٣ .

أبوالعلاء المعري : تنوير سقط الزند، مطبعة بولاق المصرية .

أبوالقاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨١ .

محمد الشاذلي القسنطيني (١٨٠٧- ١٨٧٧) دراسة من خلال رسائله وشعره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٤ .

أبونواس الحسن بن هاني : الديوان، تحقيق وضبط شرح : أحمد عبدالمجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت.

الجاحظ عمرو بن عثمان : البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت .

جواد المرابط : التصوف والأمير عبدالقادر الجزائري الحسيني،دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق ١٩٦٦ .

جوليت وفرانسيس جونسون

: الجزائر الثائرة، ترجمة : محمد علوي الشريف، محمد خليل فهمي، هنري يوسف، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٧ .

حسان بن ثابت : الديوان، تحقيق د. سيد حنفي حسنين، مراجعة : حسن كامل الصيرفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤ .

حسن البوريني، عبدالغني النابلسي

: شرح ديوان ابن الفارض، دار التراث، بيروت.

رمضان حمود : بذور الحياة، مكتبة الاستقامة تونس.

زكي مبارك : المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة .

زهير بن أبي سلمى : الديوان : تحقيق وشرح : كرم البستاني، دار صادر، بيروت .

ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت ط٢– ١٩٦٥ .

سيد الجميلي : التصوف السني، دار المسلم، القاهرة ١٩٨٤ .

سيد قطب : النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، دار الشروق، بيروت .

شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبدالقادر، ترجمة وتعليق : د . أبوالقاسم سعدالله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٦ .

شكري محمد عياد : موسيقى الشعر العربي، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٥ .

عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

عبد الحميد جيده : الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت ط ١– ١٩٨٠ .

عبدالقادر الجزائري : الديوان : شرح وتحقيق د. ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت ١٩٦٤ .

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل : تحقيق وتقديم د. ممدوح حقي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٢ .

كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، دار اليقظة العربية، دمشق ١٩٦٦ .

مذكرات الأمير عبدالقادر : تحقيق د. محمد الصغير بناني، د.محفوظ السماتي، د. محمد الصالح الجون، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ط ٣– ١٩٩٨ .

المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، دار مكتبة الحياة، بيروت .

عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨١

عبد الله شريط، محمد الميلي
: الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث، الجزائر ط ١– ١٩٦٥ .

عثمان موافي : في نظرية الأدب : من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم والحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٤

عز الدين اسماعيل : الشعر العربي : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة بيروت، ط ٣ – ١٩٨١

الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، بيروت ط ٤ –١٩٦٨ .

عفيف عبدالرحمان : الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، دار الأندلس، بيروت ط ١ –١٩٨٤

علي البطل : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، بيروت ط ٢ – ١٩٨١

علي الخطيب : اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة.

عمر الدسوقي : الأدب الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت ط ٢ –١٩٦٠

عنترة بن شداد : الديوان، تحقيق وشرح عبدالمنعم الرؤوف شلبي، شركة فن الطباعة القاهرة.

فؤاد صالح السيد : الأمير عبدالقادر متصوفاً وشاعراً، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٥

قدامة بن جعفر : لغة النثر، تحقيق طه حسين، عبدالحميد العبادي، دار الكتب، القاهرة.

قدور بن رويلة : وشاح الكتائب وزينة الجند المحمدي الغالب ويليه ديوان العسكر المحمدي الماياني . تقديم وتحقيق محمد بن عبدالكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٦٨ .

كولردج : النظرة الرومانتيكية في الشعر، ترجمة عبدالحكيم حسان، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١ .

لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي، دار الفكر بيروت ط ٤ –١٩٧٣

محمد بن عبدالقادر : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر، شرح وتعليق د.ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت ط ٢ –١٩٦٤ .

محمد بن مبارك الهلالي الميلي

: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مطبعة النهضة العربية، الجزائر ١٩٦٤ .

محمد حسن عبدالله : الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة ط ١ –١٩٨١ .

محمد رشدي الجندي : قصة كفاح الشعب الجزائري في سبيل حريته واستقلاله من فجر التاريخ حتى اليوم، مكتبة الاقتصاد، سورية .

محمد رضوان الداية : شاعر رثاء الأندلس أبي البقاء الرندي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٦ .

محمد السيد الوزير : الأمير عبدالقادر الجزائري، ثقافته وأثرها في أدبه، مكتبة الملك فيصل الإسلامية، مصر ١٩٨٤ .

محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨١

محمد الطيب العلوي : مظاهر المقاومة الجزائرية من عام ١٨٣٠ حتى ثورة نوفمبر ١٩٥٤، دار البعث الجزائر ط ١ –١٩٨٥

محمد عبدالغني الشيخ : النثر الفني في العصر العباسي الأول : اتجاهاته وتطوره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٣ .

محمد عبدالمنعم خفاجي : الأزهر في ألف عام، المطبعة المنيرية بالأزهر، القاهرة ١٩٥٥ .

محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، دار العودة، لبنان ١٩٨٣ .

محمد محمود زيتون : كفاح الجزائر، الوكالة العربية للدعاية والنشر الإسكندرية .

محمد مصطفى بدوي : سلسلة نوابغ الفكر العربي، كولردج، دار المعارف القاهرة .

محمد مندور : الأدب وفنونه، دار المعرفة القاهرة محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٥٨ .

محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث: اتجاهاته وخصائصه الفنية (١٩٢٥، ١٩٧٥)، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط ١ –١٩٨٥ .

محمد النويهي : الشـعر الجاهلـي : منهـج في دراسته وتقويمه، الدار القومية، مصر ١٩٦٩ .

مصطفى طلاس : فارس الصحراء : الأمير عبدالقادر، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ط ٢ -١٩٨٤ .

مصطفى ناصف : الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت ط ٣ -١٩٨٣ .

مصطفى نويصر : الأمير عبدالقادر في ذكراه المئوية، لمحة تاريخية وببليوغرافية، وزارة الثقافة والسياحة الجزائر ١٩٨٤ ، الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبدالقادر (١٨٨٣ -١٩٨٣) المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر١٩٨٤ .

يحيى بو عزيز : الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري، دار الكتاب، مطابع الفكر، دمشق ط ٢ -١٩٦٤ .

ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، الجزائر ط ١ -١٩٨٠ .

يحيى بو عزيز، ميكائيل دو إيبالزا

: الجديد في علاقات الأمير عبدالقادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بمليلة، مطبعة البعث، الجزائر ١٩٨٢ .

****

المجـــلات والدوريـــات:

مجلة ألوان : وزارة الثقافة الجزائر – ١٩٨٣ .

مجلة آمال : وزارة الثقافة الجزائر –١٩٩٠ .

مجلة التاريخ : المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبدالقادر (عدد خاص) ١٩٨٣ .

مجلة الثقافة : وزارة الثقافة الجزائر .

مجلة الحقائق : دمشق، سورية .

مجلة الرسالة : مصر .

مجلة سيرتا : معهد العلوم الإجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر.

مسالك : مؤسسة الأمير عبدالقادر، الجزائر .

عالم الفكر : وزارة الإعلام الكويتية.

مجلة الشهاب : الجزائر.

المراجــع الأجنبيـــة:

- EMIR ABDELKADER ECRITS SPIRITUELS PRESENTES ET TRADUITS DE L ARABE PAR MICHEL,CHODKIEWCZ EDITION DU SEUIL PARIS 1982
- EMIRET . M: ESSAI D UNE MARINE MARCHANDE BARBARESQUE AU 18 SIECLE, PARIS 1955
- ESENBETH . M: LES JUIFS EN ALGERIE ET EN TUNISIE A L EPOQUE TURQUE 1516 - 1830 PARIS
- LAROUSSE GRAND LAROUSSE ENCYCLOPEDIQUE, PARIS 1960
- PHILIPPE D . L: EMIR ABDELKADER LE CROYANT LIBRAIRIE ARTHEME PARIS
- PAUL A . L EMIR ABDELKADER 1805 - 1883 DU FANATISME MUSULMAN AU PATRIOTISME , FRANCAIS LIBRAIRIE HACHETTE PARIS
- ROBERT A: HISTOIRE DE L ALGERIE CONTEMPORAINE PRESSE UNIVERSITAIRE PARIS 1980
- ROZET M . P: VOYAGE DANS LA REGENCE D ALGER OU DISCRIPTION AU PAYS OCCUPE ,PAR L ARME FRANCAISE EN AFRIQUE EDITION, BERTAND, PARIS

****

الهــوامــش

١ - د.محمد طه الحاجري جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر معهد البحوث والدراسات العربية – القاهرة ١٩٦٨ ص ١٦ .

٢ - محيي الدين بن مصطفى الجزائري الحسيني (١١٩٠-١٢٤٩هـ ١٧٧٦/-١٨٣٣م) نشأوتفقه على يد علماء أسرته، رحل الى مستغانم وأخذ عن علمائها، له مؤلف في التصوف بعنوان (إرشاد المريدين) انظر: تحفة الزائر ج ٢ ص ٩٣٠-٩٣٢ .

٣ - محمد بن عبدالقادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر شرح وتعليق د.ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بيروت ط ٢ ج ٢ ص ٩٣٠ .

٤ - فؤاد صالح السيد : الأمير عبدالقادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٥ ص٢٨ .

٥ - EMIR ABDELKADER ECRITS SPIRITUELS PRESENTES ET TRADUITS DE L ARABE PAR MICHEL CHODKIEWICZ EDITIONS DU SEUIL PARIS 1982 P 25S

٦ - إحسان حقي : الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، منشورات المكتب التجاري، بيروت ط ١ – ١٩٦١ ص٧٤ .

٧ - PHILIPPE D ESTAILLEUR - CHANTERAINE L EMIR MAGNANIME ABDEL-KADER LE CROYANT LIBRAIRIE ARTHEME FAYARD PARIS 1959 P 19

٨ - محمد بن عبدالقادر الجزائري تحفة الزائر ج ٢ ص ٩٢٣ وذكر فيه المؤلف أنه تلقى هذه النسب من فم الأمير نفسه.

٩ - ناصر الدين : لقبه به أبوه بعد مبايعته بالإمارة .

١٠ - الأمير اللقب الذي اشتهر به عبدالقادر وبقي ملازما له طول حياته وبعدها .

١١ – الجزائري أحد الألقاب التي يعتز بها عبدالقادر خصوصا بعد نفيه .

١٢ – ابن الراشدي – ابن خلاد لقبان لقب بهما نفسه في بعض اشعاره انظر: الديوان ص ٥٣ .

١٣ – محمد بن عبدالقادر الجزائري المصدر نفسه ج٢ ص ٥٢٣، واتفق أغلب الدارسين في ذلك منهم ممدوح حقي الديوان –طه الحاجري فؤاد صالح السيد – تشرشل .

١٤ – شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبدالقادر ترجمه وقدم له وعلق عليه د.أبوالقاسم سعد الله الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط ٢–١٩٨٢ ص ٣٩ .

١٥ – تشرشل المصدر نفسه ص٣٩ .

١٦ – نفسه ص٤٠ .

١٧ – تشرشل المصدر نفسه ص ٤٠

١٨ – أحمد جريري نبذة عن حياة الأمير عبدالقادر مجلة ألوان وزارة الثقافة والسياحة ع ٧٥ –١٩٨٣ ص ٢٨ .

١٩ – هي السيدة لالة خديجة بنت عمه علي ابي طالب .

٢٠ – تشرشل المصدر نفسه ص ٤٢ .

٢١ – نفسه ص ٤٠ .

٢٢ – تشرشل المصدر نفسه ص ٤٠ .

٢٣ – يحيى بو عزيز : الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري، دار الكتاب الجزائري، مطابع دار الفكر دمشق ط ٢ –١٩٦٤ ص ١٥٠ .

٢٤ – تشرشل : نفسه ص ٤٢ .

٢٥ – من ١٢٣٩ الى ١٢٤١ هـ الموافق لـ ١٨٢٣ – ١٨٢٥ م.

٢٦ – تشرشل : المصدر نفسه ص ٤٤ .

٢٧ – PHILIPPE DESTAILLEUR CHANTERAINE OP CIT P 24

٢٨ – محمد علي باشا ابراهيم ١١٨٤–١٢٦٥ هـ – ١٧٧٠–١٨٤٩م ألباني الاصل أصبح واليا على مصر ١٢٢٠هـ – ١٨٠٥م

٢٩ - محمد السيد الوزير: الامير عبدالقادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، مكتبة الملك فيصل الإسلامية ١٩٨٤ ص ٢٢ .

٣٠ - YACINE KATEB : ABD EL KADER ET L INDEPENDANCE ALGERIENNE .ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE ALGER 1984 P 10

٣١ - محمد السيد الوزير: نفسه ص ٢٤.

٣٢ - هو عبدالقادر بن موسى بن عبدالله الحسني محيي الدين الجيلاني ٤٧١-٥٦١ هـ/ ١٠٧٨ -١١٦٦ مؤسس الطريقة القادرية.

٣٣ - محمد بن عبدالقادر : تحفة الزائر ج ٢ ص ٩٣٢ .

٣٤ - يحيى بو عزيز المرجع السابق ص ٤٣ .

٣٥ - رابح بو نار: الأمير عبدالقادر وحياته - مجلة أمال - وزارة الثقافة ع ٨ / ١٩٧٠ ص ١٤ .

٣٦ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٢٠ .

٣٧ - المرجع نفسه ص ٢٠-٢١ .

٣٨ - احسان حقي الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد منشورات المكتب التجاري بيروت ط ١ -١٩٦١ ص ٦٥ .

٣٩ - احسان حقي المرجع السابق ص٦٥ .

٤٠ - كوليت وفرانسيس جونسون : الجزائر الثائرة ترجمة محمد علوي الشريف، محمد خليل فهمي، هندي يوسف دار الهلال القاهرة ١٩٥٧ ص ٣٠ .

٤١ - محمد بن عبدالقادر تحفة الزائر ج ١ص ٤٦ .

٤٢ - المصدر نفسه ص ٤٦ .

٤٣ - تشرشل المصدر السابق ص٥٦ .

٤٤ - محمد بن عبدالقادر: المصدر السابق ص ١٥٥ .

٤٥ - نفسه ج ١ ص ١٥٥ .

٤٦ - يحيى بو عزيز المرجع السابق ص ٤٦،أما عند تشرشل فبتاريخ ٢١ نوفمبر ١٨٣٢، وعند فؤاد صالح السيد في ٣ رجب ١٢٤٨ -٢٧ نوفمبر ١٨٣٢ .

٤٧ - محمد بن عبدالقادر: المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٧ .

٤٨ - المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٧ راجع النص الكامل للبيعة في صفحات ١٥٧ -١٥٨ -٢٥٩

٤٩ - نفسه ج ١ ص ١٦٥ راجع وانظر: النص الكامل للبيعة الثانية في صفحات ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ .

٥٠ - عبدالرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر ١٩٨٦ ج ٤ ص ٧٠ .

٥١ - الأمير عبدالقادر الجزائري: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل تحقيق وتقديم د.ممدوح حقي مكتب الخانجي القاهرة ١٩٧٢ مقدمة الكتاب ص ١٦ .

٥٢ - أديب حرب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبدالقادر الجزائري ش،و، ن، ت، الجزائر ١٩٨٣ ج ٢ ص ٤٠ .

٥٣ - د.صالح خرفي: شعر المقاومة الجزائرية ص٩١ .

٥٤ - لوثروب ستودارد :حاضر العالم الإسلامي نقله الى العربية الأستاذ حجاج نويهض دار الفكر بيروت ج ١، ط٤ ١٩٧٣ ص ٧٠ .

٥٥ - محمد بن عبدالقادر : تحفة الزائر ج ١ ص ١٦٦ .

٥٦ - أديب حرب: المرجع السابق ج ١ ص ٤٠ .

٥٧ - محمد بن عبدالقادر: نفسه جزء واحد ص ١٦٦ .

٥٨ - تشرشل: حياة الأمير عبدالقادر ص ٢٣ .

٥٩ - اسماعيل العربي: أعلام السياسة والحرب، الأمير عبدالقادر الجزائري مؤسس دولة وقائد جيش - مديرية الدراسات وإحياء التراث - الجزائر ١٩٨٤ ص ٢٢ .

٦٠ - عبدالرحمان محمد الجيلاني تاريخ الجزائر العام ج ٤ ص ٢٤١ .

٦١ - عبدالله شريط محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ ص ١٧٨ .

٦٢ - عبدالرحمان الجيلاني تاريخ الجزائر العام ج ٤ ص٢٤١ .

٦٣ - PAUL A. L EMIR ABDELKADER 1805 - 1883 DU FANATISME MUSULMAN AU PATRIOTISME P. 208 - FRANCAIS LIBRAIRIE HACHETTE PARIS.

٦٤ - مصطفى نويصر الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبدالقادر – وزارة الثقافة والسياحة الجزائر ١٩٨٤ص ٣٠-٣١ .

٦٥ - عبدالرحمان الجيلاني نفسه ج ٤ ص ٢٣٩ .

٦٦ - محمد بن عبدالقادر تحفة الزائر ج١ ص ٣١١ .

٦٧ - محمد السيد الوزير مرجع سابق ص ٤٨ .

٦٨ - مصطفى نويصر مرجع سابق ص ٣١ .

٦٩ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق ج ١ ص٣٠٩ .

٧٠ - مصطفى طلاس: فارس الصحراء الأمير عبدالقادر – طلاس للدراسات والترجمة والشر ط ٢ -١٩٨٤ ص ٢١١ .

٧١ - اسماعيل العربي: الأمير عبدالقادر مؤسس دولة وقائد جيش ص ٢٩ .

٧٢ - عبدالله شريط – محمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ ص ١٨٧ .

٧٣ - يحيى بوعزيز الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري ص ٥٢ .

٧٤ - محمد بن عبدالقادر: المصدر السابق ج ١ ص ١٨٨-١٨٩ .

٧٥ - مصطفى طلاس: المرجع السابق ص ٢١٠ .

٧٦ - محمد بن عبدالقادر: تحفة الزائر ج ١ ص ١٩١ .

٧٧ - محمد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية من عام ١٨٣٠ حتى ثورة نوفمبر ١٩٥٤ – دار البعث الجزائر ١٩٨٥ ط ١ ص ٣٧ .

٧٨ - محمد بن عبدالقادر: نفسه ص ١٩١ .

٧٩ - تشرشل: حياة الأمير عبدالقادر ص ١٤٥ .

٨٠ - قدور بن رويلة : وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب: تقديم وتحقيق محمد بن عبدالكريم ش،و،ن،ت الجزائر ١٩٦٨ ص ٥ .

٨١ - تشرشل المصدر السابق ص ١٤٠ .

٨٢ - نفسه ص ١٤٠ .

٨٣ - عبدالرحمان الجيلاني تاريخ الجزائر العام ج ٤ ص ٧٤ .

٨٤ - تشرشل نفسه ص ١٤٣ .

٨٥ - أديب حرب المرجع السابق ج ١ ص ٧٤ .

٨٦ - نفسه ج ١ ص ١٠ .

٨٧ - نفسه ج ١ ص ١١ .

٨٨ - محمد بن عبدالقادر: تحفة الزائر ج ١ ص ١٨٦ .

٨٩ - عبدالله شريط - محمد الميلي: المرجع السابق ص ١٨٨ .

٩٠ - عبدالرحمان الجيلاني المرجع السابق ج ٤ ص ٧٣ .

٩١ - PHILIPPE D. L EMIR ABDELKADER LE CROYANT LIBRAIRIE ARTHEME PARIS P. 146.

٩٢ - تشرشل: المصدر السابق ص ١٥٤ .

٩٣ - مصطفى طلاس: المرجع السابق ص ١٠٩ .

٩٤ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ٥١ .

٩٥ - أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر مكتبة النهضة المصرية - الاتحاد العربي للطباعة والنشر ص ٨٦ .

٩٦ - إحسان حقي: الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد ص ٧٥ .

٩٧ - يحيى بوعزيز: الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري ص ٥١ .

٩٨ - وقعت هذه المعاهدة بتاريخ ١٧ شوال ١٢٤٩ هـ / ٢٨ فبراير ١٨٣٤ انظر: نص المعاهدة في تحفة الزائر ج ١ ص ١٨٥ .

٩٩ - يحيى بوعزيز نفسه ص ٥٢ .

١٠٠ - هم أخلاط من العرب والأتراك كانوا يلوذون بالباي محمد حاكم معسكر للمزيد انظر: تحفة الزائر ج ١ ص ١٣٨ -١٣٩ .

١٠١ - يحيى بو عزيز المرجع السابق ص ٥٢ .

١٠٢ - يحيى بوعزيز نفسه ص ٥٥ -٥٦ .

١٠٣ - انظر: تفاصيلها في تحفة الزائر ج ١ ص ٢٣٨ .

١٠٤ - تشرشل المصدر السابق ص ٩٨ .

١٠٥ - إسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبدالقادر ص ٩٩ .

١٠٦ - كوليت وفرانسيس جونسون المرجع السابق ص ٣٣ -٣٤ .

١٠٧ - تافنا نهر بغرب الجزائر . وانظر: نص المعاهدة في تحفة الزائر ج٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ -٢٧٩ .

١٠٨ - انظر: تفاصيل اللقاء في تحفة الزائر ص ٢٧٩ -٢٨٢ وكذلك أبوالعيد دودو - الجزائر في مؤلفات الألمان ص ٤٢ -٥٤ .

١٠٩ - PHILIPPE D. L EMIR ABDELKADER LE CROYANT LIBRAIRIE ARTHEME PARIS P.

١١٠ - يحيى بوعزيز ثورات الجزائر في القرنين ١٩ -٢٠ دار البعث - الجزائر ١٩٨٠ ط ١ ص ٢٣ .

١١١ - محمد عبدالوهاب فايد: الأمير عبدالقادر وتحرير الجزائر، مجلة الرسالة س ١٤ / م ج ٢ -١٩٤٦ ص ٢٥ .

١١٢ - Kateb - Yacine. opcit p-64.

١١٣ - اسماعيل العربي: الأمير عبدالقادر مؤسس دولة وقائد جيش ص ٧٥ .

١١٤ - نفسه.

١١٥ - انظر: بنودها في تحفة الزائر ج ٢ ص ٤٤٩ .

١١٦ - يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر ص٣٢-٣٣.

١١٧ - الزوزني: شرح المعلقات السبع دار الجيل للنشر توزيع بيروت ١٩٧٣ ص ٨٩ .

١١٨ - انظر: نص الفتوى في تحفة الزائر ج ١ ص ٤٩٧ .

١١٩ - نفسه ج ١ص ٤٩٨ .

١٢٠ - نفسه ج ١ ص ٤٩٦ .

١٢١ - تحفة الزائر ج ١ ص ٤٩٨ .

١٢٢ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٥٠ .

١٢٣ - يحيى بوعزيز: الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري ص ٨٢ .

١٢٤ - الطاهر بن عائشة: جوانب حساسة في حياة الأمير عبدالقادر مجلة ألوان الجزائر ١٩٨٣ ع ٥٤ ص٣٠ .

١٢٥ - محمد بن عبدالقادر المصدر نفسه ج ٢ ص ٥١١ .

١٢٦ - نفسه ج ٢ ص ٧٢ .

١٢٧ - انظر: نص التعهد في تحفة الزائر ج ٢ ص ٥١٧ -٥١٨ .

١٢٨ - تشرشل المصدر السابق ص ٢٥٦ .

١٢٩ - نفسه ص ٢٥٧ .

١٣٠ - محمد بن عبدالقادر المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٤٢ .

١٣١ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٥٣ .

١٣٢ - نفسه ص ٥٣ .

١٣٣ - نفسه ص ٥٤ .

١٣٤ - نفسه ص ٥٦ .

١٣٥ - انظر: د.أبو القاسم سعد الله، محمد الشاذلي القسنطيني ١٨٠٧ -١٨٧٧ دراسة من خلال رسائله وشعره ش، و، ن، ت ١٩٧٤ .

١٣٦ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٧٣ .

١٣٧ - تشرشل المصدر السابق ص ٢٦٥ .

١٣٨ - تشرشل انظر: النص الكامل للوعد في ص ٢٦٥ .

١٣٩ - محمد السيد الوزير المرجع نفسه ص ٦٣ .

١٤٠ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق ج ٢ ص٧٥٧ .

١٤١ - انظر: القصيدة في الديوان ص ١٥٥ وفي تحفة الزائر ج٢ ص٥٧٦ .

١٤٢ - الديوان ص ١٥٥ .

١٤٣ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق ج ٢ ص ٥١٨ .

١٤٤ - تشرشل المصدر السابق ص ٣٥٧ .

١٤٥ - جواد المرابط : التصوف والأمير عبدالقار الحسني الجزائري دار اليقظة دمشق ١٩٦٦ ص ١٣٥ .

١٤٦ - تشرشل المصدر السابق ص ٢٧٨ .

١٤٧ - نفسه ص ٢٧٨ .

١٤٨ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٧٩ .

١٤٩ - نفسه ص ٨٠ .

١٥٠ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٨٠ .

١٥١ - نفسه ص ٨٤ .

١٥٢ - نفسه ص ٨٤ .

١٥٣ - يحيى بوعزيز: الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري ص ٧١ .

١٥٤ - جواد المرابط المرجع السابق ص ٤٦ .

١٥٥ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق ج ٢ ص٦٣٣ .

١٥٦ - تشرشل المصدر السابق ص ٢٨٤ .

١٥٧ - نفسه ص ٢٨٦ .

١٥٨ - تشرشل المصدر السابق ٢٦٨ .

١٥٩ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٦ .

١٦٠ - يحيى بوعزيز الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري ص ٧٢ .

١٦١ - محمد بن عبدالقادر نفسه ج ٢ ص ٦٦١ .

١٦٢ - نفسه ج ٢ ص ٨٦٦ .

١٦٣ - الديوان ص ١٨٣ .

١٦٤ - محمد بن عبدالقادر نفسه ج ٢ ص ٧٠٤ .

١٦٥ - فؤاد صالح السيد: الأمير عبدالقادر الجزائري متصوفا وشاعرا ص ٧٦ .

١٦٦ - الطاهر بن عائشة الجوانب الحساسة في حياة الأمير عبدالقادر - ألوان - ع ٥٤ ص ٣٠ .

١٦٧ - الأمير محمد بن سعيد الجزائري : الأمير عبدالقادر والجمعية الماسونية، مجلة الحقائق دمشق ١٩٢٩ هـ، مج ٢ ج ٢ص ٧٨ .

١٦٨ - الطاهر بن عائشة نفسه ص ٣٠ .

١٦٩ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق ج ٢ ص ٧١٨ .

١٧٠ - جواد المرابط المرجع السابق ص ٥٠ .

١٧١ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٧٨ .

١٧٢ - محمد بن عبدالقادر نفسه ج ٢ ص ٨٠٧-٨٠٨ .

١٧٣ - محمد بن عبدالقادر ج ٢ ص ٨٥٦ .

١٧٤ - نفسه ج ٢ ص ٨٥٨ .

١٧٥ - انظر: قصائد الرثاء ورسائل التعازي في تحفة الزائر ج ٢ ص ٨٦٣ الى ٩٢٢ .

١٧٦ - د.صالح خرفي: في ذكرى الأمير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط ١٩٨٤- ص ٣١ .

١٧٧ - د.محمد السيد الوزير: الأمير عبدالقادر الجزائري، ثقافته وأثرها في أدبه، ص١٥٨-١٥٩ .

١٧٨ - د.محمد السيد الوزير : المرجع السابق، ص١٢٠-١٢١ .

١٧٩ - د.صالح خرفي: المرجع السابق، ص ٦٧-٦٨ .

١٨٠ - نفسه، ص٦٧ .

١٨١ - محمد طه الحاجري : جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر،ص ٣٧ .

١٨٢ - ممدوح حقي : مقدمة الديوان، ص ١٣ .

١٨٣ - أحمد الجندي : الأمير الشاعر، مجلة الثقافة، عدد خاص، السنة ١٣ الجزائر، ١٩٨٣- ص٣٢٠ .

١٨٤ - صالح خرفي المرجع السابق ص ٤٢ .

١٨٥ - الديوان، ص ٢٤ .

١٨٦ - الديوان : ص ٢٤ .

١٨٧ - البيضاء والصفراء: المال بنوعيه الذهب والفضة.

١٨٨ - الديوان :ص ٢٤ .

١٨٩ - الديوان : ص ٢٧ .

١٩٠ - الديوان: ص ٢٧ .

١٩١ - الديوان: ص ٢٧ .

١٩٢ - الديوان: ص ٢٨ .

١٩٣ - اللواء : العلم، والجملة كناية عن تمام الخضوع.

١٩٤ - ممدوح حقي : الديوان -الهامش، ص ٢٧ .

١٩٥ - عبدالله الركيبي: الشعر الدينى الجزائري الحديث، ص ٢١ .

١٩٦ - الديوان :ص ٢٧ .

١٩٧ - الأبيات تنسب الى الحجاج بن يوسف الثقفي.

١٩٨ - د.يحيى بوعزيز: الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري، ص ١٥٠ .

١٩٩ - صالح خرفي، في ذكرى الأمير، ص ٣٢ .

٢٠٠ - الديوان ص ٢٥ .

٢٠١ - الديوان ص ٢٦ .

٢٠٢ - د.بكري شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني دار الآفاق الجديدة بيروت ط٢ -١٩٨٠ -ص ١١٥ -١١٦ .

٢٠٣ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ١٧٦ .

٢٠٤ - الديوان ص ٣٢ .

٢٠٥ - الديوان ص ٣٢ -٣٣ .

٢٠٦ - نفسه ص٣٣ .

٢٠٧ - نفسه ص ٣٣ .

٢٠٨ - الديوان ص ٣٣ .

٢٠٩ - نفسه ص ٣٣ .

٢١٠ - نفسه ص ٣٣ .

٢١١ - نفسه ص٣٤ .

٢١٢ - الديوان ص ٣٤ .

٢١٣ - نفسه ص ٤١ -٤٢ .

٢١٤ - الديوان ص ٤٢ .

٢١٥ - نفسه ص ٤٥ .

٢١٦ - نفسه ص ٤٧ .

٢١٧ - الديوان ص ٤٧ .

٢١٨ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٢٦٩ -٢٧٠ .

٢١٩ - الديوان ص ٤٩ .

٢٢٠ - انظر: تشرشل: حياة الأمير عبدالقادر الفصل ١٦ .

٢٢١ - الديوان ص ٢٣ .

٢٢٢ - نفسه ص ٢٣ .

٢٢٣ - الديوان ص ٢٦ .

٢٢٤ - نفسه ص ٢٦ .

٢٢٥ - الديوان ص ٣٩ .

٢٢٦ - الخصر: شدة البرد على الأطراف.

٢٢٧ - الديوان ص ٤٩ .

٢٢٨ - السناء : الضياء، لوى :إنطفأ .

٢٢٩ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق، ص ٢٦٤ .

٢٣٠ - الديوان، ص ٢٣ .

٢٣١ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق، ص٣١ .

٢٣٢ - الديوان : ص ٤٤-٤٥ .

٢٣٣ - البصري : يعنى به الحسن البصري، أو ربما الخليل بن أحمد .

٢٣٤ - محمد السيد الوزير: نفسه، ص ١٤٠ .

٢٣٥ - يحيى بوعزيز: الأمير عبدالقادر رائد الكفاح الجزائري، ص١٥٣ .

٢٣٦ - د.بكرى شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ى ص ١٢٧ - ٢٣٧ .

٢٣٧ - محمد السيد الوزير : المرجع السابق، ص ٢٠٥-٢٠٦ .

٢٣٨ - الديوان، ص ٣٨-٣٩ .

٢٣٩ - غريس: اسم قبيلة كانت مؤيدة للأمير .

٢٤٠ - محمد السيد الوزير نفسه ص ١٣٩ .

٢٤١ - الديوان، ص ١٢٥-١٢٦-١٢٧ .

٢٤٢ - متمثلاً بقول حسان بن ثابت الشاعر المشهور:

بـيض الـوجـوه كـريمـة أحـسـابـهم

شم الأنـوف من الـطـراز الأول

انظر: ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، مراجعة حسن كامل الصيرفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤- ص ١٢٣ .

٢٤٣ - الديوان ص ١٢٧-١٢٨ .

٢٤٤ - الديوان، ص ١٢٨ .

٢٤٥ - يصطلى : يستدفئ بالنار، وهنا كتابة عن خوض المعارك ونار الحرب.

٢٤٦ - الديوان ص ٢٨ .

٢٤٧ - الديوان ص ١٢٨-١٢٩

٢٤٨ - مقول: اللسان

٢٤٩ - أدلج : مشى ليلا

٢٥٠ - الديوان ص ١٢٩-١٣٠

٢٥١ - الديوان ص ١٣٠

٢٥٢ – الديوان ص ١٣٠–١٣١

٢٥٣ – القذى : ما قرح العين أو الجفن مهما دق وضؤل

٢٥٤ – محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ١٦١

٢٥٥ – نفسه ص ١٦٢

٢٥٦ – ممدوح حقي : مقدمة الديوان ص١٠–١١

٢٥٧ – محمد بن عبدالقادر الجزائري تحفة الزائر، ص١٤٤ .

٢٥٨ – محمد بن عبدالقادر الجزائري المصدر السابق ج ٢ ص ٥٦١

٢٥٩ – ممدوح حقي مقدمة الديوان ص ١٠

٢٦٠ – محمد السيد الوزير المرجع السابق :ص ١٦٠

٢٦١ – عن محمد بن عبدالقادر : المصدر السابق ج٢ ص٧٤٢

٢٦٢ – محمد السيد الوزير، ص ٢١٤

٢٦٣ – الديوان ص٥٩

٢٦٤ – الديوان ص ٦٤–٦٥

٢٦٥ – الديوان ص٧٦

٢٦٦ – الديوان ص ٧٧

٢٦٧ – الديوان ص ٥٩

٢٦٨ – الديوان ص ٦٠

٢٦٩ – الديوان ص ٦٠

٢٧٠ – كلمة «باد» خبر لظل، ولكن الشاعر رفعها اتباعا للقافية والروى.

٢٧١ – الديوان ص ٥٥

٢٧٢ – الديوان ص٥٦

٢٧٣ – الديوان ص ٥٦–٥٧

٢٧٤ – الديوان ٥٨

٢٧٥ – الديوان ص ٥٨–٥٩

٢٧٦ – صاد: عطشان وكان حقها النصب على الحال فرفعت هنا تبعا للروي

٢٧٧ - الديوان ص ٦٠

٢٧٨ - الديوان ص٦٠

٢٧٩ - الديوان ص ٦٣

٢٨٠ - الديوان ص ٦٤

٢٨١ - للديوان ص ٦٥

٢٨٢ - الديوان ص٦٥

٢٨٣ - الديوان ص ٦٥

٢٨٤ - الديوان ص ٦٦

٢٨٥ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ١٦٧

٢٨٦ - الديوان ص ٥٣

٢٨٧ - الديوان ص ٥٤

٢٨٨ - هتور : مولع

٢٨٩ - وصف الشعراء قبله طول الليالي كالنابغة :

تـــطـــاول حـــتى قـــلت لـــيس بمـــنـــقض

ولـــيس الـــذي يـــرعى الـــنـــجـــوم بـــآيب

النابغة الذبياني : الديوان تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار بالمعارف ١٩٧٧ ص ٤٠

٢٩٠ - الديوان ص ٦٢

٢٩١ - سجال: متدفقة كما يتدفق الماء من السجل وهو الدلو

٢٩٢ - الديوان ص ٦٢

٢٩٣ - الديوان ص٦٥

٢٩٤ - الديوان ص ٧٠-٧١

٢٩٥ - الخال: الفارس

٢٩٦ - خال : فارغ

٢٩٧ - خال : بخل أو خيلاء وتكبر

٢٩٨ - الخال: المنزل الفارغ

٢٩٩ - الخال: المطر والسحابة الماطرة

٣٠٠ - الخال: الملازم للشيء لا ينفك عنه

٣٠١ - خال: ضعيف القلب

٣٠٢ - الخال: الرجل السمح الكريم

٣٠٣ - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل ط ٤ بيروت ١٩٧٢، ج٢ ص ٢٧٤

٣٠٤ - الديوان ص ٣٥

٣٠٥ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ٢٥٧

٣٠٦ - الديوان ص ٣٥

٣٠٧ - الديوان ص ٣٦

٣٠٨ - الهاتن: المطر الغزير

٣٠٩ - الديوان ص ٣٦

٣١٠ - من هؤلاء: الشاعر زهير بن أبي سلمى في معلقته:

تـبـصَّـر خـلـيـلـي هل تـرى من ضـغـائن
تحـمَّـلن بـالـعـلـيـاء من فـوق جـوشم

عـلـون بـأنمـاط عـتـاق وكـلّـة
وراد حـواشـيـهـا مـشـاكـهـة الـدم

أنظر: ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق وشرح كرم البستاني، دار صادر بيروت ص ١٠٢

٣١١ - عن د. بكرى شيخ أمين : مطالعات في الشعر المملوكي العثماني.

٣١٢ - الديوان ص ٣٧-٣٨

٣١٣ - السنطير : آلة موسيقية تشبه القانون يضرب على أوتارها بمطارق خشبية صغيرة

٣١٤ - الديوان ص ٣٨

٣١٥ - الوضر : القذر

٣١٦ - الديوان ص ٣٨

٣١٧ - أبو العلاء المعري : انظر: تنوير سقط الزند، مطبعة بولاق المصرية القاهرة ١٩٠٨،ج١ ص ٣٢

٣١٨ - تشبيه الصحراء بالبحر، والإبل كالسفن وصف في جملته تقليدي محض، يقول عبيد ابن الأبرص :

تـبـصـر خـلـيـلـي هل تـرى من ضـغـائن
يمـانـيـة قـد تـغـتـدي وتـروح
كـعـوم الـسـفـين في غـوارب لجـة
تـكـفّـئـهـا في مـاء دجـلـة ريح

انظر: ديوان عبيد بن الأبرص، دار صادر بيروت، ١٩٦٤-ص٤٧

٣١٩ - الديوان ص ٣٨

٣٢٠ - الديوان ص ٣٩

٣٢١ - الديوان ص ٤٠

٣٢٢ - الديوان ص ٤٠

٣٢٣ - المدح بما يشبه الذم

٣٢٤ - فؤاد صالح السيد: المرجع السابق ص ٢٥٧

٣٢٥ - الديوان ص ١٧٢

٣٢٦ - الديوان ص ١٧٢

٣٢٧ - الصفا : الحجر الأملس

٣٢٨ - الديوان: ص ١٧٣

٣٢٩ - الزبد: من أنواع المسك

٣٣٠ - الأزفر : القوي الرائحة

٣٣١ - الديوان ص ١٧٣

٣٣٢ - الرصافة : مصيف هارون الرشيد قرب الرقة على نهر الفرات، السدير: قصر مشهور للملوك المناذرة في العراق

٣٣٣ - شعب بوان : من أجمل غوطات فارس، ذكره المتنبى في قصيدة مشهورة :

يـقـول بـشـعـب بـوان حـصـاني
أعن هـذا يـسـار إلى الـطـعـان؟

أبـــــــوكـم آدم سـنَّ المــــــــعــــــــاصـي
وعـــلـــمـــكم مـــفـــارقـــة الجـــنـــان

انظر: الديوان : أبي الطيب المتنبي، بشرح أبى البقاء العبكري، المسمى بالتبيان في شرح

٣٣٤ - الديوان ص ١٥٧

٣٣٥ - الديوان ص١٥٧-١٥٨

٣٣٦ - الديوان ص ١٥٨ . و(برسا) يشير إليها النص هي مدينة (بورصة) التركية

٣٣٧ - الديوان ص ١٥٨ .

٣٣٨ - الديوان ص١٥٩

٣٣٩ - نارباش : اسم مكان في برسا

٣٤٠ - الديوان، ص ١٦٠

٣٤١ - الديوان ص ١٥٥

٣٤٢ - الديوان ص١٥٥

٣٤٣ - الديوان ص ١٥٦

٣٤٤ - دروس : جمع دارس وهو الطلل

٣٤٥ - الديوان ص ١٦٩

٣٤٦ - الديوان ص ١٧٧

٣٤٧ - الديوان ص ١٧٦

٣٤٨ - الديوان ص١٣٩

٣٤٩ - الديوان ص ١٣٩-١٤٠

٣٥٠ - البين: السفر-البعد

٣٥١ - الجوى: الحزن

٣٥٢ - الديوان ص ١٤٠

٣٥٣ - قدامة بن جعفر نقد النثر: تحقيق طه حسين وعبدالحميد العبادي دار الكتب القاهرة ١٩٣٣ ص ٧٧

٣٥٤ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ٢٦٧

٣٥٥ - فؤاد صالح السيد : الأمير عبدالقادر الجزائري متصوفا وشاعرا ص ٢٣٨

٣٥٦ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ١٨٥

٣٥٧ - فؤاد صالح السيد نفس المرجع ص ٢٣٩

٣٥٨ - الديوان ص ٨٤-٨٥

٣٥٩ - محمد السيد الوزير : المرجع السابق ص ١٨٠

٣٦٠ - نفسه ص ١٨٠

٣٦١ - الديوان ص ٨٥

٣٦٢ - الديوان ص ٨٥

٣٦٣ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ١٨٠

٣٦٤ - الديوان ص ١٨٣

٣٦٥ - ينادي بها نفسه فرحا بالسعادة التي نالها باللقاء مع شيخه الصوفي

٣٦٦ - الديوان ص ١٨٧

٣٦٧ - عمة: عمامة

٣٦٨ - عذبة: ذيل العمامة، وارسال العذبة من العمامة مظهر من مظاهر الوجاهة يطلقها العلماء والكبار المعروفون

٣٦٩ - الديوان ص ١٨٨

٣٧٠ - الديوان ص ١٨٨

٣٧١ - الغضنفر: الأسد

٣٧٢ - الديوان ص ١٨٨-١٨٩

٣٧٣ - الديوان ص ١٨٩

٣٧٤ - القرآن الكريم سورة الجمعة آية ٤ " ذلك فضل الله يؤ تيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم"

٣٧٥ - الديوان ص ١٩٠

٣٧٦ - الديوان ص ١٩٠

٣٧٧ - الديوان ص ١٩٠ -١٩١

٣٧٨ - فؤاد صالح السيد: المرجع السابق ص ٢٤٤

٣٧٩ - محمد السيد الوزير: نفسه ص ١٨٣

٣٨٠ - الديوان ص ١٤١ -١٤٣

٣٨١ - الديوان ص ١٤٢ -١٤٣

٣٨٢ - نفسه ص ١٤٣ -١٤٤

٣٨٣ - أنوال : جمع نوال وهو العطاء

٣٨٤ - الديوان ص ١٤٤

٣٨٥ - الديوان ص ١٤٤-١٤٥

٣٨٦ - الديوان ص ١٤٥

٣٨٧ - نفسه ص ١٤٥

٣٨٨ - نفسه ص ١٤٥ -١٤٦

٣٨٩ - الديوان ص ١٤٦

٣٩٠ - الديوان ص ١٤٧ .

٣٩١ - الديوان ص ١٤٨

٣٩٢ - الديوان ص ١٣٩

٣٩٣ - سمر الخط : الرماح السمراء المنسوبة إلى الخط وهي قرية في الخليج العربي

٣٩٤ - يستمد هذا البيت من أبي البقاء الرندي في مرثية الأندلس حيث قال :

يــــاراكـــبـــين عـــتـــاق الخـــيل ضـــامـــرة

كـــأنـــهـــا في مـــجـــال الـــســـبق عـــقـــبـــان

انظر: الديوان ص ٨٧

٣٩٥ - الديوان ص١٥٠

٣٩٦ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ١٨٣

٣٩٧ - الديوان ص ١٥٢ -١٥٣

٣٩٨ - نفسه ص ١٥٣

٣٩٩ - نفسه ص ١٥٤

٤٠٠ - فؤاد صالح السيد المرجع السابق ص ٣٤٨

٤٠١ - الديوان، ص١٠٩

٤٠٢ - الديوان، ص ١١٠

٤٠٣ - الديوان ص١١٥

٤٠٤ - الديوان ص ١١٦

٤٠٥ - الديوان ١١٦

٤٠٦ - عبدالكريم الحمزاوي: من وجهاء دمشق وشعرائها المعاصرين للشاعر، له ديوان شعر

٤٠٧ - الديوان ص ١٦١

٤٠٨ - اللائي : اسم موصول لجمع مؤنث، والشاعر استخدمها هنا لجمع الذكور وهو استخدام غريب .

٤٠٩ - ديوان أبو الطيب المتنبي بشرح أبى البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨ ج ٣ ص ٣٩٦

٤١٠ - الديوان ص ١٦٣ .

٤١١ - الديوان ص ١٦٧-١٦٨

٤١٢ - الأمير عبدالقادر الجزائري: كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد - دار اليقظة العربية دمشق مج ١ موقف ٧١ ص ١٤١

٤١٣ - نفسه مج ٢ موقف ٢٠٩ ص ٤٢٨

٤١٤ - فؤاد صالح السيد المرجع السابق ص ١١٦

٤١٥ - تشرشل : حياة الأمير عبدالقادر ص ٤٠

٤١٦ - تشرشل : المصدر السابق ٢٨٥

٤١٧ - د. تركي رابح عمامرة : الأمير عبدالقادر الجزائري، البيئة الثقافية والتربوية التي نشأ فيها واثرها في تكوين شخصيته، مجلة عالم الفكر -مج ١٢،ع١،ص٢٥٠

٤١٨ - الأمير عبدالقادر الجزائري : المواقف ج ٢، موقف٢٧٦-ص٨٢٥

٤١٩ - الأمير عبدالقادر الجزائري: المواقف ج ٢، موقف ٢٧٦ص ٨٦٢

٤٢٠ - الأمير عبدالقادر الجزائري، نفسه، موقف ٢٧٢-ص٨٦٢

٤٢١ – فؤاد صالح السيد : المرجع السابق ص ١٢٥

٤٢٢ – الأمير عبدالقادر الجزائري : كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، مج ١، ص٤٧١-٤٧٣

٤٢٣ – المصدر نفسه، مج ١-ص٤٧٢

٤٢٤ – فؤاد صالح السيد : المرجع السابق ص ١٣٣

٤٢٥ – نفسه ص ١٣٣

٤٢٦ – محمد السيد الوزير : المرجع السابق ص ١٤٢

٤٢٧ – جواد المرابط : التصوف والأمير عبدالقادر الحسنى الجزائري، منشورات دار اليقظة العربية دمشق ١٩٢٢،ص ٢٦

٤٢٨ – محمد بن عبدالقادر الجزائري تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر، ص ٦٩٥

٤٢٩ – الديوان ص ١٨٣

٤٣٠ – ممدوح حقي : مقدمة الديوان، ص ١٥

٤٣١ – عبدالله الركيبي :الشعر الديني الجزائري ص ٢٥٣

٤٣٢ – د. عبدالله الركيبي المرجع السابق ص ٢٤١

٤٣٣ – نفس المرجع ص ٢٤٢

٤٣٤ – د. محمد ناصر : منتخبات من شعر الأمير عبدالقادر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٧١، ص ١٢

٤٣٥ – الديوان، ص ١٨٣ .

٤٣٦ – د. زكرياء عبدالرحمن صيام، الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبدالقادر . مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر عدد خاص ٢٩١. بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبدالقادر عدد ٧٥ماي – جوان ١٩٨٣، ص ٢٩١

٤٣٧ – د. محمد السيد الوزير : المرجع السابق ص ١٨٥

٤٣٨ – د. زكريا صيام : الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبدالقادر – مجلة الثقافة عدد ٧٥ ص ٢٩٥-٢٩٦

٤٣٩ – عن محمد السيد الوزير : المرجع السابق، ص ١٢٧

٤٤٠ - الديوان ص ١٧٥

٤٤١ - اعداد حجة : عدد كبير من السنين

٤٤٢ - ألست بربكم قالوا بلى: ويقصد بها البعد البعيد في الزمن الأزلي القديم.

٤٤٣ - الديوان ص ١٨٦

٤٤٤ - صفري : نحاسي

٤٤٥ - الإكسير : روح المادة

٤٤٦ - الديوان ص ١٨٧، ص١٨٩

٤٤٧ - الديوان ص ١٩٢-١٩٣

٤٤٨ - الديوان ص١٩٣

٤٤٩ - د. علي الخطيب : اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف مصر ص ١٤٨

٤٥٠ - الديوان ص ١٩٣-١٩٤

٤٥١ - الديوان ص ٩٤-٩٥

٤٥٢ - الديوان ص ١٩٤- ١٩٥

٤٥٣ - د. بكرى شيخ أمين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٢٥٧

٤٥٤ - الديوان، ص١٩٥

٤٥٥ - الديوان ص ١٩٥-١٩٦

٤٥٦ - الديوان ص ١٩٦

٤٥٧ - الديوان ص ١٩٢-١٩٧

٤٥٨ - الديوان، ص ١٩٧

٤٥٩ - الديوان ص ١٩٨

٤٦٠ - إشارة إلى قوله تعالى (تلك إذن قسمة ضيزى- سورة النجم آية ٢٢)

٤٦١ - الديوان ص ١٩٨-١٩٩

٤٦٢ - د. على الخطيب المرجع السابق ص ٤٨٧

٤٦٣ - د. بكري شيخ أمين : المرجع السابق،ص ٢٥٨

٤٦٤ - د. صابر عبدالدايم : الأدب الصوفي اتجاهاته وخصائصه، دار المعارف ط ٢ ١٩٨٤ ص١٨٠

٤٦٥ - د. بكري شيخ أمين المرجع السابق ٢٥٦-٢٥٧

٤٦٦ - د. على الخطيب المرجع السابق ص ٩٠

٤٦٧ - عن الدكتور على الخطيب المرجع السابق ص ٤٨

٤٦٨ - أبو الفتوح شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي الشافعي ٥٤٩ -٥٨٧هـ/ ١١٥٤-١١٩١م، ولد بسهرورد وتوفي مشنوقا في سجنه بقلعة حلب. حكيم صوفي فقيه اصولي أديب شاعر من تصانيفه : هياكل النور، حكمة الإشراق، والتنقيحات في أصول الفقه

٤٦٩ - ابن خلكان وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور. احسان عباس،ج ٢، دار الثقافة بيروت ١٩٦٨

٤٧٠ - فؤاد صالح السيد : المرجع السابق، ص ٢٣٣

٤٧١ - الديوان، ص١٠٢-١٠٣

٤٧٢ - ممدوح حقي الديوان تعليق على الهامش ص ٢٠٣

٤٧٣ - الديوان ص٢٠٣

٤٧٤ - الديوان ص ٢٠٣-٢٠٤

٤٧٥ - الديوان ص٢٠٤

٤٧٦ - الديوان ص ٢٠٤

٤٧٧ - الديوان ص ٢٠٥

٤٧٨ - الديوان ص ٢٠٥-٢٠٦

٤٧٩ - الديوان ص٢٠٦

٤٨٠ - الديوان ٢٠٧

٤٨١ - د. علي الخطيب اتجاهات الأدب الصوفي ص ٢١٤

٤٨٢ - الديوان ص ٢٠٧-٢٠٨

٤٨٣ - اللاعج : حرقة الحب

٤٨٤ - تئج: تتوقد وتزفر

٤٨٥ - أرواح : رياح

٤٨٦ - تناوح: تتلاعب بهبوبها من جهات مختلفة

٤٨٧ - الديوان ص ٢٠٨

٤٨٨ - هيمان : عطشان

٤٨٩ - الديوان ص ٢٠٩

٤٩٠ - د. بكرى شيخ أمين المرجع السابق ص ٢٥٩

٤٩١ - الديوان ص ٢٠٩

٤٩٢ - علي الخطيب المرجع السابق ص ٣٠٠-٣٠١

٤٩٣ - د. محمود قاسم من الموضوعات الأساسية في مذهب محيي الدين بن عربي - مجلة الثقافة عدد ١٩٨٣،٧٨-ص٨٧

٤٩٤ - د. بكري شيخ أمين المرجع السابق ص ٢٣٦

٤٩٥ - د. عبداله الركيبى : الشعر الديني الجزائري الحديث ص ٢٩٧

٤٩٦ - د. بكري شيخ امين نفس المرجع ص ٢٣٧

٤٩٧ - د. سيدالجميلي : التصوف السني - دار المسلم القاهرة،ط ١٩٨٤-ص ٥٤

٤٩٨ - جواد المرابط: التصوف والأمير عبدالقادر الجزائري الحسني، ص ٩٥

٤٩٩ - د. علي الخطيب : المرجع السابق،ص ٣٢٧-٣٢٨

٥٠٠ - الديوان ص ٢١١ .

٥٠١ - د. عبدالله الركيبي، نفس المرجع ص ٣٠٧

٥٠٢ - د. عمار طالبي: الأمير عبدالقادر والتصوف مجلة الثقافة عدد ٧٥-١٩٣٨، ص ٢٥٨

٥٠٣ - د. عمار طالبي: الأمير عبدالقادر والتصوف ٢٥٨

٥٠٤ - د. عبدالله الركيبي: المرجع السابق ص ٣٠٩

٥٠٥ - محمد السيد الوزير: الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته وأثره في أدبه ص ١٠٣

٥٠٦ - الأبيات ليست للأمير كما أوردها المحقق في ديوانه وإنما هي للزاهد الكبير عبدالله ابن مبارك، انظر: : د. محمد عبدالغني الشيخ : النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوراته، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٣- ص ٥٠

٥٠٧ - الديوان ص ٢٠٠

٥٠٨ - الديوان ٢٠٠-٢٠١

٥٠٩ - د. زكي مبارك : المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ١٧

٥١٠ - د. على الخطيب : المرجع السابق، ص ٦٧

٥١١ - الديوان، ص١٣٨

٥١٢ - الديوان ١٣٨

٥١٣ - الديوان، ص ١٣٨

٥١٤ - الديوان، ص ٨١

٥١٥ - ممدوح حقي : تعليق على الهامش في الديوان، ص ٥٠

٥١٦ - الديوان ص ٥٠

٥١٧ - الديوان ص ١٣١

٥١٨ - الديوان ص ١٣١

٥١٩ - الديوان ص ١٥٢-١٥٣

٥٢٠ - د. بكري شيخ أمين المرجع السابق ص ٢٥٥

٥٢١ - د. عبدالله الركيبي المرجع السابق ص ٦٨

٥٢٢ - الديوان ص ١٣٣

٥٢٣ - الديوان ١٣٤

٥٢٤ - حاجر: مكان في الحجاز يكثر ذكره في شعر المتشوقين إلى الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم

٥٢٥ - الديوان ص ١٣٤-١٣٥

٥٢٦ - سلع: جبل بالحجاز

٥٢٧ - العقيق: حجر كريم أحمر، العقيق : وادٍ بالحجاز

٥٢٨ - الديوان ص ١٣٥

٥٢٩ - المتكفف: الطالب المستعطي

٥٣٠ - المدنف : المتهالك في حبه

٥٣١ - المثقف : الطريح من جرحٍ أو مرض أو طعنة

٥٣٢ - الديوان ١٣٦-١٣٧

٥٣٣ - الديوان، ص ١٧٠

٥٣٤ - الديوان ص ١٧١

٥٣٥ - الأمير عبدالقادر الجزائري: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل - تحقيق وتقديم د.ممدوح حقي مكتبة الخانجي القاهرة ص ٢٨

٥٣٦ - عبدالحميد حاجيات: الأمير عبدالقادر وإنتاجه الأدبي - مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر ١٩٨٣ ص ٩٢

٥٣٧ - ذكرى الغافل التقديم ص ٧

٥٣٨ - الأمير عبدالقادر المصدر نفسه ص ٢٨

٥٣٩ - قسم مثلا الباب الأول : في العلم والجهل إلى : فضل العلم والعلماء - تعريف العقل - تكملة القوى الأربع - تنبيه العقل المدرك

٥٤٠ - ممدوح حقي - مقدمة الكتاب ص ٨ -٩

٥٤١ - الأمير عبدالقادر الجزائري المصدر نفسه ص ٣١

٥٤٢ - نفسه ص ٣١

٥٤٣ - الأمير عبدالقادر نفسه ص ٥

٥٤٤ - نفسه ص ٣٦

٥٤٥ - نفسه ص ٦٩

٥٤٦ - نفسه ص ٧٣ - ٧٤

٥٤٧ - نفسه ص ٧٣

٥٤٨ - نفسه ص ٧٣

٥٤٩ - نفسه ص ٨٥

٥٥٠ - نفسه ص ٧٧

٥٥١ - الأمير عبدالقادر المصدر نفسه ص ٧٧

٥٥٢ - نفسه ص ٧٨ -٧٩

٥٥٣ - نفسه ص ٨٥

٥٥٤ - نفسه ص ١٠٥

٥٥٥ - نفسه ص ١٠٣

٥٥٦ - الأمير عبدالقادر نفسه ص ١١٧

٥٥٧ - نفسه ص ١٢٤

٥٥٨ - نفسه ص ١٢٩

٥٥٩ - نفسه ص ١٢٩ -١٣٠

٥٦٠ - الأمير عبدالقادر المصدر نفسه ص ١٣١ وما بعدها

٥٦١ - نفسه ص ١٣٦

٥٦٢ - المصدر السابق ص ١٥٣

٥٦٣ - نفسه ص ١٥٦ - ١٥٧

٥٦٤ - نفسه انظر: فضل العلم والعلماء ص ١٥٦ - ١٥٧

٥٦٥ - الأمير عبدالقادر الجزائري : المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد - دار مكتبة الحياة بيروت لبنان د.ط - د.ت المقدمة ص٦

٥٦٦ - نفسه ص ٩

٥٦٧ - سورة الزمر آية ٩

٥٦٨ - المقراض الحاد: ص ٢٤-٢٥

٥٦٩ - الأمير عبدالقادر : المقراض الحاد ص ٢٦ -٢٧

٥٧٠ - نفسه ص ٣٤

٥٧١ - نفسه ص ٣٤

٥٧٢ - نفسه ص ٣٩

٥٧٣ - نفسه ص٤١

٥٧٤ - الأمير عبدالقادر المصدر نفسه ص ٧٠ - ٨٨

٥٧٥ - نفسه ص ٩٠

٥٧٦ - نفسه ص ٩٢

٥٧٧ - المصدر نفسه ص ٧٨ - ٨٠

٥٧٨ – نفسه ٩٤ – ١٢٤

٥٧٩ – نفسه ص ١٣٣ وما بعدها

٥٨٠ – نفسه ص ١٣٣

٥٨١ – نفسه ص١٥٢

٥٨٢ – نفسه ص ١٥٧

٥٨٣ – نفسه ص ١٦٣

٥٨٤ – نفسه ص ١٦٥ – ١٦٦

٥٨٥ – المصدر نفسه ص ١٧٢ / ١٧٣

٥٨٦ – نفسه ص ١٧٥

٥٨٧ – المصدر نفسه ص ١٨٧

٥٨٨ – نفسه ص ١٨٩

٥٨٩ – نفسه ص ١٩٥

٥٩٠ – الصدر نفسه انظر: ص ٢٢٦– ٢٢٩

٥٩١ – نفسه ص ٢٤٣

٩٥٢ – نفسه انظر: ٢٤٧ – ٢٥٥

٥٩٣ – الأمير عبدالقادر : مذكرات الأمير عبدالقادر – شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر ط ٣ – ١٩٩٨ تقديم د عبدالمجيد مزيان ص١٠

٥٩٤ – نفسه ص ١٠

٥٩٥ – نفسه تصدير د.أبو القاسم سعد الله ص ٥

٥٩٦ – نفسه ص ٥٣

٥٩٧ – نفسه ص ٦

٥٩٨ – نفسه ص ٣٣

٥٩٩ – الأمير لم يصرح باسم مكاتبه هذا وإنما اكتفى بالإشارة الى أنه من بعض أساقفة النصارى فكناه مرة بعبدالله فلان ونعته مرة بالبطريق أنظرص١٩

٦٠٠ – مذكرات الأمير ص ٢٢

٦٠١ - المذكرات ص ٣٥
٦٠٢ - نفسه ص ٤٠
٦٠٣ - المذكرات ص ٤٢
٦٠٤ - نفسه ص ٦٢ - ٦٣
٦٠٥ - نفسه ص ٧٩
٦٠٦ - نفسه ص ٦٥
٦٠٧ - نفسه ص ٦٥
٦٠٨ - المذكرات انظر: ص ٧٤ - ٨٣
٦٠٩ - المذكرات ص ١٩٩
٦١٠ - نفسه ص ١٢٢
٦١١ - نفسه ص ٢٠٩
٦١٢ - نفسه انظر: ص ٢١٠
٦١٣ - المذكرات ص ٢٦٤
٦١٤ - نفسه ص ٢٦٨
٦١٥ - نفسه ص ٢٨٣
٦١٦ - المذكرات ص ٢٨٦
٦١٧ - نفسه ص ٢٦٠
٦١٨ - نفسه ص ٣٠٣
٦١٩ - نفسه ص ٢٨٨
٦٢٠ - المذكرات ص ٢٩٣
٦٢١ - نفسه ص ٢٩٣
٦٢٢ - نفسه ص ٣٠٤
٦٢٣ - نفسه ص ٣٠٤
٦٢٤ - نفسه ص ٣١٠
٦٢٥ - نفسه ص ٣١٤

٦٢٦ - نفسه د. عبدالمجيد مزيان التقديم ص ١٠

٦٢٧ - محمد السيد الوزير: الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه ص ٧٩-٨٠

٦٢٨ - الأمير عبدالقادر الجزائري كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد - دار اليقظة العربية دمشق -١٩٦٦ ط ٢ مج١ ص٢

٦٢٩ - بوعبدالله غلام الله: وقفة على كتاب المواقف - مجلة مسالك - مؤسسة الأمير عبدالقادر ١٩٩٨ ص ١٠٧

٦٣٠ - محمد بن عبدالجبار بن الحسن النفري: كتاب المواقف، ويليه كتاب المخاطبات عناية وتصحيح إرثر يحنى إربري نشر مكتبة الكلية الأزهرية وهو يتضمن أربع مواقف: موقف العز موقف الرفق موقف ما وراء الموقف وموقف قلوب العارفين وكل موقف يبدأ بقوله أوقفني.

٦٣١ - محمد بلغراد: الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبدالقادر مجلة الثقافة الجزائر ع ص ٥٩ -٦٠

٦٣٢ - محمد بلغراد نفسه ص ٦٩

٦٣٣ - بوعبدالله غلام الله: المرجع السابق ص ١١

٦٣٤ - الأمير عبدالقادر المواقف مج ١ ص٩

٦٣٥ - الأمير عبدالقادر، المواقف جزء ١ ص٢٠

٦٣٦ - نفسه مج ١ ص ٢٦

٦٣٧ - نفسه مج١ ص ٢٦

٦٣٨ - نفسه مج ٢ ص ٨٠٦ - ٨٠٧

٦٣٩ - إدريس الجزائري: الحياة الروحية للأمير عبدالقادر - مجلة مسالك - مؤسسة الأمير عبدالقادر الجزائر ص ١١

٦٤٠ - محمد بلغراد: الجانب الثقافي والصوفي في حياة الأمير عبدالقادر - مجلة التاريخ المركز الوطني للدراسات التاريخية - الجزائر عدد خاص ص ٦١

٦٤١ - أبو حيان التوحيدي : الإشارات الإلهية تحقيق وتقديم د . عبدالرحمان بدوي وكالة المطبوعات، دار القلم بيروت ط ١ - ١٩٨١ -ص ٣٤

٦٤٢ - الأمير عبدالقادر المواقف مج ١ -ص ٩٤

٦٤٣ - نفسه مج ١ - ص ٢٦

٦٤٤ - نفسه مج ١ ص ١٥٩

٦٤٥ - نفسه مج ١ ص ١٥٩

٦٤٦ - نفسه مج ١ ص ١٥٩

٦٤٧ - نفسه مج ٢ ص ٧٤٣

٦٤٨ - نفسه مج ٢ ص ٥٢٣

٦٤٩ - نفسه مج ٢ص ٥٢٣

٦٥٠ - نفسه مج ٢ ص ٥٢٣

٦٥١ - نفسه مج ٢ ص ٥٢٤

٦٥٢ - نفسه مج ٢ ص ٥٢٥

٦٥٣ - المواقف مج ٢ ص ٧٧١ -٧٧٢

٦٥٤ - نفسه مج ٢ ص ٨٠٧

٦٥٥ - المواقف مج ٢ ص ٨٠٩

٦٥٦ - نفسه مج ٢ ص٨٠٩

٦٥٧ - نفسه مج ٢ ص ٨٠٩

٦٥٨ - تفسه مج ٣ ص ١١٠٧

٦٥٩ - نفسه مج ٣ ص ١١٠٦

٦٦٠ - نفسه مج ٣ ص ١٠١٦

٦٦١ - بفسه مج ٣ ص ١٠١٦

٦٦٢ - نفسه مج ٣ ص ١٠١٦

٦٦٣ - المواقف مج ٣ ص ١٠١٧

٦٦٤ - عبدالحميد حاجيات : الأمير عبدالقادر وانتاجه الأدبي، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية في الجزائر، عدد خاص ١٩٨٣، ص٨١

٦٦٥ - عثمان موافي: في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم والحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٤، ص٥٠ .

٦٦٦ - ولد محمد شاميل أو شامل أو شمويل سنة ١٧٩٩ بداغستان في المنطقة الشرقية من القفقاز، وساهم في المقاومة ضد الجيش الروسي، ثم أختير أميراً وإماماً ليواصل الجهاد مثلما وقع للأمير عبدالقادر، فنظم الدولة والجيش وعين النواب وطبق الشريعة الإسلامية في الأحكام، وكان ذا شخصية قوية صارمة، غير أن تفوق الجيش الروسي لم يسمح له بمواصلة الجهاد، رغم كل ما بذله من صبر وشجاعة فقرر وقف الحرب، ونقل منفياً إلى كالوغا قريباً من موسكو بعد ٢٥ سنة من المقاومة، ثم أطلق سراحه سنة ١٨٦٩ فتوجه إلى الحجاز، وتوفي بالمدينة المنورة يوم ١٤ فبراير ١٨٧١، وللمزيد من الاطلاع انظر: د. أبوعمران الشيخ: مراسلة الأمير عبدالقادر مع الإمام شامل من القوقاز، مجلة الثقافة، عدد خاص، ١٩٨٣/٧٥، ص ١٦٩.

٦٦٧ - فضيلة تكور، فاطمة الزهراء جديد، بختة ابراهيم ـ تعليق حول نداء الأمير عبدالقادر لأهل فجيج، مع وثيقة النداء، مجلة التاريخ،عدد خاص،ص٩٩.

٦٦٨ - فضيلة تكور، وآخرون، نفسه ص٩٩.

٦٦٩ - نفسه ص ٩٩ .

٦٧٠ - سورة التوبة الآية ٣٨ .

٦٧١ - مجلة التاريخ، ص ٩٩-١٠٠

٦٧٢ - نفسه، ص ١٠٠

٦٧٣ - نفسه، ص ١٠٠

٦٧٤ - مجلة التاريخ ص ١٠٠

٦٧٥ - اسماعيل العربي : العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبدالقادر – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨٢ ص٢٧٨

٦٧٦ - YENICHRIوهي كلمة تركية تعني الجنود الأتراك الذين وفدوا على الولايات المغربية وشكلوا بذلك وحدات الجيش البري والبحري خلال وجود الأتراك بهاته البلدان .

٦٧٧ - اسماعيل العربي : المرجع السابق ص ٢٧٩،والثقافة عدد خاص ص ٢٢

٦٧٨ - مجلة الثقافة: ص٢٤ الشكل رقم ٦

٦٧٩ - نفسه ص ٢٤ شكل رقم ٦

٦٨٠ - مجلة الثقافة: ص ٢٤ شكل ٢

٦٨١ - نفسه ص ٢٥ شكل ٢

٦٨٢ - مجلة الثقافة: ص ٢٧ شكل رقم ٨

٦٨٣ - إشارة إلى رسالته إلى السلطان عبدالمجيد خان، انظر: مجلة الثقافة ص ٢٠ وما بعدها

٦٨٤ - مجلة الثقافة: ص ٢٧ شكل رقم ٨

٦٨٥ - اشارة إلى زوال حكم العثمانيين من البلاد مع بداية الغزو الفرنسي لها

٦٨٦ - مجلة الثقافة: ص ٢٧ شكل رقم ٨

٦٨٧ - مجلة الثقافة: ص ٢٧ شكل رقم ٨

٦٨٨ - مجلة الثقافة: ص ١٥٩ شكل رقم ٢

٦٨٩ - مجلة الثقافة: ص ١٥٩ رقم ٢

٦٩٠ - مجلة الثقافة: ص ١٦١ شكل رقم ٤

٦٩١ - نفسه ص ١٦١

٦٩٢ - مجلة الثقافة: ص ١٦١ الشكل رقم ٤

٦٩٣ - نفسه ١٦١

٦٩٤ - محمد بن عبدالقادر: تحفة الزائر ج ٢، ص ٧٨٣

٦٩٥ - محمد بن عبدالقادر: المصدر السابق ج ٢ ص ٨٧٣

٦٩٦ - نفسه ج ٢ ص ٧٨٣

٦٩٧ - الثقافة ص ١٧٠ شكل رقم ٥

٦٩٨ - نفسه

٦٩٩ - الثقافة ص ١٧٠ شكل رقم ١

٧٠٠ - د.أبو عمران الشيخ : مراسلة الأمير عبدالقدر مع الإمام شامل من القفقاز، مجلة الثقافة ص ١٦٩

٧٠١ - انظر: نص رسالة الشيخ شامل إلى الأمير عبدالقادر في تحفة الزائر ج ٢ ص ٦٦٢ - ٦٦٣ .

٧٠٢ - انظر: تفاصيل هذه الحادثة في هذا البحث ص ١٢٩ وما بعدها

٧٠٣ - محمد بن عبدالقادر: تحفة الزائر ج ٢ ص ٦٦٣

٧٠٤ - نفسه

٧٠٥ - محمد بن عبدالقادر: المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٦٣

٧٠٦ - ابو عمران الشيخ مراسلة الأمير عبدالقادر مع الإمام شامل مجلة الثقافة ص ١٧٣

٧٠٧ - محمد بن عبدالقادر نفسه ج ٢ ص ٣١٦

٧٠٨ - محمد بن عبدالقادر : المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٧

٧٠٩ - محمد بن عبدالقادر: المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٧

٧١٠ - نفسه

٧١١ - نفسه ج ١ ص ٣١٧

٧١٢ - محمد السيد الوزير : الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه ص ٥٧

٧١٣ - محمد السيد الوزير المرجع نفسه

٧١٤ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق ج ١ ص ١٧٧

٧١٥ - محمد بن عبدالقادر المصدر نفسه ج ١ ص ١٧٧

٧١٦ - نفسه ج ١ص ١٧٨

٧١٧ - محمد بن عبدالقادر : نفسه ج ١ ص ١٧٨

٧١٨ - محمد بن عبدالقادر : الممصدر السابق ج ١ ص ١٧٨

٧١٩ - نفسه ج ١ ص ١٧٩

٧٢٠ - محمد بن عبدالقادر : نفسه ج ١ ص ١٧٩

٧٢١ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق ج ١ ص ١٧٩

٧٢٢ - نفسه ج ١ ص ٣٩٦

٧٢٣ - محمد بن عبدالقادر : نفسه ج ١ ص ٣٩٦

٧٢٤ - محمد بن عبدالقادر نفسه ج ١ ص ٣٩٦ - ٣٩٧

٧٢٥ - محمد بن عبدالقادر نفسه ج ١ ص ٣٩٨

٧٢٦ - يحيى بو عزيز، ميكيل دوا يبالزا : الجديد في علاقات الأمير عبدالقادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية . دار البعث للطباعة والنشر - الجزائر ط ١ ١٩٨٢ ص٤٩

٧٢٧ - يحيى بو عزيز : ميكاييل دوا يبالزا : المرجع السابق ص ٤٩ - ٥٠

٧٢٨ - المرجع السابق ص ١٠

٧٢٩ - اسماعيل العربي : العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبدالقادر ص ٢٦١

٧٣٠ - اسماعيل العربي : العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبدالقادر ص ٢٦٢

٧٣١ - محمدبن عبدالقادر :تحفة الزائر ج٢ ص ٧٨٠

٧٣٢ - نفسه ج ٢ ص ٧٨٠

٧٣٣ - محمد طه الحاجري : جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر ص ٥٠ - ٥١

٧٣٤ - نفسه ص ٥٣

٧٣٥ - محمد بن عبدالقادر : تحفة الزائر ج٢ ص ٧٤٦

٧٣٦ - محمد بن عبدالقادر : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٤٧

٧٣٧ - نفسه ج ٢ ص ٧٤٧

٧٣٨ - المصدر السابق ج ٢ ص ٧٤٧ -٧٤٨

٧٣٩ - المصدر السابق ج ٢ ص ٧٤٦

٧٤٠ - المصدر السابق ج ٢ ص ٧٤٨ - ٧٤٩

٧٤١ - نفسه ج ٢ ص ٧٥١

٧٤٢ - محمد بن عبدالقادر : المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٥٢ -٧٥٣

٧٤٣ - محمد بن عبدالقادر : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٥٣

٧٤٤ - د. عثمان موافي : في نظرية الأدب "من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم والحديث، دار المعرفة الجامعية مصر ١٩٨٤ ص ٩٨

٧٤٥ - د.غنيمي هلال :النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة - دار العودة لبنان ص ٣٧٧

٧٤٦ - سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه - دار الشروق بيروت ص ٣٦

٧٤٧ - انظر: د. غنيمي هلال المرجع السابق ص ١٧٤

٧٤٨ - د. عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية دار العودة بيروت ط ٣ ١٩٨١ ص١٧٤

٧٤٩ - د. أحمد كمال زكي: النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ص ١٧٤

٧٥٠ - زكريا صيام : الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبدالقادر - مجلة الثقافة عدد خاص ص ٢٩٨
٧٥١ - الديوان : ص ٤٥
٧٥٢ - الديوان ص ٦٤ - ٦٥
٧٥٣ - الديوان ص ١٦٣
٧٥٤ - بكري شيخ أمين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني - دار الآفاق الجديدة بيروت ط ٣ ص ٣١٦
٧٥٥ - رمضان حمود: بذور الحياة، طبعة تونس ١٩٢٨ ص١٢٥
٧٥٦ - الديوان ص ١٤٢
٧٥٧ - الديوان ص ٩٣
٧٥٨ - محمد ناصر: المصدر السابق ص ٢١٨
٧٥٩ - الديوان ص ٧٧
٧٦٠ - حسن البوريني وعبدالغني النابلسي : شرح ديوان ابن الفارض دار التراث بيروت ج ٢ ص ١٧٨
٧٦١ - الديوان ص ١٩٤
٧٦٢ - شرح ديوان ابن الفارض ص ٩٩
٧٦٣ - الديوان ص ١٩٥
٧٦٤ - محمد السيد الوزير : الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه ص ١٩١ - ١٩٢
٧٦٥ - الديوان ص ٦٩
٧٦٦ - الديوان ص ١٤٨
٧٦٧ - الديوان ص ٦٧
٧٦٨ - د.محمد ناصر: المرجع السابق ص ٣٠٦
٧٦٩ - د.محمد مندور: الأدب وفنونه دار المعرفة القاهرة ص ٤٠
٧٧٠ - د. عزالدين اسماعيل : الأدب وفنونه دار الفكر العربي ط ٤ - ١٩٦٨ ص ٣٧
٧٧١ - ممدوح حقي : مقدمة الديوان ص ٦

٧٧٢ - الديوان ص ١٥٩

٧٧٣ - أبونواس (الحسن بن هانىء): الديوان - تحقيق وضبط وشرح أحمد عبدالمجيد الغزالي - دار الكتاب العربي بيروت ص ٢٨

٧٧٤ - الديوان ص ٣٨

٧٧٥ - أبو العلاء المعري: سقط الزند مطبعة بولاق ج ١ ص ٣٢

٧٧٦ - الديوان ص ١٨٠

٧٧٧ - الديوان ص ٢٠١

٧٧٨ - الديوان ص ١٣٠

٧٧٩ - الديوان ص ١٥٠

٧٨٠ - د.محمد رضوان الداية : أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس - مؤسسة الرسالة بيروت ط ١ -١٩٧٦-ص ٧٨

٧٨١ - الديوان ص ١٩٠

٧٨٢ - الديوان ص ٢٧

٧٨٣ - الديوان ص ٤٩

٧٨٤ - الديوان ص ١٩٨ - ١٩٩

٧٨٥ - ممدوح حقي: مقدمة الديوان ص ٥

٧٨٦ - الديوان ص ١٤١

٧٨٧ - الديوان ص ١٥١

٧٨٨ - د. زكريا صيام : الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبدالقادر، مجلة الثقافة ع ٧٥ - ص٢٩٢

٧٨٩ - الديوان ص ٢٠٨

٧٩٠ - الديوان ص ٢٠٥

٧٩١ - الديوان ص ١٨٧

٧٩٢ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ١٩٠

٧٩٣ - الديوان ص ١٤٥ - ١٤٦

٧٩٤ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ١٩٠

٧٩٥ - الديوان ص

٧٩٦ - الديوان ص١٨٦

٧٩٧ - ممدوح حقي، تعليق على الهامش، الديوان ص ١٨٦

٧٩٨ - أحمد أمين: النقد الأدبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢ -ج ١ - ص ٣٩

٧٩٩ - د. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية (١٩٢٥- ١٩٧٥) ص ٤٢

٨٠٠ - انظر : GRAND LAROUSSE ENCYCLOPEDIQUE T . 6 IMAGE .PARIS -1960

٨٠١ - د.محمد حسن عبدالله : الصورة والبناء الشعري دار المعارف القاهرة ١٩٨١ -ص ٣٣

٨٠٢ - عز الدين اسماعيل : التفسير النفسي للأدب، دار العودة، دار الثقافة بيروت ص ١٠٧

٨٠٣ - د.علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها دار الأندلس بيروت ط ٢ -١٩٨١ -ص ٣١- ٣٢

٨٠٤ - محمد بلقراد : الجانب الصوفي الثقافي في حياة الأمير عبدالقادر - مجلة التاريخ عدد خاص ص ٦١

٨٠٥ - د.علي البطل المرجع السابق ص ٣٠

٨٠٦ - كولردج : النظرة الرومانتيكية في الشعر: ترجمة عبدالحكيم حسان - دار المعارف - مصر ١٩٧١ -ص ٢٥١

٨٠٧ - عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٣٧ -ص ٧٤

٨٠٨ - عبدالحميد جيدة : الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر - مؤسسة نوفل بيروت ط ١ - ١٩٨٠ -ص ٣٣٣

٨٠٩ - عمر السوقي: الأدب الحديث - دار الكتاب العربي بيروت ط ٢ - ١٩٦٧ - ج ٢ -ص ٣١٣

٨١٠ - د.محمد مصطفى بدوي المرجع السابق ص ١٥٢ -١٥٣

٨١١ - د. أحمد عبدالسيد الصاوي : فن الاستعارة - دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة -١٩٧٩ -ص ٢٨٠

٨١٢ - ديوان عنترة: تحقيق وشرح عبدالمنعم الرؤوف شركة فن الطباعة القاهرة ص ١٤٥
٨١٣ - د. مصطفى ناصف : الصورة الأدبية - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط ٣ -١٩٨٣ -ص ٤٦
٨١٤ - إيليا حاوي : فن الوصف - دار الشرق الجديد بيروت ١٩٦٠ -ص ١٩٨
٨١٥ - الديوان ص ٣٥ -٣٦
٨١٦ - الديوان ص ٤٠
٨١٧ - د.محمد ناصر: المرجع السابق ص ٤٥٤
٨١٨ - الديوان ص ١٧٢ -١٧٣
٨١٩ - محمد ناصر: المرجع السابق ص ٤٥٦
٨٢٠ - نفسه ص ٤٦٤
٨٢١ - الديوان ص ١٧٧ - ١٧٨
٨٢٢ - الديوان ص ١٣٣
٨٢٣ - نفسه ص ١١١ - ١١٢
٨٢٤ - نفسه ص ٥٩ - ٦٠
٨٢٥ - د.بكري شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني،ص ١١٩
٨٢٦ - الديوان ص ٦٥
٨٢٧ - نفسه ص ٥٦
٨٢٨ - نفسه ص ٥٤
٨٢٩ - نفسه ص ٣٢
٨٣٠ - صالح خرفي: في ذكرى الأمير ص ٣٩
٨٣١ - نفسه ص ٢٦
٨٣٢ - الديوان ص ٤٥- ٤٦
٨٣٣ - أحمد الجندي الأمير الشاعر: مجلة الثقافة عدد خاص ص٣٢٠
٨٣٤ - الديوان ص ٤٩
٨٣٥ - الديوان ص ١٨٩

٨٣٦ - نفسه ص ١٩٩
٨٣٧ - د.علي الخطيب : اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي
٨٣٨ - د. بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٢٦٠
٨٣٩ - الديوان ص١٨٠-١٨٤
٨٤٠ - الديوان ١٨٨ .
٨٤١ - نفسه ١٨٧ .
٨٤٢ - الديوان ٣٠٢ .
٨٤٣ - محمود العقاد: شعراء مصر وبيآتهم في الجيل الماضى، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٣٧ ص ٧١١
٨٤٤ - د.شكري محمد عياد : موسيقى الشعر العربي دار المعرفة - القاهرة ١٩٦٥ ص٥٩
٨٤٥ - د.عثمان موافي : في نظرية الأدب ص ٦٣
٨٤٦ - محمد مندور : محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي - معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٨ ص ٧٤
٨٤٧ - د.عثمان موافي : المرجع السابق ص٢٤٥
٨٤٨ - د.محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ص ١٩٣
٨٤٩ - د.محمد السيد الوزير : الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته واثرها في أدبه ص ٢٦٦
٨٥٠ - د.ابراهيم أنيس: موسيقى الشعر مكتبة الإنجلومصرية ط٣ -١٩٦٥ ص ١٧٥
٨٥١ - د.عفيف عبدالرحمان : الشعر وأيام الحرب في العصر الجاهلي - دار الأندلس لبنان ط ١ - ١٩٨٤ ص ٣٥٦
٨٥٢ - الديوان ص ٢٤
٨٥٣ - نفسه ص ٦٣
٨٥٤ - نفسه ص٢٥
٨٥٥ - الديوان ص٥٣
٨٥٦ - نفسه ص ٣٥ -٣٦
٨٥٧ - د.حمد النويهي: الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه الدار القومية مصر ١٩٦٩ ج١ ص ٦١

٨٥٨ - الديوان ص١٢٨

٨٥٩ - الديوان ص٢٠٢

٨٦٠ - نفسه ص٦٠

٨٦١ - نفسه ص ١٤٨

٨٦٢ - د.محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص١٥١

٨٦٣ - الديوان ص١٨٣

٨٦٤ - الديوان ص١٨٥

٨٦٥ - نفسه ص١٤١

٨٦٦ - نفسه ص١٤٤

٨٦٧ - نفسه ص١٤٦

٨٦٨ - د.ممدوح حقي تعليق في الهامش الديوان ص ٢٤٠

٨٦٩ - الديوان ص ٢١٢-٢١٣

٨٧٠ - د.عثمان موافي : المرجع السابق ص٢٤٠

٨٧١ - الديوان ص١٥٧-١٥٨

٨٧٢ - د.ابراهيم أنيس موسيقى الشعر ص ٣٢-٣٣

٨٧٣ - الديوان ص١١١

٨٧٤ - نفسه ص١١٢

٨٧٥ - الديوان ص ١٨٤-١٨٥

٨٧٦ - د.محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (١٩٢٥-١٩٧٥) ص ١٩٧

٨٧٧ - محمد ناصر : نفسه ص ١٩٧

٨٧٨ - محمد السيد الوزير: الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، ص١٤٧.

٨٧٩ - طه حسين في الأدب الجزائري، دار المعارف ص١٠، مصر ١٩٦٩، ص٣٢٦

٨٨٠ - محمد السيد الوزير: الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه ص ٢٧١

٨٨١ - انظر: المقراض الحاد، وذكرى العاقل، والمواقف

٨٨٢ - محمد السيد الوزير نفسه ص ٢٦١

٨٨٣ - انظر: مثلا المقراض: شرف الإدراك العقلي ص ١٤ وتفاوت الإدراك وذكرى العاقل: تكملة القوى الأربع ص ٥١

٨٨٤ - الأمير عبدالقادر : ذكرى العاقل ص ٤٧ -٤٨

٨٨٥ - محمد السيد الوزير : الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه ص ٧٦

٨٨٦ - نفسه ص ٢٧٦

٨٨٧ - نفسه ص ٢٢٤

٨٨٨ - الأمير عبدالقادر الجزائري : المقراض الحاد ص ٩

٨٨٩ - نفسه ص ٣٣

٨٩٠ - نفسه ص ١٠

٨٩١ - الأمير عبدالقادر : ذكرى الغاقل ص ٦٤ - ٦٥

٨٩٢ - الأمير عبدالقادر : المقراض الحاد ص ٩٨ - ٩٩

٨٩٣ - مذكرات ص ١٢

٨٩٤ - نفسه ص ١٢

٨٩٥ - الأمير عبدالقادر المذكرات ص ١٣

٨٩٦ - محمد الصغير بناني: معلم شخصية الأمير عبدالقادر من خلال شعره -الثقافة س ١٦ ع ٩٠ - ١٩٨٦ ص ٩

٨٩٧ - نفسه ص ١٠

٨٩٨ - الأمير عبدالقادر المواقف مج ١ ص ١٠

٨٩٩ - د.محمد الصغير بناني المرجع نفسه ص ١١

٩٠٠ - عبدالرحيم بابا أحمد الأمير عبدالقادر وكتابه المواقف مجلة مسالك ص ١١٥ - ١١٧

٩٠١ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٢٤٠

٩٠٢ - محمد الصغير بناني معالم شخصية الأمير من خلال شعره - الثقافة ص ١١

٩٠٣ - محمد السيد الوزير المرجع السابق ص ٢٤٧

٩٠٤ - حمزة بلحاج صالح: منهج التغيير ومنظومة القيم - مسالك ص ١٣٣

٩٠٥ - محمد السيد الوزير: الأمير عبدالقادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه ص ٢٧٣.
٩٠٦ - نفسه: ص ٢٢١ - ٢٢٢.
٩٠٧ - نفسه: ص ٢٢٤.
٩٠٨ - مجلة التاريخ المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر عدد خاص، ص ١٩٩.
٩٠٩ - محمد بن عبدالقادر: تحفة الزائر، ج ٢، ص ٧٤٧.
٩١٠ - محمد بن عبدالقادر: نفسه، ج٢، ص ٧٥٣.
٩١١ - محمد السيد الوزير المرجع السابق، ص ٢٢٥.
٩١٢ - نفسه ص :
٩١٣ - محمد بن عبدالقادر: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٦٣.
٩١٤ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق، ج١، ص ٧٤٧ - ٧٤٨.
٩١٥ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق، ص، ٥٧.
٩١٦ - نفسه، ص ١٤٢ - ١٤٣.
٩١٧ - طه الحاجري: جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر، ص ٥١.
٩١٨ - محمد بن عبدالقادر: المصدر السابق، ج٢، ص ٧٥٣.
٩١٩ - المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٤٧.
٩٢٠ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ٨٠.
٩٢١ - محمد بن عبدالقادر: المصدر السابق، ج١، ص ٣٩٨.
٩٢٢ - مجلة الثقافة: وثيقة ٤، ص ١٦١.
٩٢٣ - محمد بن عبدالقادر: المصدر السابق، ج١ ص ٣٩٦ - ٣٩٧.
٩٢٤ - محمد السد الوزير، المرجع السابق، ص ٣٧٨.
٩٢٥ - مجلة التاريخ عدد خاص ص ٩٩.
٩٢٦ - نفسه ص ٩٩.
٩٢٧ - مجلة الثقافة ص ٢٧ شكل رقم ٨.
٩٢٨ - مجلة التاريخ ص ١٠٠.
٩٢٩ - محمد بن عبدالقادر المصدر السابق، ج١ ص ٣٢٧.

٩٣٠ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق، ص ٢٧٤.

٩٣١ - المرجع نفسه ص ٢٧٤.

٩٣٢ - نفسه، ص ٢٧٤.

٩٣٣ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ٢٧٤.

٩٣٤ - أحمد الشايب: الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية. ط ٢ - ١٩٥٦ - ص ١٨٦.

٩٣٥ - محمد بن عبدالقادر، المصدر السابق، ج١ - ص ١٧٨.

٩٣٦ - مجلة الثقافة ص ٢٤، شكل رقم ٢.

٩٣٧ - مجلة الثقافة ص ٢٤ شكل ٢.

٩٣٨ - عبدالباقي محمد حسين: سيد قطب حياته وأدبه، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط٢، ١٩٧٦و ص ٣٣١.

٩٣٩ - نفسه، ص ٣٣٢.

٩٤٠ - نفسه، ص ٣٣٢.

٩٤١ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

٩٤٢ - د. عثمان موافي: في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم والحديث، ص ٤٥.

٩٤٣ - محمد السيد الوزير: المرجع السابق ص ١٣٣.

٩٤٤ - محمد السيد الوزير: نفسه ص ١٣٥.

٩٤٥ - الجاحظ: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص ٧٥ - ٧٦.

٩٤٦ - د. طه الحاجري: المرجع السابق، ص ٥٣ ٠ ٥٤.

****

فهرس

****

استدراك

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
الغاضب	الغاصب	٧٠	الرابع
ومن عادت	ومن عادة	٧٧	الرابع قبل الأخير
الجزائرين	الجزائريين	٩٥	١٠
لذي	لدى	٩٦	السطر الأخير
الأدله – فعله – قسمه	الأدلة – فعلة – قسمة	٩٩	قافية الشاهد
أيد	أيدي	١٣١	الأول
تعإلى	تعالى	١٨٢	السطر السادس
سادا	ساد	١٨٦	سطر ١٥

****